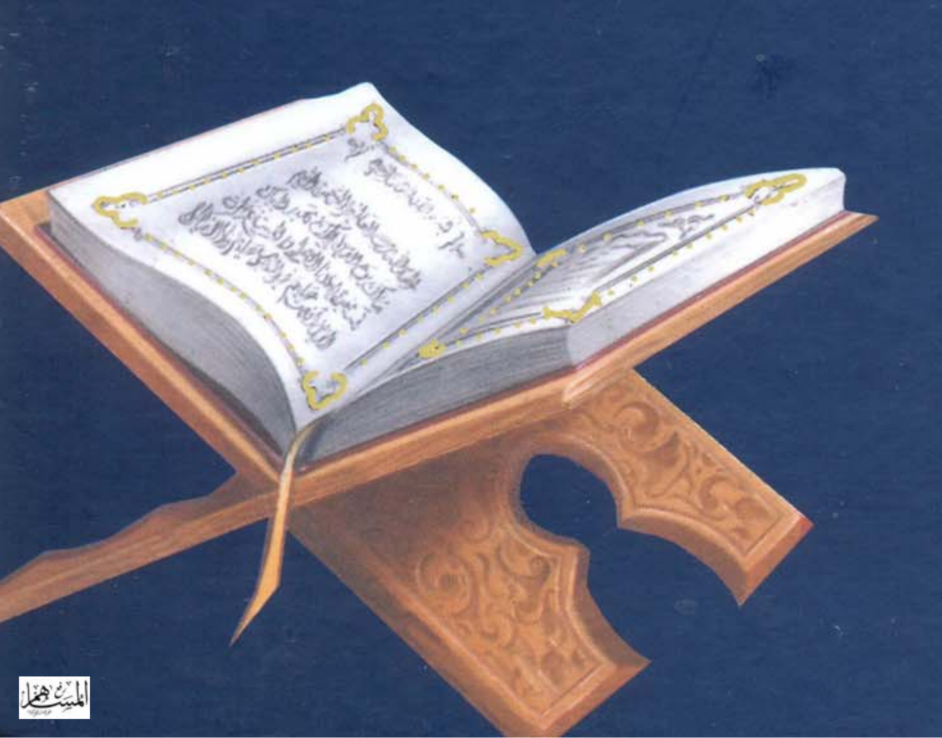
تحت راية العربية

بحوث ومقالات في العربيّة ورجالاتها

الدكتور محمد حسّان الطيّان

رئيس مقرّرات اللغة العربيّة بالجامعة العربيّة المفتوحة - الكويت









بحوث ومقالات في العربية ورجالاتها

الدكتور محمد حسان الطيان



الموضوع: اللغة العربية

العنوان: تحت راية العربية

التأليف: د. حسان الطيان

الإخراج: بهاء أنور القباني

الإشراف الطباعي: دار الثقافة والتراث

التنفيذ: مطبعة الشامل

عدد الصفحات: ٤٤٥ صفحة

قياس الصفحة: ٢١×٢٨

موافقة الطباعة: ٧٥٧ / ٩٥٢٣٤

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

الطبعة الأولى:
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨م

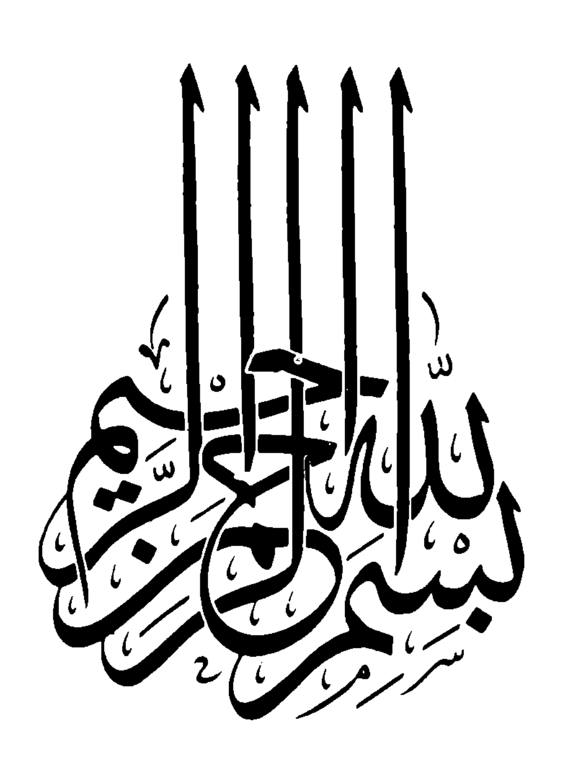
دار الثقافة والتراث

ص . ب: ٨٢٣٥ دمشق - سورية

هاتف: ٤٦٣٧١٢٣٢ - ٤٦٣٧١٢٣٣

فاكس: ٤٦٣٧١٢٣٠ - ٤٦٣٧١٢٣١

الموقع الإلكتروني: www.thakafawatursth.com


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى هذه النخبة من ركائز الأمة

العلامة الجليل والشاعر اللغوي الأديب محمد صالح الفرفور

وشيخ العربية في بلاد الشام الأستاذ أحمد راتب النفاخ

والأستاذ المتفنن في تعليم العربية عاصم بهجة البيطار

رحمهم الله وأعلى مقامهم

ورئيس مجمع اللغة العربية العلامة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام

حفظه المولى وأمتع به

فمنهم تلقّيت راية العربية

إِذا ما رايَةٌ رُفِعَت لِمَجدٍ   تَلَقّاها عَرابَةُ باليَمينِ

حسان

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف خلقه وخاتم رسله.

وبعد فهذه مباحث ومقالات أعد بعضها ليُلقى في ندوة من الندوات أو مؤتمر من المؤتمرات، وكتب بعضها لينشر في مجلة من المجلات أو دورية من الدوريات. على أنه يجمع بينها ويؤلف بين سَداها ولُحمتها حبُّ العربية والبحث فيها وفي تراثها وإحياء ذكر رجالاتها.

استمر العمل في هذه المقالات نحواً من عشرين عاماً، فقد أعدت وكتبت ونشرت في فترات متقطعة بدءًا من عام ١٩٨٥ وانتهاء بعام ٢٠٠٧. إنها جنًى من حصاد السنين، وثمرة من غراس البحث اللغوي، وهي - وإن تفرقت وتعددت واختلفت - تنزع عن قوس واحدة هي قوس العربية، وترمي إلى هدف واحد هو البحث في العربية، وتصبو إلى غاية واحدة هي رفع راية العربية. لذا تخيّرت لها عنوان (**تحت راية العربية**).

والعربية، أبدًا، مرفوعة الراية، عالية البنيان، حصينة الموقع، شامخة الرأس، كيف لا وقد شرفها المولى سبحانه بالقرآن الكريم، وكفى به شرفًا ومنزلة وعلوًا ورفعةً، إذ: ﴿نزل به الروح الأمين ❖ على قلبك لتكون من المنذرين❖ بلسان عربي مبين﴾. وهي محفوظة بحفظه، مكلوءة بذَراهُ وكنفه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وهي جميلة بجماله، بديعة بنظمه، معجزة بإعجازه.

إنَّ الـذي مـلأَ اللغـاتِ محاسـنًا جعـلَ الجمـالَ وسِـرَّهُ في الضَّـادِ

وإنما يشرف الناس بحمل رايتها، والذود عن حياضها، والاتشاح بوشاحها. إنها تاج على هامة كل من سنَّى له الله خدمتها، وحسبي أن أعدَّ فيمن يحظى بهذا الشرف الباذخ.

وعلى أنه يمكن تقسيم هذه المقالات قسمين كبيرين ينتمي كل منهما إلى نوع من أنواع البحث والكتابة.

أما النوع الأول: فهو البحث اللغوي ويصلح أن يندرج تحت عنوان (من ثمرات البحث اللغوي) لأن معظمه يصطبغ بهذه الصبغة سواء كان يبحث في علم القراءات والأصوات، كـ (دفاع عن التيسير، والقراءات القرآنية وعلاقتها بالأصوات واللهجات، وعلم الأصوات عند العرب) أو يعرض لقضية التعريب كـ (فلنحمل راية التعريب... والعلوم التطبيقية خطوة لتوطين العلوم..) أو يخوض في دقائق فقه اللغة كـ(الشاعر الأميري وكلمة بابا) أو يتناول فن الصرف والإحصاء الحاسوبي كـ (ما بني من الأفعال على حرف واحد) أو يحيي فن العروض كـ (إحياء العروض.. ، ووقفة عروضية مع كاظمة وأخواتها) أو ينحو نحو الحاسوب كـ (تعلم قواعد اللغة العربية بالحاسوب.. ، والمؤتمر الثاني حول اللغويات الحسابية العربية). أو يتحدث في المخطوط كـ (منهجية تحقيق المخطوطات). أو ينشر فنًّا من فنون الشعر كـ (ذات القوافي).

وأما **النوع الثاني** فهو يختص برجالات العربية ويصلح أن يندرج تحت عنوان (ركائز من أعلام الأمة) والركائز ما يرتكز عليه، والركيزة القطعة من جواهر الأرض المركوزة فيها، ولكل أمة ركائزها التي تقوم عليها، وتحيا بها، ولولا هذه الركائز لانهار بنيان الأمة وغدت ريشة في مهب الريح. فالناس كما روي عن رسول الله ﷺ: "كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة" وهذه الركائز هي العقول المتميزة التي شاء الله سبحانه أن يحفظ بها الأمة من الضياع، وأن تكون مصابيح يُهتدى بها.. ومنائر يُقبس منها.. ونجومًا يُرنى إليها.. "مثل العلماء مثل النجوم في السماء، من تركها ضلَّ، ومن غابت عنه تحيَّر".

ومن تدبَّر في تاريخ هذه الأمة وجد هؤلاء الأعلام في كل عصر من عصورها ومصر من أمصارها، لا يكاد يخلو منهم زمن، ولا يفتقدهم المرء في مصر، فهم أبدًا كالغيث يحيي الأرض، وينبت الكلأ، ويبشِّر بالجنى الطيب، كلما مضى منهم جيل خلفه جيل يحمل الراية ويكمل المسيرة.

إذا سيِّدٌ منهم خلا قامَ سيدٌ ... قؤولٌ لِما قال الكرامُ فعولُ

إن الأمة التي أنجبت **الداني والمالقي وابن الدريهم وابن دنينير** في غابر أيامها استطاعت أن تنجب **محمود شاكر وأحمد راتب النفاخ وشاكرالفحام ومحمودالطناحي وعبد الحميد البسيوني وعبد القادرالأرنؤوط وشعيب الأرنؤوط** في حاضر أيامها، وهي قادرة بإذن ربها على أن تنجب العظماء والكبراء.. والعلماء والحكماء في مستقبل أيامها.. لتكون كما وصفها بارئها سبحانه: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ وكما نعتها رسولها الكريم ﷺ: "أمتي كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره".

لله درُّ رجالٍ قد مضَوا ولهم ذكرٌ يفوح كنشْرِ المَنْدَلِ العَطِرِ

❖ ❖ ❖

هذا وقد آثرت أن أرتب هذه المقالات على اختلاف نوعيها وتباين موضوعاتها وفق تاريخ كتابتها أو نشرها، كيما أحافظ على التطور الزمني في أسلوبها والأسلوب هو الرجل فكل واحدة منها قطعة مني في ذلك الزمن، وأنا أحب أن أرى كل قطعة كما كتبتها في زمانها، وأن يشركَني القارئ في ذلك، لأجل هذا حافظت على صورة كل منها كما كتبت آنذاك، ولم أتدخل بالتعديل أو الحذف أو التغيير برغم ما كان يساورني من رغبة في مثل هذا التعديل وفاقًا لما قاله القاضي الفاضل قي رسالته إلى العماد الأصفهاني: "إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، و لو زيد هذا لكان يستحسن، و لو قدم هذا لكان أفضل، و لو ترك هذا لكان أجمل، و هذا من أعظم العبر، و هو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

❖ ❖ ❖

والحق أن هذه المقالات ـ بنوعيها اللذين ذكرت ـ تدين بكثير من الفضل والولاء للأمكنة التي عنها صدرْتُ في كتابتها، أو منها قَبَسْتُ بعض فصولها وفقراتها، أو فيها لمعَتْ بارقتها وغُرست بَذْرتها.

ولا ريب أن الكثرة الكاثرة منها تدين إلى مركز الدراسات والبحوث العلمية بدمشق الذي أكل سِنِي العمرِ إذ لبثت فيه نحوًا من عشرين عامًا، انخرطت خلالها في فريق عمل عزَّ نظيره،

أسَّس بنيانه وأشرف على بداياته أستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ رحمه الله تعالى، وتابع الإشراف عليه الدكتور محمد مراياتي مدير المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا، ورأسه الأخ الحبيب الأستاذ العميد مروان البواب، وكان من أبرز أركانه الأخ الصديق الدكتور يحيى مير علم وكاتب هذه السطور.

وهي كذلك تدين بفضل كبير لمجمع اللغة العربية بدمشق، الذي وجدت في مجلته الأرض العَذاةَ لغرسها وحصادها، ووجدت من رئيسه الأستاذ الدكتور شاكر الفحام أمتع الله به كل دعم وتشجيع، بل لقد حظيت منه بما يتجاوز الدعم والتشجيع إلى التقويم والتدقيق والرفد بكل مفيد وجديد.

وإن أنس لا أنس قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، وقسم التخصص في معهد الفتح الإسلامي ـ فرع جامعة الأزهر ـ حيث كنت ألقي محاضراتي في اللسانيات والعروض وأصول النحو والبحث اللغوي، وألقى من بريق العيون ولمعانها، وذكاء القلوب واتقادها، وصفاء النفوس وحبها ما يبعث على البحث ويغري بالتنقيب والتنقير، بل ما يصبو إليه كل محاضر في محاضرته وكل معلم في طلبته، إذ كنت ألمح في عيونهم مصداق مقولة ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: "حدِّث القوم ما حدجوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترة فأمسك" وقلَّما كنت أرى منهم فترة، أو أرى فيهم من يملّ.

ثم ماذا؟... لقد أتاح لي التحاقي بجامعة الكويت والجامعة العربية المفتوحة بالكويت بعض التفرغ، وأغناني بعض الغَناء، وإن كان ممزوجًا بكثير من العَناء، لما فيه من الغربة وبعد الشقة وفرقة الأحباب.

ربَّ خفضٍ تحت السُّرى وغَناءٍ ... في عَناءٍ ونَضرةٍ في شحوبِ

و لعمري لقد صدق من قال:

ولوفاز الغريبُ بمُلكِ كسرى ... و نالَ من العلا أقصى مُرادِهْ

لباتَ و قلبُهُ في حرِّ نارٍ ... لتربةِ أهلِهِ وهوا بلادِهْ

لذلك تجدني دائم الترداد لأبيات أستاذ أساتيذنا الدكتور أمجد الطرابلسي غريب المغرب الأقصى رحمه الله :

نـأيتُ عـن الدار لا عن قِـلًى	فأحــلى مــغاني الفتــى دارُهُ
ولكـنني ســـرتُ يحتـثـّـني	طمـوح الشباب وأوطـــارُهُ
تخيرت بعـدي و لـو أنـــني	هُـــديت لمـــاكنت أختـــارُهُ

ولا أستطيع هنا أن أغفل دور الندوات والمؤتمرات التي دعيت إليها ، وكان لها أكبر الأثر في كتابة بعض بحوث هذا الكتاب.

فإلى كل هذه المؤسسات العلمية ممثلة بمديريها ورؤسائها ومن نعمت بصحبته فيها أرفع خالص شكري وثنائي ، راجيًا أن يجدوا في هذا الجهد المتواضع صدى محبتهم وتشجيعهم ، وأن يحظى لديهم بالقبول والدعاء.

ولا بد لي أخيرًا من التنويه بثلة من أصحابي جمعني وإياهم الاغتراب ، فكنا نختلس من يد الدهر ساعات نفيء فيها إلى العربية نتذاكر شؤونها ونقرأ بعض كتبها وعلومها ، وكان لإلحاحهم في طلب بعض هذه المقالات أكبر الأثر في دفعي إلى جمعها وإعادة طبعها ، أخصُّ منهم بالذكر الأخ الكريم الأستاذ فراس ويس الباعث وراء هذه الفكرة ، والأخ الكريم الأستاذ أحمد حجازي الذي نفذها وبث فيها من روحه ، و الأخ الحبيب الأستاذ رامز القباني الذي قرأه وصحح بعض فوائته.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الكويت ١٣ /ذو القعدة/١٤٢٨
٢٣/تشرين الثاني/٢٠٠٧

محمد حسان الطيان
hassantayyan@yahoo.com



رسالة يعقوب الكندي في اللثغة

رسالة يعقوب الكندي في اللثغة ❖

(النص المحقق)

مقدمة

اللثغة مرض من أمراض الكلام التي عُنيت بها الدراسات اللغوية الحديثة (اللسانيات) وأصبح لها شأن كبير في مجال الصوتيات التجريبية، حتى لقد أحدثت أقسام خاصة في الجامعات العالمية لدراسة ظواهراها والتخصص بها[١]. ولقد كان لعلماء العربية مشاركة في هذا الباب إلا أنها على ما يبدو اندثرت وضاعت مع ما ضاع من كنوز تراثنا، ولم يبق منها إلا آثار تدل عليها، كالذي في البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد[٢]. وقد أتيح لي مؤخراً أن أقف على رسالة مخطوطة متخصصة بهذا الفن ـ أعني اللثغة ـ وضعها فيلسوف العرب يعقوب بن إسحاق الكندي، ولا أعلم أحداً خصَّ هذا الفن برسالة سوى الكندي.

وقد تكشف لنا قادمات الأيام عن مؤلفات أخرى تنحو هذا النحو، إلا أن رسالة الكندي هذه تبقى على غاية الأهمية لقدمها من جهة إذ يعود تأليفها إلى القرن الثالث الهجري، وتخصصها بهذا الجانب من العلوم دون سواه من جهة أخرى[٣].

❖ نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦٠، الجزء ٣ (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

(١) وكانت جامعة الجزائر أول جامعة عربية قفت أثر الجامعات العالمية في هذا، ففي معهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لها تخصص يمنح بموجبه خريج الطب درجة الماجستير في علم أمراض الكلام بأحد فرعيه: السمعي الصوتي، أو اللساني الكلينيكي.

(٢) انظر كتاب العربية ليوهان فك ترجمة د. رمضان عبد التواب. فقد تتبع فيه المؤلف مواضع ذكر اللثغة في كتب المتقدمين. ص١٢٢ وما بعدها. وانظر البيان والتبيين ١/١٤ وما بعدها، وص ٣٤ ـ ٤٠. وانظر الكامل للمبرد: ٣/١٩٢، والكتاب لسيبويه ٤/٤٥٣.

(٣) ولعل من المفيد أن أذكر أن لها نسخة وحيدة في العالم تسنى لي الاطلاع عليها في المكتبة السليمانية باصطنبول، فصورتها مع مجموعة من رسائل الكندي. وقد وهم بروكلمان أو المترجم في تسميتها فدعاها: "رسالة في اللغة" وهي "رسالة في اللثغة" انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية): ٤/١٣٦.

ودع ذا فإن مؤلفها نهج فيها نهجاً فريداً في وصف حروف العربية، وتتبع هيئات النطق بها، وما يعترض ذلك من حركات وسكنات، هذا النهج يعيد إلى الأذهان عمل الشيخ الرئيس ابن سينا في رسالته أسباب حدوث الحروف[١]، ولعل ابن سينا صدر في رسالته تلك عن عمل الكندي في رسالته هذه، إلا أن وصف ابن سينا لمخارج الحروف كان أقرب إلى وصف الطبيب المشَرِّح، في حين برز في وصف الكندي عمل الفيلسوف وفي كلٍّ خير.

ويتضح لنا مدى الصلة بين كلا الرجلين إذا علمنا أن المجموع الذي وجدت فيه رسالة الكندي عليه تملُّك منسوب إلى ابن سينا هذا نصه: "هذا الكتاب كان لأبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وصنف من رسائل كثيرة والله أعلم". بل إن الأمر ليتعدى التملّك إلى ما هو أهم منه أعني الناسخ الذي نسخ المخطوط فقد كتب تحت العبارة السابقة بخط مغاير ما نصه: "وذكر أن هذا الخط خط الشيخ الرئيس حجة الحق شرف الملك أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا رحمه الله.." ثم كررت هذه العبارة أيضاً بشكل عرضي وبخط جميل إلا أنه ممسوح غير بيّن.

أردت أن أخلص من كل ذلك إلى أن الرسالة التي بين أيدينا أثر من آثار التراث النفيسة، ينبغي أن تأخذ محلها بين كنوز التراث المحقق، وقد بذلتُ وسعي في تقويم ما انآد من عباراتها[٢] وشرح ما شمس من معانيها، وآثرت أن أنشرها على ما بقي فيها من علاّت - في النقص والتحريف - عسى أن يهتدي الباحثون إلى نسخة أخرى تتم نقص هذه وتقيم منآدها. والله الموفق.

---

(١) وقد نهضت والزميل يحيى مير علم بتحقيقها ونشرت ضمن مطبوعات المجمع عام ١٩٨٣م.

(٢) لابد لي هنا من تسجيل شكري العميق لأستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ لما تفضل به من مقابلة النص وحلّ بعض المشكلات المستعصية فيه. فجزاه الله عن العربية وأهلها خير ما جزى عالماً عن قومه ولغته.

❖ وصف النسخة

تقع رسالة الكندي هذه في مجموع كبير يضم رسائل مختلفة لثابت بن قرة ويعقوب الكندي، وهو محفوظ في المكتبة السليمانية باصطنبول تحت رقم (٤٨٣٢) وتبلغ عدة أوراقه: (٢٣٢) ورقة من القطع المتوسط: (٢٢× ١٢). تشغل هذه الرسالة الأوراق (٢١٦ ـ ٢١٨) إلا أن نصف الصفحة الأولى منها ممسوح لم يظهر منه سوى عنوان الرسالة تحت البسملة: "رسالة يعقوب الكندي في اللثغة ".

أما الخط الذي كتبت به الرسالة فهو قديم يعود إلى المئة الخامسة على وجه التقريب، فحروفه يابسة، والتنقيط قليل، وطريقة كتابة الأعداد توحي بقدمه[1]. وقد أثبتُّ فيما يلي نموذجاً يظهر فيه بداية الرسالة وخطها ورسم بعض الأرقام فيها.

---

(١) هذا تقدير الأستاذ الفاضل عدنان جوهرجي وهو صاحب اختصاص لا ينكر في هذا الباب.

وجه الورقة [٢١٧ أ]

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة يعقوب الكندي في اللُّثغة[١]

....

معه الشاملة له، فلما تكاملت هذه الثلاثة الأشراج[٢] وائتلفت كان النطق، فلما ظهر النطق بحركات مختلفة مرة برفع ومرة تضع[٣] بجزم ومرة بتسريح العضو الذي هو آلة للنطق مثل مقاديم[٤] الأسنان وصدر الحنك والأرحية[٥] واللهوات وخارج الأسنان والشفتين، فمتى تغيرت آلة النطق وزالت عن الأماكن الواجبة للنطق فسد لذلك المنطق، وأتى بخلاف ما قصد له الناطق.

فلما كانت هذه اللغة لازمة للنطق في القليل من الناس احتاجت اللغة إلى رباط يحويها ويمسكها لنظر ما في حقيقتها يعرف مقصودها من الصواب والخطأ، فربطها الفاعل الأولي[٦] باثنين وعشرين حرفاً[٧] تحويها وتنبي عن حقائقها لإظهار ما في الحكمة، وذلك أن الحاجة ماسة إليها،

---

(١) كتب هذا العنوان في وسط الصفحة بعد تمام رسالة الكندي في استخراج المعمى، وما تحته بياض في الأصل، غابت فيه مقدمة الرسالة إلى قوله في الصفحة التالية: "معه الشاملة له.."وهو ما بَدأنا بنسخه هنا.

(٢) لعلها جمع شرجة أو شريج وهي اللدة المماثلة، وإذا شق العود بنصفين فأحدهما شريج الآخر. انظر أساس البلاغة للزمخشري ماد (شرج).

(٣) كذا في الأصل ولعل فيها تحريفاً.

(٤) في الأصل المقاديم الأسنان، ولا يصح. والمقاديم جمع مَقْدِم وهي ما استقبلت من الأسنان.

(٥) الأرحية جمع رحى وهي الأضراس وتجمع على أرحاء أيضاً وهو الأصح. انظر اللسان (رحى) والمخصص: ١/ ١٤٦ـ ١٤٧.

(٦) كذا وردت في الأصل وقد تكررت بعد أسطر بصيغة الفاعل الأول.

(٧) نص بعض المتقدمين على أن أصل وضع العربية على اثنين وعشرين حرفاً وما تبقى فهو روادف وإلى ذلك أشار ابن النديم في كلامه على القلم العربي:

"اختلف الناس في أول من وضع الخط العربي فقال هشام الكلبي: أول من وضع ذلك قوم من العرب العاربة نزلوا في عدنان بن أد. وأسماؤهم: أبو جاد، هواز، حطي، كلمون، صعفض، قريسَأت. هذا من خط ابن الكوفي،

ولعلة أخرى أيضاً إذ كانت المكاتبة تحتاج إليها حاجة شديدة ليُدوَّن بها علم الظاهر والباطن، فأما الظاهر البيّن فعلم سقراط وأفلاطون، والعلم الباطن فعلم موسى وسليمان بن داود. ولعلة أخرى أيضاً، وذلك إذا كان الإنسان بالقرب من صاحبه، وناطقه صاحبه بشيء فهم عنه وأجابه عن كلامه، وإذا كان في بعد لا يسمع منه فالحاجة في ذلك ماسَّة إلى المراسلة. فلذا كثر الخطب إلى المكاتبة، فلهذه العلة ربط الفاعل الأول اللغات كلها، كل لغة بقدر ما تحتاج تستعمل من الحروف، وذلك أن منها ما يحتاج إلى ثمانية وعشرين حرفاً وهي لغة العرب[١]، ومنها ما يحتاج إلى ٢٤ حرفاً وهي لغة اليهود[٢]، والنصارى مثل ذلك، وزعموا أن لغة الفرس تحتاج إلى ٣٦ حرفاً[٣]، ولغة الهند ٢٥ حرفاً، ولغة الزّنج اثنا عشر حرفاً، ولغة الفراعنة ٢٢. فقد بيّنّا زيادات اللغات ونقصانها.

نقول في علل الحروف، وفي أي الحروف منها تعرض اللثغة

نقول: إن تعسّر اللسان عن الحال الجاري المجرى الطبيعي يكون من عرَضين لازمين؛ إما من تشنج، وإما لاسترخاء.

بهذا الشكل. والأعراب وضعوا الكتاب على أسمائهم، ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم وهي: الثاء والخاء والذال والظاء والشين والغين. فسموها الروادف.."الفهرست ص ٧ طبعة طهران.

وفي المعجم الوسيط: أما ثخذ وضظغ فحروفها من أبجدية اللغة العربية وتسمى الروادف. المعجم الوسيط: (أبجد). وانظر مقال الدكتور عدنان الخطيب "المعجم العربي" في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج٤٠ ج٢ ص: ١٩٢ - ١٩٩.

(١) جمهور اللغويين على أنها تسعة وعشرون حرفاً بما في ذلك الهمزة. انظر الكتاب: ٤٣١/٤ (ط. بولاق: ٤٠٤/٢) ومعجم تهذيب اللغة: ٤٨/١ وسر صناعة الإعراب: ٥٢/١.

(٢) حروف اللغة العبرية اثنان وعشرون حرفاً كما تشير إليه المصادر الحديثة. انظر دروس اللغة العبرية للدكتور ربحي كمال: ص ٦٤ - ٦٥.

(٣) حروف الفارسية اثنان وثلاثون حرفاً كما تبين المصادر الحديثة وهي حروف العربية نفسها يضاف عليها أربعة حروف هي (پ - گ - چ - ژ) انظر اللغة الفارسية للدكتور جواد مشكور ص٧.

فأما التشنج فهو أن يأتي الإنسان بألفاظ غير تامة.

وأما الاسترخاء فهو أن يأتي الإنسان بألفاظ زائدة خارجة عن الجاري المجرى الطبيعي على غير نظام.

فأما التشنج فمثل القائل في موضع الراء اللام[١]، ومثال ذلك قول القائل في موضع السين الشين. ومن الكلام ما لا يحصى كثرة. ونحن واصفون بعون الله جل ذكره، وبادون بالأصل في الوصف[٢] لدلائله بأكثر ما نقدر عليه من بيان ما تحتاج إليه العربية، لأن ليس لغة أفصح ولا أعرب ولا أخف من اللغة العربية.

نبدأ بعون الله ومنّه في نعت الألف لأنها أول مجيء الفاعل الأولي واللغة الأولى.

نقول: إن الألف[٣] تحتاج إلى نغمة[٤] وفتحة ورد طرف اللسان إلى صدر الحنك، وإخراج نَفَسٍ يسير بين الشفة السفلى والأسنان العليا.

الباء: نقول في الباء: إنها تحتاج إلى نغمة مع ضم الشفتين وفتحها بهمزة[٥].

الجيم: نقول في الجيم: إنها تحتاج إلى نغمة مع ضم جانبي اللسان إلى جانبي الأرحية والحنك وضمّ الشفتين وفتحها بكسرة.

الدال: نقول في نعت[٦] الدال: إنها تحتاج إلى نغمة مع همزة بطرف اللسان على طرف الحنك ومقاديم اللسان وفتحة ثم عطفة اللسان إلى داخل طرف الحنك.

---

(١) رسمت في الأصل: الا، والصواب ما أثبتُّه.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: الواصف. [وبادون: مخففة من بادئون].

(٣) يعني بالألف هنا الهمزة لأن الألف المصوتة تخرج من إطلاق الهواء سلساً غير مزاحم. كما يقول ابن سينا. انظر أسباب حدوث الحروف لابن سينا (تح حسان الطيان ويحيى مير علم/ دمشق ١٩٨٣): ٨٤، ١٢٦.

(٤) النغمة جرس الكلمة، ولعل المقصود بها هنا مجرد التصويت أو الصوت الساذج لأنها تتكرر في وصف كل الحروف. وقد جاء في كتب اللغة: سكت فما نغم بحرف.

(٥) الهمز هنا بمعنى الضغط ومنه الهمز في الكلام لأنه يضغط. وقد همزت الحرف فانهمز. انظر اللسان: ٤٢٦/٥.

(٦) استدركت عبارة (في نعت) في هامش النسخة.

الهاء: نقول في نعت الهاء: إنها تحتاج إلى نَفَسٍ يخرج من عمق الرئة ففتحة وهمزة اللهوات بمبدأ نغمة ووقفة.

الواو: نقول في نعت الواو: تحتاج الواو إلى نغمة مع جمع الشفتين وتضييقهما[١] حتى يخرج نفس[٢] خفي وفتحة وجمعةٍ أخرى كالأولى.

الزاي: نقول في نعت الزاي: تحتاج إلى نغمة مع إلزام طرف اللسان و[٣]مقدم الأسنان، وإخراج النفس خروجاً يسيراً من بين الأسنان بزمزمة[٤].

[٢١٧ب] **الحاء:** نقول في نعت الحاء: تحتاج إلى نفس يخرج مع الحنك بتنحنح مسرع مضغوط بأصل اللسان واللهوات مع رأس المري وفتحة.

الطاء: نقول في نعت الطاء: تحتاج إلى همزة شديدة بطرف اللسان على مقدم الأسنان بلا نفس وفتحة.

الياء: نقول في نعت الياء: تحتاج إلى نغمة مع إلزام جانبي اللسان جانبي الأرحية بكسرة[٥] وإخراج نفس يسير وفتحة.

الكاف: والكاف تحتاج إلى إلزام جانبي اللسان على أول الأرحية وفتحة، وإلزام الأسنان العليا الشفة السفلى مع إخراج نفس يسير من بين الأسنان[٦] العليا.

اللام: نقول في نعت اللام: تحتاج إلى نغمة مع إلزام طرف اللسان صدر الحنك وفتحة، وإلزام الشفتين بعد ذلك.

الميم: نقول في نعت الميم: تحتاج إلى نغمة وإلزام الشفتين ورفعها وردها ثانية إلى لزوم بكسرة.

---

(١) الكلمة غير بينة في الأصل والأشبه بالصواب ما أثبتّه.

(٢) وردت في الأصل: (النفس).

(٣) الواو مقحمة لا معنى لها. والعبارة ينبغي أن تكون: "مع إلزام طرف اللسان مقدم الأسنان...".

(٤) الزمزمة: صوت خفي لا يكاد يفهم ولعلها هنا تتابع هذا الصوت.

(٥) في الأصل: (لكسرة).

(٦) في الأصل: (أسنان) والألف واللام زيادة يقتضيها النص.

النون: نقول في نعت النون: تحتاج إلى نغمة مع إلزام رأس الحنك ومقاديم الأسنان[١] وتطويل الشفتين وتضييقها وفتحها تامة ورد رأس اللسان إلى صدر الحنك.

السين: نقول في نعت السين: تحتاج إلى إلزام طرف اللسان مقاديم الأسنان العليا، وإخراج نَفَسٍ من بين الأسنان خفي يسير، فإن زاد ذلك النفس قليلاً[٢] من المقدار الواجب له لم تجئ منه سين، ويكون ذلك مع كسرة ورد اللسان إلى الحنك بهمزة.

العين: نقول في نعت العين: تحتاج إلى نغمة مع نفس يمتد[٣] إلى اللهاة ويقف معها فهمزة اللسان إلى اللهاة وفتحة بالغلصمة، وكسرة، ورد اللسان إلى صدر الحنك.

الفاء: نقول في نعت الفاء: تحتاج إلى نفس يخرج من بين الأسنان العليا مع تركيب الشفة السفلى على الأسنان العليا وفتحة ونغمة بعد.

الصاد: نقول في نعت الصاد: تحتاج إلى قدر[٤] يسير من نَفَسٍ يخرج من بين اللسان والحنك فيما بين الأسنان العليا بهمزة فيما بين اللسان وصعد مقاديم الأسنان والحنك وفتحة.

القاف: نقول في نعت القاف: تحتاج إلى إلزام الغلصمة الخياشيم لزوماً شديداً، وتفرق فيما بين ذلك بدفع النفس بقوة وفتحة، وإسبال الشفة العليا على الأسنان السفلى وإخراج النفس مما بين ذلك.

الراء: نقول في نعت الراء: إنها تحتاج إلى تحريك رأس اللسان على تفرُّج الحنك.

الشين: الشين تحتاج إلى إلزام [اللسان][٥] جانبي الحنك والأرحية وإخراج نفس شديد فيما بين ذلك وكسرة، وهمزة طرف اللسان على مقاديم الأسنان وصدر الحنك.

---

(١) جاءت هذه الكلمة في نهاية السطر وبعدها رسمت (الـ) وكأن هناك كلاماً محذوفاً والعبارة على كل حال ناقصة والوجه أن تكون: (مع إلزام رأس اللسان رأس الحنك ومقاديم الأسنان) يدل على ذلك قوله فيما بعد: (ورد رأس اللسان إلى صدر الحنك).

(٢) في الأصل: (قليل) ولا تصح.

(٣) في الأصل: (يبدوا) وهو تحريف.

(٤) تحرفت في الأصل إلى (قوى) ولا معنى لها.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

التاء: تحتاج إلى إلزام طرف اللسان مقاديم الحنك وبسط اللسان على الحنك كله (تلك اللسان بدفع النفس لحميه)[١].

فرغنا من حروف اللغة[٢] بعون الله.

نبدأ فيما بقي من حروف ا ب ت، ث:

[الثاء][٣]: تحتاج ردّ رأس اللسان إلى الأسنان العليا وإخراج النفس فيما بين ذلك ونغمة وفتحة.

الخاء: تحتاج إلى إخراج نفس وإلزام وسط اللسان تفريج الحنك واللهوات ومما يلي الخياشيم، وتقطيع النفس فيما بين ذلك بالحركة والتدافع له.

الذال: تحتاج إلى غمزة بطرف اللسان على الأسنان العليا، وردٍّ رأس اللسان إلى صدر الحنك.

الضاد: نقول في نعت الضاد: تحتاج إلى إلزام طرف اللسان مقاديم الأسنان، وإخراج النفس من وسط اللسان على الأرحية وجانبي الشدق وفتحة، وردٍّ رأس اللسان إلى الحنك بهمزة.

الظاء: نقول في نعت الظاء: تحتاج إلى إخراج نفس مع إلزام طرف اللسان والأسنان العليا وفتحة ونغمة بعد ذلك.

الغين: نقول في نعت الغين: تحتاج إلى إخراج نفس مع النغانغ[٤] ووسط اللسان، وكسرة وردٍّ اللسان إلى الحنك.

---

(١) في العبارة خلل واضح، وقد أبقيتها كما هي في الأصل.

(٢) وهي حروف: (أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت) وعددها اثنان وعشرون حرفاً، أما بقية حروف العربية الستة وهي الروادف فسيأتي الحديث عنها.

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيها السياق.
أقول: والذي يبدو لي أنه عبَّر عن حرف الثاء برسم (ث).

(٤) النغانغ: لحمات تكون في الحلق عند اللهاة، واحدها نغنغ وهي اللغانين.

تمَّ قصصنا في نعت الحروف وما يجب لها من الحدود بعون الله.

ونحن بادون في عرضنا من تبيان علل اللثغة

اعلم يا أخي - فدتك نفسي - أن اللثغة تظهر في لغة العرب في عشرة أحرف للمسنين، والأصاغر في أكثر من ذلك في المنطق. ولقد عسر على الشيوخ أن يعلموا ما اللثغة وما العلة في الطفل أنه إذا قلت بين يديه مرة ومرتين خبراً حكى قولك في ذلك وهو لا يعلم أين ينبغي له أن يضع لسانه من الأماكن الواجبة النطق التي قدمنا ذكرها في صدر كتابنا هذا في نعت الحروف وما يجب لها. وقد لخصنا في ذلك قدر الطاقة، والعلة التي حدتنا إلى ذلك ليعرف حقيقة ما قصدنا من ذلك ويعود علمه على السامع له.

فأما العشرة حروف فهو هذا الذي أنا ذاكرها منها:

العين، والسين، والشين، والكاف، والصاد، والجيم، والحاء، والراء، والقاف، الزاي[١].

واعلم يا أخي أن اللثغة إنما تعرض من سببين إما لنقصان آلة النطق وإما لزيادتها فلا تقدر [على][٢] تسريح الأماكن الواجبة للنطق مثل مقاديم الأسنان وجميع الأماكن الواجبة للنطق.

فأما الحروف التي تعرض فيها اللثغة من قِبَل زيادة العضو فهي[٣]: السين، والصاد، والجيم، الزاي، والشين، تعرض في الزيادة والنقصان. وقد تعرض اللثغة أيضاً من جهة أخرى من ضعف العضو المنطقي، وليس هذا مما يجري في الأكثر وإنما يحدُّ الشيء بالحد الأكثر، وذلك أن الفلاسفة حدّوا الإنسان أنه حي ناطق ميت، ومنهم من زاد في الحد العقل، فلما زادوا العقل

---

(١) اقتصر الجاحظ في كلامه عن اللثغة على أربعة أحرف هي: القاف والسين واللام والراء. انظر البيان والتبيين: ١/٣٤ ط. هارون.

وجعلها ابن الأنباري في ستة أحرف. قال فيما نقله عنه الرافعي في تاريخ آدب العرب ١/١٦٠: "اللثغة تكون في السين، والقاف، والكاف، واللام، والراء، وقد تكون في الشين".

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في الأصل: (فهو).

في الحدّ أخرجوا من حدّ الإنسانية من كان جاهلاً. وقد ترى إنساناً أخرس[١] فليس بملغي الحد بالإنسانية لأنه ليس بناطق وهذا محال، ولكن لا يقع الحد إلا على الأكثر كما قلنا مراراً.

نريد الآن أن نسمّي[٢] هذه الأعراض اللازمة كل واحد مما يجب أن يسمى: التأتاء[٣] **المتمتم**، واللاثغ بالجيم يقال له: **المدموم**[٤]، واللاثغ بالراء يقال له: **ذا العقل**[٥]، واللاثغ بالغين يقال له: **المناغي العَيُّ**، واللاثغ بالقاف يقال له: **ذا الحبس**[٦]، واللاثغ بالفاء يقال له: **الفأفاء**[٧].

وهاهنا علتان أخريان، وهي **الأخن**[٨] **والألْكن**[٩]، وإنما تعرض هاتان العلتان من غلط آلة النطق وهو اللسان وسعة الخياشيم، والعلة في ذلك أن العضل المحركة لهذا العضو لا تطيق حمله وتحركه وتنقله عن الأماكن الواجبة للنطق فيعرض من ذلك اللكن. وأما الأخنُّ فإن النَّفس يسبق إلى الخياشيم.

---

(١) وردت في الأصل (أخرسا) ولا وجه لها.

(٢) في الأصل: (نسمى إلى) ولا وجه لها.

(٣) هذه الكلمة غير بيّنة في الأصل، وقد رجحت أنها التأتاء، لأن المتم أو التمتام هو اللاثغ بالتاء. قال الجاحظ: "وقال الأصمعي: إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام.."البيان والتبيين: ٣٧/١ وجاء في اللسان: "والتمتمة: رد الكلام إلى التاء والميم.. ورجل تمتام"اللسان: ٧١/١٢ (تمم) وكذا في المخصص لابن سيده: ١١٨/٢.

(٤) لم أعثر عليها في المعجمات بهذا المعنى.

(٥) قال الجاحظ: "ويقال في لسانه عقله، إذا تعقل عليه الكلام"البيان والتبيين: ٣٩/١. وجاء في متن اللغة ١٦٧/٤: "اعتُقل لسانه: امتسك ولم يقدر على الكلام".

(٦) جاء في المخصص ١٢٢/٢: "ابن السكيت: في لسانه حبسة أي تحبُّس".

(٧) قال الجاحظ: "وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء"البيان والتبيين: ٣٧/١ وكذا في المخصص: ١١٨/٢. واللسان (فأفأ).

(٨) رجل أخنُّ أي: أغنُّ مسدود الخياشيم.. والخنخنة: أن لا يبين الكلام فيخنخن في خياشيمه.

(٩) في الأصل: (والأكن) وهو تحريف صوابه ما أثبتّه، يدل على ذلك قوله فيما بعد (اللكن) وقد جاء في المخصص ١١٨/٢ ـ ١١٩: "والألكن الذي لا يقيم العربية من عجمة في لسانه والأنثى لكناء وقد لَكِنَ لَكَناً ولُكْنة ولُكُونة".

تم تبيان الأسماء بعون الله.

اعلم يا أخي أن هذه تعرض من ثلاثة وجوه:

أحدها: تكون لقوى النفس الناطقة فيزول عن الحال الجاري المجرى الطبيعي.

الثاني: لضعف النفس الناطقة، فلا تقدر أن تحرك العضل تحريكاً شديداً فيفسد لذلك النطق.

والوجه الثالث: يكون إما لزيادة آلة النطق وإما لنقصانه. فأما علة زيادة العضو المنطقي فتكون من البرد والرطوبة، أو من الحرارة والرطوبة مع سعة مجاري العضو فتدغم آلة الطبيعة أكثر مما يجب له من المقدار فيغلظ العضو ويكبر، ويفسد النطق لذلك، وذلك أنه يسترخي.

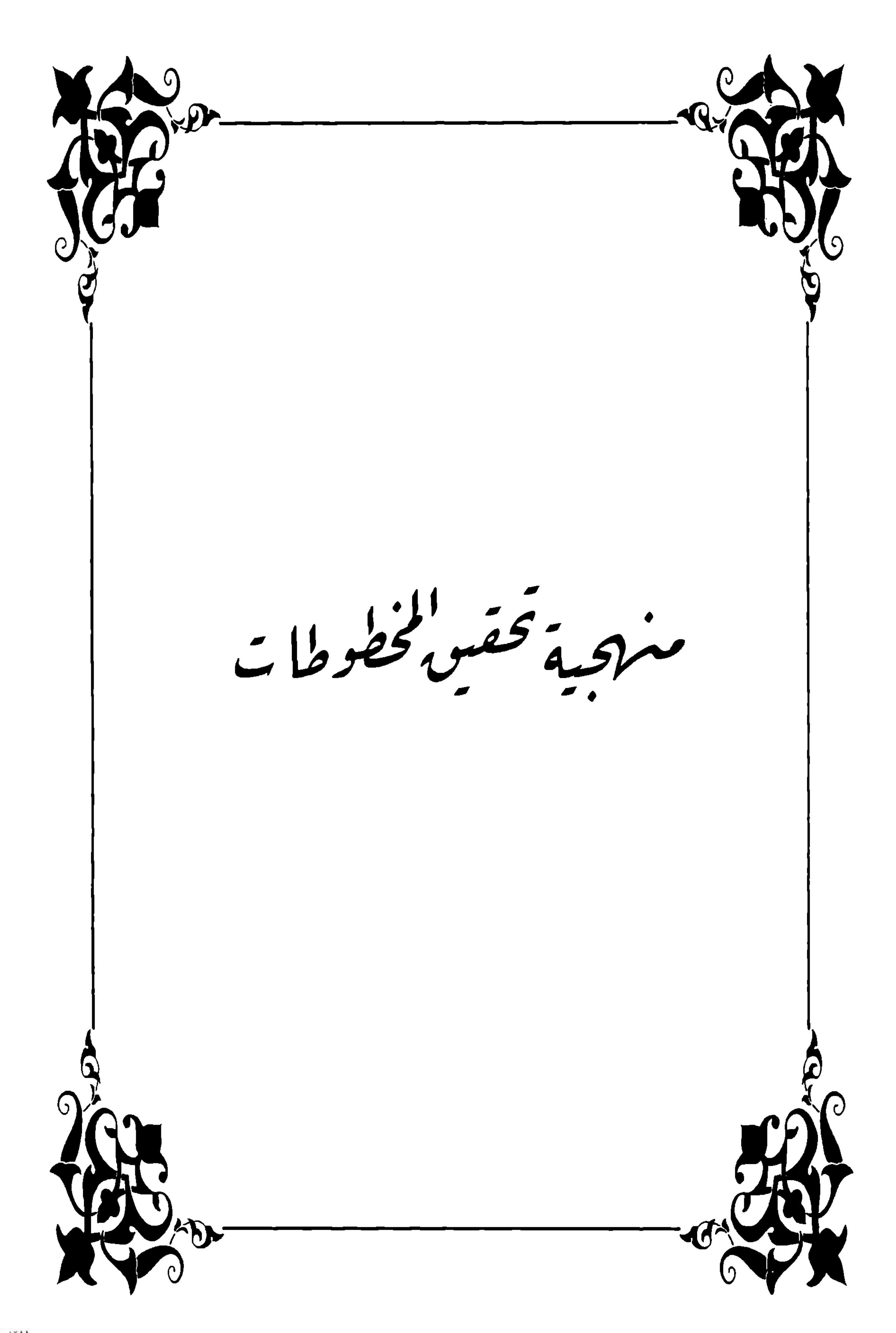
وأما نقصان العضو المنطقي فيكون من برد ويبس، أو من حرٍّ ويبس مفرط، وتعرض هذه العلة أيضاً من جهة أخرى وهو أن العضو المنطقي يغلظ أكثر من المقدار، ويصغر ويزيد أكثر من المقدار، فلا يقدر العضو المنطقي أن يستريح على الأماكن الواجبة للنطق فيفسد لذلك المنطق.

وهذه العلة [و][1] التي قبلها واحدة في الزيادة والنقصان، وذلك أن العلة الأولى تزيد وتنقص في الطول، والعلة الثانية تزيد وتنقص في العرض.

وينبغي لقارئ هذه الرسالة أن يتدبرها بعقله، فإنه يصح له منها علم كثير.

تمت رسالة الكندي في اللثغة
والحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله

(١) زيادة يقتضيها السياق.



منهجية تحقيق المخطوطات

منهجية تحقيق المخطوطات *

◆ تمهيد

التحقيق في اللغة: العلم بالشيء ومعرفة حقيقته على وجه اليقين. والكلام المحقق: المحكم الصنعة الرصين.

والتحقيق في الاصطلاح: هو الفحص العلمي للنصوص من حيث مصدرها وصحة نصها وإنشاؤها وصفاتها وتاريخها. وبعبارة أخرى: "أن يؤدى الكتاب أداءً صادقاً كما وضعه مؤلفه كمًّا وكيفاً بقدر الإمكان".

أما موضوعه فهو المخطوطات العربية القديمة على اختلاف علومها وفنونها وهي التي تشكل تراثنا العربي، وهدفه الوصول إلى الكتاب المحقق، وهو الكتاب الذي صح عنوانه، واسم مؤلفِه، ونسبةُ الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه.

فكيف يمكننا الوصول إلى هذا الكتاب؟؟.. وما المنهجية التي وضعها أرباب هذا العلم؟؟ هذا ما سنحاول إيجازه في هذه المحاضرة.

◆ صفات المحقق وشروط التحقيق

ليس التحقيق أمراً هيناً فيغدو نُهْزَةَ المختلِس، إنه عند المكابدة والمعاناة أشد على النفس من تصنيف كتاب جديد، وهذا ما فرض على المشتغل فيه شروطاً لابد من توافرها فيه ليستقيم له عمله، كما اقتضى منه أخلاقاً لابد من التحلي بها كيما يؤتي عمله أكله على خير وجه.

---

* نص محاضرة ألقيتها عام ١٩٨٦ في معهد بحوث الإلكترونيات التابع لمركز الدراسات والبحوث العلمية بدمشق، حيث كنت أعمل، وقد كلفت بها إثر مهمة شاركت فيها بمناقشة رسالة ماجستير في معهد العلوم اللسانية والصوتية بالجزائر، وكان على رأس المناقشين أستاذنا الدكتور شاكر الفحام. ولما كانت الرسالة تحقيقاً لنص مخطوط كانت هذه المحاضرة.

ولا شك أن الجانب الخلقي لازم قبل كل شيء لأن العمل العلمي في جوهره عمل أخلاقي.

أما أبرز تلك السجايا التي ينبغي أن يتحلّى بها المحقق فهي الأمانة والصبر. إن الأمانة في أداء النص صحيحاً بلا تزيد أو نقصان تقتضي من المحقق سخاء بالجهد والوقت، وصبراً على العمل بلا حساب.

وأما الشروط والمؤهلات العلمية فهي تقسم قسمين: **عامة وخاصة**.

◆ المؤهلات العامة

١ ـ أن يكون عارفاً باللغة العربية ـ ألفاظها وأساليبها ـ معرفة وافية.

٢ ـ أن يكون ذا ثقافة عامة.

٣ ـ أن يكون على علم بأنواع الخطوط العربية وأطوارها التاريخية.

٤ ـ أن يكون على دراية كافية بالمراجع والمصادر العربية (ببليوغرافيا) وفهارس الكتب العربية.

٥ ـ أن يكون عارفاً بقواعد تحقيق المخطوطات وأصول نشر الكتب.

◆ المؤهلات الخاصة

على أن موضوع الكتاب المحقق يفترض على المحقق ـ بالإضافة إلى ما سلف ـ أن يكون متخصصاً به عارفاً بأصوله. فمن أراد تحقيق مخطوط في النحو فعليه أن يكون نحويًّا ذا دراية بتاريخ النحو والنحاة ومدارسهم. ومن أراد التحقيق في الرياضيات فعليه أن يكون رياضيًّا ذا دراية بتاريخ العلوم عند العرب... وهكذا.

جمع النسخ وترتيبها

◆ الجمع

لابد أن يسعى المحقق بادئ ذي بدء إلى تعرّف نسخ مخطوطه التي قد تكون منتشرة في مكتبات العالم، ووسيلته إلى ذلك فهارس المخطوطات المختلفة، على أن أجلَّ الكتب المصنفة في هذا الباب وأكثرها نفعاً للمحقق كتاب تاريخ الأدب العربي للمستشرق الألماني كارل بروكلمان فهو سجلٌّ ضخمٌ للمصنفات العربية، سواء المخطوط منها والمطبوع، مع العناية بتراجم المؤلفين والدلالة على أماكن وجود المخطوطات في مكتبات العالم المختلفة، وقد ترجم إلى العربية أجزاء منه، وما تزال بقيته تنتظر من يترجمها. وكذا كتاب تاريخ التراث العربي للأستاذ الدكتور فؤاد سزكين، وهو أعظم من كتاب بروكلمان.

◆ ترتيب النسخ

مراتب النسخ تكون على النحو الآتي:

١ ـ أحسن النسخ نسخة كتبها المؤلف بخطه فهذه الأم.

٢ ـ نسخة قرأها المصنف أو قرئت عليه وأثبت بخطه أنها قرئت عليه.

٣ ـ نسخة كتبت في عصر المؤلف وتفضُل التي عليها سماعات على علماء إن وجدت.

٤ ـ نسخ أخرى كتبت بعد عصر المؤلف وفي هذه النسخ يفضل الأقدم على المتأخر والتي كتبها عالم أو قرئت على عالم، وقد نقدم نسخة متأخرة على أقدم منها لاعتبارات أخرى (كونها أكثر ضبطاً وأقل تحريفاً...) أما النسخ التي لا تاريخ عليها فلا بد من تحديد تاريخها اعتماداً على خطها ونوعية ورقها وحبرها...

وعلى أي حال فلا يجوز أبداً أن ينشر كتاب ما عن نسخة واحدةٍ ما دام له نسخ أخرى معروفة لئلا يعوزه التحقيق العلمي والضبط.

◆ تحقيق النص

غاية التحقيق تقديم المخطوط صحيحاً كما وضعه مؤلفه، أو هو أقرب إلى ما وضعه مؤلفه، دون شرحه. ومعنى ذلك أن الجهود التي تبذل في كل مخطوط يجب أن تتناول البحث في الزوايا الآتية:

١ ـ تحقيق عنوان الكتاب

وليس بالأمر الهين، فبعض المخطوطات خِلوٌ من العنوان، إما لفقد الورقة الأولى منها، أو لانطماس العنوان، أو لمخالفته الواقعَ لداعٍ من دواعي التزييف أو الجهل. ولا بد في هذه الأحوال من الرجوع إلى طائفة من كتب التراجم والتصنيف، كالفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة ومعجم الأدباء لياقوت الحَمَوي وغيرها. ويساعد في ذلك أيضاً معرفة أسلوب المؤلف وطريقته في التصنيف.

٢ ـ تحقيق اسم المؤلف ونسبة الكتاب إليه

لابد من التأكد من صحة ما يوضع على غلاف المخطوطة من معلومات، فقد ينسب كتاب إلى غير صاحبه، وخير مثال على ذلك معجم العين ـ أول معجم في تراثنا العربي ـ فقد نسب إلى الخليل بن أحمد وفي هذه النسبة نظر. وقد يطمس اسم المؤلف أو يمحى أو يعتريه التصحيف والتحريف فالنصري قد يصحف بالبصري، والحسن بالحسين، والخراز بالخزار... إلخ. كل ذلك يوجب علينا أن نراجع فهارس المكتبات وكتب المؤلفات وكتب التراجم والمتشابه وكتب التصحيف والتحريف، لنقف على حقيقة المؤلف ونستوثق من نسبة الكتاب إليه، وتعد الاعتبارات التاريخية من أقوى المقاييس في تصحيح نسبة الكتاب أو تزييفها، فالكتاب الذي تحشد فيه أخبار تاريخية تالية لعصر مؤلفه الذي نسب إليه جدير بأن يسقط من حساب ذلك المؤلف. من ذلك كتاب ينسب إلى الجاحظ عنوانه "تنبيه الملوك والمكايد" فيه كلام على كافور الإخشيدي، مع أن هذا الأخير ولد بعد وفاة الجاحظ بعشرات السنين (٢٩٢هـ) على حين توفي الجاحظ سنة (٢٥٥هـ).

٣ ـ تحقيق متن الكتاب

ومعناه أن يؤدى الكتاب أداء صادقاً كما وضعه مؤلفه كمًّا وكيفاً بقدر الإمكان. فليس المتن تحسيناً أو تصحيحاً، وإنما هو أمانة الأداء التي تقتضيها أمانة التاريخ، فإن متن الكتاب حكم على المؤلف، وحكم على عصره وبيئته، وهي اعتبارات تاريخية لها حرمتها، كما أن ذلك الضرب من التصرف عدوان على حق المؤلف الذي له وحده حق التبديل والتغيير.

◆ خطر تحقيق المتن

قديماً قال الجاحظ: "ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حرِّ اللفظ وشريف المعاني أيسرَ عليه من إتمامِ ذلك النقص حتى يردَّه إلى موضعه من اتصال الكلام" [الحيوان: ١/٧٩].

◆ مقدمات تحقيق المتن

هناك مقدمات رئيسية لإقامة النص منها:

١ ـ التمرس بقراءة النسخة: فإن القراءة الخاطئة لا تنتج إلا خطأ، وبعض الكتابات يحتاج إلى مراس طويل وخبرة مديدة، ولا سيما تلك المخطوطات التي لا يطّرد فيها النقط والإعجام، وكذلك تلك التي كتبت بقلم أندلسي أو مغربي حيث تنقط الفاء من أسفلها (ڢ)، وتنقط القاف بنقطة واحدة من فوقها (ڧ) أما الكاف فكثيراً ما ترسم هكذا (لـ) في نهاية الكلمة فتلتبس بالدال، والتشديد يرسم كالعدد (٧) فوق الحرف، وقد يوضع تحت الحرف إذا كان مكسوراً ولكن بشكل مقلوب (٨).

هذه بعض اصطلاحات الخط المغربي، على أن الخط المشرقي لا يقل عنه غرابة من بعض الوجوه. فالهمزة الواقعة في آخر الكلمة بعد الألف قد لا ترسم البتة وهكذا فتلتبس كلمة (ماء) بكلمة (ما) و(سماء) بالفعل (سما)، وقد تعوض بالمدة فوق الألف نحو (مآ) و(سمآ). وهناك حروف تلتبس بحروف أخرى لتقارب رسمها في بعض الخطوط: كالدال واللام، والغين والفاء. أما إعجام الحروف وإهمالها ـ أي: تنقيطها وعدمه ـ فله اصطلاحات خاصة، فمن علامات

الإهمال وضع ثلاث نقاط تحت السين، أو رسم رأس سين صغيرة تحت السين، وحاء صغيرة تحت الحاء، وصاد صغيرة تحت الصاد، أو رسم خط أفقي (ـ) أو هلال ( ) فوق الحرف.

وقد تختلف كتابة الأرقام في بعض المخطوطات القديمة عما هي عليه اليوم فترسم هكذا:

(، ١، ٢، ٣، ، ،) وهي اليوم: (٠، ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ ...). هذا وإن هناك رموزاً واختصارات لبعض الكلمات أو العبارات نجدها في المخطوطات القديمة ولا سيما في كتب الحديث: نا وثنا = حدثنا. أنا وأرنا وأبنا = أخبرنا.

يقول السيوطي في ألفيته:

وكتبـوا حـدثنا ثنـا ونـا	ودثنـا ثـم أنـا أخبرنـا
أو أرنـا أو أبنـا أو أخنـا	حـدثني قسـها علـى حـدثنا
وقـال قافـاً مـع ثنـا أو تفـردُ	وحـذفها في الخط أصلاً أجودُ[1]

٢ ـ التمرس بأسلوب المؤلف: وأدنى صوره أن يقرأ المحقق المخطوطة المرة تلو المرة حتى يخبر الاتجاه الأسلوبي للمؤلف، ويتعرف خصائصه ولوازمه. وأعلى صور التمرس أن يرجع المحقق إلى أكبر قدر مستطاع من كتب المؤلف ليزداد خبرة بأسلوبه، ويتمكن من عباراته وألفاظه.

٣ ـ الإلمام بالموضوع الذي يعالجه الكتاب: حتى يمكن المحقق أن يفهم النص فهماً سليماً يجنبه الوقوع في الخطأ حين يظن الصواب خطأً فيحاول إصلاحه، أي: يحاول إفساد الصواب، ويتم ذلك بدراسة بعض الكتب التي تعالج الموضوع نفسه أو قريباً منه.

٤ ـ الاستعانة بالمراجع العلمية اللازمة: ويمكن تصنيفها على الوجه الآتي:

أ ـ كتب المؤلف نفسه مخطوطها ومطبوعها.

ب ـ الكتب التي لها علاقة مباشرة بالكتاب، كالشروح والمختصرات والتهذيبات.

---

(١) ألفية السيوطي ص ٤١. ط. دار البصائر.

ج ـ الكتب التي اعتمدت في تأليفها اعتماداً كبيراً على الكتاب.

د ـ الكتب التي استقى منها المؤلف.

هـ ـ المراجع اللغوية وهي القياس الأول الذي نسبر به صحة النص، ونستوثق به من صحة قراءتنا له.

و ـ المراجع العلمية الخاصة بكل كتاب حسب موضوعه وفنه.

ضبط النص والتعليق عليه

١ ـ النسخ والترقيم والتفصيل

يتم النسخ عن النسخة الأم المعتمدة أصلاً بخط واضح وترتيب حسن ولعل من أكثر الأمور أهمية في تنظيم النص تعيين بداية الفقرة، حيث تقدم انطباعاً بأن المادة التي تتضمنها تكوّن وحدة مستقلة مرتبطة في الوقت نفسه بالسياق العام لمجموع النص، ولا شك أن لعلامات الترقيم أثراً كبيراً في وضوح النص وترتيبه. وينبغي العناية بضبط النص بالشكل ولا سيما الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والشعر والأعلام المشتبهة، ويلتزم به ـ أي بالشكل ـ في المواضع التي يؤدي فيها تركه إلى التباس المعنى أو انغلاقه.

٢ ـ المقابلة

على المحقق أن يرمز لنسخ المخطوطة المختلفة برموز معينة يشير إليها عند مقابلة النسخ حيث يثبت اختلافاتها مع نسخة الأصل في الهامش ولا ينبغي إثقال الحواشي بفروقات ضئيلة واختلافات يسيرة لا يتوقف عليها أي معنى ولا يتحصل منها أي فائدة، كاختلاف النسخ بحرف المضارعة (يفعل ـ تفعل) وما شابه ذلك. وهكذا يثبت المحقق نص نسخة الأصل في المتن ما لم تجانب الصواب، فإذا تبين له أنها صحفت أو حرفت أو جانبت الصواب بوجه من الوجوه تعين عليه أن يثبت ما يراه صواباً مما تتضمنه بقية النسخ، إلا إذا كانت نسخة الأصل

بخط المؤلف فيثبت عندئذ الخطأ في المتن ويصححه في الهامش. ويحسن أن يعلل المحقق ما يذهب إلى ترجيحه من عبارات وألفاظ تخالف ما عليه نسخة الأصل. وإذا احتاج النص إلى زيادة ليست في الأصول فعليه أن يجعلها بين معقوفين [ ].

٣ ـ التعليق والشرح

لا ريب أن الكتب القديمة، بما تضمنت من معارف قديمة، محتاجة إلى توضيح يخفف ما فيها من غموض ويحمل إلى القارئ الثقة بما يقرأ، والاطمئنان إليه. ومن هنا كان من المستحسن ألا يترك المحقق الكتاب غُفْلاً من التعليقات الضرورية اللازمة لفهم النص دون شطط أو تزيّد يؤدي إلى إثقال الحواشي وتحميل الكتاب ما لا طاقة له به. إلا أن هناك أموراً لابد منها في تحقيق أي كتاب، وهي تخريج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأشعار المختلفة، وترجمة الأعلام التي يمر ذكرها ولابد من توثيق كل ذلك بعزوه إلى مصدره والمرجع الذي أخذ منه. ويراعى ذكر الجزء والصفحة والطبعة والناشر أو المحقق.

متممات لابد منها

قبل ختام البحث لابد لنا من ذكر أمور تحتاج إليها كل مخطوطة محققة تريد أن تأخذ طريقها إلى النشر العلمي الصحيح وهي:

١ ـ المقدمة

تتضمن كلاماً حول موضوع الكتاب وموقعه بين ما ألف قبله وبعده في فنه، وقيمة مؤلفه وشأنه، وترجمته مع ذكر المصادر التي ترجمت له، ثم وصف المخطوط الذي اعتمد عليه النشر وصفاً كاملاً يذكر فيه عدد أوراقه، وتاريخ نسخه، ومقاسه، ونوع خطه، والإجازات والتملكات إن وجدت. ثم تثبت صورة الورقة الأولى والأخيرة من المخطوط. ولا بد فيها من بيان المنهج المتبع في التحقيق.

٢ ـ الفهارس

والغاية منها تيسير الإفادة مما في الكتاب المنشور، وجعل ما فيه في متناول كل باحث، وهي تختلف باختلاف موضوع الكتاب، على أن هناك فهارس تكاد تكون ثابتة في الكتب الأدبية والتاريخية واللغوية وهي: فهارس الأعلام، وفهارس الأماكن والبلدان، وفهارس الشعر... إلخ.

٣ ـ مسرد المراجع

آخر ما يختتم به المحقق كتابه ذكر المراجع التي اعتمد عليها في تحقيقه ضمن مسرد يبين فيه اسم الكتاب ومؤلفه، وتاريخ طبعه، وناشره.

وبهذا يكون قد أتى على عمله على خير وجه.

❖ ❖ ❖

مراجع البحث

❖ تحقيق النصوص ونشرها، الأستاذ عبد السلام هارون.

مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ الطبعة الرابعة، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

❖ تحقيق التراث، الدكتور عبد الهادي الفضلي.

مكتبة العلم جدّة ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

❖ ضبط النص والتعليق عليه، الدكتور بشار عواد معروف.

مؤسسة الرسالة بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

❖ في منهج تحقيق المخطوطات، الأستاذ مطاع طرابيشي.

دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

❖ قواعد تحقيق المخطوطات، الدكتور صلاح الدين المنجد.

دار الكتاب الجديد بيروت ـ الطبعة الخامسة، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

❖ نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية، الأستاذ فوزي سالم عفيفي.

وكالة المطبوعات بالكويت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

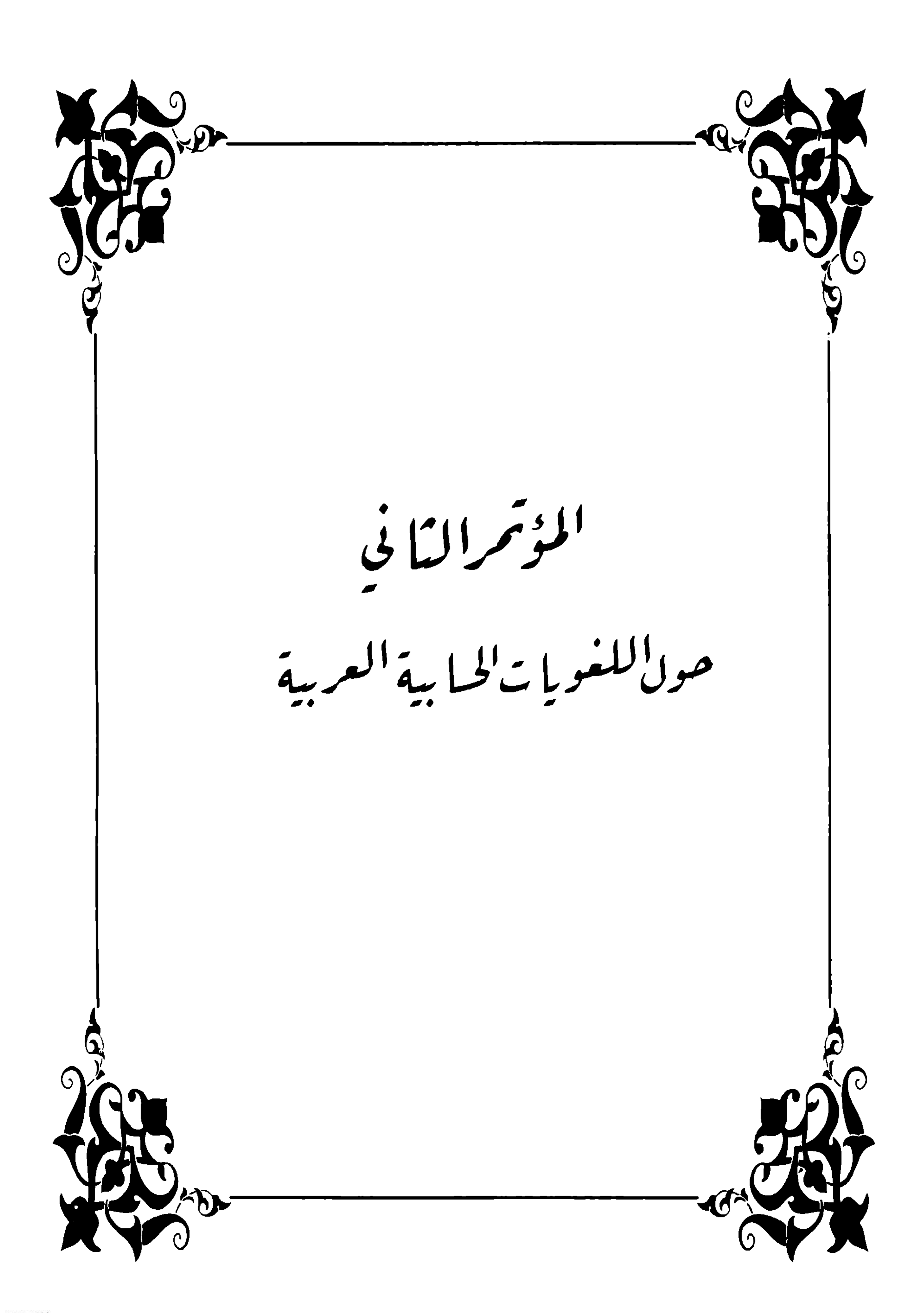
❖ مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، د. رمضان عبد التواب.

مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

❖ مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، د. محمود محمد الطناحي.

مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م.





المؤتمر الثاني

حول اللغويات الحاسبية العربية

المؤتمر الثاني *
حول اللغويات الحسابية العربية[١]
(٢٧ ـ ٢٩) تشرين الثاني ١٩٨٩

شهدت مدينة الكويت تظاهرة علمية لغوية في أواخر العام المنصرم ١٩٨٩م، وذلك باحتضانها المؤتمر الثاني حول اللغويات الحسابية العربية، الذي اشترك في تنظيمه أربع هيئات رسمية هي: معهد الكويت للأبحاث العلمية، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي، واللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا)، والبنك الإسلامي للتنمية. وشارك فيه أكثر من مئتي باحث من شتى الأقطار العربية وبعض بلدان أورية وأمريكة.

تناول المؤتمر قضية من أبرز قضايا العلم والمعرفة اللغوية، وهي تعريب الحاسوب ومعالجة اللغة العربية فيه[٢]، ويعد هذا المؤتمر امتداداً للندوة الأولى حول استخدام اللغة العربية في الحاسب الآلي التي عقدت في الكويت عام ١٩٨٥.

ولا يخفى أن النهوض بتوثيق العلاقات بين العربية والحاسوب هو أحد المقومات الأساسية للحاق المجتمعات العربية بعصر المعلوميات الذي وَسَم العالم المتحضّر بسِمَته، وما لم نقدم حلولاً مناسبة لهذه العلاقة تقوم عليها أيدٍ عربية أمينة وفقيهة فإن الحلول ستأتينا جاهزة من الشركات الغربية المصنعة، ولكن على نحوٍ يضير بالعربية وأهلها.

---

* نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦٥، الجزء ٢ (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

(١) شارك الكاتب في أعمال هذا المؤتمر بتقديم بحثين ستأتي الإشارة إليهما، وذلك نيابة عن فريق العمل المؤلف من الدكتور محمد مراياتي والأساتذة مروان البواب ويحيى ميرعلم ومحمد حسان الطيان.

(٢) ترمي هذه المعالجة إلى تحقيق أهداف في غاية الأهمية كالترجمة الآلية من العربية وإليها، والفهم الآلي للكلام وصناعة المعاجم وغير ذلك مما بسط الكلام عليه الزميل الأستاذ يحيى ميرعلم فيما كتبه في هذه المجلة عن مؤتمرين مماثلين عقدا في تونس (انظر مجلة مجمع اللغة العربية مج ٦٣ ج٢ و٣ ص٢٤٦ و٥٤٨).

افتتح المؤتمر وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء ورئيس مجلس أمناء معهد الكويت للأبحاث العلمية الأستاذ راشد عبد العزيز الراشد، وحضر الحفل بعض الوزراء ولفيف من المهتمين بالحواسيب وتعريبها، بالإضافة إلى الباحثين المشاركين في أعمال المؤتمر. هذا وقد توزعت أعمال المؤتمر على ثلاثة أيام ضمن جلسات علمية، تخصّص كلٌّ منها بضرب من ضروب المعرفة اللغوية الحاسوبية، وسأسرد فيما يلي عناوين المحاضرات التي ألقيت معزوّةً إلى أصحابها:

◆ الجلسة الأولى: التحليل والتركيب الصرفي

١ ـ دور المعنى في المعالج النحوي الآلي للبيانات اللغوية العربية[١].

د. ايفرهارد ديترز ـ جامعة نيغمن ـ هولندا.

٢ ـ النظام الصرفي النحوي للعربية بالحاسب.

مروان البواب، يحيى مير علم، محمد حسان الطيان، د. محمد مراياتي (مشرفاً) ـ مركز الدراسات والبحوث العلمية ـ دمشق.

٣ ـ محلل صرفي للكلمات العربية المشتقة.

م. آمال الزروق ـ معهد الكويت للأبحاث العلمية.

٤ ـ التوليد المعجمي والتحليل الصرفي التركيبي للغة العربية المشكولة وغير المشكولة.

د. فتحي الدبيلي ـ المركز القومي للبحث العلمي ـ باريس.

◆ الجلسة الثانية: قاعدة المعطيات والأنظمة القاموسية

٥ ـ قاموس حاسوبي مقارن لأصول الكلمات في ثلاث لهجات إفريقية ـ عربية.

د. ألن كي ـ جامعة كاليفورنيا ـ أمريكا.

---

(١) كان حق هذه المحاضرة أن تلقى ضمن الجلسة الثالثة، ولكن تخلّف الدكتور يحيى هلال صاحب المحاضرة الأولى في هذه الجلسة أدّى إلى هذا التعديل.

٦ ـ قاعدة معطيات للجذور العربية.

محمد حسان الطيان، يحيى ميرعلم، د. محمد مراياتي (مشرفاً) ـ مركز الدراسات والبحوث العلمية ـ دمشق.

◆ الجلسة الثالثة: تحليل وتركيب المعنى

٧ ـ اللغة العربية والحاسوب.

د. محمد حشيش ـ مركز القاهرة العلمي.

٨ ـ مقاربة معرفية لتحليل دلالة الجملة الخبرية العربية.

د. السيد نصر الدين أبو زيد ـ مركز البحوث والاستشارات ـ الإسكندرية.

٩ ـ التحليل النحوي والمعنوي لتوليد الجمل العربية.

د. مازن الوعر ـ كلية الآداب ـ جامعة دمشق.

١٠ ـ اتجاهات في فهم اللغة العربية الطبيعية.

د. محمد الخياط ـ كلية علوم الكمبيوتر ـ جامعة الملك فهد ـ السعودية.

◆ الجلسة الرابعة: التحليل والتركيب النحوي

١١ ـ تحليل الجمل والمفردات العربية : ملامح التداخل وأشكال الواقعية.

د. عبد القادر الفهري ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك محمد الخامس ـ الرباط.

١٢ ـ الحاجة إلى نظم نحوية يمتد نطاقها خارج المدخلات الصحيحة.

د. بتيناهاريهاوسن ـ مركز هايدلبرغ العلمي ـ ألمانيا الغربية.

١٣ ـ إطار لنموذج نحوي للغة العربية.

د. محمد فرحات ـ معهد الكويت للأبحاث العلمية.

١٤ ـ التحليل المحوسب لنظم اللغة العربية. الجزء الثاني : نموذج أولي لمعرب محوسب للجملة الخبرية العربية.

د. السيد نصر الدين أبو زيد، سهام القارح ـ مركز البحوث والاستشارات ـ الإسكندرية.

١٥ ـ تكامل المعرفة في نظام آلي فعال للتحليل البنيوي للغة العربية.

د. مرفت غيث، مجدي أبو العلا ـ معهد الإحصاء ـ جامعة القاهرة.

١٦ ـ الإطار النظري للمعالجة الآلية للغة العربية.

د. علي فرغلي ـ الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

١٧ ـ الاشتقاق التركيبي في الجملة البسيطة العربية ـ نموذج الأبنية الموسمة.

د. محمد الحناش ـ جامعة سيدي محمد بن عبد الله ـ فاس.

◆ الجلسة الخامسة: التحليل والتركيب النحوي

١٨ ـ التشكيل الأوتوماتي للنصوص العربية.

باسل صليبا، د. عبد الله دنان ـ مركز الكويت العلمي.

١٩ـ محللان نحويان للجمل العربية عن طريق الحاسب الآلي.

د. هشام الشيشني، أيمن نجاز ـ مركز القاهرة العلمي.

٢٠ ـ نظام أساسه المعارف في التصحيح الآلي لأخطاء الرسم والنحو في النصوص العربية غير المشكولة.

د. عبد المجيد بن حماد ـ كلية العلوم الاقتصادية والتصرف ـ تونس.

٢١ ـ المدرسة الخليلية الحديثة ومشاكل العلاج الآلي للعربية.

د. عبد الرحمن الحاج صالح ـ جامعة الجزائر.

◆ الجلسة السادسة: تحليل الكلام وتركيبه والتعرف عليه

٢٢ ـ نموذج إحصائي للتعرف على الكلام المستمر.

د. سليم روكس ـ مركز واتس للأبحاث ـ أمريكا.

٢٣ ـ مصدر تغذية لتخليق الكلام، مبني على كتاب كودي للغة العربية.

د. أنسي أحمد عبد العليم، نعمات محمد البغدادلي ـ كلية الهندسة ـ جامعة الإسكندرية.

٢٤ ـ تركيب الكلام العربي.

أسعد فارس السعدون ـ كلية الهندسة ـ جامعة بغداد.

٢٥ ـ التقطيع والتعرف على أحرف اللغة العربية المطبوعة.

د. محمد فهمي طلبه، أ. شداد ـ جامعة عين شمس ـ مصر.

٢٦ ـ كتابة فونيتيكية عربية مختصرة.

منير الزريقي ـ جامعة الجنوب ـ تونس.

٢٧ ـ أسلوب معالجة حسابي ارتباطي جديد مطبق على اللغة العربية.

د. سمير صايغ ـ جامعة بوردو ـ أمريكا.

◆ الجلسة السابعة: تطبيقات على أنظمة اللغويات الحسابية العربية

٢٨ ـ الفهم الأوتوماتي للعربية المكتوبة غير المشكولة.

د. نبيل علي ـ العالمية ـ القاهرة.

٢٩ ـ الترجمة الآلية واللغة العربية.

د. مرفت غيث ـ جامعة الإمارات العربية المتحدة.

٣٠ ـ ضغط النصوص العربية باستخدام التشفير الحسابي.

د. علي حلمي موسى، عمرو جنيد ـ جامعة عين شمس ـ مصر.

٣١ ـ بعض الصعوبات في الترجمة الآلية من الإنكليزية إلى العربية ومن العربية إلى الإنكليزية.

د. داود عبده ـ نظم الكمبيوتر الدولية ـ لندن.

٣٢ـ نظام خبير عربي لتعليم النحو.

د. نادية حجازي، ج. علي، أ. عبد، س. حمادة ـ المعهد القومي للبحوث ـ مصر.

٣٣ـ نظام معلومات قاموسي معياري عربي موحد لمصطلحات الحاسوب.

د. سعد الحاج بكري، عدنان نوح، محمد سمرقندي ـ كلية الهندسة ـ جامعة الملك سعود.

٣٤ـ نظام تعامل باللغة العربية مع قاعدة بيانات الشؤون التعليمية.

د. علي علي فهمي، مدحت محمد فخري ـ الكلية الفنية العسكرية ـ القاهرة.

◆ الجلسة الختامية: مناقشة عامة (التخطيط للمستقبل) والاختتام

رَأَس هذه الجلسة الدكتور عبد الهادي العتيبي رئيس اللجنة التنظيمية العليا للمؤتمر، وساعده الدكتور حسن الشريف مندوب اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا. وقد دارت فيها مناقشات عامة حول المؤتمر وما قدم فيه من بحوث، رمت إلى إغناء التوصيات التي كان المشاركون قد تقدموا بها إلى اللجنة التنظيمية. ثم تليت الاستنتاجات والتوصيات ؛ وهي تؤكد ضرورة بذل المزيد من الجهد المتخصص والجادّ، وتوفير ما يلزم من إمكانات مادية وبشرية في جميع الميادين المتعلقة باللسانيات الحاسوبية العربية، كما تدعو إلى التنسيق والتعاون بين مختلف العاملين في هذا المجال، وتحث على إقامة دورات ومؤتمرات مماثلة بغية التوصل إلى أنجع الحلول للمسألة المطروحة.

لقد أوفى المؤتمر على الغاية شكلاً ومضموناً، أما من حيث الشكل فما شئت من حسن التنظيم والإدارة، وبراعة العمل، والتعاون بين الجهات المنظمة، وبذل كل ما من شأنه إنجاح المؤتمر ؛ بدءاً من طباعة البحوث المقدَّمة ـ بعد موافقة اللجنة العلمية المحكّمة عليها ـ ضمن سجلٍّ وزّع على المشاركين، وانتهاءً بإدارة الجلسات العلمية والترجمة الفورية فيها من العربية إلى الإنكليزية ـ في بعض المحاضرات وهي قُلٌّ من كُثْر ـ ولقد تحمل معهد الكويت للأبحاث العلمية في سبيل ذلك كله العبء الأكبر فله كلُّ الشكر والتقدير.

وأما من حيث المضمون فقد سجَّل المؤتمر تقدماً ملحوظاً في جوانب متعدّدة من مناحي تعريب الحاسوب ومعالجة العربية فيه، لعل أهمها الجانب الدلالي إذ قدمت فيه بعض البحوث

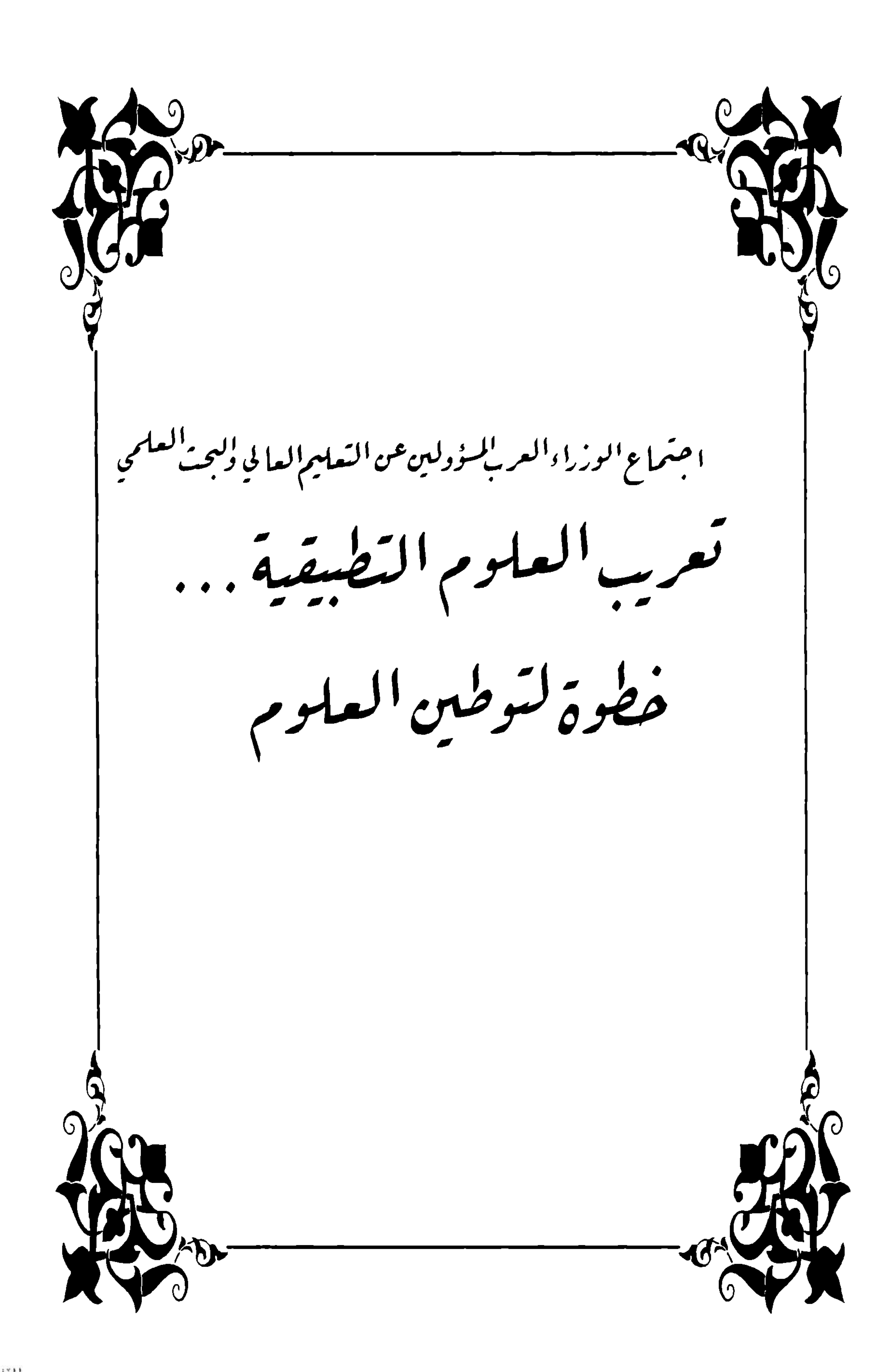
التي تناولت التحليل الدلالي للغة العربية، وهي وإن كانت مجرد إلماعات ولمحات فإنها مضيئة وجريئة، حسبها أنها اقتحمت هذا الحرم المتأبّي الذي تنكّبه الكثيرون، والذي سيمكن الآلة الصماء من فهم معاني العربية والتعامل معها بذكاء صنعي "وأول الغيث قطر ثم ينهمر".

ولا يقل عنها أهمية ما قُدّم من بحوث جادّة في التحليل الصرفي والنحوي للعربية، ففيها إشارات إلى اكتمال أنظمةٍ تحليلية وتركيبية تمكّن المستثمر من توليد مئات الكلمات العربية المشتقة آلياً اعتماداً على جذر واحدٍ، كما تمكّنه من تحليل أي كلمة عربية مزيدة إلى الجذر الأصلي الذي تتألف منه، وتبيين السوابق واللواحق التي اكتنفته، وغير ذلك من لوازم التحليل كالصيغة والوزن والنوع والحالة الإعرابية... الخ[1].

على أن بحوث المؤتمر في جملتها لم تخلُ من ملحظين اثنين، يتعلق أولهما بما طغى على بعضها من تكرارٍ ومعاودةٍ لمعالجة الموضوع الواحد دون جديدٍ أو مفيد. ويتعلق ثانيهما بموضوع اللغة التي نصبها الباحثون هدفاً لبحثهم وبقيت مع ذلك غريبة عن بعضهم تحتاج منهم إلى مزيد عناية وتبصر، إذ لا يعقل أن ينهض المرء لمعالجة العربية بالحاسوب، وهو يفتقر إلى الحدّ الأدنى من المعرفة اللغوية، لأن المعالجة الآلية لا يمكنها أن تتعامل إلا مع الدقيق والمضبوط والمكتمل، لذا فهي تتطلب الكشف عن دخائل البنية الدفينة للغة العربية، وتقحم الكثير من المجالات التي لم يتطرق إليها البحث من قبل، واتخاذ مواقف محددة تجاه الكثير من النقاط المختلف فيها. ويفضي بي هذا الكلام إلى ملحظ ثالث، لعل في تداركه عصمةً مما سبق، وهو غياب مجامع اللغة العربية عن مثل هذه اللقاءات، وأعضاءُ المجامع هم أرباب العربية وحماتها الذائدون عنها، الرافعون رايتها في كل محفل، فأنّى لهذه المؤتمرات أن تؤتي أكلها بنجوة منهم ؟!.

---

(١)أرجو أن يتسع المجال للكلام على هذه التحليلات في مقال لاحق إن شاء الله تعالى.



اجتماع الوزراء العرب المسؤولين عن التعليم العالي والبحث العلمي

تعريب العلوم التطبيقية...

خطوة لتوطين العلوم

اجتماع الوزراء العرب المسؤولين عن التعليم العالي والبحث العلمي

تعريب العلوم التطبيقية خطوة لتوطين العلوم❖

١ ـ مقدمة:

١ ـ ١ ـ مفهوم التعريب:

لم يعد التعريب في حياتنا المعاصرة مجرد هدف ثقافي وإنما أصبح هدفاً حضاريًّا شاملاً ينطوي على جوانب سياسية وقومية لا تقل أهمية عن جوانبه الثقافية. ومن هنا فقد كثر الكلام فيه وعقدت له ندوات وألفت فيه كتب ومقالات ودارت حوله بحوث ومناقشات شارك فيها العلماء والباحثون ورجال الفكر والتربية والتوجيه في فترة من الزمن امتدت على مدى سبعين عاماً أو تزيد.

ونستطيع أن نتبيّن من خلال جملة ما قيل فيه ثلاثة آراء تحدد مفهومه:

الأول: صياغة المصطلح الأجنبي وفق المقاييس والأوزان الصرفية العربية بحيث يصبح قابلاً للتعريف والاشتقاق بمختلف أنواعه.

الثاني: الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.

الثالث: هو عملية نقل للمعاني والعلوم من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، على أن تصاغ بألفاظ متناسبة ومتناسقة تعطي المعاني المنقولة معادلاً مطابقاً للأصل.

ولا شك أن هذا الأخير هو المفهوم الذي يعنينا لأن تعريب العلوم التطبيقية يقتضي القدرة على وعي معانيها العلمية وتصورها ثم الإبانة عنها بلغة عربية.

❖ أعددت هذا البحث بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور أحمد الحاج سعيد في مركز الدراسات والبحوث العلمية بدمشق عام ١٩٩٠، وقد توليت شطره الأول وتولى د. أحمد شطره الثاني، ثم قدمه في اجتماع الوزراء العرب المسؤولين عن التعليم العالي والبحث العلمي المنعقد في تونس آنذاك.

وإن اضطررنا مبدئياً إلى استعمال المصطلحات الأجنبية بلفظها الأجنبي، فليس التعريب قائماً بالضرورة على تعريب المصطلح ولا متوقفاً عليه، إذ أثبتت التجربة أن تعريب المصطلحات يأتي ثانياً بعد تعريب العلوم، ولا يحول جهل باسم مادة ما باللغة العربية دون وصفها وذكر خصائصها وبسط الكلام عليها.

١ ـ ٢ ـ أثر التعريب في الحضارة العربية الإسلامية:

لقد استطاعت العربية ـ بسعتها وثرائها وخصائصها ـ أن تستوعب الثقافات والعلوم منذ أواخر القرن الأول للهجرة حين بدأ النقلة والمترجمون والمعربون بترجمة كتب اليونان والفرس والهند وغيرها إلى العربية، وأصبحت اللغة العربية حينذاك ولمدة عدة قرون لغة العلم والمعرفة التي يصطنعها العلماء والمؤلفون في جميع الأقطار الممتدة من الأندلس غرباً حتى أقصى بلاد ما وراء النهر شرقاً، وصح وصفها بأنها لغة العالم المتحضّر.

وإن التراث العلمي العربي بخصبه وتنوعه وغزارته وكثرة مبتكراته لشاهد حيّ على قدرة العقل العربي على الإبداع والإضافة والمشاركة الجادَّة في مسيرة الإنسانية العلمية والتقانية، أخذ منها ثم أعطاها الكثير مما عم نفعه العالمَ بأسره، وهو، إلى ذلك، شاهد عدل ينطق بقدرة اللسان العربي وطواعيته لاستيعاب أنواع العلوم والمعارف، ودليل مبين يفصح عن كفايته في التعبير عن أدق المعاني وأجلها على حدٍّ سواء، وسنعرض فيما يلي لأمثلة من العلوم التي نهض العرب بتعريبها أولاً ثم أضافوا وأبدعوا فيها ما جعلها تنسب إليهم أصالة:

ففي **الطب** عرب علماء العرب والنقلة طب الأوائل من شتى الأمم، ثم لم يقتصر أطباؤنا الأقدمون على الاطلاع على ما عرب من مواريث الأمم الغابرة في هذا العلم بل أعادوا النظر فيما ترجم وعمدوا إلى تنقيحه، وتجاوزوا ذلك إلى الإبداع فيه نافين عنه ما ثبت عندهم خطؤه متداركين ما كان فيه من نقص، ثم أضافوا الكثير من الجديد الذي هدتهم إليه بحوثهم وتجاربهم حتى أصبح الطب عربياً خالصاً، وسارت فيه المقولة المشهورة: (كان الطب معدوماً فأوجده بقراط، وميتاً فأحياه جالينوس، ومتفرقاً فجمعه الرازي، وناقصاً فأكمله ابن سينا).

وبذلك صارت العربية لغة هذا العلم بلا منازع، حتى اضطر طلبة العلم من الغربيين إلى أن يتعلموها ليدرسوا بها الطب وغيره من العلوم، ثم عكف فريق منهم على ما ألفه أعلام الطب المسلمون كالرازي وابن سينا والمجوسي من أطباء الشرق، وابن رشد وابن زهر من أطباء الأندلس، وأخذوا يترجمونه إلى اللاتينية لغة الدين والعلم عندهم إذ ذاك، وظل ما ترجموه عماد دراسة الطب فيما أنشئ في إيطاليا وفرنسا من مدارس لتعليمه، وامتد ذلك قروناً، وكان من ذلك أن سرى إلى لغة الطب في الغرب كثير من الألفاظ العربية.

وفي **الرياضيات** ترجم النقلة الحساب الهندسي والأرقام الهندية، وكان أول ما نقلوه كتاب (السند هند) الذي أمر المنصور بترجمته وتأليف كتاب على نهجه، فترجمه محمد بن إبراهيم الفزاري ووضع على نهجه كتاب (السند هند الكبير) ثم أعاد محمد بن موسى الخوارزمي كتابته وأضاف إليه عدة زيجات اشتهرت في البلدان الإسلامية، ووضع كتابه المشهور (حساب الجبر والمقابلة) الذي أسس فيه علم الجبر، ويشير الباحثون في تاريخ الرياضيات إلى أن الرياضيات الهندية كانت تفتقر إلى معرفة واسعة بالهندسة وإلى اهتمام بتحقيق صحة القواعد الرياضية التي يتبعونها، فاغتنت بكل ذلك على أيدي العلماء العرب الذين تخطوا تلك المراحل الأولية إلى المعقّد من مشاكل الرياضيات، وما تزال مصطلحاتهم تستعمل في دنيا الرياضيات حتى يوم الناس هذا من مثل (Algoithmy) و (Algebra).

وفي **الكيمياء** كانت أول ترجمة في الإسلام على يد خالد بن يزيد بن معاوية الذي ذكر عنه أن له همة ومحبة للعلوم ولترجمتها، وقد أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان المتقنين للعربية من مصر، وأمرهم بنقل كتب الكيمياء من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، ثم وضع عدة رسائل في الكيمياء وتابع الطريق من بعده أعلام الكيمياء من مثل جابر بن حيان والرازي فنهضوا بهذا العلم وحولوه من مجرد ملاحظات وقوانين تستغل في أعمال الغش والشّعوذة إلى علم له مقوماته وأسسه ومصطلحاته العربية التي انتشرت في أصقاع الأرض محتفظة بهويتها وأصالتها.

وهكذا أصبح العرب المسلمون بفضل التعريب مالكين لمعظم علوم وآداب اليونان والهنود

والفرس، ويبلغ عدد الكتب المعربة نحو (٤٠٠) كتاب حسبما ذكر ابن النديم في الفهرست، وكانت مراكز الترجمة والنقل والتعريب أحد العوامل الأساسية التي أسهمت في نقل تراث هذه الأمم التي اعتمد عليها العرب في بدء تكوين حضارتهم الجديدة، ولعل أشهرها مدارس الإسكندرية وأنطاكية وحران والرها وغيرها. هذا بالإضافة إلى بيوت الحكمة ودورها التي انتشرت في معظم الحواضر العربية الإسلامية، وكانت بمثابة مراكز للبحث والترجمة والتعريب كبيت الحكمة في كل من بغداد والقيروان ودار الحكمة في القاهرة وطرابلس ومراغة.

إن تعريب العلوم الذي بدأ في عهد مبكر وتطوَّر بسرعة مذهلة إلى تمثل المادة العلمية وتنقيتها والإضافة عليها، هو الذي أدى إلى مرحلة الإبداع وبزوغ فجر الحضارة العربية الإسلامية.

٢ ـ واقع التعريب الحالي وخاصة تعريب العلوم التطبيقية:

لقد تشعب العمل في التعريب إلى درجة يصعب فيها على الباحث أن يحيط به بله أن يصف واقعه الوصف الدقيق المتكامل، ذلك لأنه شمل هيئات ومنظمات كثيرة التنوع والعدد، بعضها منقطع غاب مع الزمن، وبعضها مستمر ولكنه منتشر على أرض الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، كما شمل أفراداً من العلماء والباحثين الذين لم تضمهم الجامعات والهيئات، بعضهم عمل بصمت، وبعضهم خلف آثاراً تحمل اسمه وتدل على عمله، بيد أنه يمكننا أن نلمح من خلال ذلك كله مراحل ذات بعدين: بعد تاريخي وآخر إقليمي، سنحاول على هديها الخلوص إلى تحديد واقع التعريب عموماً وتعريب العلوم التطبيقيّة خصوصاً.

٢ ـ ١ ـ مطلع عصر النهضة ـ التجربة المصرية:

بدأت هذه المرحلة مبكرة في عهد محمد علي إثر إيفاد البعثات العلمية إلى أوربة وتأسيس المدارس العليا للعلوم، إذ رافق ذلك حركة نشيطة في ترجمة العلوم والتأليف بها، وأصبح لدى المدارس لوائح لتنظيم التعليم في مصر منذ عام ١٨٢٦، تنصُّ هذه اللوائح على أن يجتمع المدرسون والمترجمون في "غرفة الترجمة" بالمدرسة يشتغلون بالترجمة ساعتين قبل الظهر وساعتين بعد الظهر، وفي غرفة الترجمة هذه تكامل ظهور مسرد للمفردات التقنية الأجنبية وما

يقابلها من المصطلحات العربية الجديدة، زاد عدد كلماته على ستة آلاف كلمة. ويعتقد كثير من الباحثين أن هذه الهيئات العربية الجديدة، قد وقفت إلى حد كبير في تعريب كثير من المصطلحات الحديثة التي لا زالت تستعمل حتى يوم الناس هذا في مؤلفاتنا العلمية الحديثة من مثل: الأنبوبة، البودقة، الجفنة، المخبار، المرشح... إلخ.

إن أهم ما في التجربة المصرية أنها تجربة مؤسسية "أكاديمية" استمرت زهاء سبعين عاماً، وتمت تحت رعاية الحكومة وتشجيعها وبإشرافها وتوجيهها، واعتمدت على أكثر فئات الشعب تنوراً ومعرفة آنئذٍ وهم مشايخ الأزهر وطلبته. وفي ظلّها أسست مدرسة الألسن، وظهرت أولى المؤلفات الحديثة في العلوم التطبيقية من طب وهندسة وفلك وزراعة..إلخ، بل لقد بلغ مجموع ما عرب من كتب بين عامي ١٨٣٢ ـ ١٨٥٣ أكثر من ٢٠٠ كتاب في العلوم المختلفة بما فيها العلوم العسكرية. وقد حوت هذه الكتب عشرات الألوف من المصطلحات العلمية الجديدة، وما كان لهذه التجربة الغنية أن تتوقف عن العطاء لولا الاحتلال الإنكليزي الذي دهيت به مصر عام ١٨٨٢م، إذ سيطر (دنلوب) على نظام التعليم ففرض تعليم العلوم بالإنكليزية لتحل محل العربية، وإن تعجب فعجب أن يستمر ذلك ويظل تدريس العلوم بالإنكليزية في جامعات مصر حتى اليوم كما أراد له (دنلوب)!!.

٢ ـ ٢ ـ مطلع القرن العشرين ـ التجربة السورية:

خير ما يمثل هذه المرحلة مجمع اللغة العربية أو "المجمع العلمي العربي" الذي نشأت نواته الأولى في دمشق أوائل ١٩١٩ وكان التعريب هدفه، فقد جاء في مرسومه التشريعي أن من غاياته البحث في علوم اللغة العربية والحرص على سلامتها وجعلها تتسع للعلوم والفنون والمخترعات الحديثة، ولم تكن الجامعة بمنأى عن عمل المجمع ونشاطه إذ حقق المجمع بالتعاون معها أضخم إنجاز لغوي في مجال التعريب حين يسر وضع الكتب والمصطلحات العلمية في الكليتين الأساسيتين: الطب (بما فيه طب الأسنان والصيدلة) والحقوق، وحين مكن للجامعة أن تكون دروسها وكتبها ومحاضراتها كلها باللغة العربية، فكان له في ذلك فضل الريادة العلمية،

وكان ذلك بمثابة النواة التي انطلقت لتعم شتى فروع المعرفة العلمية، ولتكون الجامعات السورية أولى الجامعات العربية ـ بل الوحيدة بينها ـ اعتماداً للغة العربية في مجال التدريس والمناهج والتأليف منذ إنشائها حتى اليوم، ولا بد من الإشارة إلى أن التعاون المثمر بين المجمع والجامعة هو الذي قيض لهذه التجربة أن تكلل بالنجاح، ذلك لأن ما كان يقدمه المجمع من مصطلحات معربة سرعان ما كانت الجامعة تتلقفه لتحوله من النطاق النظري إلى نطال العمل والتطبيق حين ينزل في حاق موضعه من الكتب المعربة أو المؤلفة في مجال العلوم التطبيقية، لأن التعريب الشامل كان أسبق من تعريب المصطلح ـ كما سلفت الإشارة ـ ونستطيع أن نذكر من المعاجم الطبية المعربة التي كانت وليدة هذه التجربة الغنية: ترجمة معجم كليرفيل الفرنسي الكثير اللغات للأساتذة د.مرشد خاطر، و د. أحمد حمدي الخياط، و د. صلاح الدين الكواكبي، وقد أغنى هذه الترجمة فيما بعد رئيس مجمع اللغة العربية د. حسني سبح بسلسلة مقالات بلغت ستاً وسبعين مقالة دعاها "نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات".

وجدير بنا أن نذكر هنا أن هذه التجربة ما زالت معطاء متجددة بتجدد المناهج الدراسية في مختلف العلوم والفنون، ولا يحتاج الأمر إلى تمثيل أو تدليل فكل مناهج الدراسة في الجامعات السورية بمختلف الاختصاصات دليل ناطق على استمرار تجربة التعريب السورية.

٢ ـ ٣ ـ المجامع العربية واتحادها:

وهي مجامع دمشق والقاهرة وبغداد وعمان على الترتيب الزمني في إنشائها وقد سبق الكلام على أولها وهو **مجمع دمشق**، وسنتناول سائرها بالتفصيل.

أما **مجمع القاهرة** فقد خصص جانباً غير يسير من وقته وجهد أعضائه لترجمة المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية وتعريبها، ورَسَم لصياغة المصطلح منهجية واضحة وأسلوباً مميزاً في العمل، إذ كان أعضاء المجمع يستعينون بالخبراء وأساتذة الجامعات في حقول اختصاصهم، ويعقدون معهم اجتماعات دورية منتظمة للتوصل إلى ما يرونه مناسباً من المصطلحات، ثم تعرض هذه المصطلحات على أعضاء المجمع في (مجلس المجمع) لإقرارها

ومناقشتها وعرضها على (المؤتمر العام) الذي ينعقد مرة كل عام، وهو يضم أعضاء من مختلف المجامع، هذا وقد بلغ تعداد المصطلحات المعربة الآلاف، برهن المجمع فيها على حيوية العربية ومرونتها وقدرتها على مواجهة متطلبات العلم والتقانة، وقد تجلى ذلك في أساليبه التي اعتمدها في صياغة المصطلح المعرب إذ فتح باب القياس، وأجاز الاشتقاق من الجامد، وتوسع في المصدر الصناعي، واستحدث صيغاً للدلالة على أسماء الآلة والزمان والمكان وأقرَّ ألفاظاً واستعمالاتٍ حديثة كان قبولها موضع تردد ومناقشة... إلخ.

على أن هذه المصطلحات ظلت حبيسة مجلة المجمع ومحاضر جلساته مدة من الزمن، ولم تر النور إلا بأخرة حين جمع المجمع أطرافاً منها في سلسلة مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها المجمع وطبع منها أكثر من عشرين جزءاً، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الفائدة من هذه المصطلحات ظلت محدودة ومقصورة على أضيق المجالات كالتأليف وصناعة المعاجم لانعدام التطبيق العملي لها في مجال التعليم الجامعي على اختلاف الاختصاصات وذلك بحكم سيطرة اللغة الإنكليزية على التعليم ثمة كما أسلفنا.

وأما **مجمع بغداد** فقد أولى المصطلح العلمي عناية خاصة وكان له في ذلك جهد ملحوظ نستطيع تلمسه من خلال ما أصدره من مطبوعات خاصة بمصطلحات العلوم المختلفة منذ عام ١٩٥٥ حتى عام ١٩٨٤، نذكر منها: مصطلحات في هندسة سكك الحديد والري والأشغال، وفي الصناعة والملاحة والطيران، ومصطلحات صناعة النفط في الاستكشاف والحفر والإنتاج والتصفية، ومصطلحات علوم المياه، ومصطلحات في علم التربية. ومصطلحات علوم الطب... إلخ. وهنا لا يفوتنا ذكر إسهام المجمع العراقي في تحرير (المعجم الطبي الموحد) إنكليزي ـ عربي، وطبعه مرتين عام ١٩٧٣ في بغداد وعام ١٩٧٨ في الموصل، تلبية لاتحاد الأطباء العرب. كما أنجز مؤخراً معجماً في جزأين إنكليزي ـ عربي ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤ للمصطلحات العلمية في الفيزياء، وعلم الأحياء، والهندسة المدنية، والري والبزل، وعلم الغابات، وعلم النفس والأمراض العقلية، والفيزياء النووية، والكيمياء التحليلية، وعلم الحيوان، والمراعي والتربية. وللمجمع بالإضافة إلى ذلك جهود أخرى في ألفاظ الحضارة، وقد أعلن في المجلد ٢٧ من مجلته عن متابعته لتعريب قاموس في الكيمياء يعد من أحدث القواميس.

وأما **مجمع عمان** فقد رأى منذ تأسيسه عام ١٩٧٦ أن القضية الكبرى والأولى التي ينبغي النهوض بها في المجامع العربية والمؤسسات العلمية هي وجوب جعل اللغة العربية لغة التدريس الجامعي والبحث العلمي في جميع مجالاته ومراحله. وقرن القول بالعمل إذ تبنى مشروع ترجمة الكتب العلمية التي تدرس في كلية العلوم، وقد خص كلية العلوم لأن جميع كليات العلوم التطبيقية إنما تقوم حولها كالطب والصيدلة والهندسة.. إلخ. هذا وقد استطاع المجمع بدأبه وتعاون أعضائه مع أساتذة الجامعة أن يقطع مراحل من هذا المشروع العظيم، أنجز في أولاها ترجمة كتب السنة الأولى لكلية العلوم في حقول الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والجيولوجيا، وكانت نتائج هذه المرحلة رائعة ومشجعة على المضي في المشروع، تجلى ذلك في مدى فهم المادة الدرسية ونتائج الامتحان فيها. وأما المرحلة الثانية فتشمل ترجمة كتب السنة الثانية وقد أنجز منها عدة كتب في الجبر والتكوين الجنيني والبصريات... إلخ، ومن المفيد أن نذكر أن المجمع يرمي على حدِّ تعبير رئيسه د. عبد الكريم خليفة إلى تعريب العلوم من حيث هي علوم "لا إلى ترجمة كتاب في الرياضيات من هنا وترجمة كتاب في الفيزياء من هناك، ووضع مئات المصطلحات في هذا المجال العلمي أو ذاك"إلا أن هذا الهدف لم يقيض له أن يتحقق حتى اليوم؛ لأن تدريس العلوم في الجامعة ما زال تحت سيطرة الإنكليزية، لم يخرج عنها المدرسون إلا عاماً واحداً عادوا بعده إلى التدريس بها!!.

وأما **اتحاد المجامع العربية** فقد أسهم في قضية التعريب بعقد عدة ندوات خصصت الأولى في دمشق ١٩٧٢ لتوحيد مصطلحات القانون، والثانية في بغداد ١٩٧٣ لتوحيد مصطلحات البترول، وصدر عنهما كتابان مستقلان. كما عقد ندوة في عمان ١٩٧٨ لتعليم اللغة العربية خلال ربع القرن الأخير، وكانت آخر ندواته في عمان ١٩٨٧ لمناقشة مشروع الرموز العلمية الذي وضعه المجمع الأردني عام ١٩٨٥ لتعريب هذه الرموز. ثم عقد ندوة في دمشق ١٩٩٤ لمناقشة معجم النفط الذي أعده مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٢ ـ ٤ ـ مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي ـ المغرب ـ الرباط:

منذ أن اكتسب تنسيق التعريب صفة التبعية للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام

١٩٦٩ أصبح له أهداف محددة يأتي في مقدمتها: تتبع حركات التعريب وإثراء اللغة بالمصطلحات المنسقة، والإعداد لمؤتمرات التعريب وندواته، ونشر المعاجم التي توافق عليها هذه المؤتمرات. ونستطيع القول: إن إبرز ما صدر من المكتب يتمثل في عملين اثنين:

أ ـ مجلة اللسان العربي التي استطاعت أن تكون في فترة قصيرة ملتقى لكثير من البحوث والدراسات اللغوية العربية، وأن تكون ـ فيما تنشره من قوائم المصطلحات ـ تمهيداً لبعض المعجمات الصغيرة التي نشرت فيها. وهي إلى هذا وذاك تعنى برصد الجهود الجماعية (التابعة لهيئات ومؤسسات رسمية) والفردية في مجال التعريب ومعاجم المصطلحات المعربة.

ب ـ إعداد مشاريع معاجم المصطلحات للمواد العلمية المختلفة في مرحلة التعليم العام (الإعدادي والثانوي)، وهي المشاريع التي انتهت إلى توحيد اللغة العلمية في هذه المراحل، أما المراحل المتقدمة من التعليم (المعاهد والجامعات والدراسات العليا) فقد أعد لها المكتب مشاريع معجمية تستغرق معظم الاختصاصات العلمية، نقتصر هنا على ذكر ما يتعلق منها بالعلوم التطبيقية وهي: معاجم مصطلحات الأجهزة والآلات والأدوات والسيارة والطيران والسفانة والسفن والمعادن والفلزات والبناء... إلخ.

وتحسن الإشارة هنا إلى منهجية المكتب في اصطناع هذه المعاجم وقد نشرها في مجلة اللسان العربي المجلد ١٣/١٩٧٦، وهي تتلخص بأن المصطلح "يوضع بلغتين أجنبيتين هما الإنكليزية والفرنسية، ويوضع أمامه جميع المصطلحات التي عرب بها، منسوباً كل منها إلى صاحبه إن كان مجمعاً علمياً أو أستاذاً لغويًّا مشهوداً له بالتفوق أو معجمياً معروفاً، وينشر ذلك على شكل معجم ألفبائي ليوضع تحت أنظار العلماء العرب لمدة لا تقل عن ستة أشهر، ثم يدعو المكتب إلى مؤتمر للعلماء المتخصصين يعقد في ظل الجامعة العربية (المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم) بالعواصم العربية على التوالي فيتدارسون المعجم وينقدونه، ويختارون المصطلح الذي يريدون فيصبح شبه إلزامي".

ولا يخفى أن النقطة الأخيرة لم يقيض لها التطبيق العلمي على ما يدو.

هذا وقد عني المكتب أيضاً بخزن المصطلحات في البنوك الدولية للمصطلحات كمؤسسة (iso) في جنيف و(C. I. LF) في فرنسا، ووكالة الرابط الدولي في روما وغيرها، وكان معهد الدراسات والأبحاث بالرباط أسبق منه إلى ذلك.

والمكتب بعد هذا كله يلبي حاجات التعريب لدى بعض المنظمات والهيئات العربية والمختصة كمنظمة الطيران والاتحاد البريدي العربي وغيرها..

٢ ـ ٥ ـ منظمات وهيئات أخرى:

شغل التعريب كثيراً من المنظمات والهيئات الرسمية والمهنية على اختلاف أنواعها واختصاصاتها وسنقتصر هنا على ذكر أهمها تبعاً لما أنجزته من أعمال في هذا المجال:

أ ـ معهد الإنماء العربي ـ طرابلس الغرب ـ بيروت:

أنجز المعهد عملاً ضخماً في مجال التعريب وهو ترجمته لمعجم مصطلحات العلم والتكنولوجيا (مكروهيل الأمريكي) (Mcgraw - hill) إنكليزي ـ عربي الذي يضم نحو ١٠٨٠٠٠ مصطلح في أكثر من مئة علم وتخصص تطبيقي. وقد أنجز العلم بتضافر جهود أبرز الأساتذة المتخصصين في مختلف مجالات العلم والتقانة من المعنيين بقضية تعريب العلم وترجمته، مع الاستناد إلى الجهود السابقة المتنوعة والمختلفة في هذا المجال. وتمت طباعة هذا المعجم في أربعة أجزاء من القطع الكبير بلغت صفحاتها ٣٦٧٥ صفحة، عام ١٩٨٢ ـ ١٩٨٨ ولا زال هناك خامس خاص بالمصطلحات الأساسية عربي ـ إنكليزي ليسهل الاستدلال على المصطلح المطلوب مترجماً. ونستطيع القول إن ما توفر لهذا المعجم لم يتوفر لأي معجم آخر في مجال التعريب.

ب ـ لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية:

صدر عن هذه اللجنة في عهد الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١ المعجم العسكري وهو يشتمل على نحو أربعين ألف مصطلح، ولا يقتصر على الألفاظ العسكرية البحتة بل يتعداها إلى ألفاظ عديدة في علوم مختلفة لها صلة بالعلوم العسكرية، وجعل في قسمين، الأول

فرنسي ـ عربي، والثاني إنكليزي ـ عربي، واتخذ المعجم العسكري الكندي أساساً له لأنه أتم معجم في بابه.

ثم تطور العمل فيما بعد على يد الجامعة العربية ليصدر المعجم العسكري الموحد في أربعة أقسام: إنكليزي ـ عربي، فرنسي ـ عربي، عربي ـ إنكليزي، عربي ـ فرنسي.

ج ـ اتحاد الأطباء العرب:

وهو صاحب فكرة المعجم الطبي الموحد والمضطلع الأول به، أسهم معه في إخراج طبعتيه الأولى والثانية المجمع العراقي كما أسلفنا، ثم نهض الاتحاد بالطبعة الثالثة برعاية مشتركة بينه وبين مجلس وزراء الصحة العرب ومنظمة الصحة العالمية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وقد بذت هذه الطبعة سابقتيها بل كل ما صدر من معاجم طبية قبلها، إذا أصبح المعجم فيها ثلاثي اللغة (إنكليزي ـ عربي ـ فرنسي) مع تنقيح في بعض مواده وزيادة فيها حتى بلغت زهاء (٤٠٠٠٠) مادة اشتملت عليها ٧٦٠ صفحة. تلاها ١٦ صفحة للوحات إيضاحية و١٠٠ صفحة لمسرد عربي إنكليزي على ثلاثة أعمدة. تمت الطباعة في سويسرا بعناية مقرر اللجنة المكلفة به الدكتور محمد هيثم الخياط عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

٢ ـ ٦ ـ الجهود الفردية:

من الصعب أن تحصر الجهود الفردية في مجال التعريب التي توزعت على مختلف أنحاء الوطن العربي ـ بل وخارجه ـ منذ مطلع عصر النهضة حتى اليوم، ولئن كانت جهود المؤسسات والمجامع والهيئات الرسمية والمهنية لا تخلو من تكرار وتقاطع وفوضى، إن الجهود الفردية أكثر فوضى، فقد اختلط فيها الغثّ بالسمين، والأصيل بالدخيل، والجديد بالقديم، والعمل المبدع بالعمل المقلد. كما أنها تنوعت بتنوع الأشكال التي تصب في موضوع التعريب، إذ نجد فيها الترجمة، وصياغة المصطلحات، وتعريب العلوم، ووضع المعاجم العلمية وغير ذلك مما يتعلق بالتعريب أو يمت إلى موضوعه بصلة.

وسنكتفي هنا بذكر أمثلة تومئ إلى هذه الجهود دون استقصاء لها مقتصرين على ما صدر منها في العقود الثلاثة الأخيرة في مجال العلوم التطبيقية خاصة:

- معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية، أحمد شفيق الخطيب (لبنان ١٩٧١).
- معجم مصطلحات البترول والصناعة النفطية، أحمد شفيق الخطيب (لبنان ١٩٨١).
- معجم الرياضيات المعاصرة، د. صلاح الأحمد، د. موفق دعبول، د. إلهام حمصي (سورية ١٩٨٣).
- المصطلحات العربية في علوم المعلومات، رشيد عبد الحق (تونس ١٩٨٣).
- منتخبات من مصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض، د. عبد الله الغنيم (الكويت ١٩٨٤).
- قاموس المصطلحات البحرية، محمد بشير الكافي (لبنان ١٩٨١).
- معجم الراديو والتلفزيون والفيديو، بدران محمد بدران (مصر ١٩٨٠).
- معجم تكنولوجيا اللحام، د. أنور عبد الواحد (١٩٨٢).
- معجم الحراريات والأفران الصناعية، حمدي الدسوقي وأمين قاسم (١٩٨١).
- معجم تكنولوجيا الطباعة، إسماعيل شوقي وعلي رشوان (١٩٨١).
- معجم مصطلحات العقل الإلكتروني، ناظم عبد الرسول (لبنان).
- قاموس حتي الطبي، يوسف حتي (لبنان ١٩٧٢).
- المعجم الطبي، محمد أشرف (القاهرة ١٩٧٨).
- المعجم الطبي الصيدلي الحديث، د. علي محمود عويضة (القاهرة ١٩٧٠).
- قاموس المعلوماتية ومصطلحات الكومبيوتر، أ. د. حداد (لبنان ١٩٨٥).
- معجم مصطلحات طب الأسنان، د. قتيبة الشهابي (لبنان ١٩٨٧).
- المعجم الطبي النباتي، العماد مصطفى طلاس (دمشق ١٩٨٨).

٣ ـ العوامل التي تستوجب التعريب:

٣ ـ ١ ـ العامل الوطني الحضاري:

جابه الأمة العربية بعد أن استتب لها النصر على الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية عدد من التحديات الحضارية كان على رأسها التحدي العلمي. إذ واجهت منذ أواخر القرن الأول للهجرة وما تلاه من زمن علوم الهند وفارس والإغريق بكل ما فيها من ألفاظ ومعان، فاتسعت لها عندما نقلت إليها، وساعد على ذلك بلا شك خصائص في اللغة العربية لا توجد في لغات أخرى، ومقومات تؤهلها لأن تصبح في مقدمة اللغات الحضارية المعاصرة تعبيراً عما يجد من جديد في العقل البشري وأداء لكل ما يود التعبير عنه العالم والأديب والمثقف والمفكر والكاتب والخطيب والشاعر والناثر. ففي طبيعتها قدرة على النماء والبقاء والتطور وتقبل كل جديد والتواؤم مع كل مستحدث مبتكر، هذا إلى جانب وفرة الألفاظ والتراكيب ووفرة المعاني التي تؤديها هذه الألفاظ والتراكيب.

فاللغة روح المجتمع الحقيقي ووعاء ثقافته وأداته الأولى والرئيسية للتعبير الفكري عن حضارته، والمجتمع اللغوي يظل أقدم المجتمعات الإنسانية وأكثرها حضارة، ولم يسجل التاريخ قط أن أمة حققت التنمية والتقدم الحضاري بلغة غيرها من الأمم، وعلى الأخص لغات الأمم التي استعبدتها فكرياً وسياسياً. فالمسألة إذن ليست مسألة عزة قومية فحسب كما يقول المغرضون بقدر ما هي مطلب إنمائي وحضاري.

واللغة ليست ألفاظاً بل فكر ومن ثم لابد من استيعاب حضارة العصر عبر استعمال لغة المجتمع وسيلة وأداء. كما هو الحال في بعض دول العالم كاليابان مثلاً، فاليابان أوجدت شخصيتها عبر لغتها الخاصة فأصبحت اللغة اليابانية تقنية حديثة أي لغة لها عمق تاريخي وتراث ضخم من حقها أن تكون مثل اللغات الأخرى.

إننا في الدعوة لتوطين العلم واستنباته نعمل على صون وجودنا واستقلالنا الثقافي واللغوي، واستعادة دورنا البناء، والتخلص من التيه والاستلاب، والتوصل إلى كيان عصري يجمع بين الأصالة والحداثة، ويربط بين التراث والجدة، ويصل الماضي بالحاضر والمستقبل.

والعالم يشهد بأن اللغة العربية من اللغات القليلة التي تتصف بالغنى والمرونة، وقد استطاعت عبر التاريخ أن تؤدي مهامها القومية كاملة باعتبارها أداة أساسية للاستيعاب والتبليغ والإبداع، ولغة للحياة والفكر والعمل، ولم ينحصر دور اللغة العربية باعتبارها أداة للتعبير والتفكير على العرب وحدهم، بل امتد نفوذها أكثر من ذلك حتى أصبحت لغة دولية للعلم والحضارة، وقد استفادت أوروبا عبر التاريخ من المصطلحات العربية العلمية وخاصة في مجالات الفلسفة والهندسة والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية، كما تركت اللغة العربية آثاراً على اللغة الإسبانية والتركية، وكانت تدرس في الجامعات الأوروبية. وفي الوقت الحاضر اعترفت بها منظمة الأمم المتحدة لغة عالمية حية، وكذلك اليونسكو ومنظمة الصحة العالمية وغيرها واعتمدتها لغة رسمية فيها.

وإذا كان للغة في الماضي دور حضاري، فإن هذا الدور يكتسب أهمية أكبر في هذا العصر، عصر الثورة العلمية والتقانية، عصر حضارة الاتصال والمواصلات، فالكلمة اليوم أكثر سيولة وأبعد مساراً وتأثيراً عن طريق الاتصالات الإلكترونية عبر الفضاء. فهي تلف أطراف الأرض في أقل وحدات الزمن حساباً.

٣ ـ ٢ ـ العامل الاجتماعي:

تمثل اللغة أهم عامل في حياة الإنسان الفكرية والاجتماعية، كما أنها أولى الصفات التي تميز الإنسان بأنه حيوان قادر على البيان، وهكذا يرتبط الوعي القومي بالوعي الثقافي، وليس من ثقافة أصيلة دون لغة تستوعبها وتعبر عنها. فاللغة هي وسيلة التفاهم والاندماج الاجتماعي، وعامل مهم في التجانس القومي، وهي ليست مجرد أسلوب تعبير بل هي أساساً وسيلة ونمط للتفكير. فاللفظ اللغوي ينطوي على معنى أو فكرة أو عاطفة، ومن وحدة اللغة تتحقق وحدة التفكير ووحدة السلوك بين الأفراد ومن ثم يتحقق التماسك والتآلف الاجتماعيان.

إن تدريس العلوم باللغة العربية في الوطن العربي قضية مهمة لا يقتصر أثرها على التعليم العالي، بل هي قضية تتصل بتكوين الإنسان العربي، المتعلم والعالم بشكل خاص، وبالثقافة

العربية والمجتمع القومي، كما تمثل قضية التعريب قضية نفسية معنوية في المقام الأول، فهي استرداد للذات الوطنية الأصيلة التي سخّر لها الأجنبي قواه الفكرية والثقافية والقهرية المادية من أجل اقتلاعها من جذورها العميقة، ثم اختلاق ذات أخرى مفتعلة لتحل مكانها قسراً في النفس العربية. وهكذا تعطلت اللغة العربية خلال عهود السيطرة الأجنبية عن تأدية جوانب مهمة من دورها الطبيعي بوصفها لغة قومية، مما أدى إلى عزل اللغة عن مسار التطور التاريخي للمجتمع العربي، وساد استخدام اللغة الأجنبية في التعبير عن الاحتياجات المتصلة بحياة المجتمع العربي.

من هنا نشأت داخل بعض المجتمعات العربية ظاهرة اجتماعية خطيرة ألا وهي تجنب فئات المثقفين العرب للغة العربية واتخاذهم موقفاً سلبياً منها، ثم الربط بينها وبين مظاهر التخلف. وأصبح الارتقاء في درجات السلم الاجتماعي متوقفاً إلى حد كبير على الانتماء الثقافي واللغوي بعيداً عن اللغة العربية، بينما خاف المتفرنجون على أوضاعهم الاجتماعية المكتسبة فعارضوا بشراسة كل سياسات التعريب. وأما التلازم في أذهان بعض المثقفين من العرب بين التخلف الاجتماعي والتقاني من جهة وبين الثقافة واللغة العربية من جهة أخرى فهو وهم خاطئ، فالمعاصرة التقانية قائمة في جانبها أساساً على اكتشاف قوانين الطبيعة وخصائصها الذاتية التي هي جزء من سنن الكون.

إن الوحدة اللغوية تشكل قاعدة مشتركة لكل المثقفين بثقافات مختلفة لصب معلوماتهم في قالب واحد ونقلها إلى قطاع واسع من جماهير الشعب، وما دام ربط الجامعة بالمجتمع شعاراً تقدميًا فإنه لن يتحقق إلا إذا كانت هناك لغة مشتركة واحدة بين الجامعة والمجتمع فتتفاعل الأطر وتنشر الثقافة العامة والعلم بين الجماهير وتتأصل فيها، وديمقراطية التعليم تحتم استمراريته لتلاميذ المدارس العربية لا الأجنبية فقط وبنفس اليسر والسهولة.

ولكن هل تعني دعوة التعريب إهمال اللغات الأجنبية كما يقول بعضهم؟. إننا نعتقد جازمين أن التعريب يجب ألا يتعارض إطلاقاً مع تعلم اللغات الأجنبية وتدريسها، وإذا كان للتعريب أسبابه ودواعيه فإن لتعليم اللغات الأجنبية أيضاً أسبابه ودواعيه.

ليس من أحد يريد أن يكون التعريب اكتفاء أو انغلاقاً بل يريده الداعون إليه اعتناءً وانفتاحاً، اغتناء بتمكين المتعلم من كسب أكبر قدر ممكن من المعرفة وبأيسر السبل، وانفتاحاً على نتاج المعرفة في البلدان المتقدمة.

ينبغي للمتخصصين من أبنائنا أن يكون في مقدورهم الوقوف على مصادر المعرفة بلغة أجنبية واحدة على الأقل يتقنونها كل الإتقان ويتابعون التخصص فيها إذا شاؤوا ويرجعون بواسطتها إلى المراجع العلمية المدونة بها من كتب ومؤلفات وموسوعات ودوريات.

لسنا نحن العرب أول أو آخر من فكروا بجعل لغاتهم الوطنية لغة للعلم والتعليم في بلادهم، بل فكرت بذلك وحققته أقوام وشعوب أقل منا عدداً وأصغر رقعة أرض، وأفقر لغة وأضأل قدرة بشرية ومادية، وليس لها مشاركة مثل مشاركتنا في صنع الحضارة الإنسانية وتطوير المعرفة البشرية في العصور السالفة.

٣ ـ ٣ ـ العامل النفسي والتربوي:

نحن نعيش اللغة العربية منذ الطفولة، فهي تخالط تفكيرنا وشعورنا، ونحس بالألفة معها والأنس بها، إنها ليست شيئاً منفصلاً عنا أو كساء نرتديه اليوم ونخلعه غداً، حسبما نشاء، هي معنا منذ نعومة أظافرنا فهي كالأم قرباً إلى النفس وانبثاثاً في حنايا القلب وخلجات الضمير.

لقد درس علماء النفس والتربية صلة الإنسان بلغته التي تقر بوجدانه وتندرج على لسانه وصلته بغيرها من اللغات، فوجدوا فارقاً في الحالين كالفارق بين الألفة والغربة واليسر والعسر، وقد بينت التجارب أن الاستيعاب باللغة الأم أكبر من الاستيعاب بلغة أجنبية.

وإذا كان هذا حال كل لغة فما حال اللغة العربية بالذات وهي الثابتة الراسخة من حيث بنيتها وصرفها وطبيعة تركيبها اللفظي الذي يكون جوهر اللغة ذاتها، والمتطورة من حيث أساليبها ومفرداتها ومصطلحاتها، والغنية بالطاقات الكامنة فيها.

إن القول بافتقار اللغة العربية وتخلفها ليس صحيحاً، فمن الناحية النظرية لا توجد هناك لغة متخلفة من حيث الأساس وإنما هناك شعب متخلف، فالشعوب المتخلفة تعكس تخلفها

على اللغة فتضعف وتنهار، والشعوب المتقدمة تعكس تقدمها على لغتها فتقوى وتتماسك، والمصطلحات في اللغة وليدة احتياجات، فلا تتكون إلا عندما يشعر الناس بالحاجة إليها فيضطرون إلى البحث عنها في أحاديثهم أو كتاباتهم، ولهذا عندما انقطع الناطقون بالضاد عن التفكير في مواضيع العلوم توقف نمو اللغة ونشوء المصطلحات بطبيعة الحال. من هذا المنطلق نجد أن استبدال اللغة الأجنبية في التعليم باللغة العربية يجمدها ويضعفها، لأن اللغة كائن حي يولد وينمو مع الزمن ويتأثر بالبيئة الاجتماعية والطبيعية، فإذا ما جعل في عزلة أو بعد عن مجاري الحياة ومسافات التطور صغر وجمد في مكانه.

لقد بينت الدراسات أن التدريس باللغة الأجنبية لا يقتصر أثره السلبي على الحد من التعمق في التحصيل العلمي للطالب بل يتعداه إلى الضعف في بناء شخصيته العلمية والفكرية نظراً للصعوبة التي يواجهها في تحقيق الاتصال المؤثر مع محيطه العلمي أثناء الدراسة ثم مع محيطه العلمي بعد التخرج، وقد يكون هذا الخلل في التأهيل اللغوي من أهم العوامل التي تحد من مستوى أدائه في المراحل اللاحقة لتخرجه. ومن هنا يتحتم علينا أن نعطي للغة العربية مجالها الطبيعي والأساسي في التدريس من جهة، وأن نفتح بقوة قنوات الاتصال والاحتكاك العلمي مع العالم الخارجي من خلال إعطاء اللغة الأجنبية مجالها الطبيعي المكمل من جهة أخرى.

٣ ـ ٤ ـ العامل الاقتصادي:

الأمة العربية وحدة واحدة تلهج بلغة الضاد، وهي ممتدة على مساحات واسعة من الأرض ويبلغ تعدادها المئتي مليون نسمة، ويأتي من بعدها الشعوب الإسلامية التي يلزمها دينها تعلم لغة القرآن الكريم. ومن هنا فالتعريب بمعناه الواسع للتعليم والمعاملات وللكتب وللدوريات وللحاسبات وللمعلومات سيجد بلا شك سوقاً رائجة يخفض من كلفة الإنتاج إلى حد كبير ويفتح مجالات واسعة للعمالة العربية للعمل في تأليف وترجمة وطباعة ونشر وتوزيع، ويقلل من عوامل التبعية الخارجية. ولا شك بأن تحقيق كل ذلك يتطلب من الدول العربية الشقيقة وضع خطط مدروسة تؤمن التبادل الثقافي والإعلامي والتجاري فيما بينها وتزيل

العقبات التي تقف حجر عثرة في سبيلها. كما أن التعليم بالعربية يخفض من نفقات الإيفاد الذي يستنزف الكثير من العملة الصعبة.

٤ ـ المشاكل التي تعترض التعريب وكيفية مجابهتها:

وإذا كان الأمر يستوجب التعريب كما رأينا، فما المشاكل التي يمكن أن تعترض هذه العملية لنقف عليها ونجد الحلول الناجعة لها كي نصل إلى هدفنا بيسر ومن دون أن نهبط بالمستوى التعليمي.

يمكن حصر أهم المشاكل في أمور أربعة: المصطلح العلمي العربي، والكتاب العلمي والترجمة الجيدة، والبحث العلمي والدوريات، والمدرس.

٤ ـ ١ ـ المصطلح العلمي العربي:

ليست قضية المصطلح من حيث هو ألفاظ يعبر بها عن مسميات ومعان مفردة ـ بصميم المشكلة كما يصورها أكثر الباحثين، وإنما صميم المشكلة كما أسلفنا هو الاقتدار على وعي المعاني العلمية وتصورها ثم الإبانة عنها، وإن تخلل ذلك وجود مصطلحات أجنبية يعمل فيما بعد على إيجاد البديل العربي لها وهنا تكمن مشكلة المصطلح العلمي العربي.

تعيش الأوساط العلمية العربية اليوم مرحلة مماثلة لتلك المراحل التي عاشها أجدادنا في القرن الثاني، فهي تجدِ في طلب المعرفة والعلم والنقل من لغات الأمم التي أحرزت سبقاً في ميدان المعرفة والعلوم.

ونتساءل هل تسعفنا لغتنا في أداء المهمة التي نتصدى لها؟ هذا سؤال لا بد من طرحه، وتتوقف الإجابة عنه على أمور كثيرة تتعلق بمصير اللغة والثقافة العربية لأن موضوع المصطلح هو ذريعة دعاة التغريب وخصوم التعريب، يشهرونها حيث يسقط في أيديهم وتتهاوى حججهم الباطلة حول عسر العربية واستحالة التعريب.

لم تقصر اللغة في استيعاب العلم في الماضي، ولا تقصر في استيعاب المعرفة بكل أنواعها اليوم، لما أوتيت من خصوبة وغنى وقدرة على التوليد والاشتقاق، ولكننا نحن الذين نقصر في

درسها والتعمق فيها والكشف عن كنوزها والإفادة مما يمكن أن تقدمه من عون على التعبير والإفصاح، لقد اتسعت العربية في القديم للعديد من المصطلحات واتسعت في العصر الحديث للعديد منها أيضاً ويمكنها أن تتسع لها باستمرار، وهذا كله دليل صحة وحيوية وإشارة قدرة وغنى. إن البحث عن المصطلح الجديد ليس خاصًّا بالعربية وحدها، بل هو شأن اللغات جميعاً، وذلك أن كل لغة مدعوة للتعبير عن المعاني المستجدة والدلالة على المستحدث.

والسؤال الذي يطرح هو: كيف استطاع النقلة في الماضي إيجاد المصطلح؟ يجيبنا عن ذلك الأمير مصطفى الشهابي فيقول: تتلخص الطرائق التي استعملها الأقدمون في:

- تحوير المعنى اللغوي للكلمة العربية وتضمينها المعنى الجديد.
- اشتقاق ألفاظ جديدة من أصول عربية أو معربة للدلالة على المعاني الجديدة.
- تعريب كلمات أعجمية وعدها صحيحة.
- ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها.

ويعتبر أن هذه الطرائق التي اتبعت آنذاك ما تزال صالحة في يومنا هذا لوضع المصطلحات للعلوم الحديثة.

لم يكن في الماضي مجامع لغوية أو لجان جامعية أو مكاتب تعريب أو دوائر معاجم، ولذا كان جهد الفرد النابه هو الذي يعوض عن ذلك كله ويسد مسده. وأما اليوم فنجد، بالإضافة إلى الجهود والمحاولات الفردية التي مهما كانت جادة ومهما اتصف واضعوها بالشمولية العلمية والاطلاع الواسع والدقيق على مفردات اختصاصهم العلمي، ومهما كانت لهم خبرات طويلة في تحقيق التراث العلمي أو اللغوي، فستبقى جهوداً قاصرة عن الوصول إلى المصطلح العلمي الصحيح والملائم للذيوع والانتشار. جهات عديدة رسمية تعمل في حقل المصطلحات حتى إن المشكلة لم تعد في إيجاد المصطلحات بل في كثرة عددها وضرورة توحيدها واختيار اللفظة العربية الواحدة، كلما أمكن ذلك، للمصطلح العلمي الواحد، وذلك وفق منهجية موحدة لوضع المصطلحات العلمية، وهو الشيء الذي ما زلنا نفتقر إليه حالياً رغم المحاولات العديدة

التي تمت وخاصة في الندوة التي دعا إلى انعقادها مكتب تنسيق التعريب في الرباط عام ١٩٨١ بشأن "توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة" إذ إن هذه الندوة بعد أن نظرت في المنهجيات والبحوث المقدمة من المجامع اللغوية والمؤسسات المختصة والباحثين أقرت عدداً من المبادئ والاقتراحات المفيدة التي يمكن اعتبارها أساساً لمنهجية وضع المصطلح العلمي.

وأما الطرق المستعملة في وضع المصطلح فمعروفة لا نرى من الضروري الوقوف عندها كثيراً وهي الاشتقاق، والمجاز، والنحت، والتعريب.

الاشتقاق: هو أن تنتزع كلمة من كلمة أخرى على أن يكون ثمة تناسب بينهما في اللفظ والمعنى، والاشتقاق الصغير هو الذي يتضمن الحروف الأصلية عدداً وترتيباً (شارب من شرب)، والاشتقاق الكبير هو وجود تناسب في اللفظ والمعنى دون ترتيب في الأحرف (جذب وجبذ)، وأما الاشتقاق الأكبر أو الإبدال فهو حيث يوجد اختلاف في الأحرف (مثل عنوان وعلون).

والمجاز: هو لفظ يستعمل في غير ما وضع له مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي كلفظة أسد ونقصد بها الشجاع.

والنحت: هو انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر على أن يكون تناسب في اللفظ والمعنى بين المنحوت والمنحوت منه كقولنا البسملة والحمدلة وكهرطيس وأفروآسيوي وبرمائي...إلخ.

وأما التعريب: فهو أن يلفظ العرب الكلمة الأعجمية على طريقتهم ويسمى أيضاً الدخيل. والتعريب قديم لا ضير فيه إذ إن جميع اللغات يقتبس بعضها من بعض عند الحاجة، كالإبريق والقرنفل والفردوس والكهنوت والأسباط والتابوت والفلم والسينما والإلكترون والأيون.

إن العمل في حقل المصطلحات لا ينتهي إذ يغمرنا في كل يوم سيل من الألفاظ والأسماء لمستحدثات العلم ومكتشفاته في المختبرات والمعامل الكيماوية والفيزيائية والحيوية والصناعية والفضائية والمعلوماتية وسواها، نرى من الضروري تتبعها وإيجاد مرادفاتها العربية وتعميمها قبل أن يتلقفها الإعلاميون وقليلو الخبرة ويضعوا لها مقابلات اعتباطية تشيع بين العامة

والخاصة يصبح بحيث يغدو من الصعب علينا بعد ذلك أن نستبدل بها مصطلحات علمية دقيقة ومضبوطة.

إن المبالغة في تعداد الصعوبات التي تواجهنا في إيجاد المصطلح العلمي لا ضرورة لها، ويجب أن لا يقف ذلك عائقاً بيننا وبين البدء بالتعريب، إن المشكلة في أمر المصطلح هي وجود المصطلحات التي قامت بوضعها جهات علمية عديدة، ولم يتح لها أن ترى النور لأن أكثر الجامعات والمؤسسات العلمية لا تعلّم بالعربية. وليس في التعليم الجامعي في مرحلته الأولى من الألفاظ الأعجمية ما يعجز العلماء والباحثين، ويبدو أن ممارسة التعليم بالعربية، بدل التردد والتخوف، هي وحدها تساعدنا في تذليل ما قد يعترض من عقبات.

إن استخدام المصطلحات الأجنبية أحياناً، إذا ما دعا الأمر لذلك، لا يعيق تطور العلم، ولكن التعليم بلغة أجنبية تدريساً وتأليفاً يحدّ من قدرة المتعلمين الفكرية والإبداعية، فهو يستنفد قدراً كبيراً من مجهودهم الفكري الذي يصرفونه في تعلم اللغة الأجنبية ومحاولة التفكير بها، واستجابة المتعلمين للغة الأم لا يمكن أن تكون كاستجابتهم للغة أجنبية مهما أتقنوها، كما أن استجابتهم للغة أخرى غير مألوفة يظل محدوداً، وقد تظل ظاهرتا النبوغ والإبداع أكثر وضوحاً بين أصحاب اللغة بالمقارنة بمن يفكرون بلغة أجنبية. والعمل على إيجاد المصطلح العلمي العربي وخاصة في مجال العلوم التطبيقية يبقى ضرورياً من أجل إغناء اللغة العربية وتطويرها.

إن المشكلة الكبرى التي تواجهنا اليوم في موضوع المصطلح هي توحيده، والإلزام به، وهما يحتاجان حقاً إلى قرار سياسي ملزم.

ولا شك بأن التقانة الحديثة والاستفادة من الحاسوب يحلان كثيراً من المشاكل التي تعترض توحيد المصطلح وشيوعه.

٤ ـ ٢ ـ الكتاب العلمي والترجمة الجيدة:

الكتاب العلمي المعرب هو الأداة الرئيسية في تعريب العلوم، ويمكن توفيره بالتأليف أو الترجمة الجيدة سواء أكان كتاباً منهجياً أو مرجعياً. وللترجمة دور فعال في توفير الكتاب المعرب وإنجاح عملية التعريب. لقد بدأت أول ترجمة ذات طابع علمي في الإسلام على يد الأمير خالد

ابن يزيد بن معاوية في القرن الأول للهجرة، وكانت مؤلفاته أول تأليف في مجال الحكمة، وقد تابع الخلفاء الأمويون هذا النهج، إلا أن النهضة العلمية الأولى حدثت في القرن الثالث للهجرة وما بعده إذ انطلقت من حركة ترجمة علمية واسعة تمت في نطاق بيت الحكمة. وأما النهضة العربية العلمية الثانية فقد انطلقت في مطلع القرن الماضي وما بعده من حركة ترجمة علمية واسعة تمت في رحاب دار الألسن. إن معرفة ما وصل إليه الآخرون عن طريق الترجمة، هو نقطة البدء في الكشف عن المجهول، في رحلة الإبداع التي تضع الأمة في مسار الثقافة العالمية وحضارة العصر.

والتعريب لن يأخذ مداه بشكل جيد إلا بإنشاء دور للترجمة والتعريب بصورة موسعة، وقد يساعد ذلك على استقطاب الكفاءات العربية المعاصرة. كما أن الترجمة ليست عملاً فورياً وآلياً بقدر ما هي عمل إبداعي، وتحقيق هذا الجانب يتطلب إنشاء دور للنشر إلى جانب تلك الدور لكي تقوم بطبع ما ينتجه المترجمون والمعربون ونشره.

وقد يشكو الكثيرون من عدم توفر الكتب العلمية العربية ويتخذون من ذلك حجة ضد تعريب التعليم، قد يكون هذا صحيحاً ولكنه ليس بالأمر المستغرب. فلمن يؤلف المؤلفون ويترجم المترجمون الكتب العلمية إذا لم يكن هناك من يطلبها؟ فالذين تعلموا بغير العربية لا يستسهلون مطالعتها، والذين يدرسون بالأجنبية لا يرون ضرورة اقتنائها.

إن التعليم بالعربية وتوفر الكتب العلمية المعربة شيئان متلازمان، وما علينا إلا حسن اختيار المراجع العلمية القيمة الواجب ترجمتها وتشجيع الاختصاصيين العرب على التأليف والترجمة لقاء مكافأة مادية مجزية، وأن يتم ذلك ضمن منهج مبرمج مدروس عبر لجان تدقيق علمي ولغوي قادرة.

كما أن مستقبل المصطلحات العلمية مرتبط إلى حد كبير بقضية تعريب التعليم في جميع مستوياته، إن اللغات التي هي أقل من اللغة العربية شأناً كاللغة التركية والفارسية والعبرية قد قطعت في ميدان العلوم العصرية أشواطاً بعيدة فأصبحت تدرس بها شتى فروع العلم الحديث من طب وهندسة وإلكترونيات وسواها، كما نجحت في أن تكون لغة المؤتمرات العلمية في

الكيمياء والفيزياء وغيرها، وتسنى لها إدخال آلاف الكلمات العلمية والتقانية ذات الطابع العلمي ضمن مفرداتها.

إن التعريب يجد في الترجمة والتأليف مدده وغذاءه، وهما بدورهما يجدان في التعريب أثرهما وجدواهما.

٤ ـ ٣ ـ البحث العلمي والدوريات:

البحث العلمي هو السبيل إلى المشاركة في حضارة هذا العصر والإسهام في إغناء المعرفة البشرية، وهو في الوقت ذاته مطلب ينبغي تحقيقه وبذل الجهد والطاقة فيه لدواعٍ قومية وحضارية وتنموية، فهل نباشره بلغة غيرنا فنخسر أن يكون نتاجاً علمياً عربياً، لأن اللغة هي التي تمنح البحث العلمي جنسيته وهويته، أم نهجره ونتقاعس عنه فنخسر معاصرة صحيحة ونظل خارج حدود زماننا؟ أم نجمع بين المعرفة المبتكرة الجديدة مضموناً واللغة العربية تعبيراً؟ ونوائم بين الأصالة التي تشكل العربية إحدى مكوناتها وبين الحداثة التي تشكل المعرفة العلمية والثقافية أهم ركائزها.

إن الجمع والمواءمة بين الأمرين ليسا في حدود الوجوب فحسب، بل هما في حدود القدرة والإمكان كذلك.

إننا أمام ثورة علمية وتقانية مهدها البلدان المتقدمة أو المصنعة وساحتها المعاهد والجامعات والمختبرات والمراكز والمؤسسات العلمية والتقانية التي يعمل فيها أعداد كبيرة من الباحثين وينفق عليها بسخاء باعتبار البحث العلمي من أفضل أنواع الاستثمار.

هذه الثورة التي تشكل جانباً مهماً من خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في تلك البلدان، ليس من صالحنا أن نقف مكتوفي الأيدي أمامها لأننا بذلك نحكم على أنفسنا بالتخلف والعجز والبقاء على باب العصر نستهلك من منتجاته ما نستطيع دون المشاركة في أحداثه.

البلدان العربية مدعوة إلى اقتحام ميدان البحث العلمي بدافع تحقيق القدرة الخاصة والاكتفاء الذاتي على المستويين القومي والوطني، وقد صار دخولنا ميدان البحث العلمي في

حدود الإمكان بعد أن خلصت الأقطار العربية تباعاً من السيطرة الأجنبية والسيطرة السياسية، وملكت مقدراتها وبذلت مساعي جادة لإنشاء وتطوير مؤسسات مركزية ومراكز للبحث العلمي والتقاني تحاول أن تقوم بأعمال البحث داخل كل قطر، وتوجيه هذه الأعمال لخدمة خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

والباحث العلمي هو باعث البحث وصانعه وعماده، ولا يقوم تكوين هذا الباحث على المعرفة العلمية والتقانية فحسب بل كذلك على اللغة التي يؤدى بها البحث العلمي، وإذا كانت دراسته باللغة الأم، وهذا ما ينبغي أن يكون، فمن الطبيعي أن يدون الباحث بحوثه ويلقيها أو ينشرها باللغة العربية.

ولا يظنن ظانّ أن تعريب التعليم العلمي يعني استقاء المعرفة والاطلاع على آراء الآخرين وتجاربهم باللغة العربية فقط، ولاسيما إذا كانت الترجمة لا توفر للباحث كل ما يريد الاطلاع عليه. إن إتقان الباحث لغة أجنبية يمكنه من الرجوع إلى مصادر المعلومات في الموسوعات والمؤلفات والدوريات الصادرة بإحدى لغات البلدان المتقدمة وعلى الأخص في غياب حركة نقل علمية مخططة وهادفة، المهم أن تحتفظ اللغة العربية بمقامها أداة للتفكير العلمي والتعبير، ولا تحل لغة أجنبية محلها في التعليم والتعلم والبحث، بل تكون اللغة الأجنبية للغة العربية رافداً ومعيناً.

وعندما ينشط الباحث تتوافر الدوريات والمجلات العلمية العربية ويعم النشر العلمي بالعربية.

٤ ـ ٤ ـ المدرس:

من أكبر المشاكل التي تعترض عملية التعريب عدم وجود المدرس القانع بقضية التعريب والمؤهل باللغة العربية والقادر على تبليغ رسالته.

لقد ابتعد كثير من المدرسين عن اللغة العربية لضعف تأهيلهم فيها أصلاً، أو لتلقي علومهم بلغة أجنبية مما جعلهم يعتقدون بعدم صلاحية العربية للتعليم، ومن ثم تولدت لديهم

الرهبة من العربية والشعور بعدم تمكنهم من المحاضرة والتعليم بها فراحوا يقاومون أي محاولة للتعريب رغم اعترافهم ضمناً، بأفضلية العربية لنقل المعلومات العلمية إلى الطلاب.

وهذا ما يدعونا إلى معالجة هذه المشكلة بكثير من الروية والجهد، وفي تقديرنا أن ذلك يبدأ من:

١ ـ التوعية حول جدوى التعريب وذلك بتنظيم المحاضرات والندوات والاجتماعات لبحث أمور التعريب بصورة عامة، وأهميته التربوية والمهنية والاجتماعية والفكرية والقومية، وضروراته بالنسبة لكافة معاهدنا ومدارسنا، ومناقشة مشاكله الحقيقية والوهمية.

٢ ـ التوعية بيسر التعريب وإزالة الرهبة من القلوب، وذلك بتنظيم محاضرات علمية باللغة العربية، وزيارات دورية للكليات التي تدرس بالعربية، والاطلاع على إنجازات خريجي هذه الكليات مع إنجازات خريجي كلياتهم في الدراسات العليا.

٣ ـ تأهيل المدرس ليتمكن من المحاضرة بالعربية وذلك بتوفير الكتب المبسطة لقواعد اللغة العربية وتنظيم دورات تدريبية في هذا المجال.

٤ ـ ممارسة الكتابة بالعربية إما بإلزام المدرسين بكتابة مقالاتهم وكتبهم، أو بعضها، باللغة العربية، أو ترجمة كتب ومراجع علومهم إلى العربية، ويوضع ذلك باعتباره أحد الشروط الأساسية لترقياتهم العلمية.

وإصدار المجلات والنشرات المتخصصة باللغة العربية.

٥ ـ نحو تجربة حديثة في التعريب:

يبدو من خلال ما تقدم أن لا مناص من القيام بحركة واسعة لتعريب العلوم التطبيقية تكون حلقة جديدة في سلسلة التجارب الناجحة للتعريب، فالمجتمع العربي بجميع أفراده وهيئاته راغب في أن تكون لغته لغة العلم، وراغب في أن يسترد هويته القومية كاملة ويبني ثقافته الخاصة. وقد أصبح من الضروري في هذه المرحلة من حياة الأمة الخروج من الحديث النظري المكرر عن التعريب إلى اتخاذ القرار في ذلك على المستويين القومي والقطري.

إن استكمال التعريب وسلامة حركته واتجاهها نحو تحقيق غاياته في النهضة الثقافية والعلمية العربية لا يمكن أن يتم في نطاق قطر واحد أو مجموعة أقطار عربية، وإنما يحتاج الأمر إلى أن تتضافر الجهود العربية جميعها، فالحكومات العربية مسؤولة عن اتخاذ القرار السياسي وإصدار التشريعات الملزمة في تعريب المدارس والجامعات وجميع مؤسسات الدولة، كما أن الهيئات العلمية مسؤولة عن إنشاء آلية دائمة ومستقلة لرصد الكتب والمنشورات العلمية التي تصدر عن دور النشر العالمية كل سنة، والعمل على ترجمة أفضلها وأكثرها أهمية، ووضعها في متناول الطلبة والأساتذة في كل الجامعات العربية، وتأمين قنوات نشطة ودائمة للاتصال والتبادل العلمي والفكري بين برامج الدراسة الجامعية في كل التخصصات، وخاصة العلمية منها، وبين المؤسسات المتقدمة المقابلة لها في الخارج، والسعي لتبني مقاييس عالمية للتنافس في سائر المجالات الهامة للنشاط في الخارج مثل الأبحاث والتأليف والنشر وبرامج التدريس.

ولعل الذي نحتاج إليه قبل كل شيء أمران:

أحدهما: منهجية واضحة في العمل، تحرص على أن تجمع أو تعرف كل ما كان أولاً وتفيد من كل جزئية، ثم تضعه في مكانه المناسب من البناء الكلي ليكون لبنة أساسية في هذا البناء.

والآخر: برنامج زمني يراعى التزامه والتقيد به، حتى لا تبقى حكاية التعريب حكاية طويلة لا حدود لها.

وعلى هدي هذين الأمرين بوسعنا أن نقترح الخطوات التالية التي يمكن أن تسهم فعلياً في إنجاح تجربة التعريب الحديثة:

١ ـ الانطلاق في قضية التعريب من القرار السياسي الصارم والملزم على مستوى الدولة تشريعاً وممارسةً على مختلف الصعد بما يجعل التعريب خطة وطنية معممة على جميع القطاعات.

٢ ـ إنشاء جامعة أو كلية للتعريب في إطار الجامعات العربية غايتها تأهيل أساتذة الجامعات ليغدوا قادرين على تسيير متطلبات تعريب التعليم في الجامعات والمعاهد العلمية، ويمكن أن يكون لهذه الكلية أقسام تلائم مختلف الاختصاصات أو تجمع ما تقارب منها، كأن

يكون هناك قسم لتعريب الطب والصيدلة، وآخر للعلوم الأساسية.. إلخ. ويلتزم كل قسم بتلقف المصطلحات المستجدة في اختصاصه ليعمل على تعريبها.

٣ ـ تعميم فكرة مكتب تنسيق التعريب بإقامة فروع له في مختلف البلدان العربية، لا يقتصر عملها على تنسيق تعريب المصطلحات، وإنما تكون على صلة مباشرة بالجامعات والمجامع والهيئات العلمية المختلفة، تضع الخطط اللازمة لتعريب المناهج الدراسية وتلاحق تنفيذها مفيدة مما تخرجه المجامع وغيرها من مصطلحات مناسبة لها.

فإن تعذر إنشاء فروع للمكتب في بعض الأقطار العربية فلا أقل من مراسلين يوافون المكتب بما تم التوصل إليه في ذاك القطر ليعمل هو على تنسيقه وفق خطته وإيصاله من ثم إلى كل من هو مظنة الإفادة منه.

٤ ـ مشاركة الاتحادات العلمية العربية في عملية التعريب، وقد بدأ بعضها بذلك إذ أصدر اتحاد كل من المهندسين العرب والفيزيائيين العرب والأطباء العرب معاجم موحدة تحوي العديد من المصطلحات المعربة، وسيلحق بها قريباً اتحاد الكيميائيين العرب، والأمل معقود على البقية الباقية لتصنع صنيع من سبق.

٥ ـ الإفادة من التقانات الحديثة في عملية التعريب، وعلى رأسها الحاسوب الذي وسم العالم المتحضر بسمته، ولعل في ذلك حلاً أمثل لمواجهة الحجم الهائل من المصطلحات العلمية التي ترفدنا بها حضارة اليوم، إذ يحتاج تعريب هذه المصطلحات ومعالجتها إلى طاقة جبارة في التخزين وفي توليد المقابلات العربية واختيار الأمثل منه.

أما تخزين المصطلح فقد قامت أكثر من جهة عربية في المغرب والسعودية وغيرها بتزويد بنوك المصطلحات بمئات الآلاف من المصطلحات المعربة مع مقابلاتها بعدة لغات أجنبية، والمطلوب في هذا المجال هو توحيد الجهود وعدم تشتتها. وذلك بإقامة بنك عربي موحد للمصطلح المعرب يغذى من كل الأطراف العربية وتفيد منه كل الأطراف العربية.

وأما توليد المصطلح فلعل خير ما يمكن الاعتماد عليه في هذا نظام خبير للغة العربية يعالج مستويات اللغة المختلفة صرفياً ونحوياً وصوتياً.. ويشتمل على معجم حاسوبي، وقاعدة معطيات لجذور اللغة العربية، ونظام توليد للكلمة العربية وتحليل لها... إلخ.

هذا وقد تم إنجاز جوانب من هذا النظام في مركز الدراسات والبحوث العلمية بدمشق، منها بناء النظام الصرفي النحوي للعربية بالحاسوب الذي يقوم بتوليد الكلمة العربية والحصول على كل مشتقاتها ومزيداتها بتصريفاتها المختلفة القياسية والسماعية والشاذة المستعمل منها والمهمل، فيضع بذلك بين يدي المعرب كل الصيغ والأوزان الممكنة في العربية ليختار منها ما يناسب حاجته.

ومنها بناء قاعدة معطيات للجذور العربية اعتمدت على خمسة من أمات المعاجم العربية (تهذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سيده، وجمهرة اللغة لابن دريد، ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروز آبادي) وشفعت بدراسات تحليلية ونتائج إحصائية رمت إلى تحديد قوانين ائتلاف الحروف واختلافها أو تنافرها ودورانها في الكلام العربي مما يدخل في طوق نسج الكلمة العربية ويمكن المعرّب من اعتماد نظام دقيق لوضع المصطلح العربي.

إن الهدف الأكبر والأبعد لمثل هذا النظام الخبير هو الوصول إلى الترجمة الآلية بمساعدة الحاسوب Computer Aided Translation حيث يمكن أن تؤتي تجربة التعريب الحديث أكلها على نحو أفضل تواكب فيه ضخامة الحجم الذي يحتاج إلى عملية التعريب من الكتب والمناهج والعلوم، كما تلائم ما يفرضه ذلك من سرعة ملحة وتقنيّة عالية.

مراجع البحث

❖ بيت الحكمة، سعيد الديوه جي، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢.

❖ الترجمة قديماً وحديثاً، شحادة الخوري، دار المعارف، سوسة ـ تونس، الطبعة الأولى ١٩٨٨.

❖ تعريب التعليم الطبي والصيدلي في الوطن العربي، شحادة الخوري، دار الرائد العربي. بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧.

❖ تعريب علوم الطب، د. حسني سبح، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٦٠ الجزء ٤ سنة ١٤٠٦ ـ ١٩٨٥.

❖ تعريب المصطلح العلمي "إشكالية المنهج" د. قاسم السارة، مجلة عالم الفكر المجلد ١٩ العدد ٤ سنة ١٩٨٩.

❖ التعريب وتنسيقه في الوطن العربي، د. محمد المنجي الصيادي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٤.

❖ التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، ندوة فكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢.

❖ التعليم العالي بين التعريب والتغريب، د. مصطفى حلمي و د. يوسف السلطان، ورقة عمل. جامعة الكويت ١٩٨٩.

❖ ثقافتنا المعاصرة بين التعريب والتغريب، د. فؤاد زكريا، مجلة العربي، العدد ٣٠٢ سنة ١٩٨٤.

❖ حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي في القرنين الأول والثاني للهجرة، د. رشيد الجميلي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.

❖ شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثامنة ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦.

❖ الفصول في الحساب الهندسي، أحمد بن إبراهيم الإقليدس، تحقيق د. أحمد سعيدان، منشورات جامعة حلب ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥.

❖ قاعدة معطيات للجذور العربية، محمد حسان الطيان ويحيى مير علم ود. محمد مراياتي، المؤتمر الثاني حول اللغويات الحسابية العربية، الكويت ١٩٨٩.

❖ قضية المصطلح العلمي، د. شاكر الفحام، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٥٩ الجزء ٤ سنة ١٤٠٥ ـ ١٩٨٤.

❖ اللغة العربية في التعليم العالي، د. مازن المبارك، مؤسسة الرسالة، دار النفائس بيروت ١٩٧٣.

❖ اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، د. عبد الكريم خليفة، مجمع اللغة العربية الأردني، عمان الطبعة الثانية ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨.

❖ اللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة في عالمنا الإسلامي، د. كارم السيد غنيم، مجلة عالم الفكر، المجلد ١٩ العدد ٤ سنة ١٩٨٩.

❖ المؤتمرات والندوات التي عقدتها المنظمات والهيئات العربية حول تعريب التعليم الجامعي، د. شكري فيصل، مؤتمر التعريب دمشق ١٩٨٢.

❖ محاضرات في تاريخ العلوم، د. فؤاد سزكين، جامعة الإمام محمدبن سعود الإسلامية، الرياض ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩.

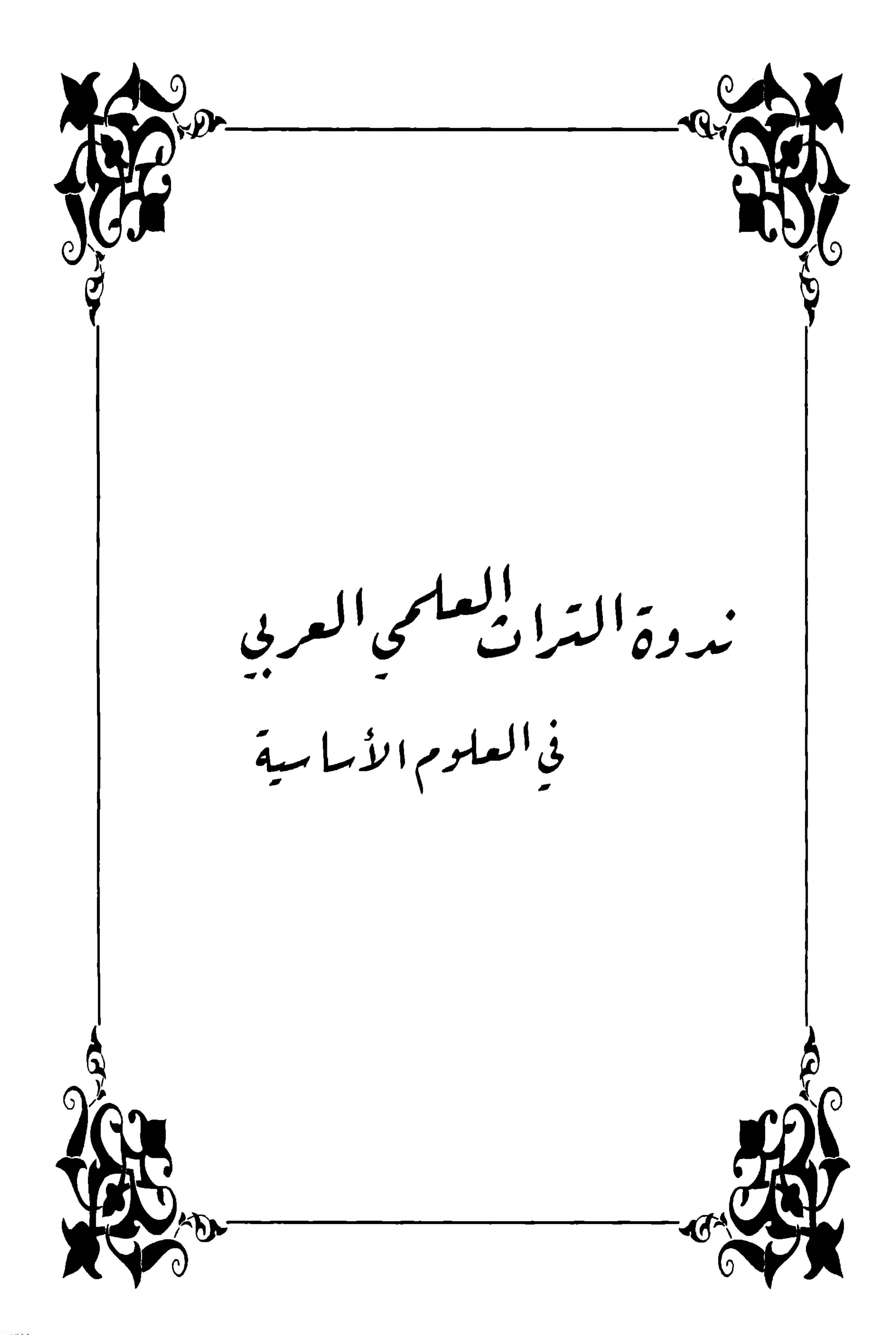
❖ مشروع مجمع اللغة العربية الأردني للرموز العلمية والعربية د. أحمد سعيدان، مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ١٩٨٥.

❖ مشكلات الترجمة والتعريب التي تواجهها الثقافة العربية، د. عبد الكريم اليافي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦٣ الجزء ٢ سنة ١٩٨٨.

❖ المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، مصطفى الشهابي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، مصورة عن الطبعة الثانية ١٤٠٩ ـ ١٩٨٨.

❖ معاجم وموسوعات عربية، عبد الرحمن العلوي، مجلة اللسان العربي، العدد ٢٤ سنة ١٩٨٥.

❖ النظام الصرفي النحوي للعربية بالحاسب، مروان البواب ويحيى ميرعلم ومحمد حسان الطيان ود. محمد مراياتي، المؤتمر الثاني حول اللغويات الحسابية العربية، الكويت ١٩٨٩.



ندوة التراث العلمي العربي

في العلوم الأساسية

ندوة التراث العلمي العربي* في العلوم الأساسية(١)

طرابلس ١٧ ـ ٢٠ كانون الأول ١٩٩٠م

عقدت في طرابلس (ليبية) أواخر العام الماضي ١٩٩٠م ندوة التراث العلمي العربي في العلوم الأساسية، وقام على تنظيمها الهيئة القومية للبحث العلمي بالتعاون مع كلية العلوم الأساسية في جامعة الفاتح الليبية.

وقد جاء تنظيم هذه الندوة استجابة لتوصية اتحاد الجامعات العربية في دورته الأخيرة التي انعقدت في بنغازي عام ١٩٨٩م بإدخال مادة تاريخ العلوم عند العرب ضمن مناهج الجامعات العربية. ولما كانت الساحة تخلو من كتاب تربوي منهجي لهذه المادة ـ على كثرة الكتب العامة التي تناولتها ـ تنادت الهيئة القومية وكلية العلوم لعقد هذه الندوة بغية إعداد المادة العلمية المناسبة لمثل هذا الكتاب المرجعي من جهة، والإسهام في بناء الثقة بالتراث العلمي العربي وتحقيق التواصل بين ماضي أمتنا العربية وحاضرها ومستقبلها من جهة أخرى.

شارك في هذه الندوة أكثر من سبعين باحثاً من معظم الأقطار العربية جمعهم العلم وتاريخه "والعلم رحم بين أهله"، وبلغ عدد البحوث التي نشرت فيها واحداً وخمسين بحثاً، ألقي منها سبعة وعشرون، ووزع سائرها على المشاركين دون إلقاء.

هذا وقد افتتح الندوة وزيرا البحث العلمي والتعليم العالي، وحضر حفل الافتتاح لفيف من المهتمين بتاريخ العلوم يقدمهم رئيس جامعة الفاتح وعميد كلية العلوم والمدير العام للهيئة القومية للبحث العلمي وجمع كبير من أساتذة الجامعات بالإضافة إلى الباحثين المشاركين في أعمال الندوة.

---

* نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦٦، الجزء ٣ (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م).

(١) شارك الكاتب في أعمال هذه الندوة بتقديم بحث بعنوان "أصالة العرب في علم التعمية واستخراج المعمى" أعده بمشاركة الدكتور محمد مراياتي والأستاذ يحيى ميرعلم.

ثم بدأت محاور الندوة وهي ثمانية توزعت على ثلاثة أيام، واستقلّ كل منها بعلم من العلوم التي ازدهرت في ذَرَا[1] الحضارة العربية الإسلامية، وسأعرض فيما يلي لهذه المحاور وما عرض فيها من بحوث معزوة إلى أصحابها وفق الترتيب الذي اتبع في إلقائها:

◆ المحور الأول: حركة التطور العلمي العربي في مجال العلوم الأساسية[2]

أدار المحور الدكتور الطاهر الهادي الجهيمي المدير العام للهيئة القومية للبحث العلمي بليبية، وألقيت فيه البحوث التالية:

١ ـ الحركة العلمية في مجال العلوم الأساسية.

د. عمر التومي الشيباني ـ الهيئة القومية للبحث العلمي ـ طرابلس.

٢ ـ العلم التجريبي عند العرب.

د. علي محمد عوين ـ كلية العلوم جامعة الفاتح ـ طرابلس.

٣ ـ التراث العربي بين القبول والشك والرفض.

الأستاذ فتحي أبو زخار ـ معهد براك العالي ـ ليبية.

٤ ـ أصالة العرب في علم التعمية واستخراج المعمى.

محمد حسان الطيان بالاشتراك مع د. محمد مراياتي والأستاذ يحيى ميرعلم مركز الدراسات والبحوث العلمية ـ دمشق.

---

(١) **الذَّرا**: ـ بفتح الذال ـ الكنَف، يقال: أنا في ذَرا فلان، أي في كنَفه وستره ودفئه. قال المتنبي:

وقيَّدتُ نفسي في ذَراكَ محبَّةً ... ومن وجد الإحسانَ قيداً تقيَّدا

(٢) كان المحوران الأول والثاني عامّين حضرهما كل المشاركين، أما سائر المحاور فقد اتَّسق كلّ منها مع تاليه بآنٍ واحد، وحضرها المشاركون كلٌّ حسب اختصاصه.

◆ المحور الثاني: تأثير نتائج الحركة العلمية العربية

أدار المحور الدكتور طه النعيمي أمين عام اتحاد مجالس البحث العلمي العربية وألقيت فيه البحوث التالية:

١ ـ إبداع الحضارة العربية الإسلامية للعلوم الأساسية من ناحية المنهجية وأساليب البحث والاستقصاء، وأثر ذلك في تطور العلوم الحديثة.

د. محمد نزار خوّام ـ كلية الصيدلة ـ جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية.

٢ ـ تطور المعرفة في وادي الرافدين عبر العصور وأثرها في الحضارات الإنسانية.

د. عادل كامل جميل ـ قسم علم الأرض كلية العلوم ـ جامعة بغداد.

٣ ـ إسهامات العرب والمسلمين العلمية.

د. محمد عبد القادر أحمد ـ كلية التربية ـ جامعة البحرين.

◆ المحور الثالث: علوم الرياضيات

أدار المحور الدكتور محمد الديك المستشار بمكتب اليونسكو الإقليمي للعلوم والتكنولوجيا للدول العربية ـ القاهرة. وألقيت فيه البحوث التالية:

١ ـ الرياضيات في الحضارة الإسلامية.

د. عبد المجيد نصير ـ جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية.

٢ ـ ابن الهيثم واستخراج أعمدة الجبال.

د. سامي شلهوب ـ معهد التراث العلمي العربي ـ جامعة حلب.

٣ ـ تأسيس المنطق الرياضي الحديث عند الغزالي.

د. محمد ياسين عريبي ـ جامعة الفاتح.

٤ ـ بعض مآثر العرب في علم الحساب خلال العصور الوسطى.

الأستاذ علي حسين الشطشاط ـ المعهد العالي لتكوين المعلمين ـ ليبية.

◆ المحور الرابع: علم الفلك

أدار المحور الدكتور عبد المجيد نصير عضو مجمع اللغة العربية الأردني ـ عمان وألقيت فيه البحوث التالية:

١ ـ أبو الحسن عبد الرحمن الصوفي ـ مجدد علم الفلك.

د. محمد علي الزركان ـ كلية الآداب ـ جامعة حلب.

٢ ـ علم الفلك عند العرب بين التنجيم وعلم النجوم.

د. أمين الطاهر شقليلة ـ جامعة الفاتح.

٣ ـ التراث الفلكي العربي وأثره في العلوم المعاصرة.

د. حميد مجول النعيمي ـ بغداد.

◆ المحور الخامس: علوم الفيزياء

أدار المحور الدكتور إدريس بن صاري المدير العام للمركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني ـ الرباط. وألقيت فيه البحوث التالية:

١ ـ العلوم الفيزيائية في التراث الإسلامي ـ دراسة تحليلية في الموضوع والمنهج.

د. أحمد فؤاد باشا ـ كلية العلوم ـ جامعة القاهرة.

٢ ـ قصة اختراع وتطور العدسات، وابن الهيثم رائد علم البصريات.

د. سرى فايز سبع العيش ـ الأردن.

٣ ـ آراء عربية متقدمة في الفيزياء.

د. ماجد عبد الله الشمس ـ مركز إحياء التراث العلمي العربي ـ جامعة بغداد.

◆ المحور السادس: علم الأرض

أدار المحور الدكتور أبو الفتوح عبد اللطيف رئيس أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا بالقاهرة. وألقيت فيه البحوث التالية:

١ ـ سبق العرب للغرب في بعض المفاهيم الأساسية لعلوم الأرض.

د. عمر سليمان حمودة ـ قسم الجيولوجيا ـ جامعة الفاتح.

٢ ـ العلوم الجيولوجية عند العرب وأثرها في الفكر المعاصر.

د. عدنان النقاش ـ قسم علوم الأرض ـ جامعة بغداد.

٣ ـ المعادن ـ الجواهر والأحجار ـ في التراث العربي الإسلامي.

د. عبد القادر عابد ـ قسم الجيولوجيا ـ الجامعة الأردنية.

٤ ـ تأسيس قاعدة الانتظام وقانون تتابع الطبقات وتطوير علم الأرض الحديث لدى علماء العرب خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين.

د. عاشور يوسف الزوكي ـ قسم علوم الأرض ـ جامعة قاريونس.

◆ المحور السابع: علوم الحياة

أدار المحور الدكتور فرج صالح عبد الرحمن عميد كلية العلوم ـ جامعة الفاتح طرابلس. وألقيت فيه البحوث التالية:

١ ـ بعض تراثنا العلمي في علم الحيوان.

د. جليل كريم أبو الحب ـ الهيئة العامة للبحوث الزراعية ـ العراق.

٢ ـ أبو حنيفة الدينوري أول من تطرق إلى أسس علم المراعي عند العرب.

د. محيي الدين قواس ـ قسم الحراج والبيئة ـ كلية الزراعة ـ جامعة حلب.

٣ ـ النبات عند ابن أبي أصيبعة من خلال موسوعته طبقات الأطباء.

د. عادل محمد علي الشيخ الحسيني ـ بغداد.

◆ المحور الثامن: علم الكيمياء

أدار المحور الدكتور أحمد شحلان مدير مكتب تنسيق التعريب ـ الرباط. وألقيت فيه البحوث التالية:

١ ـ تطور علم الكيمياء في العهد الإسلامي وإنجازات علماء العرب والمسلمين.

د. عبد الرحمن عطيات، د. شادية التل ـ جامعة مؤتة ـ الأردن.

٢ ـ أثر العلماء العرب في علم الكيمياء.

د. سالم أبو قويدر عميد كلية طب الأسنان ـ جامعة البعث ـ حمص.

٣ ـ جابر بن حيّان الكوفي ـ الكيماوي المستنير.

د. غازي أبو شقرا ـ اليونسكو للتربية العلمية والتكنولوجيا والبيئة ـ لبنان.

لقد آتت هذه الندوة أكلها على خير ما أريدَ لها، وكان لحسن إدارتها وتنظيمها أكبر الأثر في ذلك، إذ تضافرت جهود الأشِقّاء الليبيين على العمل في سبيلها دون كلال أو ملل حتى بلغت الغاية المرسومة لها.

أما بحوثها فإنها ـ على ما في بعضها من العمومية والتكرار ـ لا تخلو من إسهامات جديدة ومفيدة في إعادة الحق إلى نصابه، ونسبة العلم إلى أصحابه، وتصحيح ما شاب تاريخَهُ من أغاليط يؤول بعضها إلى خطأ في التقدير(١)، ويؤول بعضها الآخر إلى ما يدبَّر بليلٍ لهذه الأمة من مكر ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾.

---

(١) من ذلك على سبيل المثال لا الحصر التشكيك بحقيقة وجود بعض الشخصيات العلمية العربية الإسلامية، كجابر ابن حيان الكيماوي المشهور، وعلي بن الدُّرَيْهم صاحب علم التعمية. ولا نعدم مع ذلك بعض الأقلام المنصفة عند الغربيين؛ فقد أطلق سارتون على النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي اسم: عصر جابر بن حيان في كتابه القيم "مقدمة في تاريخ العلم" ودعا دافيد كهن ابن الدريهم أبا التعمية في كتابه "The Code breakers"

إن غنى الموضوعات التي عالجتها الندوة وتنوعها جعلها تدنو من هدفها الأول الذي أقيمت لأجله، وهو توفير المادة العلمية لتصنيف كتاب مرجعي أو أكثر في تاريخ العلوم عند العرب، وإنه لهدف مهم وملحّ ؛ لأن كثيراً من الحقائق العلمية التاريخية التي أثيرت في هذه الندوة وغيرها ما زال يخفى على كثير منا ـ معشر العرب ـ بله الأجانب والمستعربين، وإلا فبمَ يفسّرُ هذا التغافل ـ أو قل الغفلة ـ عن تلك الحقائق ؟!

إلامَ يبقى المثلث ـ الذي يدعى في كتب الرياضيات "مثلث باسكال "ـ يحمل اسم باسكال وينسى صاحبه الحقيقي الكرجي[١] ؟

وحتّامَ ينسب اكتشاف الدورة الدموية إلى هارفي ويُتَناسى عالمنا العربي المسلم ابن النفيس مكتشفها الأول[٢] ؟.

ومتى يعرف طلابنا ـ ونعرف معهم ـ أن ابن وحشية النبطي هو أول من كشف اللثام عن رموز اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية، بالإضافة إلى ثمانين أبجدية قديمة في كتابه القيم "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام "[٣] ؟ وليس شامبليون الذي دخل التاريخ من أوسع أبوابه

---

(١) انظر الباهر في الجبر للسموءل المغربي تحقيق د. صلاح أحمد ود. رشدي راشد ص ٤، ١١١، ومعجم الرياضيات المعاصرة للدكتور صلاح أحمد وزميليه ص١٠٨، وتاريخ الرياضيات العربية بين الجبر والحساب للدكتور رشدي راشد ص٨٢.

(٢) مع أنه مضى على الكشف عن هذه الحقيقة العلمية التاريخية أكثر من نصف قرن، حين اطلع د. محيي الدين التطاوي في مكتبة برلين على مخطوط "شرح تشريح القانون"لابن النفيس فتقدم بكشفه إلى جامعة فرايبورغ، ونال به درجة الدكتوراه عام ١٩٢٤م، انظر بحث "حول تراثنا العلمي وواجبنا نحو كنوزه"٢٦ ـ ٢٧ للدكتور كارم السيد غنيم، وكتاب "شمس العرب تسطع على الغرب"٢٦٤ ـ ٢٩٦ للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه.

(٣) طبع هذا الكتاب في لندن سنة ١٨٠٦ مع ترجمة إنكليزية بعناية الأستاذ جوزيف هامّر، ويحتفظ المتحف الوطني بدمشق بنسخة منه. انظر "معجم المطبوعات العربية والمعربة"١/٢٨١ هذا وكنت قد اطلعت على مخطوط الكتاب الأصلي في المكتبة الوطنية بباريس عام ١٩٨٦ فنسخته وصورته وشرعت بتحقيقه بالاشتراك مع الدكتور محمد مراياتي والأستاذ يحيى ميرعلم.

على أنه المكتشف الأول لرموز هذه اللغة، مع أن الفرنسيين أنفسهم باتوا يشككون في هذا، وذهب بعضهم إلى أن شامبليون كان يعرف العربية، ورجّح أنه اطلع على كتاب ابن وحشية وصدر عنه في كشفه[١] !!.

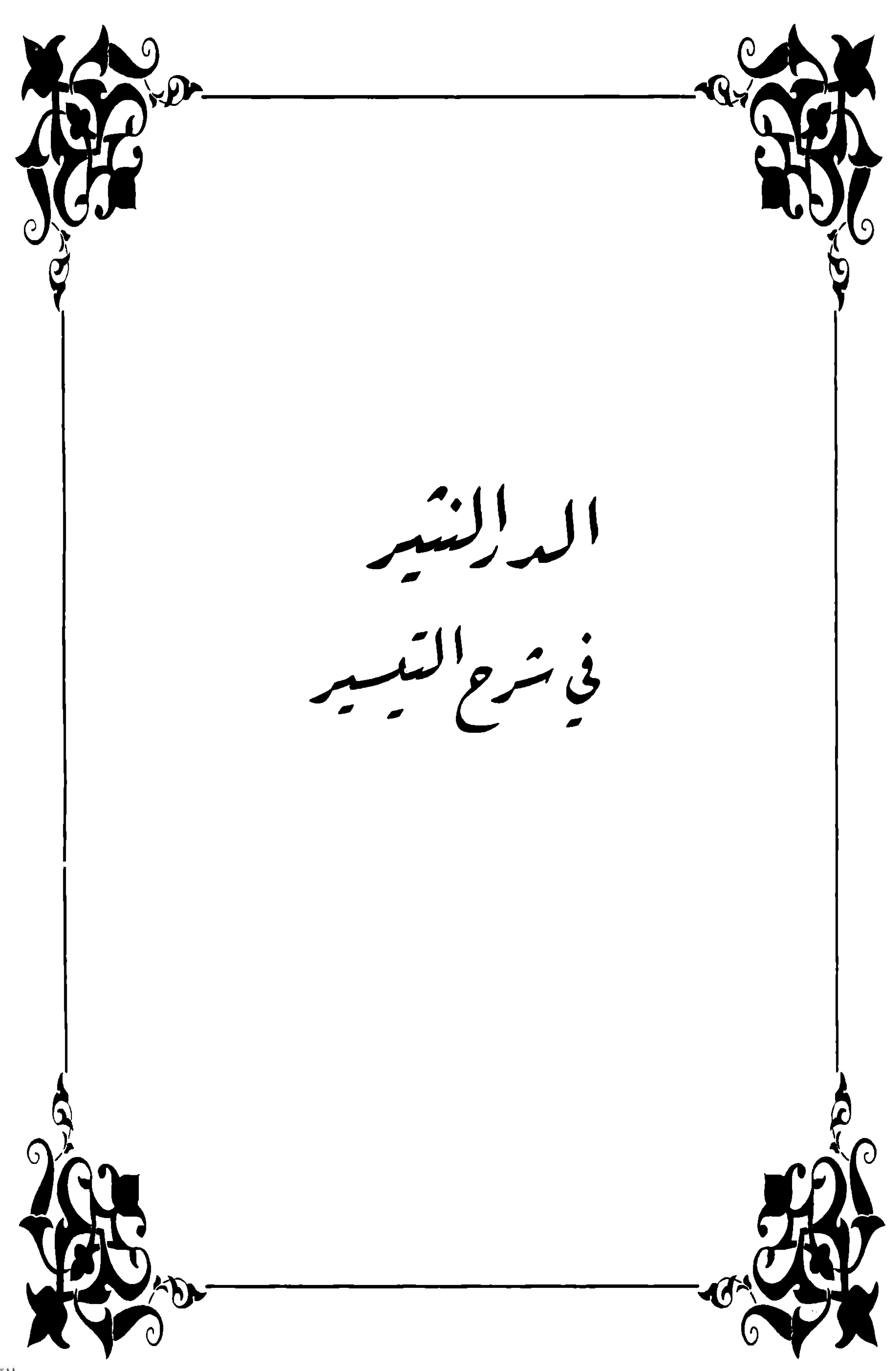
ليست هذه أقاويل جوفاء أو مناغاة عاطفية، بل هي حقائق يقرّرها التاريخ ويقرُّها نَصَفة المؤرخين، ويصدّقها أرباب المعرفة والعلم غير أولي الهوى والزيغ من الغربيين.

إن معرفة هذه الحقائق ونشرها وتدريسها الطلاب ضمن منهج مقرر لما يزيد ثقتهم بقدرة هذه الأمة على العطاء، ويطامِن من شدة انبهارهم بحضارة الغرب، ويدفعهم للمضي قدماً نحو التحصيل لمتابعة طريق الأسلاف وحمل راية الحضارة من جديد.



أقول: توقّف العمل سنوات عدة بسبب تباعد الديار وتفرّق أعضاء الفريق في الأمصار، ولكننا عدنا إليه والحمد لله في هذا العام (٢٠٠٤) بعد أن اجتمع لدينا عدة نسخ أخرى من هذا المخطوط النفيس، ونرجو الله أن ينجز العمل قريباً.

(١) Le déchiffrement des écritures, Ernst Doblhofer, Arthoued, France, ١٩٥٩



الدر النثير

في شرح التيسير

الدر النثير في شرح التيسير*

للمالقي (٧٠٥هـ)

❖ ملخص البحث

عبد الواحد بن أبي السداد المالقي واحد من كبار علماء الأندلس في القرن السابع الهجري (توفي سنة ٧٠٥هـ) وقد برع في علوم شتى على رأسها علم التجويد والقراءات القرآنية، ذي الصلة الوثيقة بعلم الأصوات الذي يعد من أهم فروع اللسانيات الحديثة.

وكتابه **الدر النثير** شرح فيه كتاب التيسير (للداني) الذي يعد من أجلّ كتب القراءات، وقد ضمنه أبواباً صوتية في غاية الأهمية. بدءاً من وصفه النظام الصوتي العربي "الصوامت والصوائت، مخارج الحروف وصفاتها.."وانتهاءً بتحديده طرق الأداء المختلفة، وهي الوجوه الصوتية المتنوعة لأداء القرآن الكريم "الإدغام والإظهار، الهمز والإبدال والتسهيل، الإمالة والفتح، المد والقصر..".

يترجم هذا المقال للمالَقي صاحب الدرّ النثير محاولاً وضعه ضمن إطاره الزماني والمكاني. ثمّ يعرض لكتاب الدرّ النّثير، فيدلّ على نسخه المخطوطة قابساً نماذج منها، ويشير إلى أبرز أبوابه متوقفاً بالتحليل عند اثنين منها ليخلص إلى إثبات أصالة ما جاء به الرجل موازناً بما توصّل إليه علم الأصوات phonétique.

❖ مقدمة

مع بداية القرن السابع الهجري دخلت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس مرحلة جديدة من تاريخها الحافل.

❖ قدمت هذا البحث في الندوة العالمية الخامسة لتاريخ العلوم عند العرب التي انعقدت في غرناطة (٣٠ آذار ـ ٤ نيسان ١٩٩٢م) ثم نشر في مجلة التاريخ العربي بالرباط العدد ٦ ـ ١٩٩٨م.

ومع أن إرهاصات هذه المرحلة كانت نذير شؤم على الوجود العربي الإسلامي هناك، بدءاً بموقعة العقاب (٦٠٩هـ) التي انتصرت فيها جيوش الإسبان على الموحدين وسقطت إثرها قواعد الأندلس التالدة شرقاً وغرباً بيد إسبانية تباعاً، وانتهاءً بسقوط إشبيلية سنة (٦٤٦هـ) إلا أن الأمر سرعان ما تمخض عن ولادة مملكة فتية قوية على يد محمد بن الأحمر من بني نصر، استلمت زمام الأمور وهيأت لاستمرار عطاء الحضارة العربية الإسلامية زهاء قرنين ونصف من الزمن[1].

كانت مملكة غرناطة على صغر حجمها وريثة الأندلس الكبرى في علومها وفنونها وحمل مشعل حضارتها، وجرى ملوكها على سنن أسلافهم في حماية العلوم والآداب، بل كان منهم علماء وأدباء أثروا الحياة الثقافية والعلمية آنذاك كمحمد الفقيه ابن مؤسس المملكة محمد بن الأحمر (٦٧١ ـ ٧٠١هـ) الذي استقدم من مرسية أكبر أطبائها وفلاسفتها ليدرسوا طلاب غرناطة العلوم الطبية والفلسفية. وكأبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري (٧٣٣ ـ ٧٥٥هـ) الذي أنشأ لأول مرة في غرناطة بل ربما في الأندلس ـ مدرسة سماها المدرسة النصرية بعد أن كان أهل الأندلس يدرسون العلم في المساجد ودور العلماء أنفسهم، ولا يقل عنهما شأناً الوزير الكاتب الشاعر الطبيب لسان الدين بن الخطيب الذي طبق الآفاق علماً وسياسة وأدباً حتى غدا سمةً مميزة لعصر غرناطة بأكمله[2].

هذا ويعد علم اللسانيات Linquistique بفروعه المختلفة "اللغة والنحو والصرف والمعاني والقراءات والتجويد..." واحداً من العلوم الكثيرة التي اشتهر بها علماء غرناطة. والدارس المتتبع لتاريخ الحركة العلمية آنذاك يروعه كثرة العلماء الذين برعوا في فروع علم اللسانيات المختلفة، كأبي حيان الأندلسي (٧٤٥هـ) صاحب البحر المحيط في التفسير، وابن عصفور الإشبيلي (٦٦٩هـ) صاحب المقرب في النحو والممتع في التصريف.

---

(١) نهاية الأندلس ٢٠ ـ ٢١.

(٢) نهاية الأندلس ٤٦٠ ـ ٤٦١، عصر الدول والإمارات ٦٩ ـ ٧٠.

وعبد النور المالَقي (٧٠٢هـ) صاحب رصف المباني في حروف المعاني. وابن جُزيّ (٧٤١هـ) صاحب التسهيل في علوم التنزيل. وابن الزيات الكلاعي (٧٢٨هـ) صاحب إحكام صنعة الكلام... وغيرهم كثير[1].

من بين هذه الجمهرة الخيّرة من علماء اللسان الأندلسيين سنوجه العناية لدراسة عَلَم تخصص بالدراسات الصوتية من خلال علم القراءات والتجويد هو عبد الواحد بن محمد المالقي صاحب الدر النثير.

◆ ترجمة المالقي

عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السَّداد، أبو محمد، الأندلسي الأموي المالقي الشهير بالباهلي والبائع. عَلَمٌ حفلت مصادر التراجم بذكره منذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)[2] ولد بمالَقة (بفتح اللام) Malaga - وهي مدينة ساحلية تقع على الشاطئ الجنوبي الشرقي من الأندلس، كانت أيام دولة بني الأحمر العاصمة الثانية بعد غرناطة - ورافقت نشأته قيام مملكة غرناطة في النصف الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وهو ينتسب إلى أسرة أوتيت حظاً غير قليل من العلم والفضل فأبوه الشيخ الأجل أبو عبد الله محمد ابن علي، وخاله الولي الصالح أبو محمد عبد العظيم بن أبي الحجاج.

تلقى المالقي القراءات والتجويد والعربية عن جلّة علماء عصره في بلده مالقة كالشيخ الحسين بن عبد العزيز الأحوص الفهري (٦٩٩هـ) والقاضي قاسم بن محمد الحجري السكوت (٦٩٠هـ) والمقرئ الراوية عبد الرحمن بن عبد الله بن حوط الله الأنصاري.

---

(١) تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ ١٣٤ ـ ٥١٧.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ٥٥٣/٣ ـ ٥٥٤، وبرنامج الوادي آشي ١٤٦ ـ ١٤٧، وبرنامج التنجيبي ١٠٢، والديباج المذهب لابن فرحون ٦٣/٢، ودرة الحجال لابن القاضي ١٣٧/٣ ـ ١٣٨، وغاية النهاية لابن الجزري ٤٧٧/١، وبغية الوعاة للسيوطي ١٢١/٢ ـ ١٢٢. وطبقات المفسرين للداوودي ٣٥٩/١ ـ ٣٦٠... وغيرها.

ثم رحل إلى غرناطة وسمع على رواتها وكتب له بعضهم بالإجازة العامة كالمقرئ الراوية إسماعيل بن يحيى العطار الغرناطي، والإمام المؤرخ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي وغيرهم كثير. ثم عاد إلى مالقة وقد برع في علوم شتى على رأسها القراءات والتجويد والنحو والفقه والأصول، مما خوله أن يكون خطيب مسجد مالقة الأعظم وأستاذ العامة والخاصة من أبنائها.

أمَّه الطلبة من كل مكان، وتخرّج به الكثيرون، كالقاضي محمد بن يحيى الأشعري المالقي (٧٤١هـ) والقاضي يوسف بن موسى الجذامي، والقاضي محمد بن عبد الله القيسي المالقي (٧٥٠هـ) وسواهم.

خلّف المالقي مصنفات عديدة في الفقه وعلوم القرآن أجلّها الدر النثير موضوع هذا البحث، وله كتاب الأصول الخمسة التي بني الإسلام عليها والمنتخب في فضائل القرآن[١] وغيرها.

توفي سنة (٧٠٥هـ) بمالقة، وكان الحفل في جنازته عظيماً.

◆ الدر النثير

شرح المالقي بهذا الكتاب كتاب التيسير لأبي عمرو الداني (٤٤٤هـ) وهو العمدة في علم القراءات القرآنية، عنه نظم الشاطبي قصيدته المشهورة "حرز الأماني"فصار الفرع أشهر من الأصل، إذ غدت الشاطبية طريق القراءات القرآنية لا تكاد تؤخذ إلا بها.

ونسبة الدر النثير إلى المالقي ثابتة بأدلة ثلاثة هي:

١ ـ أن كل من ترجم له نسب إليه شرح التيسير بدءاً من ابن الخطيب في الإحاطة وانتهاءً بحاجي خليفة في كشف الظنون[٢].

---

(١) كشف الظنون ١/١١٤ ـ ٥٢٠، هدية العارفين ١/٦٣٥ ـ ٦٣٦، هذا وقد ظفرنا له برسالة مخطوطة عنوانها "عمدة النحرير في الإدغام الكبير"في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق وحصلنا على مصورة عنها.

(٢) انظر مصادر ترجمته السالفة (التعليق رقم ٢).

٢ ـ أن اسم المالقي ثابت في كل نسخ الكتاب المخطوطة التي اطّلعنا عليها وهي خمسة سيأتي ذكرها.

٣ ـ ما نقله ابن الجزري في النشر من كتاب الدر النثير مقروناً باسم صاحبه المالقي[1].

أما نسخ الكتاب المخطوطة فهي موزعة على عدد من مكتبات العالم[2]، وقد ظفرت بمصورات لخمس منها تمتاز بتمام النص، وقلة السقط، وجودة الخط، والمعارضة مع الأصل، ويتراوح تاريخ نسخها بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر للهجرة (القرن الرابع عشر والقرن السابع عشر للميلاد) وهذا بيان بها (يحوي اسم المكتبة، ورقم المخطوطة فيها، وعدد أوراقها، وتاريخ نسخها):

١ ـ نسخة المكتبة الأزهرية بالقاهرة (٢٦٠) ـ أوراقها ١١٠ ـ القرن الثامن.

٢ ـ نسخة مكتبة متحف طوبقبوسراي باصطنبول (١٥٣) ـ أوراقها ١٨٦ ـ القرن الثامن.

٣ ـ نسخة مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق ـ أوراقها ١٥٠ ـ القرن التاسع.

٤ ـ نسخة مكتبة أسميخان سلطان باصطنبول (١١) ـ أوراقها ٨٣ ـ ٩١٣هـ.

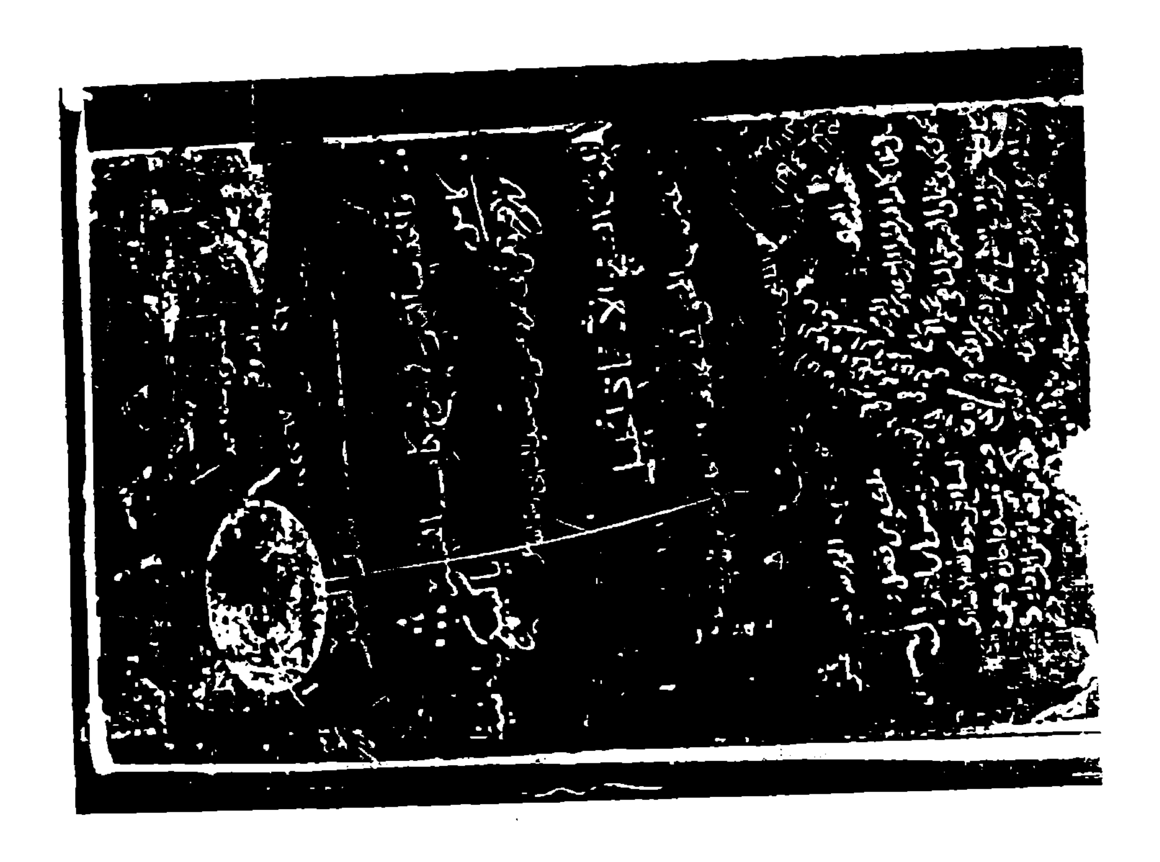
٥ ـ نسخة مكتبة كوبريلي باصطنبول (١٦) ـ أوراقها ٢٢٦ ـ ١٠٤٥هـ.

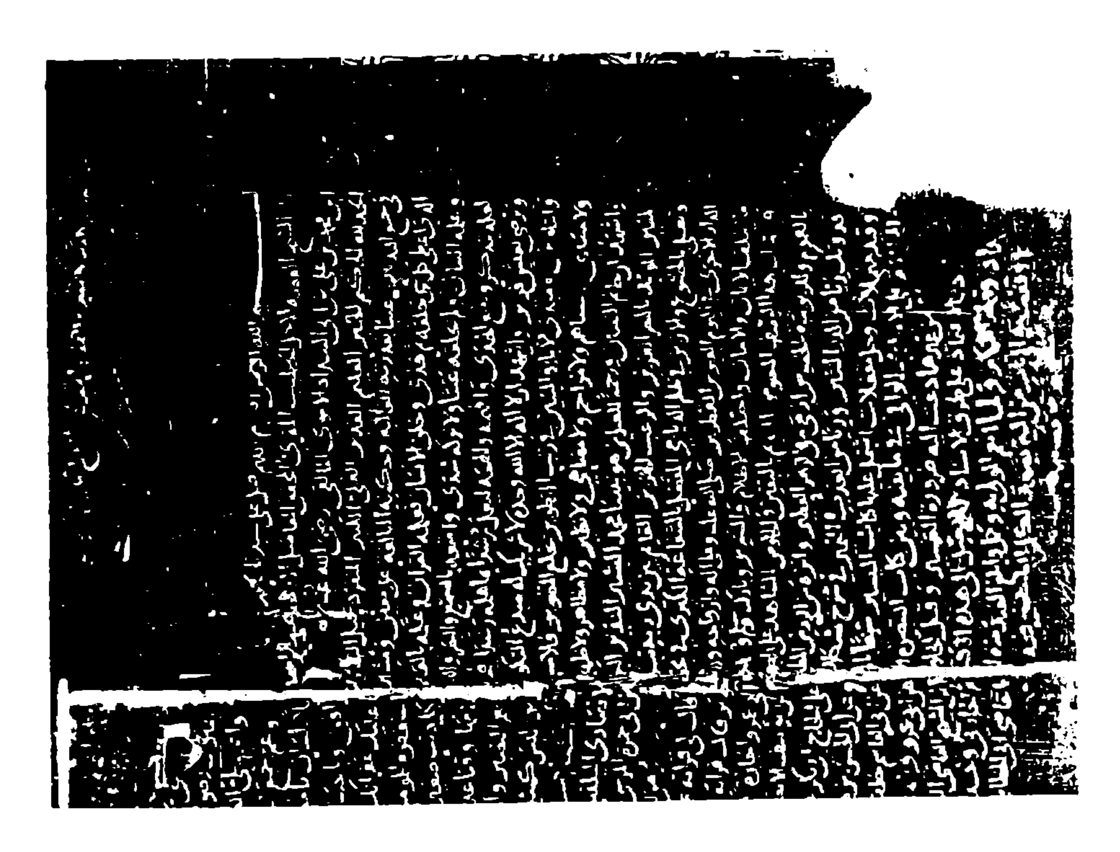
وفي الصفحات التالية نماذج مصورة من هذه النسخ.

---

(١) النشر ١/٦٠، ٣٥٣.

(٢) الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط ـ علوم القرآن ـ مخطوطات القراءات ١/٢٣٩، وبروكلمان (النسخة الألمانية) ١/٤٠٧ و٥١٧، وفهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ٢٩، وفهرس مكتبة طوبقبوسراي ٤١٥. والخزانة التيمورية ١/٢٧٩.





صورة صفحة العنوان والصفحة الأولى من نسخة المكتبة الأزهرية (خ)

صورة الورقة الأولى من نسخة متحف طوبقبوسراي (ط)

بسم الله الرحمن الرحيم ۞ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ۞

قال الشيخ الإمام الفقيه الأجل الخطيب المقرئ

المحقق الفاضل الأوحد أبو محمد عبد الواحد بن محمد بن علي

بن أبي السداد الأموي المالقي رضي الله عنه

الحمد لله الحكيم الخبير العليم القدير العلي الكبير المنفرد بجميل التدبير في جميع التدبير غنيا بقدرته

الغالبة وحكمته البالغة عن معين ومشير الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وخلق الإنسان

فعلمه القرآن وعلمه بالقلم وعلمه البيان ولم يخلقه عبثا ولا تركه سدى وأمده بالسمع والبصر

والفؤاد لعله يتذكر ويتبع الهدى وأفهمه وألهمه ليعمل رشدا بما علمه رشدا فيحظى برضى

بعيني تربه ۞ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مبدع التعيين التكوين والتلوين ۞

ومبدئ الآباء والبنين في رتب التطوير بخلع التصوير ۞ فلا مساوي ولا مباري ولا مسامي

ولا مزاحم ولا مضاهي ولا نظير ۞ ولا مظاهر ولا ظهير ۞ وأشهد أن خاتم النبيين ورحمة للعالمين

هو نبينا محمد البشير النذير ۞ السراج المنير ۞ المؤيد بالنصر العزيز ۞ والرعب الكبير القائم

بين يدي ربه تبارك وتعالى بالخشوع والأزيز في ظلم الدياجير ۞ المفضل بالشفاعة الكبرى

في مجمع الدار الأخرى في اليوم العبوس القمطرير ۞ صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وذريته ما

ائتلف الإيمان والأمان واختلف الإظلام والتنوير ۞ وبارك وسلم ۞ وشرف ۞ وكرم

۞ وبعد هذا الوصف المنصوص أزهى من الزهر العطير ۞ وأنق من الروض النضير فدونك

رياض الدر النثير ورياض العذب النمير ۞ في شرح مشكلات وتقييد مهملات وحل مقفلات

اشتمل عليها كتاب التيسير ۞ متبعا بالموافقة والمخالفة على الأسلوب الوافي في ما بينه وبين

كتاب التبصرة والكتاب الكافي لي كلام من غيرهما دعت إليه ضرورة التفسير وقبل أن يخلو

بهذا الناقد ۞ الاعتماد على طرق الإسناد الموصل إلى منزع الكتب متبعا بالسند ادع وقطعا

التكثير ولما أتم المولى به وكمل ۞ وأبلغ العبد منه المرتضى ۞ والأمل وقفت به إلى الأب بالبه

صورة الصفحة الأولى من نسخة المجمع (م)

◆ أبواب الكتاب ومباحثه الصوتية

يشتمل الدر النثير على مختلف الموضوعات التي تناولتها كتب القراءات القرآنية مما يتعلق بكيفية أداء كلمات القرآن وفق وجوهها المختلفة مع عزو كل وجهٍ لناقله اتفاقاً واختلافاً. وقد سار فيه المالقي على خطا الداني فجاءت أبوابه مماثلة لأبواب "التيسير". وهذا مسردٌ بأهمها مما له مِساس بالصوتيات:

- باب بيان مذهب أبي عمرو في الإدغام الكبير.
- باب هاء الكناية.
- باب ذكر المد والقصر.
- باب ذكر الهمزتين.
- باب ذكر الهمزة المفردة.
- باب ذكر الإظهار والإدغام للحروف السواكن.
- باب ذكر الفتح والإمالة وبين اللفظتين.
- باب ذكر الوقف على أواخر الكلم.

قدَّم المالقي لمعظم هذه الأبواب بمباحث صوتية ضمنها عصارة علمه في الأصوات والتجويد.

ففي باب الإدغام أفرد فصولاً لمخارج الحروف، وصفاتها، وانقسامها إلى القوي والضعيف، وما يقبل الإدغام منها وما لا يقبله، وتعليل ذلك بالتماثل والتقارب والتجانس...

وفي باب المد والقصر تكلم على حروف المد، وحروف اللين، والعلاقة بين حروف المد والحركات، ومواضع مد هذه الحروف...

وفي باب الهمز تكلم على التسهيل بنوعيه: المطلق: وهو جعل الهمزة بين الهمزة والحرف الذي منه حركتها. والمقيد: وهو ذو أنواع ثلاثة: البدل والنقل والحذف.

وفي باب الفتح والإمالة وبين اللفظين تكلم على ظاهرة الإمالة، وأصلها، ومنشئها، وأسبابها العشرة، ووجوهها الأربعة، وفائدتها المتمثلة بالخفة.

وفي باب ذكر الإظهار والإدغام للحروف السواكن عقد فصلاً خاصاً بتوجيه أحكام النون الساكنة والتنوين الأربعة: الإدغام، والإخفاء، والإقلاب، والإظهار، ضمّنه تعليلات صوتية على غاية من الدقة والأهمية.

هذا وإن ما تناثر في ثنايا أبواب الكتاب وفصوله المختلفة من أحكام صوتية وملاحظات لغوية لسانية ليرقى به إلى مصافِّ الكتب المتخصصة في علم الأصوات واللسان، ويغري بعقد دراسة موازنة بين ما جاء فيه، وما حقّقته الدراسات الصوتية الحديثة بمخابرها التقانية وتحليلاتها الحاسوبية[(١)].

على أن هذه العجالة لن تتسع لأكثر من مبحثين صوتيين سنقصر الكلام عليهما، أولهما: النظام الصوتي العربي "مخارج الحروف وصفاتها". وثانيهما: صفة الإطباق في حروف العربية.

◆ النظام الصوتي العربي

استهلَّ المالقي باب الإدغام ببيان مخارج الحروف العربية وصفاتها معتمداً في ذلك على ما جاء عند سيبويه إمام النحاة. وقد أوصل عدتها إلى ثلاثين حرفاً ضمنها النون الخفيفة ـ التي عدها سيبويه على رأس الحروف الفروع ثم أعاد ذكرها ضمن مخارج الحروف الستة عشر[(٢)].

---

(١) لابد من الإشارة هنا إلى أن دراسات صوتية كثيرة لنتاج العلماء العرب في الصوتيات قد أنجزت منذ عام ١٨٥٥ حتى الآن، وقد شملت هذه الدراسات كتباً كثيرةً مثل الكتاب لسيبويه (نهاية القرن الثاني الهجري) وشرح ابن يعيش (٥٥٣ ـ ٦٤٣هـ) لمفصل الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ) وشرح الرضي (ت ٦٨٤ أو ٦٨٦) لشافية ابن الحاجب (٥٧٠هـ) وكتاب التيسير للداني (٣٧١ ـ ٤٤٤هـ) وغيرها.
وجلّ من قام بهذه الدراسات من المستشرقين انظر كتاب:
Cantine au د Cowr de phonetique Arake.

(٢) الكتاب ٤/٤٣٢ ـ ٤٣٤.

حصر المالقي المخارج في ستة عشر مخرجاً موزعة على الحلق والفم والشفتين والخيشوم. وحصر الصفات في ست عشرة صفة نصفها متضاد ونصفها لا تضاد فيه. والجدول رقم (١) يمثل ذلك كله مقيداً بمصطلحات المالقي في الدر النثير.

إن هذا الجدول محاولة منا لتمثيل ما ذكره المالقي على مدى عشر صفحات متتاليات[١] بأوجز صورة ممكنة. فقد بسط المالقي الكلام على المخارج والصفات شارحاً كلام سيبويه تارة مضيفاً إليه ما يغنيه تارة أخرى.

والسؤال المطروح هنا: ما مقدار دقة أحكام المالقي الصوتية هذه؟ وما مقدار مطابقتها للدراسات الصوتية الحديثة؟

وتمهيداً للإجابة نقول: لقد أجمعت أكثر الدراسات الصوتية الحديثة العربية والغربية على أن العلماء العرب درسوا صوتيات الحروف العربية دراسة دقيقة ووافية، وأن تحديدهم لمخارج الحروف وصفاتها جاء مطابقاً إلى حد كبير لما هو معروف حالياً في نتائج الدراسات الصوتية التجريبية.

وما جاء في الجدول رقم (١) واحد من هذه الدراسات الصوتية التي تكاد تطابق في جملتها أحدث ما توصل إليه علم الأصوات التجريبي الحديث.

والجدول رقم (٢) يوضح مخارج الحروف وصفاتها وفق ما انتهى إليه هذا العلم.

وبعقد موازنة بين الجدولين يتبيّن لنا أن الاتفاق بيهما كان كبيراً وهو لا يحتاج إلى تعليق. أما أوجه الخلاف فيمكن تلخيص أهمها بالملاحظات التالية:

١ ـ يبدو أن المالقي لم يعرف عمل الأوتار الصوتية في الحروف المجهورة ـ حيث تتذبذب هذه الأوتار حال النطق بها وتنعدم ذبذبتها حال النطق بالمهموسة ـ وإن كان فصلُهُ بين المجهور والمهموس صحيحاً في الغالب.

---

(١) من الصفحة ٥٥ إلى الصحفة ٦٤ من النص المحقق من الدر النثير (وهو جزء من أطروحة دكتوراه أنجزتها عام ١٩٩٤ ونلت بها الشهادة بمرتبة شرف).

٢ ـ عدَّ المالقي الهمزة مجهورة وهي ليست كذلك، إذ أنها تصدر على مستوى الأوتار الصوتية التي تكون مغلقة إغلاقاً تامًّا ثم تنفرج بسرعة ليخرج الهواء محدثاً انفجاراً.

٣ ـ ذكر المالقي حرفي القاف والطاء بين المجهورات وهذا ما لا يتفق مع النطق الحالي لهما. ويميل بعض علماء الصوت المحدثين إلى أن تطوراً طرأ على القاف في نطقنا لها اليوم، وأن علماء العرب ـ والمالقي منهم ـ إنما وصفوا ما يقابل الجيم القاهرية اليوم (g)[١].

٤ ـ مخرج الضاد في نطقنا الحالي ينتمي في الجدول رقم (٢) إلى الحيز النطعي (مع الدال والطاء والتاء) خلافاً لما ذكر المالقي هنا ـ والعلماء قبله ـ وأكثر الباحثين يعزون ذلك إلى التطور النطقي الذي طرأ على هذا الحرف[٢].

٥ ـ وضع الخاء والغين مع الحروف المرققة في الجدول رقم (٢) يشير إلى نطقها الحالي على ألسنة العامة خلافاً للنطق الفصيح بهما ـ على ألسنة قراء القرآن الكريم ـ الذي يطابق ما ذكره المالقي من أنهما حرفان مستعليان. وأما إعادة ذكر اللام في هذا الجدول مع الحروف المفخمة فهي إشارة إلى تفخيمها في لفظ الجلالة (الله) فقط.

---

(١) البحث اللغوي عند العرب ١٠٨.

(٢) علم اللغة العام للأصوات ١٠٥.

الجدول رقم (١) جدول مخارج الحروف وصفاتها عند المالقي

المخارج / الصفات			المتضادة									غير المتضادة								
			الجهر	الهمس	الشدة	الرخاوة	التوسط	الإطباق	الانفتاح	الاستعلاء	الاستفال	الهوائية	الاستطالة	التفشي	الانحراف	التكرار	الصفير	الغنة	اللين	القلقلة
الجوف		١	ا				ا		ا		ا	ا								
الحلق	أقصاه	٢	ء		ء				ء		ء									
		٣		هـ		هـ			هـ		هـ									
	وسطه	٤		ح		ح			ح		ح									
		٥	ع				ع		ع		ع									
	أدناه	٦		خ		خ			خ	خ										
		٧	غ			غ			غ	غ										
اللسان (ومخارجه متعلقة باللسان)	أصله: أقصاه	٨	ق		ق				ق	ق										ق
	أصله: أسفل منه قليلاً	٩		ك	ك				ك		ك									
	وسطه	١٠	ج		ج				ج		ج									ج
		١١		ش		ش			ش		ش			ش						
		١٢	ي				ي		ي		ي								ي	
	حافته	١٣	ض			ض		ض		ض			ض							
	طرفه: حافته من أدناها	١٤	ل				ل		ل		ل				ل					
	طرفه: بينه وبين مافوق الثنايا	١٥	ن				ن		ن		ن							ن		
	طرفه: أدخل في ظهره	١٦	ر				ر		ر		ر				ر	ر				
	طرفه: بينه وبين أصول الثنايا العليا	١٧	ط		ط			ط		ط										ط
		١٨	د		د				د		د									د
		١٩		ت	ت				ت		ت									
	طرفه: بينه وبين ما فوق الثنايا	٢٠		ص		ص		ص		ص							ص			
		٢١		س		س			س		س						س			
		٢٢	ز			ز			ز		ز						ز			
	طرفه: بينه وبين أطراف الثنايا	٢٣	ظ			ظ		ظ		ظ										
		٢٤	ذ			ذ			ذ		ذ									
		٢٥		ث		ث			ث		ث									
الشفتان	من باطن السفلى وأطراف الثنايا العليا	٢٦		ف		ف			ف		ف									
	من بينهما	٢٧	ب		ب				ب		ب									ب
		٢٨	م				م		م		م							م		
		٢٩	و				و		و		و								و	
الخيشوم																		ن		

الجدول رقم (٢) جدول الصوامت العربية وفق نطقها الحالي[(١)]

الصفات / المخارج	شديد (انفجاري)				رخو (احتكاكي)				مركب	متوسط			
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور	مجهور			
										مرقق			
	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مُغَنّ	مكرر	منحرف	لين
شفوي	ب									م			و
شفوي-سني							ف						
لساني-سني					ذ	ظ	ث						
لساني-لِثوي	د	ض	ت	ط	ز		س	ص		ن	ر	ل	
حنكي (شجري)							ش		ج				ي
طبقي			ك										
لهوي				ق									
حلقي أدنى					غ		خ						
حلقي أوسط					ع		ح						
حَنجري (مزماري)			ء				هـ						

(١) أفدت في صنع هذا الجدول من جملة جداول تنحو هذا النحو في مصادر مختلفة، منها: اللغة العربية مبناها ومعناها ٧٩، وعلم اللغة العام ـ الأصوات ١٣٦، ودراسة السمع والكلام ٢٢٢، ومبادئ علم الأصوات ٢٩١، وعلم الأصوات العام ١٢٧، ومعالجة الكلام تطبيق على العربية ١١.

◆ صفة الإطباق في حروف العربية

هذه الصفة من الصفات المميزة لبعض أصوات العربية إذ لا توجد في غيرها من أصوات اللغات الأخرى، وقد اضطربت عبارات المتقدمين في التعبير عنها، واختلفت تفسيراتهم لعبارة سيبويه فيها وقصَّرت عن جلاء حقيقتها وتعرف كنهها، على حين أوفت عبارة المالَقي هنا على الغاية في التعبير عن ظاهرة الإطباق، وتميزت مما سواها بخاصية انفردت بها، وهي الربط بين مخارج حروف الإطباق ورسمها، وسأعمد فيما يلي إلى استعراض جلّ ما وقفت عليه في هذه الظاهرة ليسهل موازنته بما جاء عند المالقي.

قال سيبويه: "وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك في مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف"[١].

هذه هي عبارة سيبويه وقد تلقّفها خالفوه، إلا أن عبارات كثير منهم قصّرت عن تأدية المعنى المراد، فأوهمت أن الإطباق يكون بانطباق اللسان كله على الحنك دون تخصيص جزء منه، من ذلك قول الرّمّاني: "والمطبقة أحرف ينطبق اللسان فيها على الحنك وهي أربعة: الطاء والظاء والصاد والضاد"[٢]. وقول ابن الحاجب: "المنطبق ما ينطبق معه الحنك على اللسان"[٣]. وقول ابن عصفور: "والإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له"[٤]. وقول زكريا بن محمد الأنصاري في شرحه للمقدمة الجزرية: "والإطباق لغةً الالتصاق سميت حروفه مطبقة لانطباق طائفة من اللسان بها على الحنك الأعلى عند النطق بها"[٥].

---

(١) الكتاب ٤/٤٣٦ (٢/٤٦).

(٢) شرح الكتاب ورقة ١٦١/أ.

(٣) الشافية، والنص مأخوذ من شرحها ٣/٢٦٢.

(٤) الممتع في التصريف ٢/٦٧٤.

(٥) الدقائق المحكمة ٤٠.

بيد أن ثمة عباراتٍ أخرى كانت أكثر دقّة وتوفيقاً في شرح معنى الإطباق إذ خصصته بظهر اللسان، أو شبهته بالطبق، إلا أنها دون شكٍّ لم تبلغ درجة عبارة المالَقي في ذلك، منها قول ابن السراج: "وهذه الأربعة الأحرف إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان، ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف"(١).

ومنها قول ابن جني: "والإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له..."(٢).

وقول الرضي في شرح عبارة ابن الحاجب السالفة: "... لأنك ترفع اللسان إليه فيصير الحنك كالطَّبَق على اللسان، فتكون الحروف التي تخرج بينهما مطبقاً عليها"(٣). ولعل عبارة الرضي هذه أوضح العبارات السابقة لتشبيهها وضع الحنك على اللسان بالطَّبَق. والطَّبَق إنما تنطبق أطرافه بعضها على بعض لا هو ذاته، وهذا ما جعل عبارة المالقي أكثر بياناً إذ هي تنص على اتصال الطرفين وذلك قوله: "فالأحرف المطبقة: الطاء والظاء والصاد والضاد، سُمِّيت بذلك لانطباق ظهر اللسان مع الحنك الأعلى عند النطق بها، ولهذا كتب كل واحد منهما في خطّين متوازيين متصلي الطرفين إشعاراً بمخرجها، والمنفتحة ما عداها، لانفراج ما بين ظهر اللسان والحنك الأعلى عند النطق بها"(٤).

فالمالقي هنا ينص على أن المنطبق هو ظهر اللسان، أي: آخره(٥)، وهو ينطبق مع الحنك الأعلى، والمقصود بالأعلى: الحنك اللين لأن الحنك ينقسم قسمين: الأول: الحنك الصُّلب وهو الجزء العظمي الأمامي من الجدار الفاصل بين الأنف والفم ويتخذ شكل قبة أولها اللثة

(١) الأصول ٣/٤٠٤.

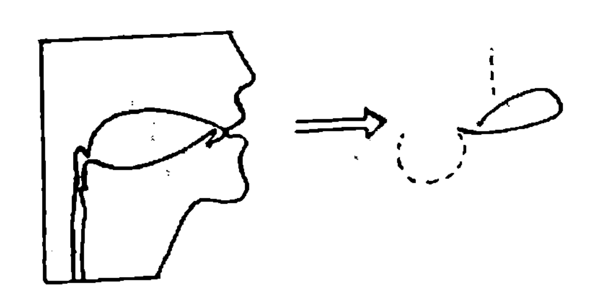
(٢) سر الصناعة ١/٧٠.

(٣) شرح الشافية ٣/٢٦٢.

(٤) الدر النثير ٦٢ - ٦٣.

(٥) تقدمت الإشارة إلى أن المعتبر في الاستعلاء أقصى اللسان سواء استعلى معه بقية اللسان أو لا. انظر ص ٣٠٣.

وآخرها الحنك اللين، والثاني: الحنك اللين وهو الجزء العضلي المتحرك من الحاجز الفاصل بين الأنف والفم من جهة وبين الفم والبلعوم من جهة أخرى، ويتصل بالحنك الصلب من أمام، وبالجدران الجانبية للبلعوم من الجانبين[1]، ولما كان مخرج هذه الحروف من طرف اللسان، أي: مقدمته، والمخرج هو الحَبْسَة الناتجة من اتصال عضوين من أعضاء النطق، فقد تكوّن تجويف في الفم بين هذا المخرج في أول اللسان وذلك الانطباق في آخره، فهو تجويف بين قبة الحنك الصلب من الأعلى وتقعر اللسان من الأسفل، وطرفاه مسدودان، وهذا ما عبر عنه المالقي بالإشارة إلى العلاقة بين رسم هذه الحروف ونطقها؛ فهي ترسم في خطين متوازيين متصلي الطرفين إيذاناً بمخرجها.



الشكل رقم (٧)

(١) دراسة السمع والكلام ١٥١ ـ ١٥٢.

لقد عُنيت الدراسات الصوتية الحديثة بظاهرة الإطباق لما لها من أهمية في تتبع الخصائص الصوتية المميزة للعربية، وجاءت نتائجها مؤيدةً ما نصَّ عليه صاحب الدر النثير. ونظراً لضيق المجال فسأقتصر على واحدة منها وهي (الأصوات اللغوية) للدكتور إبراهيم أنيس. يقول الدكتور إبراهيم أنيس عن أحد أصوات الإطباق: "ففي حالة النطق بالظاء يرتفع طرف اللسان وأقصاه نحو الحنك ويتقعر وسطه ـ كما هو واضح في الشكل ـ كما يرجع اللسان إلى الوراء قليلاً ولذلك اعتبر القدماء الظاء أحد أصوات الإطباق"[1].

والشكل الذي أشار إليه المؤلف يكاد يطابق الشكل الذي سبق، كما أن الوصف الذي ذكره يكاد يطابق الوصف الذي جاء به المالَقي.

وبهذا يتبين لنا جليًّا مقدار دقّة ما جاء في هذا المخطوط الجليل، وما انطوى عليه من أصالة ومعرفة.

◆ خاتمة

حاولنا في هذا البحث أن نومئ إلى عَلَمٍ من أعلام الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس كان له إسهام جادٌّ فيما يسمّى اليوم بعلم الأصوات، وذلك من خلال كشفنا لمخطوطٍ له يحقق لأول مرّة، ولما يُنشر وهو "الدرّ النّثير في شرح كتاب التيسير"الذي انطوى على مباحث هامة في الصوتيات، اقتصرنا منها على مبحثين اثنين هما "النظام الصوتي العربي"و"حروف الإطباق في العربية"وقد بينَّا مدى دقّة المالقي فيهما، ومطابقته لأحدث ما جاء في علم الأصوات الحديث.

وما ذكرناه هنا هو قُلٌّ من كُثْرٍ وغيضٌ من فيضٍ لأن ما انطوى عليه الكتاب أكبر من أن يحيط به بحث صغير كهذا، لاسيما ما يتعلق بوجوه الأداء المختلفة للنص القرآني مما يتصل بعلم الأصواتِ الوظيفي phonologie (كظاهرة الإمالة والإدغام الكبير والصغير والتسهيل والوقف... إلخ) وهو ما يؤلف جمهرة الكتاب.

---

(١) الأصوات اللغوية ٤٧ ـ ٤٨.

لقد اتّسعت آفاق الدراسات الصوتية اليوم ـ بعد أن كانت قديماً مقصورةً على تجويد تلاوة القرآن الكريم وتعلّم قراءاته وخدمة اللغة ـ فأصبحت تطبيقاتها تشمل كثيراً من وجوه حياتنا اليومية، كأجهزة الإنذار الصوتي، والألعاب، والإدخال الصوتي للمعطيات بغيةَ الحجز في وسائل النقل والتحقّق من الأرصدة في المصارف، وأجهزة قراءة العميان... وتعليم اللغات لغير الناطقين بها، ومعالجة عيوب النطق والسمع وأمراضهما... إلخ.

على أن أعظم مجال دخله علم الأصوات إنما هو مجال الاتصالات **conmuinication** حيث غدَتْ دراسة الهندسة الصوتية الإلكترونية من أكثر الميادين تقدماً، وبرزت تطبيقاتها في نقل الأصوات الكلامية عَبْر القارّات عن طريق الأقمار الصناعية، والاتصال بسفن الفضاء... إلخ.

مع كلّ هذا التقدم والتطور الذي أحرزه علم الأصوات الحديث فإنه ما زال يعتمد على ركيزة أساسيّة لا غِنى عنها هي وصف النظام الصوتي للغة، وهو ما عُني بِهِ علماء اللغة والقراءات المتقدِّمون، والمالقي واحدٌ منهم.

أهم المراجع

❖ الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد اللهعنان مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

❖ الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٧٥م.

❖ البحث اللغوي عند العرب، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط٤، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

❖ برنامج التجيبي، القاسم بن يوسف التجيبي، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العصرية للكتاب، .... تونس ١٩٨١.

❖ برنامج الوادي آشي، محمد بن جابر الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط٣، ١٩٨٢.

❖ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

❖ تاريخ الأدب العربي، د. عمر فروخ، الجزء السادس، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٣.

❖ دراسة السمع والكلام، د. سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

❖ الدر النثير في شرح التيسير، للمالقي، تحقيق محمد حسان الطيان (مخطوط).

❖ درة الحجال في أسماء الرجال، أحمد بن محمد الشهير بابن القاضي، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة بتونس، ط١، ١٣٩٠ - ١٩٧٠.

❖ الديباج المذهب، ابن فرحون، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة.

❖ طبقات المفسرين، محمد بن علي الداوودي، تحقيق علي محمد عمر مركز تحقيق التراث بدار الكتب، مصر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

❖ علم اللغة العام - الأصوات، د. كمال بشر، دار المعارف بمصر ١٩٧٥م.

❖ غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، عناية ج برجستراسر مكتبة المتنبي، القاهرة.

❖ الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان ١٩٨٦م.

❖ كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

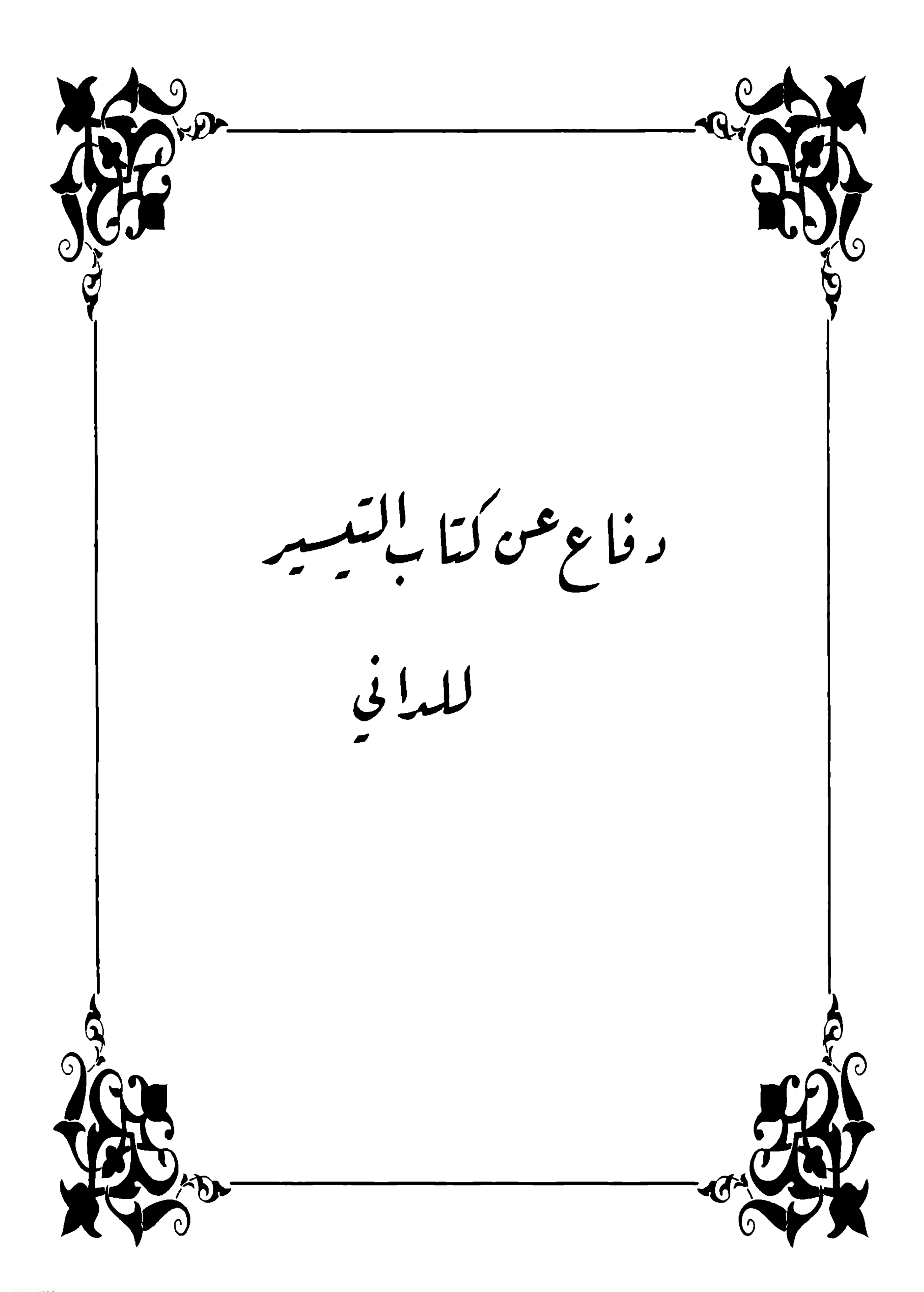
❖ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار الفكر، بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

❖ سر صناعة الإعراب، ابن جني، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، الجزء الأول، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م.

❖ النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تصحيح علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت.

❖ نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصِّرين، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

❖ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.



دفاع عن كتاب التيسير

للداني

دفاع عن كتاب التيسير للداني*

كتاب التيسير في القراءات السبع من أشهر كتب القراءات القرآنية وأجلّها، ومؤلفه أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (٤٤٤هـ) إمام فن القراءات وعَلَمها المشهور، شهد له القاصي والداني، ولم يكن في عصره ولا بعده من يضاهيه في قوة حفظه وحسن تحقيقه، قال عنه الحافظ الذهبي: "إلى أبي عمرو المنتهى في تحرير علم القراءات وعلم المصاحف مع البراعة في علم الحديث والتفسير والنحو وغير ذلك "[١]. وقد أتى على كتابه التيسير حينٌ من الدهر كان فيه أهمَّ كتب القراءات "وأحسن الموضوع للقراءات السبع كتاب التيسير لأبي عمرو الداني "[٢] وأقبل عليه القراء يتداولونه، يَقْرؤونه ويُقْرِئونه، ويتلون القرآن بمضمنه[٣] حتى اقترن اسمه بأعلامهم، لا تكاد ترجمة واحدة منهم تخلو من ذكره[٤]. إلى أن جاء الإمام الشاطبي أبو القاسم ابن فيرُّه (٥٩٠هـ) فنظمه في قصيدته المشهورة "حرز الأماني ووجه التهاني "فصار الفرع أشهر من الأصل ؛ لأن المنظوم أيسر حفظاً وأطرب وقعاً "وأوفق لمرام المتعلم للقراءة من الأصل المنثور "[٥]، ولقيت القصيدة من القبول والعناية ما لم يلق غيرها من كتب هذا الفن، وتعاورها العلماء بالشرح والتعليق والزيادة والتفصيل حتى غدت أساس علم القراءات لا يكاد يؤخذ إلا عن طريقها.

---

* نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦٨، الجزء ٢ (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) ردًّا على اتهام بالقصور رُمي به كتاب التيسير وهو منه براء.

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٨٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١٨، وانظر في مكانة التيسير وشهرته: إبراز المعاني ٨، والإتقان ١/ ٧٤، ونفح الطيب ٣/ ١٧٩ - ١٨٠، وكشف الظنون ١/ ٥٢٠، ومفتاح السعادة ٢/ ٤٠ - ٤١، وأبجد العلوم ٢/ ١١٦.

(٣) مصطلح شائع في أسانيد كتب القراءات، والمراد منه تلاوة القرآن بالقراءات التي اشتمل عليها الكتاب المشار إليه. انظر النشر ١/ ٥٨، ٦١، ٦٢، ٦٦، ٦٧، ٦٨...

(٤) انظر على سبيل التمثيل في كتاب "معرفة القراء الكبار"التراجم ذوات الأرقام: ٧٤، ٩٠، ١٢٢، ٢٢٢، ٣٤٥، ٥٣١، ٥٨٣، ٦٢٣، ٦٣١، ٦٨٤، ٧٠٦، ٧١٥، ٧٢٨...

(٥) مقدمة التيسير صفحة ط.

ولكن ذلك كله لم يغضَّ من شأن التيسير بل زاده شهرة على شهرته[١]، واستمر اهتمام الناس به كبيراً، آية ذلك أن ابن الجزري (٨٣٣هـ) خاتمة المحققين في علم القراءات جعله على رأس مصادره في سفره الشهير "النشر في القراءات العشر "[٢] بل إنه صنف عليه كتاباً سماه تحبير التيسير أكمل فيه قراءات التيسير السبع بذكر الثلاثة الزائدة عليها، وأضاف إليه شيئاً من التصحيح والتهذيب واستهله بقوله: "فلما كان كتاب التيسير للإمام الحافظ الكبير المتقن المحقق أبي عمرو الداني رحمه الله تعالى من أصح كتب القراءات وأوضح ما أُلِّف عن السبعة من الروايات... "[٣]. ولم يكن كتاب التحبير هذا بدعاً من الكتب فقد سبق بكتب جعلت من التيسير مادةً لها كالدر النثير[٤] الذي شرح فيه الإمام المالَقي عبد الواحد بن محمد (٧٠٥هـ) كتاب التيسير فأجاد وأفاد. ومختصر التيسير لأبي العباس أحمد بن علي الأندلسي المقرئ (٦٤٠هـ). على أن أبلغ الدلائل إشارة إلى مكانة التيسير وشهرته بين الناس هذه الكثرة الكاثرة من نسخه المخطوطة التي تزخر بها مكتبات المخطوطات العربية في العالم، وقد بلغ ما ذكره منها الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط ثمانياً وأربعين ومئتي نسخة مشفوعة بأرقامها ومواضع وجودها[٥].

---

(١) يقول ابن الجزري فيه: ".. وكان من أعظم أسباب شهرته دون باقي المختصرات نظم الإمام ولي الله تعالى أبي القاسم الشاطبي رحمه الله في قصيدته التي لم يسبق إليها"تحبير التيسير ٧.

(٢) النشر ١/٥٨ ـ ٦٠.

(٣) تحبير التيسير ٧.

(٤) فرغت من تحقيقه مؤخراً وسيكون ـ بمشيئة الله ـ جزءاً من أطروحة أتقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة دمشق بإشراف الأستاذ الدكتور شاكر الفحام.

أقول: وقد منَّ الله عليَّ بإنجازها ومناقشتها بتاريخ ٢٠٠٤/٦/٢٨ وقد حصلت فيها على درجة الدكتوراه بمرتبة شرف والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٥) الفهرس الشامل ـ القراءات ١/٣٣ ـ ٧٣. قلت: وقد أحصيت منها سنة ١٩٨١ سبعاً وعشرين نسخة في المكتبة السليمانية باصطنبول. هذا عدا نسخ المكتبات الخاصة وهي كثير.

أسوق هذا الكلام بين يدي تهمة ألصقت بهذا الكتاب وهو منها براء ؛ ذلك أن محقّقَي كتاب العنوان في القراءات السبع لأبي طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ الأنصاري الأندلسي (٤٥٥هـ)[١] عقدا موازنة بينه وبين كتاب التيسير أفضت بهما إلى القول: ".. وقد دلَّ الاستقراء أن في العنوان ما ليس له ذكر في التيسير، وأن بعض ما في الأول مخالف لما في الآخر وهو قليل "[٢] على أن الاستقراء دلَّ على خلل في استقرائهما ؛ إذ لم تسلم لهما ملاحظة واحدة من الملاحظات الثماني التي أورداها على التيسير نتيجة الموازنة بين الكتابين وهما إنما أُتيا من عدم التبصر بمنهج الداني الذي أخذ به نفسه في كتاب التيسير والذي يمكن إيجازه بما يلي:

قسم الداني الكلام على القراءات ـ كما هي الحال في جلِّ كتب هذا الفن ـ قسمين ذكر في أولهما أبواب الأصول، وهي ما يطرد من أحكام القراءات ويقاس عليه كالإدغام الكبير، والهمز، والإمالة[٣]... إلخ.

وذكر في ثانيهما فرش الحروف، وهي المواضع المتفرقة التي لا ضابط لها ولا قياس عليها كقراءة (مالك) و(ملك)...[٤] بيد أن المهم في هذا المنهج أن الداني عمد إلى ما له نظائر في فرش الحروف ممّا لا يندرج تحت أصل من الأصول فذكر نظائره في القرآن كله لدى أول ذكر له[٥] إن كان مما يطاق حصره كقوله: "ابن عامر ﴿فَيَكُونَ﴾ هنا، وفي آل عمران ﴿فَيَكُونَ ۝ وَنُعَلِّمُهُ﴾ وفي النحل، ومريم ويس، وغافر، في الستة بنصب النون، وتابعه الكسائي في النحل ويس فقط،

---

(١) حققه الدكتور زهير زاهد والدكتور خليل العطية، وطبع في عالم الكتب ببيروت طبعة ثانية ١٩٨٦.

(٢) العنوان ١٢. ومن الإنصاف للمحققين الفاضلين أن أذكر أنهما أحسنا التَّأتِّي فعرضا أولاً لمنهج أبي الطاهر في العنوان مبيِّنَين أنه التزم أسلوب الإيجاز والاختصار، مستدلَّين على ذلك بإيراد ثلاثة من مظاهر هذا المنهج ثم ثنَّيا بعقد هذه الموازنة منصفَين بدايةً بإبرازهما ميزة كلٍّ من الكتابين جائرين عن القصد فيما أدت إليه الموازنة بعدُ.

(٣) شغلت أبواب الأصول من التيسير الصفحات ١٩ ـ ٧١.

(٤) التيسير ١٨.

(٥) لا أعني أن التيسير يتفرد بهذا المنهج، فهو منهج جلّ كتب القراءات كالتذكرة والتبصرة والإقناع، غير أنه في التيسير أوضح، وبه يتميز من كتاب العنوان المقصود بالموازنة هنا.

والباقون بالرفع "[١] وإن كان من الكثرة بمكان اكتفى بذكر المثال مقروناً بعبارة "حيث وقع "كقوله: "قالون وأبو عمرو والكسائي يسكنون الهاء من (هو) و(هي) إذا كان قبلها واو أو فاء أو لام حيث وقع، وقالون والكسائي يسكنانها مع (ثم) في قوله ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. والباقون يحركون الهاء"[٢] وقد توخّى في ذلك كله الإيجاز والاختصار، وترك التطويل والتكرار، وتقريب الألفاظ، والتنبيه على الشيء بما يؤدي عن حقيقته من غير استغراق لكي يوصل إلى ذلك في يسر ويتحفظ في قرب[٣].

وسأعرض فيما يلي للملاحظات التي أسفر عنها استقراء المحققين الفاضلين مشفوعةً ببيان ما بدا لي في كلٍّ منها:

١ ـ "الآية ٢٤ من سورة الرحمن أورد الداني ما نصه: حمزة وأبو بكر بخلاف عنه ﴿المنشِآت﴾ بكسر الشين، والباقون بفتحها. ونجد في العنوان قوله: ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ بالإمالة، الدوري عن الكسائي.. ﴿المنشِآت﴾ بكسر الشين، حمزة، وروي عن أبي بكر الكسر والفتح جميعاً وأنا آخذ [له][٤] بالوجهين، الباقون بالفتح، و﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ بإضجاع الراء، ابن ذكوان وكذلك في آخر السورة"[٥].

أقول: الكلام هنا على قراءات قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ في فرش الحروف من سورة الرحمن. وكلّ ما زاده صاحب العنوان مما يتعلق بإمالة ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ وإضجاع الراء في ﴿الإكرام﴾ ليس من منهج الداني أن يذكره هنا في فرش الحروف؛ لأنه يتعلق بأصل من

---

(١) التيسير ٧٦، ومن ذلك ذكره لتاءات البزي وستأتي.

(٢) التيسير ٧٢، ومثله كثير لا تخلو منه صفحة من فرش سورة البقرة في التيسير ٧٢ ـ ٨٦.

(٣) التيسير ٢ ـ ٣.

(٤) سقطت هذه الكلمات من النقل الذي استشهد به المحققان، لكنها ثابتة في النص الذي نقلا عنه من كتاب العنوان ١٨٤.

(٥) العنوان ١٢.

أصول القراءة هو الإمالة، وقد أفرده صاحب التيسير بباب سمّاه: "باب ذكر الفتح والإمالة وبين اللفظين "[١].

أما كلمة ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ فوردت ضمن فصل منه جاء فيه: "وتفرّد الكسائي أيضاً في رواية الدوري بالإمالة في قوله: ﴿ءَاذَانِهِمْ﴾ و... و﴿ٱلْجَوَارِ﴾ في الشورى والرحمن وكورت... "[٢]. وأما كلمة ﴿الإكرام﴾ فوردت في فصل آخر منه جاء فيه: "وتفرد ابن ذكوان من قراءتي على أبي الفتح بالإمالة في قوله: ﴿عِمْرَٰنَ﴾ و.. و﴿الإكرام﴾ في الحرفين في الرحمن "[٣].

والجدير بالذكر أن صاحب العنوان أخلَّ بمنهجه إذ نبَّه على ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ هنا في فرش الحروف بعد أن أتى على ذكرها في حاقِّ موضعها من أبواب الأصول ضمن باب الإمالة حيث قال: "باب ما انفرد بإمالته الدوري عن الكسائي. من ذلك قوله: ﴿بَارِئِكُمْ﴾ في موضعين، و﴿ٱلْبَارِئُ﴾ و﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾ حيث وقع و... و﴿ٱلْجَوَارِ﴾ حيث وقع... "[٤]. وأما قول صاحب العنوان في ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: "وروي عن أبي بكر الكسر والفتح جميعاً، وأنا آخذ له بالوجهين "[٥] فقد كانت عبارة الداني عنه أوجز وأحكم إذ قال: "وأبو بكر بخلافٍ عنه ".

٢ ـ "لم يذكر الإمام الداني ما ورد في الآية الثامنة من سورة الملك ٦٧. وورد في العنوان: ﴿تَكَادُ تَّمَيَّزُ﴾ بتشديد التاء، البزي "[٦].

أقول: بل ذكرها عندما عرض لتاءات البزي لدى أول ذكر لها في فرش سورة البقرة تعليقاً على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟﴾ [البقرة: ٢٦٧] حيث قال: "البزي يشدد التاء في أول

---

(١) التيسير ٤٦.

(٢) التيسير ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) التيسير ٥٢.

(٤) العنوان ٦٠. وقد رسمت فيه كلمة (الجواري) بالياء خلافاً لرسمها القرآني وقراءتها.

(٥) العنوان ١٨٤.

(٦) العنوان ١٢.

الأفعال المستقبلة في حال الوصل في أحدٍ[١] وثلاثين موضعاً، هنا ﴿وَلا تَّيَمَّمُوا﴾ وفي آل عمران: ﴿وَلا تَّفَرَّقُوا﴾... وفي الملك: ﴿تَكَادُ تَّمَيَّزُ﴾ وفي ن والقلم: ﴿لَمَا تَّخَيَّرُونَ﴾... "[٢].

٣ ـ "كما فلم يذكر الداني ما ورد في الآية ٣٨ من سورة ن والقلم: ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ بتشديد التاء البزي "[٣].

أقول: هذه أيضاً من تاءات البَزّي السالفة، وقد أتى الداني على ذكرها في تمام النص المتقدّم. والحقُّ أن عدم ذكر الداني لتاءات البزي هذه في مواضعها المختلفة من فرش الحروف لا يقتصر على هذين الموضعين، وإنما يتعداهما إلى عشرات المواضع الأخرى "أحد وثلاثين موضعاً "ولو أن المحققين الفاضلين استكملا الاستقراء على النحو الذي فعلا، إذن لاجتمع لهما واحد وثلاثون موضعاً أخلَّ فيها الداني بذكر حروف من القراءات على هذه الشاكلة، ولكن الله سلَّم[٤]!.

٤ ـ "ومثل ذلك ما ورد في سورة التكوير ٨١ الآية ١٠، فقد ورد في العنوان ما لم نجده في التيسير: ﴿نُشِرَتْ﴾ بتخفيف الشين، نافع وابن عامر وعاصم. وسبق ابن مجاهد أبا الطاهر إلى ذكره "[٥].

أقول: هذا هو الموضع الوحيد الذي يسلّم فيه للمحققين الفاضلين استدراكهما على

---

(١) جاءت هذه الكلمة في مطبوع التيسير ٨٣: "إحدى"وهو من تحريف النساخ أو الناشرين وما أثبته موجود في نسخة خطية للتيسير (ورقة ٣٨/ب) ستأتي الإشارة إليها.

(٢) التيسير ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) العنوان ١٣.

(٤) وإن تعجب فعجبٌ أمر المحقّقَين إذ علّقا على قول أبي الطاهر في تاءات البزي: "ولا تيمّموا الخبيث بتشديد التاء البزي، وكذلك يشدد التاء في أحد وثلاثين موضعاً هذا أحدها، ونحن نذكر باقيها في مواضعها إن شاء الله"بقولهما: "انظر هذه المواضع مجتمعة في تيسير الداني ٨٣". العنوان ٧٥.

(٥) العنوان ١٣.

التيسير ـ بادي الرأي ـ فما ذكراه من قراءةٍ في هذه الآية الكريمة من حقّه أن يثبت في هذا الموضع من فرش الحروف دون سواه ؛ إذ ليس هو من الأصول فيدرج فيها، ولا نظائر له سابقة فيجمع إليها، وهو إلى هذا وذاك مذكور في سائر كتب الفن بلْه كتاب ابن مجاهد المشار إليه، إذ أورده ابن مهران في الغاية ٢٨٨، والمبسوط ٤٦٣، وابن غلبون في التذكرة ٧٥٦/٢، ومكي في التبصرة ٣٧٢، والكشف ٣٦٣/٢، وابن شريح في الكافي ١٤٣، وابن الباذش في الإقناع ٨٠٥/٢، والشاطبي في القصيدة (البيت ١١٠٣)[١] وأبو شامة في إبراز المعاني ٧٢٠، وابن القاصح في سراج القارئ ٣٨١ ـ ٣٨٢، وابن الجزري في النشر ٣٩٨/٢... وغيرهم من المصنفين في القراءات[٢]. لأجل هذا ما داخلني ريبٌ في صنيع ناشر التيسير، وبمراجعة المخطوط تبين صدق ظني فما لم يجده المحققان الفاضلان في مطبوع التيسير موجودٌ في مخطوطه، والتبعة في النقص على الناشر لا على المؤلف، جاء في نسخة خطية للتيسير[٣] ما نصه: "نافع وعاصم وابن عامر: ﴿نُشِرَتْ﴾ بتخفيف الشين، والباقون بتشديدها "وذلك بعد قوله الوارد في مطبوع التيسير: "قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿سُجِرَتْ﴾ بتخفيف الجيم، والباقون بتشديدها "[٤].

وأورد النصَّ نفسه ابن الجزري مع زيادة يقتضيها تحبيره: "نافع وأبو جعفر وعاصم ويعقوب وابن عامر: ﴿نُشِرَتْ﴾ بتخفيف الشين والباقون بتشديدها "[٥].

---

(١) بترقيم أبياتها الوارد في إبراز المعاني ٧٢٠.

(٢) انظر معجم القراءات القرآنية ٨٣/٨ ـ ٨٤ حيث أحال المؤلفات على تسعة عشر مرجعاً أوردت هذه القراءة.
أقول: وانظر أيضاً معجم القراءات للأخ العالم الدكتور عبد اللطيف الخطيب ٣٢٥/١٠ ـ ٣٢٦ حيث أحال على أربعة وثلاثين مرجعاً أوردت هذه القراءة !

(٣) هي نسخة الصديق الأستاذ محمد اليعقوبي، وقد تكرم فسمح لي بتصويرها، شكر الله له. والنص الذي أثبتُّه من الورقة ٩٠/ب بترقيمي.

(٤) التيسير ٢٢٠.

(٥) تحبير التيسير ١٩٧.

٥ - "ومن ذلك ذكر أبي الطاهر لما ورد في الآية ٣٦ من سورة المطففين، ولا نجدها في التيسير "[١].

أقول: آية المطففين هي قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ والكلام عليها محصور في إدغام لام (هل) في ثاء (ثوب). قال أبو الطاهر في فرش سورة المطففين: "هل ثوِّبَ الكفارُ. بالإدغام، الأخوان وهشام "[٢] وبدهي ألا يذكره الداني في فرش الحروف لأنه يندرج تحت أصل من أصوله، أفرد له باباً في التيسير عنوانه "باب ذكر الإظهار والإدغام للحروف السواكن "[٣] جاء فيه: "واختلفوا في لام (هل) و(بل) عند ثمانية أحرف، عند التاء والثاء والسين والزاي والطاء والظاء والضاد والنون، نحو قوله عز وجل: ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ و﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ و... "[٤] وليس التيسير بدعاً في هذا، وإنما هو شأن سائر كتب القراءات[٥]، والعنوان واحد منها، فقد أفرد أبو الطاهر لما يتعلق بهذه القراءة باباً سمّاه: "باب لام هل وبل "[٦] ولكن الفرق بين التيسير والعنوان أن الأول لم يحِدْ عن المنهج فاكتفى بذكر هذه القراءة في الأصول على حين حاد الثاني عن المنهج فأورد القراءة مرتين مرة في الأصول ومرة في الفرش.

٦ - "ولم يرد حديث في التيسير عن قراءة هشام للآية ٢٦ من سورة الحديد ٥٧ : ﴿نوحاً وإبراهام﴾ بالألف "[٧].

---

(١) العنوان ١٣.

(٢) العنوان ٢٠٥.

(٣) التيسير ٤١.

(٤) التيسير ٤٣.

(٥) من مثل السبعة ١٢٠، والمبسوط ٩٧، والغاية ٨١، والتذكرة ٢٣٣/١، والكافي ٢٧، والإقناع ٢٤٢/١، والتبصرة ١١٣، والنشر ٦/٢.

(٦) العنوان ٥٧.

(٧) العنوان ١٣.

٧ ـ "ومثله ما ورد في العنوان عن الآية ٤ من سورة الممتحنة (٦٠) عن هشام أيضاً ولم يرد في التيسير "[٧].

أقول: هاتان الملاحظتان كسابقتيهما رقم (٢) و(٣) لا تنحصران في هذين الموضعين من سورتي الحديد والممتحنة، وإنما تتجاوزانهما إلى ثلاثة وثلاثين موضعاً ورد فيها اسم (إبراهيم) وقرأه هشام (إبراهام) بالألف[١]. وما كان للداني أن يذكرها متفرقةً وقد اشتركت فيها القراءة، وإنما جمعها كلها منبهاً عليها ـ وفق منهجه المتقدم ـ لدى أول ذكر لكلمة إبراهيم في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] حيث قال: "وهشام ﴿إبراهام﴾ بالألف. جميع ما في هذه السورة، وفي النساء ثلاثة أحرف... وفي الحديد حرف وفي الممتحنة الحرف الأول. فذلك ثلاثة وثلاثون حرفاً. وقرأت لابن ذكوان في البقرة خاصة بالوجهين. والباقون بالياء في الجميع "[٢]. أما أبو الطاهر فقد أشار إليها عندما عرض لأول موضع لها في سورة البقرة دونما نصٍّ واستعراض لها ؛ لأنه آثر أن يذكرها في مواضعها، قال: "قرأ هشام ﴿إبراهام﴾ بالألف في ثلاثة وثلاثين موضعاً فيها كل ما في البقرة وجملته خمسة عشر موضعاً، ونذكر[٣] سائرها في مواضعها.. "[٤].

٨ ـ "وفي الحديث عن إمالة ﴿يسٓ﴾ سورة ٣٦ وافق أبو الطاهر ابن مجاهد، وكان أكثر توفيقاً من الداني "[٥].

---

(١) ليست هذه كل المواضع التي ذكر فيها اسم إبراهيم في القرآن الكريم، وإنما هي تسعة وستون موضعاً كما جاء في المعجم المفهرس ص١ ، وقد أشار إلى هذا ابن غلبون في التذكرة بقوله: "وقرأ هشام ﴿إبراهام﴾ بالألف في ثلاثة وثلاثين موضعاً، وما عداها ﴿إبراهيم﴾ بالياء وهو ستة وثلاثون موضعاً"التذكرة ٢/٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٢) التيسير ٧٦ ـ ٧٧.

(٣) في الأصل: "ونذكرها"ولعلها من تحريف النساخ.

(٤) العنوان ٧١.

(٥) العنوان ١٣ ، وقد أحال المحققان في هذا الموضع (الحاشية ٤) على هامش (٢) من سورة يس ولم أجد شيئاً مما أحالا عليه في الموضع المذكور، ولعلهما أرادا السطر (٢) من سورة يس حيث تكلم أبو طاهر على إمالة يس، انظر فرش سورة يس من كتاب العنوان ١٥٩ ـ ١٦٠.

أقول: لم تكن الموافقة تامة بين أبي الطاهر وابن مجاهد، وليس الداني معنيًّا بها أصلاً ولا بما يقوله ابن مجاهد في السبعة عموماً وفي هذه الآية خصوصاً ؛ لأنه هنا ـ أي ابن مجاهد ـ أطال الكلام على إمالة الياء من ﴿يسٓ﴾ حتى استغرق ما يقرب من نصف الصفحة مما لا يتسع المجال لسرده[١]، في حين اقتصر الداني على القول: "قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي ﴿يسٓ﴾ بإمالة فتحة الياء، والباقون بإخلاص فتحها "[٢] ملتزماً منهجه السالف في الاختصار والإيجاز وترك التطويل والتكرار، فلا معنى لقياس كلامه إلى كلام ابن مجاهد الذي يطيل تارة ويوجز أخرى، ويورد قراءة ويغفل أخرى. وليس ذلك بضائره في تلك المرحلة المبكرة ـ بل الرائدة ـ من التأليف في فن القراءات فهو شيخ الصنعة وأول من سبّع السبعة[٣]. فلا طائل من هذه الموازنة بين ابن مجاهد وأبي الطاهر في هذا الموضع ذاته من جهة، ولا وجه لهذه المفاضلة بين أبي الطاهر وأبي عمرو من جهة أخرى ؛ لأن الاختلاف اليسير بينهما مردّه إلى اختلاف طرق كلٍّ منهما في رواية قراءة معينة.

هذه هي الملاحظات الثماني التي أوردها المحققان الفاضلان على كتاب التيسير إثر موازنتهما بينه وبين كتاب العنوان، ثم أردفاها بالقول: "على أن هذا لا يقلل من أهمية التيسير للإمام الداني، وإنما أردنا أن ندلل على أهمية العنوان وكبير خطره في علم القراءات وجدوى نشره بعد تحقيقه "[٤].

وأقول: ليس عدلاً أن نرمي كتاباً بالقصور لنرفع آخر دونما تثبت ! وليس حسناً أن ندلل على أهمية كتاب بالغضِّ من شأن كتاب آخر هو عمدة أهل هذا الفن، ثم إن كتاب العنوان ليس بمحتاج إلى مثل هذه المفاضلة ليسوغ تحقيقه ويجدي نشره، فهو يمثل مرحلة من مراحل

---

(١) يراجع كتاب السبعة ٥٣٨.

(٢) التيسير ١٨٣.

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء ١/١٣٩، وانظر فيه أيضاً معرفة القراء الكبار ١/٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٤) العنوان ١٣.

التأليف في هذا العلم لا مندوحة لنا عن إظهارها وجلائها، وهو إلى هذا كتاب له شأنه وأهميته، شهد بذلك القدماء قبل المحدثين، قال شهاب الدين القسطلاني (٩٢٣هـ) في لطائف الإشارات: "وكان أهل مصر كثيراً ما يحفظون العنوان فلما ظهرت القصيدة تركوه "[١].

ومهما يكن من أمر فإن من حقِّ التيسير علينا أن نبرئه من هذه الهنات التي ألصقت به، إنصافاً له، وإحقاقاً للحق، ودفعاً عما وراءه من كتب القراءة التي اعتمدت عليه، لا سيما الشاطبية وشروحها، فإنها من بئره متحت وعن قوسه نزعت، وفي هذا يقول ناظمها:

وفي يُسرها التيسيرُ رمْتُ اختصارَهُ ... فأجنَتْ بعونِ اللهِ منه مُؤَمَّلا

وألفافُها زادتْ بنشرِ فوائدٍ ... فلفَّتْ حياءً وجهَها أنْ تفضَّلا[٢]

ومن حقِّ التيسير علينا أن تتولى تحقيقه أيدٍ خليقة به، أمينة عليه، بعد أن طال العهد بنشرته القديمة المثقلة بالأخطاء[٣].

❖ ❖ ❖

---

(١) لطائف الإشارات لفنون القراءات ١/ ٨٩. وقد أورد محققاً العنوان هذه الكلمة منسوبة إلى أبي شهاب القسطلاني (العنوان ١٠). والصواب ما أثبت؛ فهو الحافظ شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، صاحب إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٨٥١ - ٩٢٣هـ) الأعلام ١/ ٢٢١ (ط٣).

(٢) إبراز المعاني ٥٠ - ٥١، وشرح الشاطبية المسمى إرشاد المريد إلى مقصود القصيد ٢١.

(٣) وهي النشرة المطبوعة باصطنبول سنة ١٩٣٠ بعناية أوتوبرتزل ضمن النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، وقد أعيد تصويرها مراراً.

ثبت المراجع

❖ أبجد العلوم، صديق بن حسن القنوجي (١٣٠٧هـ) أعده للطبع عبد الجبار زكار، وزارة الثقافة دمشق، ١٩٨٨م.

❖ إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع، عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة الدمشقي (٦٦٥هـ) تحقيق إبراهيم عطوة عوض، ط. البابي الحلبي بمصر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

❖ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ) المكتبة الثقافية، بيروت ١٩٧٣م.

❖ إرشاد المريد إلى مقصود القصيد، علي الضبَّاع، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح بميدان الأزهر بمصر، ١٣٤٧هـ.

❖ الإقناع في القراءات السبع، أبو جعفر بن الباذش الأنصاري (٥٤٠هـ) تحقيق د. عبد المجيد قطامش، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٣هـ.

❖ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

❖ التبصرة في القراءات، مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ) تحقيق د. محي الدين رمضان، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

❖ تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة، محمد بن محمد بن الجزري (٨٣٣هـ) دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

❖ التذكرة في القراءات، طاهر بن عبد المنعم بن غَلْبون (٣٩٩هـ) تحقيق د. عبد الفتاح إبراهيم الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

❖ التيسير في القراءات السبع، أبو عمر عثمان بن سعيد الداني (٤٤٤هـ) بعناية أوتوبرتزل مصورة دار الكتاب العربي ببيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

❖ التيسير في القراءات السبع، نسخة مخطوطة يحتفظ بها الأستاذ محمد ابن المرحوم الشيخ إبراهيم اليعقوبي فقيه المالكية وإمامهم في المسجد الأموي بدمشق (ت ١٩٨٥م).

❖ الدر النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير، عبد الواحد بن محمد ابن أبي السَّداد المالقي الباهلي (٧٠٥هـ) تحقيق د. محمد حسان الطيان، جزء من أطروحة معدّة لنيل درجة الدكتوراه.

❖ السبعة في القراءات، ابن مجاهد (٣٢٤هـ) تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

❖ سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي، علي بن عثمان بن القاصح العذري (٨٠١هـ) مراجعة الشيخ علي محمد الضباع، دار الفكر، دمشق، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

❖ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ) تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط وزملائه، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

❖ العنوان في القراءات السبع، إسماعيل بن خلف المقرئ الأنصاري (٤٥٥هـ) تحقيق د. زهير زاهد ـ د. خليل عطية، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

❖ الغاية في القراءات العشر، أحمد بن مهران النيسابوري (٣٨١هـ) تحقيق محمد غياث الجنباز، شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

❖ غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري (٨٣٣هـ) بعناية د. برجستراسر مكتبة المتنبي، القاهرة.

❖ الفهرس الشامل للتراث الإسلامي المخطوط، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٨٦م.

❖ الكافي في القراءات، محمد بن شريح الرعيني (٤٧٦هـ) طبع بهامش كتاب المكرر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرر، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر، ١٣٢٦هـ.

❖ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة (١٠١٧هـ) دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

❖ الكشف عن وجوه القراءات السبع، مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ) تحقيق د. محيي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

❖ المبسوط في القراءات العشر، أحمد بن مهران الأصبهاني (٣٨١هـ) تحقيق سبيع حاكمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

❖ معجم القراءات، د. عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين، دمشق ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

❖ معجم القراءات القرآنية، د. أحمد مختار عمر ود. عبد العال سالم مكرم، مطبوعات جامعة الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

❖ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

❖ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ) تحقيق د. بشار عواد وشعيب الأرنؤوط وصالح عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

❖ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده (٩٦٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

❖ النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (٨٣٣هـ) تصحيح علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت.

❖ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرئ (١٠٤١هـ) تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖



علم الأصوات عند العرب

علم الأصوات عند العرب *

علم الأصوات Phonétique علم جديد قديم: جديد لأنه واحد من فروع علم اللسانيات Linguistque الذي لا يعدو تأسيسهُ مطلعَ هذا القرن على يد اللغوي السويسري فردينان دوسوسّور (١٨٥٧ ـ ١٩١٣)(١).

وقديمٌ لأنه واحد من العلوم التي تقوم عليها كل لغة، **فاللغة أصوات تتألف منها كلمات تنظم في جمل فتؤدي معاني شتّى**، أو هي على حد تعبير ابن جني: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"(٢). والصوت كما قال الجاحظ: "هو آلة اللفظ، والجوهرُ الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت. ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف"(٣).

ولما كان الأمر كذلك فقد عُني أصحاب كلِّ لغة بأصواتها منذ أقدم العصور، من ذلك ما أُثِر عن قدماء اليونان كأفلاطون وأرسطو من ملاحظات صوتية متناثرة، وكذا ما ورد عن قدماء الرومان أمثال بريسكيان وترنتيانوس. أما الهنود فكانوا أكثر اتساعاً وأعمق أثراً في آرائهم الصوتية، وهم أول من نظر إلى الدراسات الصوتية على أنها فرع مستقل من فروع علم اللغة، واشتهر منهم بانيني بكتابه المسمى Ashtadhyayi(٤).

---

* نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٦٩ الجزء ٤، تشرين الأول ١٩٩٤ وكان أستاذي الكبير الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع قد نظر فيها، وعلق على مواضع منها، وذيل تعليقاته بأول حرفين من اسمه (ش. ف).

(١) مدخل إلى الألسنية ٣٠ ـ ٣١، وعلم الأصوات العام ١٠، ويلاحظ أن نسبة التأسيس إلى دوسوسور لا تعني أنه لم يسبق بدراسات مختلفة تنحو هذا النحو، ولكنه عدَّ الرائد بكتابه "محاضرات في الألسنية العامة" انظر مقدمة الترجمة لهذا الكتاب ص ٣.

(٢) الخصائص ١/٣٣.

(٣) البيان والتبيين ١/٧٩.

(٤) علم اللغة ٨٧ ـ ٨٨، والبحث اللغوي عند العرب ٣٤٢ ـ ٣٤٣، وفي صوتيات العربية ٤٥.

وجاء العرب المسلمون فخطَوا بهذه الدراسات الصوتية خطوات واسعة، وضربوا فيها بسهم وافر، شهد بذلك نَصَفَةُ الدارسين من الغربيين، غير أولي الهوى والزيغ، حتى قال قائلهم: "لم يسبق الأوربيين في هذا العلم إلا قومان العرب والهنود"(١). وقال المستشرق الألماني شادِه عن الأصوات عند سيبويه: "فيستحق ما قد وصل إليه من غايات علم الأصوات أن نعتبره(٢) كما أجمع على تسميته كل من درسه من علماء الشرق والغرب مفخراً من أعظم مفاخر العرب"(٣).

ومع أن علم الأصوات لم يعرف بهذا الاسم عند العرب إلا في مرحلة لاحقة، فإنه لم يغب عن مصنفات المتقدمين من علماء العربية (نحوها وصرفها وعروضها وبلاغتها وموسوعاتها الأدبية) والطب والحكمة والموسيقى والقراءة والتجويد... ذلك أنه مازج هذه العلوم المختلفة وداخَلَها حتى لا تكاد تقع على كتاب فيها يخلو من كلام في علم الأصوات أو أثارةٍ منه. قال أبو نصر الفارابي: "وعلم قوانين الألفاظ المفردة يفحص أولاً في الحروف المعجمة عن عددها، ومن أين خرج كل واحد منها في آلات التصويت وعن المصوت منها وغير المصوت وعما يتركب منها في اللسان وعمّا لا يتركّب"(٤).

ويمكن أن نصنّف العلوم التي أسهمت ولو على نحوٍ ما في علم الأصوات، في زمرٍ ثلاث:

وبانيني نحوي هندي، لعله الأقدم في العالم، كما تقدر دائرة المعارف البريطانية، إذ يعود إلى القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد. انظر (في الأصوات اللغوية ـ دراسة في أصوات المد العربية) ٦٤.

(١) من كلمة للمستشرق الألماني برغشتراسر في كتابه التطور النحوي للغة العربية، وقريب منها قول فيرث الإنكليزي: "إن علم الأصوات قد نما وشبّ في خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية". البحث اللغوي عند العرب ١٠١.

(٢) كذا، والصواب: نعده.

(٣) من محاضرة له بعنوان: "علم الأصوات عند سيبويه وعندنا" نقلاً عن مقدمة كتاب ما ذكره الكوفيون عن الإدغام ٣٨.

(٤) إحصاء العلوم ٤٧ ـ ٤٨ نقلاً عن التفكير اللساني في الحضارة العربية ٢٥٤.

١ ـ علوم العربية: النحو والصرف والبلاغة والعروض...

٢ ـ علوم الحكمة والفلسفة والطب والموسيقى.

٣ ـ علوم القراءة والتجويد والرسم والضبط.

[١]

أما الزمرة الأولى فتبدأ بظهور أول معجم في العربية، وهو كتاب العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ) والذي بُني على أساس صوتي، وصدِّر بمقدمة صوتية تعد أول دراسة صوتية منظمة وصلت إلينا في تاريخ الفكر اللغوي عند العرب[١]. ولا غروَ فصاحبها الخليل مفتاح العلوم ومصرفها، وصاحب العروض، ذو الباع الطويل بالموسيقى وغير ذلك مما له مساس بعلم الأصوات، بل إن حمزة الأصفهاني ينسب إليه كتاباً مستقلاً في الأصوات اسمه "تراكيب الأصوات"[٢]. وكان الخليل أسبق من ذاق الحروف ليتعرف مخارجها: "وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف نحو: أَبْ، أَتْ، أَحْ، أَعْ، أَغْ، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم"[٣].

وتلاه كتاب سيبويه ـ حاوي علم الخليل ـ الذي تضمن دراسات صوتية أوفت على الغاية دقةً وأهميةً، وتنوّعت بتنوع مادتها؛ فكان منها ما يتعلق باللهجات والمقايسة بينها والاستدلال

(١) يراجع في هذا الباب كتاب التفكير الصوتي عند الخليل للدكتور حلمي خليل، وفصل الأصوات اللغوية من كتاب الخليل بن أحمد الفراهيدي للدكتور مهدي المخزومي ٥٦ ـ ١٥٨، وأصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمه كتاب العين للدكتور أحمد محمد قدور.

(٢) التنبيه على حدوث التصحيف ١٢٠، ولم أقع على ذكرٍ لهذا الكتاب فيما رجعت إليه من تراجم الخليل، على أن كتب التراجم تذكر له كتباً أخرى تنحو هذا النحو، ككتاب النغم وكتاب الإيقاع. انظر معجم الأدباء ٧٤/١١، ووفيات الأعيان ٢٤٦/٢، والبغية ٥٦٠/١.

(٣) العين ٤٧/١.

لها[١]، ومنها ما يعرض للقراءات[٢]، ومنها ما يتحدث عن ظواهر صوتية مختلفة كأحكام الهمز من تحقيق وتسهيل وهمزة بين بين[٣]، والإمالة والفتح وما يتعلق بهما من أحكام[٤].. والإعلال والإبدال والتعليل الصوتي لهما[٥]... إلى غير ذلك من مباحث صوتية مبثوثة في طيَّات الكتاب بأجزائه الأربعة. ويستأثر الجزء الرابع بأجلّ هذه المباحث وهو باب الإدغام[٦] الذي استهله سيبويه بذكر عدد الحروف العربية، ومخارجها، ومهموسها، ومجهورها، وأصولها وفروعها، وما إلى ذلك مما يدخل في تكوين النظام الصوتي العربي ليغدو أساساً ومرجعاً لكل من صنف في هذا الباب من النحاة واللغويين والقراء[٧].

ثم تتابعت كتب النحو واللغة بعد سيبويه تنحو نحوه وتقفو أثره في تخصيص حيّز للدراسات الصوتية مرددةً تعبيراته ومصطلحاته في كل ما يتعلق بمخارج الحروف وصفاتها[٨]

---

(١) انظر على سبيل المثال الكتاب ١/٥٧ ـ ٦٦، ٧١ ـ ٧٢ (١/٢٨ ـ ٣٣، ٣٦ ـ ٣٧ ط. بولاق) و٣/٥٣٠ (٢/١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) انظر على سبيل المثال الكتاب ١/٥٨، ٥٩، ٧١ (١/٢٨، ٢٩، ٣٦) و٢/٩١، ١٠٨ (١/٢٦٢، ٢٧٠).

(٣) الكتاب ٣/٥٤١ ـ ٥٥٦ (٢/١٦٣ ـ ١٧١).

(٤) الكتاب ٤/١١٧ ـ ١٣٥ (٢/٢٥٩ ـ ٢٦٧).

(٥) الكتاب ٤/٣٣٤ ـ ٤٣١ (٢/٣٥٦ ـ ٤٠٤).

(٦) الكتاب ٤/٤٣١ ـ ٤٨٥ (٢/٤٠٤ ـ ٤٣٠).

(٧) تناول كثير من اللسانيين المعاصرين مباحث الصوت في الكتاب بالدراسة والتتبع، أذكر منهم الأستاذ شاده في بحثه "علم الأصوات عند سيبويه وعندنا". والدكتور إبراهيم أنيس في الأصوات اللغوية ١١١ ـ ١٣٥. والدكتور أحمد مختار عمر في البحث اللغوي عند العرب ٩١ ـ ١٠٩. والدكتور تمام حسان في اللغة العربية معناها ومبناها ٥٠ ـ ٦٣. والدكتور حسام النعيمي في الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ٥٧ ـ ٥٩. والدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في أطروحته: Linguistique Arab et Linguistiqe general. ود. شاهين في أثر القراءات في الأصوات ١٨٢ ـ ٢١٩، والطيب بكوش في مقاله "النظرات الصوتية في كتاب سيبويه" حوليات الجامعة التونسية (١١) ١٩٧٤.

(٨) الأصوات اللغوية ١٠٥، والبحث اللغوي عند العرب ١٠٦، وأثر القراءات في الأصوات ١٩٨.

ـ وهو الباب الذي يعنينا هنا ـ وكان على رأسها، مما وصل إلينا، المقتضب[١] للمبرد (٢٨٥هـ) والأصول في النحو لابن السراج (٣١٦هـ) ورسالة الاشتقاق[٢] له أيضاً، والجمهرة[٣] لابن دريد (٣١٢هـ) والجمل[٤] للزجاجي (٣٤٠هـ) والتهذيب[٥] للأزهري (٣٧٠هـ). ومما يدخل في هذا الباب شروح سيبويه المختلفة وفي مقدمتها شرح السيرافي[٦][٧] (٣٦٨هـ) والرمّاني[٨] (٣٨٤هـ) والأعلم الشنتمري[٩] (٤٧٦هـ) وشرح أبي علي الفارسي (٣٧٧هـ) المسمى "تعليقة على كتاب

---

(١) المقتضب ١/١٩٢ ـ ١٩٦. (باب مخارج الحروف) وهو الباب المقصود في كل الإحالات التالية.

(٢) الأصول في النحو ٣/٣٩٩ ـ ٤٠٤. ورسالة الاشتقاق ٣٤ ـ ٣٨.

(٣) جمهرة اللغة ١/٦ ـ ٩.

(٤) الجمل في النحو ٤٠٩ ـ ٤١٣.

(٥) تهذيب اللغة ١/٤٨ ـ ٥١.

(٦) لم يطبع من شرحه سوى جزء جاء ضمن كتاب السيرافي النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه للدكتور عبد المنعم فائز. على أن في آخر الشرح رسالتين في الإدغام نشرتا مؤخراً، الأولى بعنوان: "ما ذكره الكوفيون من الإدغام"تحقيق د. صبيح التميمي، والثانية بعنوان: "إدغام القراء"تحقيق د. محمد علي الرديني. وفي كليهما مادة صوتية صالحة. كما نشر د. رمضان عبد التواب مؤخراً جزءاً من شرح السيرافي خاصًّا بالضرورة الشعرية، لكن عنوانه لا يؤذن بكونه قطعة من شرح الكتاب لأنه اقتصر على: "ضرورة الشعر"لأبي سعيد السيرافي. دار النهضة، بيروت ١٩٨٥.

(٧) ضرورة الشعر لأبي سعيد السيرافي الذي قام بطبعه الدكتور رمضان عبد التواب هو جزء من شرح السيرافي لكتاب سيبويه.

وقد قام الأستاذ الدكتور عوض القوزي بتحقيق هذا القسم من كتاب سيبويه والتعليق عليه، وأصدره بعنوان: ما يحتمل الشعر من الضرورة (ط١/ ١٩٨٩م، ط٢/ ١٩٩١م). وقد طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع)/ش. ف.

(٨) مخطوط شرح الرماني ١٥٨/ب ـ ١٦٢/أ. وللرماني رسالة عنوانها النكت في إعجاز القرآن ضمَّنها أحكاماً صوتية في تنافر الحروف وتلاؤمها ٨٧ ـ ٨٩.

(٩) في كتابه النكت في تفسير كتاب سيبويه ٢/١٢٤٢ ـ ١٢٤٨.

سيبويه"[١][٢]، وغيرها من شروح الكتاب، ولعل ما لم يصلنا منها أغزر مادة صوتية مما وصلنا فهي كثيرة أربت على الخمسين شرحاً[٣].

وتلا ذلك كله كتاب المفصل للزمخشري (٥٣٨هـ) الذي نسج على منوال سيبويه أيضاً فختم كتابه بباب الإدغام مستهلاً بذكر حروف العربية ومخارجها وصفاتها[٤]، وكان بهذا المادةَ الصوتية التي بنى عليها ابنُ يعيش (٦٤٣هـت) شرحَهُ الغنيَّ بالدراسة الصوتية[٥]. ولا يكاد يدانيه في ذلك إلا الرضيُّ الأَسْتَراباذي (٦٨٦هـ) في شرحه للشافية حيث تداخل علم الصوت بعلم الصرف[٦].

ولا بد من الإشارة إلى أن ثمة كتباً تحمل اسم الأصوات أو ما يشاكلها لم تصل إلينا، لكن المصادر حفظت أسماءها، مثل كتاب الأصوات لقطرب النحوي[٧] (٢٠٦هـ) تلميذ سيبويه، والأصوات للأخفش[٨] (٢١٥هـ).

---

(١) منها نسخة خطية في مكتبة شهيد علي باصطنبول وقد عاينتها سنة ١٩٨١ مع الزميل الدكتور يحيى مير علم، وجلبنا صورة عنها لأستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ رحمه الله.

(٢) ويقوم الأستاذ الدكتور عوض القوزي بتحقيق كتاب التعليقة لأبي علي الفارسي وقد أصدر جزأين منها (الأول ١٩٩٠م، والثاني ١٩٩٢م)، وفقه الله لإتمامها/ ش. ف.

(٣) انظر المغني في تصريف الأفعال ٨، وتقديم كتاب سيبويه للأستاذ عبد السلام هارون ٣٥ ـ ٤١.

(٤) جاء الإدغام في المفصل تحت عنوان "ومن أصناف المشترك الإدغام". انظر المفصل ٣٩٣ ـ ٤٠٥.

(٥) شرح المفصل ١٢٣/١٠ ـ ١٣١ حيث بسط ابن يعيش الكلام على مخارج الحروف وصفاتها ثم تابع الكلام على الإدغام حتى آخر الكتاب ١٣١/١٠ ـ ١٥٥. وانظر الأصوات اللغوية ١٢٨ ـ ١٣٥ حيث أثبت د. إبراهيم أنيس نص كلام الزمخشري وابن يعيش في جدول إلى جانب نصوص من الكتاب وسر الصناعة والنشر في مخارج الحروف وصفاتها تسهيلاً للموازنة بينها.

(٦) شرح الشافية ٢٢٠/٣ ـ ٢٦٤، والكلام هنا على مخارج الحروف وصفاتها، أما ظواهر الإدغام والإعلال والإبدال والإمالة فلكلٍّ منها في الكتاب بابٌ مستقلّ وحديث متطاول.

(٧) الفهرست ٥٨، ومعجم الأدباء ٥٣/١٩.

(٨) الفهرست ٥٨، وإنباه الرواة ٤٢/٢.

وليعقوب بن السكّيت[١] (٢٤٦هـ) ولابن أبي الدنيا[٢] (٢٨١هـ). وكتاب الصوت والبَحَّة ليحيى بن ماسويه[٣]. ومن ذلك أيضاً كتاب الصوت لجالينوس الذي نقله إلى العربية حنين بن إسحاق[٤]. ولعل من أعجب ما ذكر ابن النديم في هذا الباب كتاب آلة مصوتة تسمع على ستين ميلاً لمورطس[٥].

على أن أول من أفرد المباحث الصوتية بمؤلف مستقل، ونظر إليها على أنها علم قائم بذاته ابنُ جني (٣٩٢هـ) في كتابه سر صناعة الإعراب الذي بسط فيه الكلام على حروف العربية: مخارجها، وصفاتها، وأحوالها، وما يعرض لها من تغيير يؤدي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف، والفرق بين الحرف والحركة، والحروف الفروع المستحسنة والمستقبحة، ومزج الحروف وتنافرها.. إلى غير ذلك من مباحث بوّأتْهُ المقامَ الأول في هذا الفن، فعدَّ بحقٍّ رائدَ الدراسات الصوتية، وهو يعني ذلك إذ يقول: "وما علمتُ أن أحداً من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض، ولا أشبعه هذا الإشباع، ومن وجد قولاً قاله، والله يعين على الصواب بقدرته"[٦].

ولا تقتصر جهود ابن جني الصوتية على ما في سر الصناعة وإنما تتعدّاه إلى كتبه الأخرى، وفي مقدمتها الخصائص الذي تضمن مادة صوتيةً غنيّةً جاء بعضها منثوراً في تضاعيف

---

(١) الفهرست ٧٩.

(٢) الفهرست ٢٣٧.

(٣) الفهرست ٣٥٤.

(٤) الفهرست ٣٤٩.

(٥) الفهرست ٣٢٩.

(٦) سر صناعة الإعراب ١/٦٣. ويعض الباحثين يعدّ ابن جني أول من استعمل مصطلح "علم الأصوات" وذلك بقوله في سر الصناعة للدلالة على هذا العلم ١/١٠: "ولكن هذا القبيل من هذا العلم، أعني علم الأصوات والحروف، له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم" انظر البحث اللغوي عند العرب ٩٩ ولا يبعد هذا وإن لم نستطع القطع به لما تقدم من ذكر كتب الأصوات التي لم تصل إلينا.

الكتاب[١]، وأُفرد بعضها الآخر في أبواب مستقلة مثل باب في كمية الحركات، وباب في مطل الحركات، وباب في مطل الحروف...[٢] إلخ.

ويبدو أن موضوع طول الحركات والأصوات قد استبدّ بابن جني إلى حدٍّ جعله يفرد له رسالةً، لم تصلنا، سماها "رسالة في مدّ الأصوات ومقادير المدات" ذكر ياقوت أنّه كتبها إلى أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الطبري وأنها في ست عشرة ورقة بخطّ ولده عال[٣].

هذا وإن من وراء ما ذكرناه من كتب في علوم العربية كتباً أخرى حوت مادة صالحة في الصوت وما إليه، نذكر منها: كتابَ الجيم حيث عني أبو عمرو الشيباني (٢٠٦هـ) بلغات القبائل ولهجاتها المختلفة[٤]، والبيانَ والتبيين حيث تكلم الجاحظ (٢٥٥هـ) على اللثغة، والصوت ونسج الكلمة العربية وتردّدِ الحروف فيها[٥]، والزينةَ حيث تكلّم أبو حاتم الرازي (٣٢٢هـ) على جرس حروف المدّ[٦] وقابل بين العربية والفارسية من حيث أصواتُ كلٍّ منهما

---

(١) من مثل كلامه على حروف الهمس ١/٥٧ ـ ٥٩، وكلامه على جرس الحرف وأثره في الدلالة ١/٥٦ ـ ٦٦، وكلامه على الإشمام وهمزة بين بين والرَّوم ٢/١٤٤ ـ ١٤٥... إلخ.

(٢) الخصائص ٣/١٢٠ ـ ١٣٣.

(٣) معجم الأدباء ١٢/١١٣. هذا وقد كتب الكثيرون عن جهود ابن جني الصوتية مثل هنري فليش: "التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب لابن جني" مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء ٢٣ سنة ١٩٦٨. والدكتور حسام النعيمي: "الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني" بغداد ١٩٨٠. والدكتور محمد حسن باكلا: "ابن جني عالم الصوتيات" لندن ١٩٨٢.

(٤) لا تكاد صفحة منه تخلو من لغات القبائل ولهجاتها الغريبة، والمؤلف ينسب كلاً منها إلى أصلها بقوله: قال النميريّ.. وقال العبسي.. وقال الطائي.. إلخ، انظر على سبيل المثال: ١/٦٤ ـ ٦٥. وانظر الدراسات اللهجية ٥٩ ـ ٦٠.

(٥) البيان والتبيين ١/١٤، ٢٢، ٣٤ ـ ٤٠، ٦٩ ـ ٧٤، ٧٩. وانظر البحث اللغوي عند العرب ٩٧ ـ ٩٨، والمعجم العربي دراسة إحصائية صوتية مخبرية ٢٢ ـ ٢٣.

(٦) الزينة ١/٦٤ و٢/٢٨ نقلاً عن دراسة في أصوات المد العربية ٨٣ ـ ٨٥، وانظر التصور اللغوي عند الإسماعيلية/ دراسة في كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي ٢٠٢ ـ ٢١٧.

مما يدخل تحت علم اللغة التقابلي[1]، وإعجازَ القرآن حيث تكلم الباقلاني (٤٠٣هـ) على صفات الحروف وعلاقتها بفواتح السور[2]، وسرَّ الفصاحة حيث عقد الخفاجي (٤٦٦هـ) فصلاً مفرداً للأصوات تكلم فيه على ماهيتها وإدراكها، وفصلاً مفرداً للحروف تكلم فيه على حدِّها واختلافها ومخارجها وصفاتها، ثم تناولها موضوع تأليف الحروف وتنافرها[3]، والتفسيرَ الكبيرَ حيث تكلم الفخر الرازي (٦٠٦هـ) على الأصوات وتولّدِها وأقسامها وعلاقتها بعلم التشريح[4]. والمباحثَ المشرقية في علم الإلهيات الطبيعيات له أيضاً حيث تكلم على آلية التصويت كلاماً مُعجِباً يتوافق مع كثير مما جاء به علم الفيزياء الحديث[5].

ولا نكاد نجد بعد هذا في كتب المتأخرين من النحاة واللغويين ما يمكن أن يتّسم بالأصالة في دراسة أصوات اللغة، سوى تلك المحاولة التي جاءت في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي (٦٢٦هـ) من رسم بدائي لأعضاء النطق[6].

[٢]

وأما الزمرة الثانية - زمرة الفلاسفة والأطباء والحكماء - فيقدُمُها فيلسوفُ العرب الكندي (٢٦٠هـ) الذي كانت له عناية متميزة بالأصوات، تبدّت في أكثر من مصنّف، وعلى رأس ذلك رسالته في استخراج المعمى حيث تكلم على تردّد حروف العربية ودورانها في الكلام معتمداً على إحصاء صنعه بنفسه، وتقسيمِها إلى مصوتة وخرس (صامتة).

---

(١) أو Constrative Linguistique. انظر التصور اللغوي عند الإسماعيلية ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) إعجاز القرآن ٤٤ - ٤٦. وانظر البحث اللغوي عند العرب ٩٥ - ٩٦.

(٣) سر الفصاحة ٦ - ٢٤، ٥٣ - ٥٤، ٦٠ - ٦١، ٩١ - ٩٤، وانظر العجم العربي دراسة إحصائية صوتية مخبرية ١٣٢/٢ - ١٣٥.

(٤) التفسير الكبير ١١/١، ١٥، ٢٩، ٣١، ٤٧ - ٤٨ نقلاً عن دراسة في أصوات المد العربية ١٠٠ - ١٠٢.

(٥) المباحث المشرقية للفخر الرازي، الباب الرابع (في الكيفيات المسموعة) ٩١٤/١، بيروت ١٩٩٠.

(٦) مفتاح العلوم ١٣، وانظر المدخل إلى علم اللغة ١٨.

وذكر قانوناً لغويًّا عامًّا يسري على كلِّ اللغات وهو كونُ المصوتات أكثر الحروف تردداً. ونبّه على اشتمال المصوتة على المصوتات العظام، وهي حروف المد، والمصوتات الصغار، وهي الحركات[١]. Les voyelles longueset les voyelles breves ثم بسط الكلام على نسج الكلمة العربية باستفاضة، إذ أورد ما يقرب من مئة قانون من قوانين ائتلاف الحروف واختلافها أو تنافرها[٢].

وللكندي رسالة أخرى ذات ـ مساس بالصوتيات بل بتطبيقٍ دقيق من تطبيقاتها هو ما يدعى اليوم بأمراض النطق Troubles de la parole، وهي رسالة اللثغة[٣][٤]، وقد قدّم لها ببيانٍ وافٍ لآلية النطق، وعلاقتها بالحروف، وما تحتاجه كل لغة من اللغات السائدة آنذاك من الحروف، ثم تكلم على أسباب اللثغة وما يعرض للسان من التشنج أو الاسترخاء، ووصف مخارج حروف العربية وهيئات النطق بها وصفاً تشريحيًّا فيزيائياً على نحو يختلف عما عهدناه عند سيبويه وخالفيه، ثم حدّد حروف اللثغة، وسمّى أعراضها وأنواعها وختم الكلام بعللها[٥].

ومخالفة نهج سيبويه في تتبع مخارج الحروف تفضي بنا إلى ملاحظة هامة تتعلق بطبيعة تناول هؤلاء الحكماء للصوت، إذ هي تنزع نحو فيزيائية الصوت أو ما أطلق عليه بعض

---

(١) أحال الكندي عند تنبيهه هذا على كتاب له سماه "في صناعة الشعر"وهو مظنّة التوسع في هذه القضايا. انظر علم التعمية واستخراج المعمى ١/٢٣٧، والفهرست ٣١٧، والمعجم العربي دراسة إحصائية ٢/٣٠.

(٢) انظر بيان ذلك في رسالتي للماجستير "المعجم العربي دراسة إحصائية صوتية مخبرية ٢/٢٤ ـ ٤١"وقد جمعتُ ثمة جملةً صالحة من النصوص المعنية بنسج الكلمة العربية. وانظر النص الكامل لرسالة الكندي في كتاب علم التعمية واستخراج المعمى ١/٢٠٤ ـ ٢٥٩.

(٣) نشرتْها مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيقي في المجلد ٦٠ ج٣/٥١٥ ـ ٥٣٢ سنة ١٩٨٥.

(٤) وكان الأستاذ شلتناتو قد نشر الرسالة سنة ١٩٧٩م. انظر مجلة المجمع، مج ٦١، ج٢، ص٤٣٠ ـ ٤٣١/ش. ف.

(٥) للكندي رسائل أخرى مظنة أن تنحو هذا النحو لمّا تجدْ طريقَها إلى النور، منها رسالته في الأصوات الخمسة، ورسالته في الإيقاع، ورسالته في المدخل إلى صناعة الموسيقى. انظر الفهرست ٣١٦ ـ ٣١٧.

الباحثين اسم علم الصوتيات المَوْجي السمعي[1] Acoustique phonetique ولا غروَ فقد عرض حكماؤنا لمصدر الصوت، وكيفية انتقاله في الهواء، والمميزات الخاصة التي يتصف بها، وكيفية وصوله إلى الأذن، وإدراكه، والتمييز بين الأصوات اللغوية وغير اللغوية، ووضع المعايير السمعية لتقسيم الأصوات اللغوية، والنغمة الصوتية، وشدة الصوت... إلخ[2].

والفارابي (٣٣٩هـ) المعلم الثاني واحد ممن عُني بهذه الدراسات، إذ انطوى كتابه الموسيقى الكبير على الكثير منها: من ذلك كلامه على حدوث الصوت والنغم، وربطه بين المبدأ الطبيعي لحدوث الصوت وكيفية حدوث الكلام، وعنايته بدرجة الصوت (حدّته وثقله) وإشارته إلى وجوب استعمال الآلات للقيام ببعض القياسات التي يصعب تحديدها بالسمع[3].

ومما ينحو هذا النحو رسالة الموسيقى[4] لإخوان الصفا (القرن الرابع الهجري) وقد اشتملت على عدة فصول أهمها فصل في كيفية إدراك القوة السامعة للأصوات، فيه كلام على الأصوات، وأنواعها، ومصدرها، وماهيتها، ونغمتها[5].

وجاء ابن سينا (٤٢٨هـ) فجمع هذا كله في رسالته الفذّة أسباب حدوث الحروف، التي عالج فيها أصوات اللغة على نحو فريد لا نكاد نقع عليه عند أحد من المتقدمين، وهو يتصل بما يسمى علم الأصوات النطقي phonetique articulatoir فقد جاء حديثه فيها حديثَ العالم الفيزيائي حين أشار إلى كنهِ الصوت وأسبابه، وحديثَ الطبيب المشرِّح حين وصف الحَنجرة

---

(١) هو الدكتور يوسف الهليس، انظر مقالته "علم الصوتيات الموجي والسمعي عند علماء المسلمين القدماء" في المجلة العربية للدراسات اللغوية المجلد الثالث العدد الثاني ١٩٨٥ ص ١٠١ ـ ١٢٣. وقد تعقّبه د. سعد مصلوح واقترح مصطلح "علم الأصوات الفيزيقي أو الفيزيائي" انظر العدد نفسه ١١٨ ـ ١٢٠.

(٢) علم الصوتيات الموجي والسمعي ١٠١.

(٣) في مقال د. هليس السالف نصوص هذه المباحث والإحالات عليها. انظر فيه الصفحات ١٠٢ ـ ١١٥.

(٤) وهي الرسالة الخامسة من القسم الرياضي من رسائل إخوان الصفا ١/١٨٣ـ٢٤١.

(٥) رسائل إخوان الصفا ١/١٨٨ ـ ١٩٤.

واللسان، وحديثَ اللغوي المجوِّد حين عرض لوصف مخارج الحروف وصفاتها، وحديثَ عالم الأصوات المقارنة حين تصدى لوصف أصوات ليست من العربية، وحديثَ فقيهِ اللسان وأسرار الطبيعة حين ربط بين أصوات الطبيعة وأصوات الحروف. وتميّز كلامُهُ في ذلك كلّه بمصطلحاتٍ لا نحسِب أحداً من علماء العربية يَشْرَكُهُ فيها. من أجل هذا سنخصّ رسالته بفضل بيان وتفصيل[١].

قسم ابن سينا رسالته ستة فصول[٢]:

ـ **أولها**: في سبب حدوث الصوت[٣] حيث ردَّ ذلك إلى القلع أو القرع اللذين يلزم عنهما تموّجٌ سريعٌ عنيفٌ في الهواء يُحدِث الصوتَ.

ـ **وثانيها**: في سبب حدوث الحروف[٤] حيث يبيّن أن حال المتموِّج في نفسه من اتصال أجزائه أو تفرقها تفعل الحدة والثقل ـ وهما يمثلان شدة الصوت[٥] PITCH ـ وأن حاله من جهة الهيئات التي يستفيدها من المخارج والمحابس في مسلكه تفعل الحرف، ثم يُعرِّفُ الحرفَ، ويقسم الحروف إلى مفردة ومركّبة موضحاً طبيعة كلٍّ منها.

ـ **وثالثها**: في تشريح الحَنجرة واللسان[٦]: حيث تبدّت عبقريّة ابن سينا الطبيّة، فشرَّح الحنجرة مبيِّناً غضاريفَها الثلاثة (الدَّرَقي، والطِّرْجِهاري، وعديم الاسم) وكيفيَّةَ تركّبها

---

(١) كنت قد حققت هذه الرسالة بروايتيها مع الزميل الدكتور يحيى مير علم، ونشرها مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣.

(٢) أسباب حدوث الحروف ٥٤ ـ ٥٥.

(٣) أسباب حدوث الحروف ٥٦ ـ ٥٨.

(٤) أسباب حدوث الحروف ٥٩ ـ ٦٣.

(٥) من المعلوم في الصوتيات الفيزيائية اليوم أن الصوت الحاد أعلى تردداً من الصوت الثقيل، فالتردد الأساسي لصوت المرأة ٣٥٠ ـ ٥٠٠ هرتز (هزة بالثانية) في حين ينحصر التردد الأساسي للرجل بين ١٠٠ ـ ٢٥٠ هرتز، ويمكن أن نمثل ما قاله ابن سينا هنا بصوت الطبل، فكلما كان سطحه أملس وأجزاؤه متماسكة كان صوته حاداً، وكلما كان سطحه متشظياً متشذباً غير متماسك كان صوته ثقيلاً.

(٦) أسباب حدوث الحروف ٦٤ ـ ٧١.

وارتباطها بعضها ببعض عن طريق المفاصل والعضلات التي عدّدها وحدّدها تحديداً دقيقاً بعد أن قسمها إلى عضلاتٍ مضيقة للحنجرة وأخرى موسّعة، وأشار إلى ارتباط بعضها بأنواع معيّنة من العظام (كالعظم الشبيه باللام). ثم شرَّح اللسان مبيّناً عضلاتِه الثماني وارتباطاتها المختلفة.

ـ ورابعها: في الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العربية[١] وهو بيت القصيد من الرسالة إذ تناول فيه حروف العربية حرفاً حرفاً مبيّناً سببَ حدوثِها وما يعتري كلاً منها من عمليّات عضوية تتبدّى في دفع الهواء، وحبسه، وكيفية هذا الحبس، والوسط الذي يتردّد فيه الهواء المدفوع من رطوبةٍ أو يُبُوسة أو ما إلى ذلك.

ولعلّ من أهم ما في هذا الفصل تفريقَ ابنِ سينا بين الواو والياء الصامتتين، والواو والياء المصوتتين، ثم بيانه العلاقة بين المصوّتات الطويلة والمصوّتات القصيرة ومحاولته تحديد زمن حصول كلّ منها.

ـ وخامسها: في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب[٢]، حيث عرض لحروف أعجمية (فارسية ويونانية وتركية) تشبه بعض حروف العربية مثل G وV وP والزاء الظائية في مثل (يصدر) واللام المطبقة في مثل (الصلاة) بتفخيم اللام. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعضَ هذه الحروف موجود في بعض اللهجات العربية القديمة، ومن ثمَّ فقد اشتملت عليه بعض القراءات القرآنية، كما جاء في قراءة حمزة والكسائي ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] بإشمام الصاد صوت الزاي[٣] وكما جاء في قراءة ورش ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣] بتفخيم اللام[٤].

---

(١) أسباب حدوث الحروف ٧٢ ـ ٨٥.

(٢) أسباب حدوث الحروف ٨٦ ـ ٩٢.

(٣) انظر التيسير ٩٧.

(٤) التيسير ٥٨.

ـ وسادسها: في أن هذه الحروف قد تسمع من حركات غير نطقية[1]. وهو فصل طريف يربط فيه ابن سينا بين أصوات اللغة والأصوات الطبيعية الأخرى محاولاً أن يتلمَّس وجوه الشبه بينهما، فالخاء عن حك جسم ليّن حكًّا كالقشر بجسم صلب، والشين عن نشيش الرطوبات وعن نفوذ الرطوبات في خلل أجسام يابسة نفوذاً بقوة، والطاء عن تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان بل ينحصر هناك هواء له دوي، والتاء عن قرع الكف بإصبع قرعاً بقوة... إلخ.

ولا تخلو كتب ابن سينا الأخرى كالقانون والشفاء من إلماعات صوتية تدخل فيما نحن بسبيله[2]. كما لا يعدم الباحث إسهامات مشابهة في هذا المجال عند خالفي ابن سينا كعبد اللطيف البغدادي (٦٢٩هـ) وهو واحد من فلاسفة الإسلام المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطبّ... ومن رسائله المتصلة بموضوعنا: "مقالتان في الحواس" و"النفس والصوت والكلام" و"اللغات وكيفية تولدها"[3].

[٣]

وأما الزمرة الثالثة ـ زمرة علماء القراءة والتجويد والرسم والضبط ـ فقد وُسِمَتْ مصنفاتها بأنها أكثر الكتب احتفاءً بالمادة الصوتية؛ وذلك لابتغائها الدقة في تأدية كلمات القرآن الكريم قراءةً وتدويناً إلى حدٍّ جعل بعض الباحثين يذهبون إلى أن هذه العلوم انفردت بالدرس الصوتي وأغنته[4]، على أنها أفادت من علم النحو عامة ومن كتب سيبويه خاصة، يقول

---

(١) أسباب حدوث الحروف ٩٣ ـ ٩٧.

(٢) انظر على سبيل المثال كلامه على تشريح الحنجرة واللسان في القانون ١/٦٤ ـ ٦٦، وكلامه على الصوت وآلته ومادته وباعثها ومؤدّيها في القانون ٣/١١٤٥ ـ ١١٤٩. وانظر كذلك كلامه على الحدة والثقل في الشفاء ٣/١٠.

(٣) الأعلام ٤/٦١ وانظر مقال الدكتور الهليس السالف الذكر ص ١٠٣، وبحث الدكتور عبد الكريم شحادة: "أضواء على الطبيب العربي والعالم الموسوعي عبد اللطيف البغدادي" ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ٦٩٣ ـ ٧٧٤.

(٤) الأصوات ووظائفها ٨٨.

برغشتراسر: "كان علم الأصوات في بدايته جزءاً من النحو ثم استعاره أهل الأداء والمقرئون، وزادوا في تفصيلات كثيرة مأخوذة من القرآن الكريم"[١].

والحق أن هذه العلوم تمثل الجانب التطبيقي الوظيفي لكل ما سبق ذكره من دراسات صوتية، وقد ظهرت في مرحلة مبكرة من تاريخ حضارتنا العلمي صدعاً بالأمر الإلهي ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ وصولاً إلى الوجه الأمثل لهذه التلاوة، ووصفاً لأوجه الأداء المختلفة التي تبدّت في القراءات القرآنية وانطوى عليها الرسم العثماني للمصحف. لكنها اقتصرت بادئ الأمر على المشافهة والتلقين دون الكتابة والتدوين، ثم ظهرت مصنّفات القراءات القرآنية التي عنيت ببيان وجوهِ الأداء المختلفة معزوّةً إلى ناقليها، ووجوهُ الأداء هذه تشتمل على الكثير من الظواهر الصوتية؛ كإدغام المتماثلين والمتقاربين وإظهارهما، ونبر الهمز وتسهيله وإبداله وحذفه، وإمالة الألف والفتحة وفتحهما.. إلى غير ذلك مما يدخل تحت ما يدعى اليوم بعلم وظائف الأصوات phonologie[٢].

ويعزو المؤرخون أول كتاب في القراءات إلى أبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) الذي جعل القرّاء خمسة وعشرين قارئاً[٣]، أما أول كتاب وصلنا في هذا الفن فهو كتاب السبعة لابن مجاهد (٣٢٤هـ) شيخ الصنعة وأول من سبّع السبعة، وتواصلت بعده كتب القراءة تترى، تقفو أثره، وتنهل من منهله على اختلاف عدد القرّاء في كلٍّ منها[٤].

أما فنُّ التجويد فأول من صنّف فيه ـ على ما يبدو ـ موسى بن عبيد الله ابن خاقان (٣٢٥هـ) صاحب القصيدة الخاقانية في التجويد[٥]، وهي تضم واحداً وخمسين بيتاً في حسن

---

(١) نقلاً عن كتاب الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه ص ١٤٩.

(٢) علم اللغة العام ـ الأصوات ٢٨ ـ ٢٩، وعلم الأصوات العام ٧، ١٧٦.

(٣) النشر ١/٣٤، وكشف الظنون ٢/١٣١٧.

(٤) يراجع فيها النشر ١/٣٤ ـ ٣٥، وكشف الظنون ٢/١٣١٧ ـ ١٣٢٢، وتاريخ التراث العربي ١/١٧ ـ ٣٦.

(٥) كشف الظنون ١/٣٥٤، وأبجد العلوم ٢/١٨٨.

أداء القرآن الكريم[١]، وقد شرحها الإمام الداني (٤٤٤هـ) صاحب التصانيف العديدة في القراءات والتجويد، ولعل من أهمها في هذا الباب رسالته "التحديد في الإتقان والتجويد"[٢]. التي ضمَّنها باباً في ذكر مخارج الحروف وآخر في أصنافها وصفاتها، ثم أتى على ذكر أحوال النون الساكنة والتنوين عند جميع حروف المعجم، وأفرد باباً لذكر الحروف التي يلزم استعمال تجويدها وتعمّل بيانها وتخليصها لتنفصل بذلك من مشبهها على مخارجها[٣].

ومن أقدم ما وصلنا بعد القصيدة الخاقانية رسالة "التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي" لأبي الحسن علي بن جعفر السعيدي المقرئ (٤٦١هـ) وهي ذات موضوع طريف يتعلق بنطق الأصوات العربية، ويكشف عن الانحرافات النطقية الخفية التي يمكن أن يقع فيها المتكلم لاسيما قارئ القرآن الكريم حيث يتطلب الأمر عناية خاصّة بأداء الأصوات[٤].

---

(١) حققها الدكتور علي حسين البواب مع مقتطفات من شرحها للداني في مجلة المورد العراقية مج ١٤ عدد ١ سنة ١٩٨٥. وانظر في نسخ هذه القصيدة ونسخ شرحها: تاريخ الأدب العربي (المترجم) ٤/٥، وتاريخ التراث العربي ١/٢٩-٣٠.

(٢) كذا ورد اسمها في المصادر. كشف الظنون ١/٣٥٥، وغاية النهاية ١/٥٠٣، وغيرهما، على أني أحتفظ بمصورة عنها أثبت عليها عنوان مغاير نصه: "كتاب تجويد التلاوة وتحقيق القراءة" وأصل هذه المصورة تحتفظ به مكتبة جار الله باصطنبول تحت رقم ٢٣. هذا وقد أعلمني أُستاذنا الدكتور عبد الرحمن صالح أنها نشرت مؤخراً.

(٣) تجويد التلاوة للداني ورقة ٩٨/أ.

(٤) نشرت هذه الرسالة بتحقيق د. غانم قدوري حمد في مجلة المجتمع العراقي سنة ١٩٨٥ مج ٣٦ ج٢/٢٤٠-٢٨٧. والجدير بالذكر أن مؤلفها استخدم فيها مصطلحات صوتية تستأهل العناية والتتبع، من ذلك ما جاء في قوله: "واللحن الخفي لا يعرفه إلا المقرئ المتقن الضابط الذي قد تلقّن من ألفاظ الأستاذين، المؤدي عنهم، المعطي كل حرف حقه غير زائد فيه ولا ناقص منه، المتجنب عن الإفراط في الفتحات والضمات والكسرات والهمزات، وتشديد المشددات وتخفيف المخففات، وتسكين المسكنات، وتطنين النونات، وتفريط المدات وترعيدها، وتغليظ الراءات وتكريرها، وتسمين اللامات وتشريبها الغنة، وتشديد الهمزات وتلكيزها..." ص٢٦٠.

ومما ينحو نحوَها كتابُ "بيان العيوب التي يجب أن يتجنبها القراء وإيضاح الأدوات التي بني عليها الإقراء"لابن البناء (٤٧١هـ) وهو لايقتصر على بيان الانحرافات النطقية في الأصوات والعجز عن أدائها وبيان كيفية علاجها، إنما يتجاوز ذلك إلى معالجة موضوعات أخرى تتعلق بكيفيات الأداء، وبيان العادات الذميمة المتعلقة بالهيئات والجوارح مع توضيح معايب النطق الخاصة ببعض الأصوات، مما يدخل في بابي أمراض الكلام والأصول الواجب مراعاتها عند القراءة[١].

على أن أوسع ما وصلنا في علم التجويد كتاب الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة[٢] للإمام المقرئ أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ) صاحب التصانيف الجليلة في علوم القرآن والعربية وقد جمع فيه صاحبه فأوعى، ثم زاد فأربى على كل من تقدمه، وفي ذلك يقول: "وما علمت أن أحداً من المتقدمين سبقني إلى تأليف مثل هذا الكتاب ولا إلى جمع مثل ما جمعت فيه من صفات الحروف وألقابها ومعانيها، ولا إلى ما أتبعت فيه كل حرف منها من ألفاظ كتاب الله تعالى، والتنبيه على تجويد لفظه والتحفظ به عند تلاوته"[٣].

وحسبنا أن نشير، تدليلاً على هذا، أنه ذكر لحروف العربية أربعة وأربعين لقباً، بيّنها وشرحها "وكل واحدٍ من هذه الألقاب يدل على معنى وفائدة في الحرف ليسا في غيره مما ليس له ذلك اللقب"[٤].

---

(١) عرّف الكتاب وحقّق نصّه د. غانم قدوري حمد في مجلة معهد المخطوطات العربية سنة ١٩٨٧. مج ٣١ ج١/٧ ـ ٥٨. وتجدر الإشارة إلى أن ثمة مصنفات أخرى على هذه الشاكلة، أشار إليها ابن البناء في كتابه وصرح بنقله عن واحدة منها لأبي الحسين المنادي (٣٣٦هـ). انظر المرجع نفسه ٣٣، ٤٨.

(٢) حققه د. أحمد حسن فرحات، سنة ١٩٧٣ بدمشق ونشرته دار الكتب العربية، ولأستاذنا المرحوم العلامة أحمد راتب النفاخ نقدات وملاحظ عليه، كان قد أذن لي بنقلها إلى نسختي، يرحمه الله.

(٣) الرعاية ٤٢.

(٤) الرعاية ١١٣. وانظر فيه باب صفات الحروف وألقابها وعللها ٩١ ـ ١١٨.

وتتابعت بعد ذلك رسائل التجويد تقفو أثر ما تقدم، ولا نكاد نجد فيها جديداً يذكر. ولعل أبرزها ما وضعه الإمام ابن الجزري (٨٣٣هـ) المقرئ المشهور، وله في هذا الباب أكثر من أثر، من ذلك كتابه "التمهيد في علم التجويد"[١] وقد تناول فيه كل مسائل التجويد وضم إليها باباً في الوقف والابتداء، وآخر في معرفة الظاء وتمييزها من الضاد[٢]. ومن ذلك أيضاً قصيدته المعروفة بالمقدمة الجزرية وهي أرجوزة في ثمانية ومئة بيت في التجويد والرسم والوقف والابتداء... وقد تداولها خالفوه بشروح عديدة[٣]، أذكر منها "الحواشي المفهمة في شرح المقدمة"لأحمد بن الجزري (٨٢٧هـ) ابن الناظم، و"الدقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية"لزكريا بن محمد الأنصاري (٩٢٦هـ)[٤].

❖ ❖ ❖

(١) حققه د. علي حسين البواب، ونشرته مكتبة المعارف بالرياض ١٩٨٥.

(٢) التمهيد في علم التجويد ١٦٥، ٢٠٩.

(٣) ذكرها صاحب كشف الظنون ٢/١٧٩٩ ـ ١٨٠٠.

(٤) حققه د. نسب نشاوي رحمه الله ونشره بدمشق ١٩٨٠.

ثبت المراجع

❖ أبجد العلوم، صديق بن حسن القنوجي (١٣٠٧هـ). أعده للطبع عبد الجبار زكار، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٨٨.

❖ أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

❖ أسباب حدوث الحروف، الحسين بن عبد الله بن سينا (٤٢٨هـ)، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

❖ الاشتقاق، ابن السرّاج (٣١٦هـ)، تحقيق محمد علي درويش ومصطفى الحدري، دار مجلة الثقافة، دمشق، ١٩٧٣م.

❖ الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٧٥م.

❖ الأصوات ووظائفها، محمد منصف القماطي، منشورات جامعة الفاتح ١٩٨٦م.

❖ الأصول في النحو، أبو بكر السراج (٣١٦هـ)، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

❖ أضواء على الطبيب العربي والعالم الموسوعي عبد اللطيف البغدادي، د. عبد الكريم شحادة، أبحاث الندوة الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة حلب ١٩٧٧م.

❖ إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني (٤٠٣هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨١م.

❖ الأعلام، خير الدين الزركلي (١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.

❖ إنباه الرواة على أنباه النحاة، علي بن يوسف القفطي (٦٤٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م.

❖ البحث اللغوي عند العرب، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٤، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢.

❖ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

❖ بيان العيوب التي يتجنّبها القراء وإيضاح الأدوات التي بني عليها الإقراء، لابن البناء (٤٧١هـ)، تحقيق د. غانم قدوري حمد، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٣١/ ج١، الكويت، ١٩٨٧م.

❖ البيان والتبيين، الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

❖ تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة د. عبد الحليم النجار وزملائه، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٧٧م.

❖ تاريخ التراث العربي، د. فؤاد سزكين، ترجمة د. محمود حجازي ود. فهمي أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م.

❖ تجويد التلاوة وتحقيق القراءة، أبو عمرو الداني (٤٤٤هـ)، مصورة عن نسخة مكتبة جار الله باصطنبول رقم (٢٣).

❖ التصور اللغوي عند الإسماعيلية ـ دراسة في كتاب الزينة للرازي (٣٢٢هـ)، د. محمد رياض العشيري، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٥م.

❖ التفكير الصوتي عند الخليل، د. حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٨م.

❖ التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبية ـ تونس ١٩٨١م.

❖ التمهيد في علم التجويد، محمد بن الجزري (٨٣٣هـ)، تحقيق د. علي حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

❖ التنبيه على حدوث التصحيف، حمزة الأصفهاني (٣٦٠هـ)، تحقيق محمد أسعد طلس، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

❖ التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، لأبي الحسن علي بن جعفر السعيدي (٤٦١هـ)، تحقيق د. غانم قدوري حمد، مجلة المجمع العراقي، مج٣٦ /ج٢، بغداد، ١٩٨٥م.

❖ تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠هـ)، تحقيق عبد السلام هارون وزملائه، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

❖ التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (٤٤٤هـ)، بعناية أوتوبرتزل، مصورة دار الكتاب العربي ببيروت، ط٣، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

❖ الجمل في النحو، عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (٣٣٧هـ)، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ودار الأمل ـ إربد، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

❖ جمهرة اللغة، ابن دريد (٣٢١هـ)، دار صادر، بيروت، مصورة عن الطبعة الهندية ١٣٥١هـ.

❖ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت ط٢.

❖ الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه، د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

❖ الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، د. حسام سعيد النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠م.

❖ الدقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية في علم التجويد، زكريا بن محمد الأنصاري (٩٢٦هـ)، تحقيق د. نسيب نشاوي، دمشق، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

❖ رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، المجلد الأول ـ القسم الرياضي، مكتبة الإعلام الإسلامي، قم، ١٤٠٥هـ.

❖ رسالة يعقوب الكندي في اللثغة، تحقيق محمد حسان الطيان، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٦٠/ج٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

❖ الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ)، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار الكتب العربية، دمشق، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

❖ سر الفصاحة، عبد الله بن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ)، تحقيق علي فوده، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٥٠هـ - ١٩٣٢م.

❖ سر صناعة الإعراب، عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، الجزء الأول، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م. نسخة ثانية دراسة وتحقيق د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

❖ شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الإستراباذي، تحقيق محمد نور الحسن والزفزاف وعبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

❖ شرح كتاب سيبويه، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٤هـ)، مصورة عن نسخة مكتبة فيض الله باصطنبول رقم (١٩٨٧).

❖ شرح المفصل، ابن يعيش النحوي (٦٤٣هـ)، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة.

❖ علم الأصوات العام - أصوات اللغة العربية، د. بسام بركة، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٨م.

❖ علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، د. محمد مراياتي، محمد حسان الطيان، يحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

❖ علم الصوتيات الموجي والسمعي عند علماء المسلمين القدماء، د. يوسف الهليس، المجلة العربية للدراسات اللغوية، مج٣/ العدد٢، الخرطوم، ١٩٨٥.

❖ علم اللغة العام - الأصوات، د. كمال محمد بشر، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥م.

❖ علم اللغة - مقدمة للقارئ العربي، د. محمد السعران، دارالنهضة العربة، بيروت.

❖ غاية النهاية في طبقات القراء، ابن جزري (٨٣٣هـ)، بعناية ج، برجستراسر، مكتبة المتنبي، القاهرة.

❖ الفهرست، ابن النديم (٣٨٥هـ)، تحقيق رضا - تجدّد، طهران، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

❖ في الأصوات اللغوية - دراسة في أصوات المد العربية، د. غالب فاضل المطلبي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٤م.

❖ في صوتيات العربية، د. محيي الدين رمضان، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ١٩٧٩م.

❖ القانون في الطب، الحسين بن سينا (٤٢٨هـ)، تحقيق د. إدوار القش، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

❖ كتاب الجيم، أبو عمرو الشيباني (٢١٣هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، مجمع اللغة العربية، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

❖ كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.

❖ كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار الهجرة، إيران-قم، ط١، ١٤٠٥هـ.

❖ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الرومي المعروف بحاجي خليفة (١٠١٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

❖ اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م.

❖ ما ذكره الكوفيون من الإدغام، أبو سعيد السيرافي (٣٦٨هـ)، تحقيق د. صبيح التميمي، دار الشهاب-باتنة-الجزائر.

❖ محاضرات في الألسنية العامة، فردينان ده سوسُّر، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة، لبنان، ١٩٨٤م.

❖ مدخل إلى الألسنية، د. يوسف غازي، منشورات العالم العربية الجامعية، دمشق، ط١، ١٩٨٥م.

❖ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

❖ المعجم العربي دراسة إحصائية صوتية مخبرية، محمد حسان الطيان، رسالة ماجستير، جامعة دمشق-١٩٨٤م.

❖ المغني في تصريف الأفعال، د. عبد الخالق عضيمة، دارالحديث، القاهرة، ط٣، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م.

❖ مفتاح العلوم، يوسف بن محمد السكاكي (٦٢٦هـ)، ضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

❖ المفصل في علم العربية، الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار الجيل، بيروت، ط٢.

❖ المقتضب، أبو العباس المبرد (٢٨٥هـ)، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، مصورة عن نسخة القاهرة ١٩٦٣م.

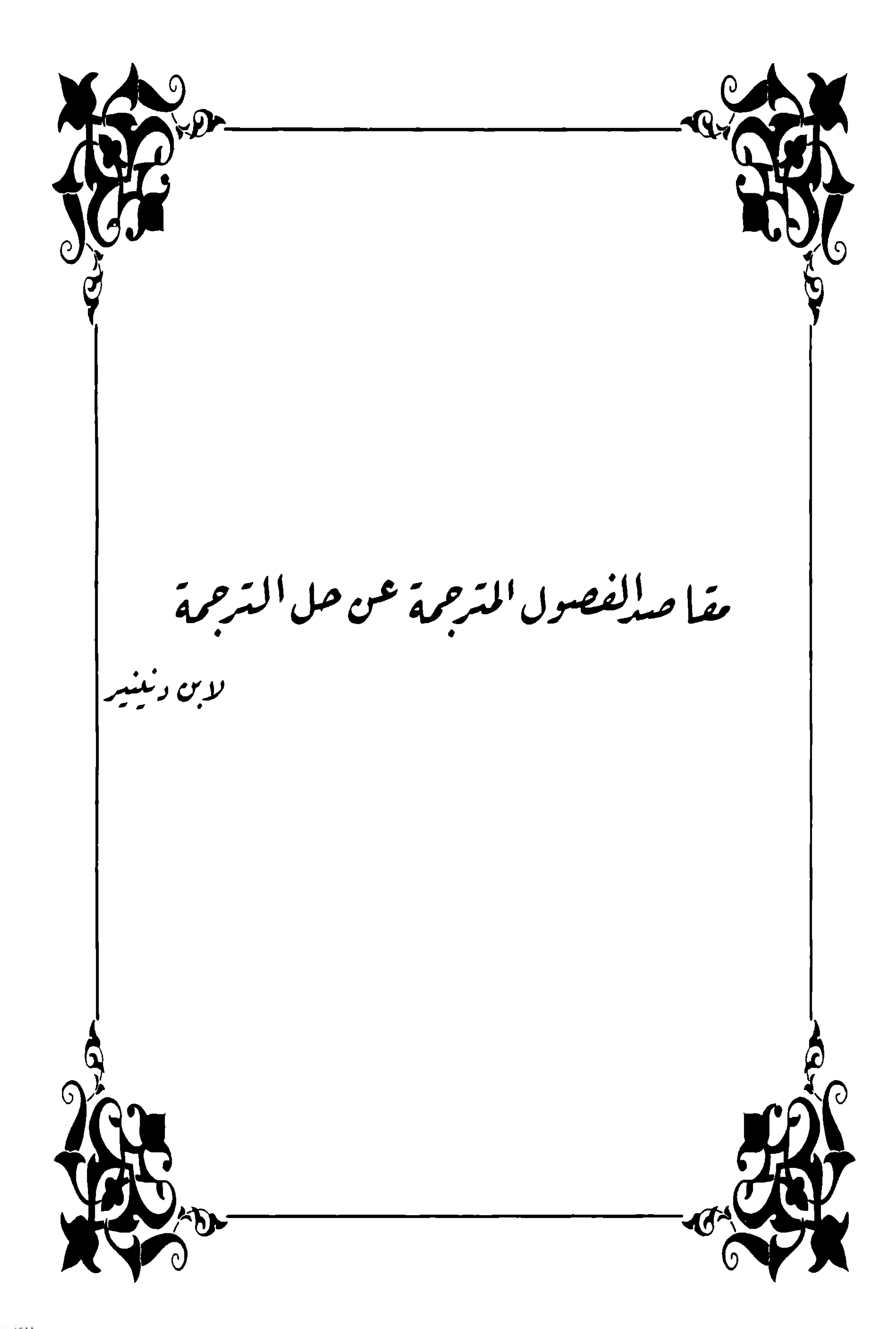
❖ النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (٨٣٣هـ)، تصحيح علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت.

❖ النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٤هـ)، تحقيق محمد خلف الله أحمد ـ د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م.

❖ النكت في تفسير كتاب سيبويه، الأعلم الشنتمري (٤٧٦هـ)، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، معهد المخطوطات العربية، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

❖ وفيات الأعيان، ابن خلكان (٦٨١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.





مقاصد الفصول المترجمة عن حل الترجمة

لابن دنينير

مقاصد الفصول المترجِمة عن حلّ الترجَمة *

لابن دنينير اللخمي (٦٢٧هـ)

يتناول البحث مخطوطاً في علم التعمية (Encipherment) لم ير النور بعد، وهو مقاصد الفصول المترجمة عن حلّ الترجمة لإبراهيم بن محمد المعروف بابن دنينير اللخمي الموصلي (ت ٦٢٧هـ). والمخطوط مقسوم إلى قسمين: الأول لحل ما عمي في الكلام المنثور، وفيه عرض لطرائق التعمية المختلفة ومناهج استخراجها وما يتطلبه ذلك من معارف لغوية، كما أن فيه عرضاً لاستعمال بعض الأدوات في التعمية كالشطرنج والخرز الملون وتثقيب الخشب.. إلخ. ولعل من أهم ما تطرق إليه ابن دنينير في هذا القسم التعميةَ المركبة (-Super encipherenemt) والثاني لحلّ المعمى في الكلام المنظوم، وفيه عرض لمتطلبات استخراج المعمى من الشعر من علم بالعروض والقافية، وتبصّر بالكتابة وتتبّع دقيق لتواتر الحروف العربية وائتلافها واختلافها في الكلام العربي...

إن ما وقفنا عليه في هذا المخطوط من مفاهيم التعمية وطرائقها ومناهج استخراجها يؤلف حلقة مهمة في تأريخنا لهذا العلم، ويضيف قرائن جديدة إلى ما توصلنا إليه من أصالة العرب فيه.

◆ المقدمة

التعمية (أو الشِّفرة) تحويل نصٍّ واضح إلى آخر غير مفهوم باستعمال طريقة محدّدة يستطيع من يعرفها أن يفهم النص. واستخراج التعمية (أو كسر الشِّفرة) تحويل النص المعمّى إلى نصٍّ واضحٍ لمن لا يعرف مسبقاً طريقة التعمية المستعملة.

---

* أعد هذا البحث للمشاركة في الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب ـ رأس الخيمة ١٩٩٦، ثم نشر في مجلة التاريخ العربي في الرباط، العدد ٤ ـ ١٩٩٧.

إن علم التعمية واستخراج المعمى واحد من علوم كثيرة تدين للعرب ولادةً ونشأةً وتطوراً، خلصنا إلى إثبات ذلك في كتابنا الموسوم بـ"علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب"الجزء الأول[١] حيث حققنا ثلاثة نصوص قديمة في هذا العلم أولها: رسالة في استخراج المعمى للكندي (٢٦٠هـ) فيلسوف العرب المشهور، وثانيها: المؤلَّف للملك الأشرف لعلي بن عدلان النحوي (٦٦٦هـ) وثالثها: مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز لعلي بن الدريهم الموصلي (٧٦٢هـ). وأثبتنا بالدليل القاطع مقولة كبير مؤرخي التعمية الأستاذ "دافيد كهن"في كتابه (مستخرجو الرموز The code breakers): "ولد علم التعمية بشقيه بين العرب؛ فقد كانوا أول من اكتشف طرق استخراج المعمّى وكتبها ودوَّنها"[٢]، ومقولته اللاحقة في كتابه الآخر (كهن والرموز Kahn on codes): "لقد وجدت أن العرب مارسوا استخراج المعمّى (كسر الشِّفرة) قبل الغرب بمدة طويلة، وكان هذا أهم إنجاز تاريخي في كل ما احتواه كتابي ـ The code breakes"[٣].

اعتمد الأستاذ "كهن"في هذا كله على ما وجده في كتاب صبح الأعشى في معرفة الإنشا للقلقشندي (١٤١٨م ـ ٨٢١هـ) وجلُّ ما فيه منقول عن رسالة مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز لابن الدريهم. ولكن ضياع مخطوط هذه الرسالة جعل أصابع التشكيك والطعن تتجه نحو حقيقة ابن الدريهم زاعمة أنه شخصية وهمية مفترضة لا وجود لها[٤].

وجاء اكتشافنا لهذا المخطوط ليكون ردًّا على هذا الزعم وتأييداً لما توصّل إليه "كهن"في كتابيه. وكان من سوالف الأقضية أن أرسلنا إليه كتابنا (علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب: الجزء الأول) مع ملخص إنكليزي له، فأجاب برسالة أكّد فيها أن الكتاب إسهام

(١) نشره مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٧م.
(٢) The code breakes ص ٩٣ وانظر علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب ١/٤٦ ـ ٤٧.
(٣) Kahn on codes ص ٢١.
(٤) The code breakes ص ٩٩٢. وانظر علم التعمية ١/٧٨.

عظيم في تاريخ علم التعمية، ومدعاة كبرى لامتنانه الشخصي وتقدير سائر المهتمين بهذا المبحث والمؤرخين له، وقد ألحقنا بهذا البحث صورة عن رسالته مشفوعة بترجمتها.

ويأتي كتاب ابن دنينير هذا ليعضد ما أثبتناه، ويضيف قرائن جديدة إلى ما توصل إليه المؤرخ "دافيد كهن" من أصالة العرب في هذا العلم.

◆ ترجمة ابن دُنَيْنِير[١]

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن علي بن هبة الله بن يوسف بن نصر بن أحمد المعروف بابن دنينير - مصغر دينار - اللخمي القابوسي، من ولد قابوس الملك بن المنذر بن ماء السماء وينسب إلى الموصل.

ولد سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م وعاصر زمان الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي، صاحب حلب وأعمالها (المتوفى سنة ٦١٣هـ) والتحق بخدمة الأمير أسد الدين أحمد بن عبد الله المهراني، وله فيه مدائح. ثم اتصل سنة ٦١٤هـ بخدمة الملك ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر محمد بن أيوب صاحب مصر (المتوفى سنة ٦٣٥هـ). تنقّل ابن دنينير بين البلاد الشامية والديار المصرية، وامتدح جماعة من ملوكها وكبرائها. وكانت خاتمته على يد الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل، الذي صلبه في قلعة السبيتة القريبة من بانياس[٢] سنة ٦٢٧هـ - ١٢٢٩م.

---

(١) مصادر ترجمته: عقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار، وتاريخ بغداد لابن الساعي، والوافي بالوفيات ٦/١٢٦، والأعلام ١/٦٢، ومعجم المؤلفين ١/٨١، وشعر الظاهرية ١٤٧.

(٢) لعلها القلعة التي ذكرها القلقشندي باسم قلعة الصُّبَيْبَة (بضم الصاد وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الباء الموحدة وهاء الآخر) وهي في بانياس الجولان لا بانياس الساحل، وكانت من أجلّ القلاع وأمنعها. انظر صبح الأعشى ٤/١٠٤، ٢٠٠، و١٢/١٠٥-٣٢٨.

◆ مصنفاته

يمكن حصر العلوم التي صنَّف فيها ابن دنينير ـ وفق ما ورد في ترجماته ـ في نوعين:

أ ـ **الشعر:** وله في هذا الفن كتابان: أولهما ديوانه الشعري، وقد ذكر الزركلي أن منه نسخة في خزانة الأستاذ أحمد عبيد رحمه الله. وثانيهما "الكافي في علم القوافي"وهو مما لم يصل إلينا من مؤلفاته.

ب ـ **التعمية:** وهو العلم الذي اشتهر به وبرع حتى فاق أقرانه. وقد ذكر الصفدي له فيه كتابين: أولهما كتاب "الشهاب الناجم في علم وضع التراجم"، وهو مما لم يصل إلينا من مؤلفاته، على أن ابن دنينير ذكره في مقاصد الفصول وأحال عليه. وثانيهما "مقاصد الفصول المترجمة عن علم حل الترجمة"، وهو موضوع بحثنا.

◆ مخطوط الكتاب ونماذج منه

لهذا الكتاب نسخة فريدة ـ فيما نعلم ـ تقع ضمن مجموع كبير تحتفظ به مكتبة فاتح باصطنبول تحت رقم (٥٣٠٠) يشتمل على موضوعات مختلفة أبرزها موضوع التعمية، إذ ضم عشر رسائل فيها، شغلت منه نحواً من خمس وثمانين ورقة (٤٨ ـ ١٣٣) ويعود تاريخ نَسْخه إلى القرن السادس الهجري حسب تقدير د. فؤاد سزكين[(١)].

أما كتاب ابن دنينير فيشغل أكبر حجم بين رسائل التعمية التي اشتمل عليها هذا المجموع، إذ يقع ضمن الورقات (٥٤/أ ـ ٨٠/أ) وقد حملت الورقة الأولى منه عنوان "زبد فصول ابن دنينير في حل التراجم"وجاء تحتها أبيات مختلفة عن القوافي وما إليها، وحملت الورقة الثانية عنوان "مقاصد الفصول المترجمة عن حل الترجمة"وفيما يلي نماذج من هذا المخطوط للورقتين الأوليين منه:

---

(١) تاريخ التراث العربي، المجلد الثاني، الجزء الرابع ٢٤٥ ـ ٢٤٦. نقلاً عن مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد ٣٢، الجزء ١، الصفحة ٦٩.

صورة الورقة الأولى من مخطوط ابن دنينير

صورة الورقة الثانية بوجهيها من المخطوط

◆ مزايا الكتاب وأبرز أقسامه

يمتاز كتاب ابن دنينير هذا بمزيَّتين اثنتين :

الأولى: أنه أكبر كتاب عرفناه في هذا العلم.

والثانية: أن صاحبه أفاد ممن تقدمه من أرباب هذا الفن كالكندي وابن طباطبا وصاحب المقالتين(١).

وقد قسمه إلى قسمين كبيرين يشتمل كل منهما على فصول بلغ مجموعها ستة وستين فصلاً، على أن كل مجموعة منها تشترك في موضوع محدد جعلناه عنواناً لباب، مما أدى إلى توزيع كل قسم على أبواب عدة جاءت على النحو التالي :

◆ القسم الأول: حل ما عُمِّي في الكلام المنثور: ويشتمل على أربعة أبواب:

الأول: سبل استخراج المعمَّى وعُدته.

الثاني: أقسام التعمية وضروبها.

الثالث: مناهج استخراج المعمّى.

الرابع: استخراج التعمية المركبة.

◆ القسم الثاني: حل ما عُمِّي في الكلام المنظوم: ويشتمل على خمسة أبواب:

الأول: ما ينبغي معرفته من العروض.

الثاني: ما ينبغي معرفته من القوافي.

الثالث: ما ينبغي معرفته من الخصائص اللغوية.

الرابع: ملاحظات عامة وحالات خاصة في الشعر المعمّى.

الخامس: أمثلة عملية.

---

(١) هما مقالتان في التعمية لم نقف على اسم مؤلفهما على كثرة البحث، ولعله قصد إلى تعمية اسمه فاشتهر بصاحب المقالتين، وقد حققنا نصيهما في الجزء الثاني من كتاب التعمية واستخراج المعمى عند العرب.

◆ خاتمة: تشتمل على أبيات لحروف المعجم وأبيات للمعاياة.

◆ ملامح من أصالة ابن دنينير في كتابه

يشترك ابن دنينير مع سالفيه وخالفيه في كثير من الأمور التي عني ببيانها المؤلفون في هذا الفن كتعداده لطرق التعمية المختلفة، وبيانه مناهج الاستخراج واعتمادها على معارف لغوية كمية (إحصائية) وكيفية تنتظمها قوانين ائتلاف الحروف واختلافها في اللغة، وكلامه على استخراج المعمى من الشعر ومستلزماته... وغير ذلك.

على أن الدراسة التحليلية الموازنة لكتاب ابن دنينير تثبت أن الرجل تفرَّد - أو كاد - بأمور عدة نذكر منها:

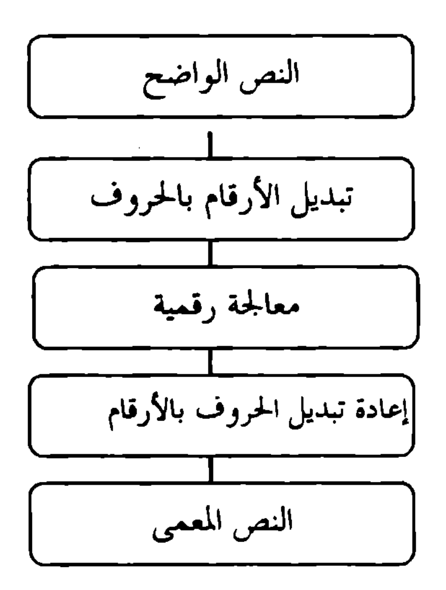
١ - استعمال الأرقام (المعالجة الرقمية) في التعمية:

جاء في الفصل (٢٦) من كتابه "وأما الترجمة بقصد تعميتها بقسم من أقسام المركب، وهو أن تعمد إلى العدد الموضوع بإزاء حرف من الحروف فتضاعفه مرة أو مرتين أو أكثر من ذلك، فإن ذلك يخفى عمن يقصده. مثال ذلك إذا أردت أن تكتب: الله وليّ التوفيق: "ب س س ي يب س ك ب س ض يب قس ك ر"فوضعنا (ب) وهي اثنان في حساب الجُمَّل وهو ضعف الألف، والسين ستين [كذا] في حساب الجمل وهو ضعف اللام، وكذلك الباقي وغيره من التضاعيف فانظر ما أحسن هذه اللطيفة"[١].

إن التعمية بهذه الطريقة تعد جد مهمة من حيث المنهج أو المبدأ مع كونها في صورتها الأولية إعاضة بسيطة، غير أنها قابلة لإجراء تطوير عليها يجعل استعمالها أكثر تعقيداً.

ويمكن تمثيل هذا المبدأ المهم الذي سبق إليه ابن دنينير بالشكل التالي:

(١) مخطوط مقاصد الفصول المترجمة، ورقة ٦٧/أ - ٦٧/ب.



والمقصود بالمعالجة الرقمية هنا المضاعفة مرة أو مرتين أو أكثر من ذلك، ويمكن توضيح ذلك بتعمية قولنا "الله وليّ التوفيق" بالمضاعفة مرة:

"ب س س ي يب س ك ب س ض يب قس ك ر".

وتصبح التعمية بعد المضاعفة مرتين:

"د قك قك ك كد قك م د قك غخ كد شك م ت".

والجدول التالي يبين كيفية التعمية بهذه الطريقة ومضاعفة حساب الجُمَّل مرة، ثم مرتين، والعودة إلى الحروف فيهما:

النص الواضح	ا	ل	ل	هـ	و	ل	ي	ا	ل	ت	و	ف	ي	ق
حساب الجمّل	١	٣٠	٣٠	٥	٦	٣٠	١٠	١	٣٠	٤٠٠	٦	٨٠	١٠	١٠٠
المضاعفة مرة	٢	٦٠	٦٠	١٠	١٢	٦٠	٢٠	٢	٦٠	٨٠٠	١٢	١٦٠	٢٠	٢٠٠
العودة للحروف	ب	س	س	ي	يب	س	ك	ب	س	ض	يب	قس	ك	ر
المضاعفة مرتين	٤	١٢٠	١٢٠	٢٠	٢٤	١٢٠	٤٠	٤	١٢٠	١٦٠٠	٢٤	٣٢٠	٤٠	٤٠٠
العودة للحروف	د	قك	قك	ك	كد	قك	م	د	قك	غخ	كد	شك	م	ت

وهذا المبدأ في التعمية على غاية الأهمية، إذ هو المستعمل حالياً، غير أن المعالجة الرقمية لم تقتصر على هذا بل يمكن أن تأخذ أشكالاً أخرى، تغدو فيها أكثر تعقيداً وصعوبة، مما يجعل استخراجها عسيراً، وقد تنبه ابن الدريهم على هذه الطريقة، فأخذها عن ابن دنينير، وأجرى عليها تطويراً، فجعل المعالجة الرقمية تقوم على تحليل العدد إلى مجموعة أعداد، يقابل كلٌّ منها الحرف المناسب له في حساب الجمَّل[١].

ولما كان ابن دنينير عارفاً قيمة هذه الطريقة لم ينسَ أن يُدِلّ على القارئ في آخر الفصل مزهواً بما كتب، بقوله: "انظر ما أحسن هذه اللطيفة".

٢. عرض بعض طرق التعمية المركبة كاستعمال القلب والإعاضة معاً:

يقول ابن دنينير: "وإن كانت الحروف مبتدعة [أي: بطريقة الإعاضة البسيطة] وقدم بعضها على بعض كما ذكرنا فيما سلف [أي: بطريقة القلب] فينبغي أن تستعمل في استخراجها الحيلة الأولى [أي: الكمية بإحصاء الحروف] فإذا استخرج مراتبها ووضع كل حرف بإزاء حرف من حروف الوضع قلبها وجعل بعضها موضع بعض وقدمها وأخرها [أي: باستعمال منهجية استخراج القلب] حتى يظفر بالمقصود منها"[٢].

إن هذه الإشارة على غاية من الأهمية، لأنها تعدّ الفكرة الأساسية لأحدث طرق التعمية المتبعة حالياً في العالم، وأكبر مثال على ذلك المعيار الدولي الحالي Data Encryption Standard Des المبني على مبدأ التعمية من الإعاضة والقلب معاً، ولكن على نحو أكثر تطوراً وتعقيداً وباستعمال العدّ الاثناني Binary.

ومن المؤسف حقًّا أن ابن دنينير لم يصرِّح بأن هذه التعمية مركبة، ولم يلبِّث عندها بما يقتضيه أمرها مع أنه ازدهى بتفهمه ما لم يفهمه غيره من التعمية المركبة!.

---

(١) علم التعمية ١/١٨٣، ٣٣١ـ ٣٣٢.

(٢) مخطوط مقاصد الفصول المترجمة ورقة ٦١/أ الفصل (١٣).

٣ ـ استعمال عدة أرقام لتعمية الحرف الواحد بالإعاضة[1]:

وهو مبدأ هام ينبئ عن معرفة دقيقة بالتعمية واستخراجها، ويسمى اليوم قلب تواتر الحروف Frequency reversals، وتعود أوائل الأمثلة الغربية على استعمال هذه الطريقة إلى عهد هنري الرابع Henry iv ملك فرنسة في مراسلاته مع لاندغراف Landgrave of hesse بين عامي ١٦٠٢ ـ ١٦٠٦م. أي بعد أربعمئة سنة مما كتبه ابن دنينير.

٤ ـ الإكثار من طرق التعمية بالإخفاء Concealment cipher:

وقد دعاها ابن دنينير تعمية مركبة، وذكر لها أنواعاً عدة تؤذن بأن تركيب التعمية عنده يعني تركيب المعاني المقصود تعميتها على حاملٍ ما يخفي الهدف الأصلي من هذه المعاني، أو بتعبير آخر: وضع الحروف المراد تعميتها على شكل ما يخفي المعنى الأصلي المقصود وراءها، وغالباً ما يكون هذا الشكل أداة من الأدوات كرقعة الشطرنج، أو الخرز الملون، أو الورق المطوي...إلخ. يقول في الفصل (٢٣): "وأما الترجمة التي قد عمّيت بأن ركّبت حروفها على بيوت رقعة الشطرنج فإن ذلك أيضاً لحاضرٍ، وقد توضع لغائب بطريق أذكره لك لم يذكره أحدٌ بتة. ومثال ذلك أنك إذا أردت أن تقول لصاحبك كلاماً لا يطلع عليه أحد غيره، عمدت إلى رقعة الشطرنج وأخذت بيدقين أسود وأبيض، ثم تظهر لمن حولكما أنكما تلعبان بها فتتركها في البيت الذي قد وضع للحرف الذي في أول كلامك، ثم في البيت الذي للحرف الذي يليه، ثم في البيت الذي للحرف الآخر، ثم كذلك حتى ينفد جميع ما في نفسك من الكلام، ثم يفعل صاحبك كذلك أيضاً حتى يستتم الكلام الذي بينك وبينه.

وها أنا مُصَوِّرٌ لك صورتَه:

---

(١) مخطوط الجزء الثاني من علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب ص ٢٢٣.

[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ا
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
				[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ن	هـ	و	ي				
ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م
ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط
ا	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د

مثاله إذا أردت أن تكتب "أحمد"جعلت البيدق في البيت الأول، وهو الألفُ، وفي البيت السادس، وهو الحاء، وفي الرابع والعشرين، وهو الميم، وفي الثامن، وهو الدال.

فإذا أردت أن تكتب كتاباً إلى جهة أوله "الله"تكتب:

حضر اليوم عندنا رجلان، فقدما سفرة الشطرنج، ثم أخذا بيدقين، فترك أحدهما بيدقه في أول البيوت، ثم رفعه وتركه في الثالث والعشرين مرتين، ثم رفعه وتركه في البيت السادس والعشرين.

فما معنى ما فعل هذا الرجل؟ فأما قولنا "في البيت الأول"فإنه يدل على الألف، وقولنا: "في الثالث والعشرين"يدل على اللام مرتين، و"السادس والعشرين"يدل على الهاء. وكذلك فقس عليه على هذا المثال، وبادره بالقبول والامتثال[1].

٥ ـ إيجاز ما أسهب به غيره ممن ألّف في هذا الفن:

يقول: "واختصرت ذلك غاية الاختصار بما يغني عن كتاب الكندي وطول حشوه"[1]،

---

(١) مخطوط مقاصد الفصول المترجمة، ورقة ٦٠/ب.

وأكبر مثال على ذلك الجدول الذي صنعه لما لا يأتلف من الحروف، إذ جمع فيه قوانين تنافر الحروف في صفحة واحدة بعد أن رأيناها عند الكندي منثورة في صفحات متعددة، وفيما يلي نص ذلك الجدول:

ث	ك لا تألف	ك لا تألف	ك لا تألف	ك لا تألف	خ لا تألف	ض لا تألف	ص لا تألف	ر لا تألف	د لا تألف	س لا تألف
لا تألف	ك	ق	ك	ك	ل	ل	ل	ل	ل	ل
ذ	ك	ح	ك	ك	د	د	د	د	د	د
ز	ك	خ		ك	ر	ض	ر	ض	ح	ر
ص	ك	ك			ح	ح	ح	خ	خ	ض
ض	بتقديم ولا تأخير	بتقديم ولا تأخير	بتقديم ولا تأخير	بتقديم ولا تأخير	ض	خ	خ	س	ض	ض
ظ					ض ع	س	س	بتقديم ولا تأخير	ض	خ
س					س	ش	ض		س	بتقديم ولا تأخير
بتقديم ولا تأخير					بتقديم ولا تأخير	بتقديم ولا تأخير	بتقديم ولا تأخير		بتقديم ولا تأخير	

[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]										
ث خ	ق ر	خ	ز س ض ث ر ط	ظ	ر	ط	ر	ض	ض	ر	ر	في البيت الثاني إذا اقترنت عليها	هذه الحروف لا تألف التي بعدها
[illegible]	ع ك	ع ك	ش	ع ق ش ع	ز ض	ر	ص	ق	ع ش	ش ض	ش ع	في البيت الأول إذا اقترنت في عليها	وهذه الحروف التي قبلها
عسعو	نفق غذا	حفظ غلظ عجج	شزر شرع شغس [illegible]	حفظ قظ غظا [illegible]	زد ضد ضرن	زط	ضمد	قفضخ	هض هض شجاع	ضرر ضرن	شذر غذا غش	هذه	الذي استعمل من الحروف هي
تشس	غ ق ن غ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	رض در رس	ط	رص	ضق	صح صض ضش	زش زض	دغ ذش شع	هذه	والذي أهمل من الحروف هي

❖ الخاتمة

لقد حقق علم التعمية واستخراج المعمّى تطوراً هائلاً منذ مطلع هذا القرن، بدءاً من ابتكار طريقة "سجل المرة الواحدة" التي اقترحها فيرنام Gelbert Vernam عام ١٩١٧ خلال الحرب العالمية الأولى، وانتهاء بالتعمية الكمومية التي قدّم فكرة منظومتها Bennett وBrassard[١]. ومروراً بما حققه استخدام الحاسوب من قفزات هائلة في هذا المجال. وقد انعكس هذا التطور على أهمية هذا العلم ومكانته بين العلوم، فلم يعد وقفاً على العمليات الحربية والمؤسسات الخاصة، إذ إن ثورة المعلومات وما يتطلبه حفظ المعلومات من سرية في كثير من الأحيان جعل تعميتها أمراً ضرورياً لا مفرَّ منه؛ بحيث لا يمكن تداولها إلا على نحو ضيق تسمح به الخطة المرسومة لها سواء كان ذلك في الصناعة، أو التجارة، أو في شركات التلفزة والبث الفضائي، أو في الحواسيب، أو الاتصالات الهاتفية المتحركة، أو في الكشف عن اللغات القديمة البائدة[٢].

على أن ذلك كلّه لا يعني إغفال أثر المتقدمين من علماء التعمية العرب في إرساء أسس هذا العلم، ورسم المنهجيات المحكمة في استخراجه، بل هو يبرز هذا الأثر، إذ تشير الدراسات إلى أن كل ما استحدث في التعمية واستخراج المعمّى ما زال يعتمد على المبادئ الأساسية التي نصّ عليها العلماء العرب إن في طرق التعمية أو في مناهج استخراجها، مما يؤكد عمق أصالة العرب في هذا الميدان وأهمية ما جاؤوا به.

---

(١) التعمية الكمومية وريادة العرب في علم التعمية للدكتور محمد مراياتي، مجلة عالم الذرة، عدد خاص ١٩٩٣. ص ٦١، ٦٥.

(٢) التعمية الكمومية ص ٦٣.

أهم المراجع المعتمدة

◆ العربية

❖ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.

❖ التعمية الكمومية وريادة العرب في علم التعمية، د. محمد مراياتي، مقال في عدد خاص من مجلة عالم الذرة الصادرة عن هيئة الطاقة الذرية في دمشق ١٩٩٣م.

❖ علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، الجزء الأول، دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن عدلان وابن الدريهم، د. محمد مراياتي، د. محمد حسان الطيان، د. يحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٧م.

❖ علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، الجزء الثاني، دراسة وتحقيق لثماني رسائل مخطوطة، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٩٧م.

❖ مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٣٢، الجزء الأول، ١٩٨٨م.

❖ معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

❖ مقاصد الفصول المترجمة عن حل الترجمة لابن دنينير، مخطوط مكتبة فاتح (٥٣٠٠).

❖ الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، باعتناء طائفة من أهل العلم، دار فرانز شتاينر بفيسباده، ألمانية، ١٩٤٩ - ١٩٨٠.

◆ الأجنبية

- Al-kadi ibrahim، origins of cryptology: The arab contributions، cryptologia، vol 16 No 2، april 1992.

- Kahn، david. "kahn on codes"Macmillan publishing contributions، new york 1983.

- Kahn، david. "The code breakers"Macmillan publishing company. New york 1976.



رسالة يعقوب الكندي
في اللثغة

رسالة يعقوب الكندي في اللثغة *

(بحث)

❖ ملخص البحث

اللثغة مرض من أمراض الكلام Trouble de la parole التي عنيت بها الدراسات الطبية واللغوية والصوتية الحديثة، ولعل رسالة الكندي (٢٦٠هـ) هذه هي الأقدم فيما وضع في هذا الباب، وقد قدم لها صاحبها (فيلسوف العرب المشهور) ببيان وافٍ لآلية النطق وعلاقتها بالحروف، وما تحتاج إليه كل لغة من اللغات السائدة آنذاك من الحروف، ثم تكلم على أسباب اللثغة وما يعرض للسان من التشنج أو الاسترخاء، ووصف مخارج حروف العربية أو هيئات النطق بها وصفاً تشريحيًّا فيزيائيًّا دقيقاً على نحو يختلف عما عهدناه عند اللغويين وعلماء التجويد، ثم حدد الحروف التي تعتريها اللثغة وحصرها في عشرة أحرف وسمى بعض أعراضها وأنواعها ليختم الكلام بذكر عللها.

إن رسالة الكندي هذه أثر نفيس من آثار عناية العرب بالعلوم الطبية واللغوية، وقد حققتها عن نسخة خطية فريدة تحتفظ بها المكتبة السليمانية باصطنبول، وسيشتمل البحث على دراسة تحليلية لها، ويختم بمسرد لما ورد فيها من ألقاب اللثغة وأنواعها وبمسرد آخر لأشهر ما لم يرد فيها من هذه الألقاب مما اشتملت عليه كتب الأدب ومعجمات اللغة والمعاني.

❖ المقدمة

أمراض الكلام شعبة من شعب الأمراض التي تصيب الإنسان، ولكنها شعبة تتصل بأسمى ما يميز الإنسان من سائر المخلوقات وهو الكلام ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ ولذا فقد تضافرت في الكشف عنها ووصفها وتشخيصها وعلاجها

❖ شاركت بهذا البحث في المؤتمر السنوي الثامن عشر لتاريخ العلوم عند العرب الذي انعقد في معهد التراث العلمي العربي بحلب ١٠ ـ ١٢/١٠/١٩٩٥. ثم نشر في مجلة التاريخ العربي بالرباط، العدد الثاني ١٩٩٦.

جهود الأطباء واللغويين والحكماء والمهندسين، كلٌّ يسهم في جانب من جوانبها، فالطبيب يشخص ويعالج، واللغوي (اللساني) يصف المرض ويحدد حروفه ومصطلحاته، والحكيم يحلل ويعلل مبيّناً الأسباب الداعية إليه، والمهندس يرفد العلاج بما يساعد على تمامه من أدوات تقنية وحاسوبية حديثة.

وقديماً عرفت الحضارة العربية الإسلامية ضروباً من الكتابة والتصنيف في هذا المجال، على أنها تناثرت في بطون الكتب وثنايا الموسوعات ككتاب سيبويه، وكامل المبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، ومخصص ابن سيده[١]، ولعل أبرز من توسع في عرض ظواهر اللثغة وأمراض الكلام الجاحظ في كتابه المشهور "البيان والتبيين ".

فقد استهله بذكر العِيِّ والحَصَرِ[٢] وهما مما يعتري الكلام من العجز وعدم القدرة على النطق[٣]، ثم بسط الكلام على شواهدهما شعراً ونثراً وقرآناً، فجرّه ذلك إلى ذكر ضروب من علل الكلام، كاللجلاج، والتمتام، والألثغ، والفأفاء، وذي الحُبسة والحُكلة والرُّتَّةِ، وذي اللّفَفِ والعَجَلة[٤]، ثم مثّل بلثغة واصل بن عطاء إمام المعتزلة الذي كان يتحرّى اجتناب الراء في منطقه على كثرة دورانها في الكلام، وعرض لأنواع اللثغة فيها إذ تكون بالغين والذال والياء[٥] وزاد في موضع آخر الظاء[٦]، ثم أفرد كلاماً لذكر الحروف التي تدخلها اللثغة فحصرها

---

(١) الكتاب ١٣٧/٤، ٤٥٣، والكامل ٧٦١/٣ ـ ٧٦٥ (ط الدالي)، وأديب الكاتب ١٣٦ ـ ١٣٧، والمخصص ١١٨/٢ ـ ١٤٢.

(٢) البيان والتبيين ٣/١.

(٣) عَيي في المنطق عِيًّا: حَصِرَ، والحَصَر ضرب من العِيِّ، فالكلمتان بمعنى واحد هو العجز وعدم القدرة على الكلام، وقديماً قالوا: "نعوذ بالله من العُجب والبَطَر ومن العِيِّ والحَصَر"انظر لسان العرب، وأساس البلاغة (حصر، عي).

(٤) البيان والتبيين ١٢/١.

(٥) البيان ١٤/١ ـ ٢٢.

(٦) البيان ٣٧/١.

في أربعة هي القاف والسين واللام والراء[١]، وراح يمثل لكل ذلك بعبارات وأعلام، وكان من طريف ما مثّل به لثغة رجل يدعى "شَوْشى" صاحب عبد الله بن خالد الأموي فإنه كان يجعل اللام ياء والراء ياء. قال مرة: موياي وَيِيُّ أيِّيّ. يريد: مولاي وليّ الرّيّ "[٢]. ثم فَصّل ألقاب اللثغة وما يدل عليه كل لقب[٣]، واستطرد بذكر بعض أخبار الخطباء والشعراء ليرجع به القول إلى الكلام الأول فيما يعتري اللسان من ضروب الآفات[٤]، حيث بيّن أهمية الأسنان في صحة المنطق وتمام الحروف وساق أمثلة على ذلك، ثم ختم بذكر الأمور التي تعتري اللسان فتمنع من البيان مفصلاً ذلك في الشيوخ والصبيان[٥].

على أن أول من أفرد لهذا كله رسالة برأسها ـ فيما نعلم ـ الكندي فيلسوف العرب المشهور في رسالته التي سنعرض لها في بحثنا هذا، وهي رسالة اللثغة.

◆ ترجمة الكندي[٦]

يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل الكِنْدِيّ، أبو يوسُف، ولد بالكوفة، وكان أبوه أميراً عليها في عهد الخليفة العباسي المهديّ. والمصادر لا تسعف بذكر سنة مولده ـ[٧]

---

(١) البيان ١/٣٤.

(٢) البيان ١/٣٦.

(٣) البيان ١/٣٩ ـ ٤٠.

(٤) البيان ١/٥٧ ـ ٦٦.

(٥) البيان ١/٧٠.

(٦) مصادر ترجمته: "الفهرست" ٣٧١ ـ ٣٧٩، و"طبقات الأطباء والحكماء" ٣٣٧، و"عيون الأنباء في طبقات الأطباء" ٢٨٥ ـ ٢٩٣، و"أخبار الحكماء" للقفطي ٢٤٠ ـ ٢٤٢، و"هدية العارفين" للبغدادي ١/٥٣٧ ـ ٥٤٤، و"تاريخ الأدب العربي" لبروكلمان ٤/١٢٧ ـ ١٣٦، و"الأعلام" للزركلي ٨/١٩٥، و"تاريخ الأدب العربي" للزيات ٣٦٠، ومجلة العربي: العدد ٢١٤، و"الكندي فيلسوف العرب" للأهواني، و"معجم المؤلفين" لكحالة ٧/٢٤٤ ـ ٢٤٥. و"نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات" للدّفاع ٨٨ ـ ٩٣.

(٧) إلا المصدر الأخير من مصادر ترجمته فقد قدّر أن ولادته كانت سنة ١٨٥هـ/٨٠١م.

وقد نشأ في البصرة، وانتقل منها إلى بغداد، حيث حصَّل جُلَّ علومه، فبرع بالطب، والفلسفة، والحساب، والمنطق، والهندسة، والفلك، وغيرها من علوم ذلك العصر، وحاز مكتبة كبيرة سميت بالكِنْدِيّة، وصفَه ابن النديم بأنه: "فاضلُ دهرِهِ، وواحدُ عصرِه في معرفة العلومِ القديمة بأسرها، ويسمى فيلسوف العرب "وبهذا الاسم عرف لدى علماء المشرق والمغرب.

أصاب الكندي منزلة عظيمة وإكراماً بالغاً لدى خلفاء بني العباس المأمون والمعتصم وابنه أحمد، فعهد إليه المأمون بإدارة بيت الحكمة وترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من الفلاسفة، حتى لقد عده أبو معشر الفلكي في كتابه "المذكرات "من حُذّاق الترجمة في الإسلام، وعهد إليه المعتصم بتأديب ابنه أحمد، إلا أنه ابتلي بعد ذلك في عهد المتوكل، إذ وُشِيَ به فضُرِب وصودرت كتبه، ثم رُدَّت إليه قبيل وفاة الخليفة، وتوفي الكندي سنة ٢٦٠هـ الموافقة لسنة ٨٧٣م تاركاً ثروة فكرية هائلة بلغت نحوا من ثلاثمئة مصنف في شتى صنوف العلم والمعرفة.

◆ تحليل الرسالة

تتبدّى لدارس الرسالة الأقسام الرئيسية التالية:

١ ـ تمهيد عن اللغة والكتابة.

٢ ـ وصف مخارج الحروف وأسباب حدوثها.

٣ ـ الحروف التي تعرض لها اللثغة.

٤ ـ تبيان علل اللثغة.

٥ ـ أنواع اللثغة وألقاب من تعتريهم.

وفيما يلي عرض لكل قسم من هذه الأقسام:

١ ـ تمهيد عن اللغة والكتابة

بدايةُ هذا التمهيد ساقطةٌ من الأصل مما عمّى المقصود من الفقرة الأولى منه، أما الفقرة الثانية فيتحدث فيها الكندي عن حاجة اللغة إلى الكتابة، وتتجلى فيها ثقافة الكندي ومعرفته

باللغات المجاورة الهندية والفارسية ولغة الزنج والفراعنة[١]، ولعل هذا أثر من آثار اشتغاله ببيت الحكمة آنذاك.

٢ ـ وصف مخارج الحروف وأسباب حدوثها

يستعرض الكندي حروف العربية حرفاً حرفاً ليبين في كل حرف مسببات نطقه، ومكان هذا النطق، وما يحتاجه من نغمة أو نفس أو همز.. إلخ. يقول مثلا عن الألف: "إن الألف تحتاج إلى نغمة وفتحة ورد طرف اللسان إلى صدر الحنك، وإخراج نَفَس يسير بين الشفة السفلى والأسنان العليا "[٢]. ويقول عن السين: "تحتاج إلى إلزام طرف اللسان مقاديم الأسنان العليا، وإخراج نَفَس من بين الأسنان خفي يسير، فإن زاد ذلك النفس قليلاً من المقدار الواجب له لم تجئ منه سين، ويكون ذلك مع كسرة ورد اللسان إلى الحنك بهمزة "[٣].

ونلاحظ في وصف الكندي هذا أمرين اثنين:

الأول: أنه وصف فيزيائي متحرك يختلف عما عهدناه عند سيبويه وخالفيه من النحاة واللغويين الذين يقفون عند حدود الوصف الظاهر والساكن لمخرج الحرف[٤]، فهو هنا يدخل إلى جوف الجهاز النطقي ليصف لنا ما يعتري كل عضو من حركات في هذا الجهاز لدى إخراج الحرف مع رصد حركة عملية الهواء المندفع وتقلباته في الحروف.

وهذا ما يذكرنا بعمل ابن سينا في رسالته المعروفة أسباب حدوث الحروف حين تناول حروف العربية حرفاً حرفاً مبيِّناً سبب حدوثها وما يعتري كلاًّ منها من عمليات عضوية تتبدى في دفع الهواء، وحبسه، وكيفية هذا الحبس، والوسط الذي يتردد فيه الهواء المدفوع من رطوبة

---

(١) رسالة اللثغة ٥٢١ ـ ٥٢٣ من مجلة المجمع.

(٢) رسالة اللثغة ٥٢٤.

(٣) رسالة اللثغة ٥٢٦.

(٤) انظر كتاب سيبويه ٤/٤٣٣ ـ ٤٣٤.

أو يبوسة أو ما إلى ذلك[١]. ولعل ابن سينا إنما صدر في رسالته تلك عن عمل الكندي في رسالته هذه، إلا أن وصف ابن سينا كان أقرب إلى وصف الطبيب المشرِّح، في حين برز في وصف الكندي عمل الفيلسوف الفيزيائي، وفي كلٍّ خير.

والثاني: أنه مزج الكلام على المخارج بالكلام على الصفات كما يصنع علماء الصوت اليوم، فهو لا يكاد يفرق بين مخرج الحرف وصفته، ولعل في مثال (السين) السابق ما يوضح ذلك، ففي قوله: "تحتاج إلى إلزام طرف اللسان مقاديم الأسنان العليا "بيان لمخرج هذا الحرف وتحديد له بطرف اللسان مع مقاديم الأسنان، وفي قوله: "وإخراج نفس من بين الأسنان خفي يسير..." بيانٌ لصفة الهمس في هذا الحرف... وهكذا.

٣ ـ الحروف التي تعرض لها اللثغة

حصر الكندي الحروف التي تعرض لها اللثغة في عشرة هي: العين والسين والشين والكاف والصاد والجيم والحاء والراء والقاف والزاي[٢].

وهو عدد يتجاوز ما ذكره الجاحظ من قبل، وابن الأنباري من بعد. فالأول جعلها في أربعة حروف هي: (القاف والسين واللام والراء)[٣].

والثاني جعلها في ستة: (السين والقاف والكاف واللام والراء والشين)[٤] إلا أن الكندي لم يفصِّل الكلام فيما ينقلب إليه كل حرف من هذه الحروف العشرة وما يعتريه من أنواع اللثغة إلا ما كان من قوله: "فأما التشنج فمثل القائل في موضع الراء اللام، ومثال ذلك قول القائل في

(١) انظر الفصل الرابع في الأسباب الجزئية لحرف حرفٍ من حروف العرب من رسالة ابن سينا أسباب حدوث الحروف ٧٢ ـ ٨٥.

(٢) رسالة اللثغة ٥٢٩.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣٤.

(٤) تاريخ آداب العرب للرافعي ١/ ١٦٠.

موضع السين الشين "[١]، على حين فصَّل الجاحظ ذلك كما ألمعْنا، وضرب الأمثلة المتعددة لكل التبدلات التي تطرأ على الحرف الملثوغ به.

٤ ـ تبيان علل اللثغة

وأما العلل التي تسبب اللثغة فقد عرض لها الكندي في غيرما موضع، إلا أن أغناها ما ختم به رسالته حيث قال: "نريد أن نبين من أي العلل يعرض ذلك

اعلم يا أخي أن هذه تعرض من ثلاثة وجوه:

أحدها: تكون لقوى النفس الناطقة فتزول عن الحال الجاري المجرى الطبيعي.

الثاني: لضعف النفس الناطقة، فلا تقدر أن تحرك العضل تحريكاً شديداً فيفسد لذلك النطق.

والوجه الثالث: يكون إما لزيادة آلة النطق وإما لنقصانه. فأما علة زيادة العضو المنطقي فتكون من البرد والرطوبة، أو من الحرارة والرطوبة مع سعة مجاري العضو فتدغم آلة الطبيعة أكثر مما يجب له من المقدار فيغلظ العضو ويكبر، ويفسد النطق لذلك، وذلك أنه يسترخي.

وأما نقصان العضو المنطقي فيكون من برد ويبس، أو من حرٍّ ويبس مفرط، وتعرض هذه العلة أيضاً من جهة أخرى وهو أن العضو المنطقي يغلظ أكثر من المقدار، ويصغر ويزيد أكثر من المقدار، فلا يقدر العضو المنطقي أن يستريح على الأماكن الواجبة للنطق فيفسد لذلك المنطق.

وهذه العلة والتي قبلها واحدة في الزيادة والنقصان، وذلك أن العلة الأولى تزيد وتنقص في الطول، والعلة الثانية تزيد وتنقص في العرض "[٢].

ولو تدبرنا هذه العلل لوجدناها تؤول إلى العلتين اللتين يفسر بهما الباحثون المعاصرون أسباب اضطرابات الكلام: إذ هي عندهم أسباب عضوية Organiques وأسباب وظيفية Fonctionnels[٣].

---

(١) رسالة اللثغة ٥٢٣.

(٢) رسالة اللثغة ٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٣) أمراض الكلام ٣٣.

فالعوامل العضوية تعني ما كان من عيب في الجهاز الكلامي أو السمعي كالتلف أو التشوه أو سوء التركيب في أي عضو من أعضاء الجهازين، مما يؤدي إلى خلل في تأدية هذا العضو، فيحدث نتيجة لذلك عيب في النطق أو احتباس في الكلام، وهو يوافق ما ذكره الكندي في الوجه الثالث من زيادة آلة النطق ونقصانها، كما يوافق ما أشار إليه في مستهل رسالته بقوله: "إن تعسر اللسان عن الحال الجاري المجرى الطبيعي يكون من عرضين لازمين إما من تشنّج، وإما لاسترخاء "[١].

والعوامل الوظيفية لا يلاحظ فيها وجود أي نقص عضوي في الجهاز الكلامي أو السمعي، وإنما يرجع الضعف فيها إلى علل نفسية، وهو عين مراد الكندي في قوله "لقوى النفس الناطقة، وضعف النفس الناطقة ".

٥ ـ أنواع اللثغة وألقاب من تعتريهم

ذكر الكندي ضروباً من اللثغة لكل منها لقبه، وهي تختلف باختلاف الحرف الذي يختص بها أو الآفة التي تصيب جهاز النطق وموضعها فيه، هذا وقد استغنى الكندي عن ذكر المرض بذكر لقب صاحبه، على أن هذا اللقب ينبئ عن المرض، فالتأتاء اللاثغ بالتاء، والفأفاء اللاثغ بالفاء... وهكذا.

وسنسرد فيما يلي ما ذكره الكندي من هذه الألقاب مقرونة بشرحها، ثم نتبع ذلك بما اجتمع لدينا من ألقاب أخرى لم ينص عليها الكندي، تداولتها كتب الأدب واللغة والمعجمات:

١ ـ المتمتم[٢]: التأتاء. قال الأصمعي: "إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام "[٣].

---

(١) رسالة اللثغة ٥٢٣.

(٢) رسالة اللثغة ٥٣٠.

(٣) البيان والتبيين ١/٣٧. وجاء في الكامل ٣/٧٦١: "التمتمة التردد في التاء". وانظر أدب الكاتب ١٣٧، والمخصص ٢/١١٨، واللسان (تمم).

٢ ـ المدموم[١] : اللاثغ بالجيم[٢].

٣ ـ ذو العقل: اللاثغ بالراء. هذا ما نص عليه الكندي[٣]، على حين وردت هذه الكلمة في المعجمات وكتب اللغة بالمعنى المطلق للثغة دون تقييد بالراء أو غيرها. قال الجاحظ: "ويقال في لسانه عُقْلَة، إذا تعقّل عليه الكلام"[٤] وقال المبرد: "العُقْلَةُ التواء اللسان عند إرادة الكلام"[٥].

٤ ـ المناغي العَيُّ: اللاثغ بالغين[٦]. ولم ترد هذه الكلمة أيضاً مخصوصة بهذا المعنى، وإنما هي لمطلق الكلام غير المفهوم. جاء في التهذيب: "أنغى: إذا تكلم بكلام لا يفهم"[٧].

٥ ـ ذو الحبس: اللاثغ بالقاف[٨]. هي كسابقتها من عيوب اللسان غير المقيدة بحرف معين، قال المبرد: "الحُبسة: تعذر الكلام عند إرادته"[٩] وقال ابن سيده: "في لسانه حُبسة أي تحبُّس"[١٠].

٦ ـ الفأفاء: اللاثغ بالفاء[١١]. ولا يكاد أحد يخالف عن هذا المعنى، قال الجاحظ: "وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء"[١٢].

---

(١) رسالة اللثغة ٥٣٠.

(٢) لم أعثر على هذا المعنى من معاني المدموم في المعجمات.

(٣) رسالة اللثغة ٥٣٠.

(٤) البيان والتبيين ١/٣٩.

(٥) الكامل ٣/٧٦١، وانظر اللسان ومتن اللغة (عقل). والمخصص ٢/١١٨.

(٦) رسالة اللثغة ٥٣٠.

(٧) تهذيب اللغة ٨/٢٠٤.

(٨) رسالة اللثغة ٥٣٠.

(٩) الكامل ٣/٧٦١.

(١٠) المخصص ٢/١٢٢.

(١١) رسالة اللثغة ٥٣٠.

(١٢) البيان والتبيين ١/٣٧، وانظر الكامل ٣/٧٦١، وأدب الكتاب ١٣٧، والمخصص ٢/١١٨، واللسان (فأفأ).

٧ ـ **الأخنّ**: من يسبقه النفس إلى الخياشيم[(١)]. وجاء في اللسان: "الخُنَّة ضرب من الغُنّة، كأن الكلام يرجع إلى الخياشيم، يقال امرأة خَنَّاء وغنّاء وفيها مَخَنّة، ورجل أخَنَّ أي أغَنَّ مسدود الخياشيم "[(٢)].

٨ ـ **الألْكن**: العلة في اللّكَن أن العضل المحركة لعضو النطق لا تطيق حمله وتحركه وتنقله عن الأماكن الواجبة للنطق[(٣)]. قال ابن سيده: "والألكن الذي لا يقيم العربية من عجمة في لسانه والأنثى لكناء وقد لَكِنَ لَكَناً ولُكْنَةً ولُكُونة "[(٤)]. وقال المبرد: "اللكنة أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية "[(٥)].

هذا ما ذكره الكندي من ألقاب اللثغة، وفيما يلي مسرد لأشهر ما لم يذكره منسوقاً على الترتيب الهجائي[(٦)]:

١ ـ **البُكْءُ**: قلة الكلام خِلْقَة، جاء في اللسان: "وبكَأ الرجلُ بَكاءة، فهو بكيء من قوم بِكاء: قل كلامُه خِلقةً "[(٧)].

٢ ـ **الترخيم**: حذف صوت من آخر الكلام، عدّه المبرد أحد عيوب الكلام وعرفه بأنه "حذف الكلام "[(٨)].

---

(١) رسالة اللثغة ٥٣٠.

(٢) اللسان (خنن).

(٣) رسالة اللثغة ٥٣٠.

(٤) المخصص ١١٨/٢ ـ ١١٩.

(٥) الكامل ٧٦٢/٣.

(٦) لم نرم هنا إلى حصر ألقاب أمراض الكلام كلها، فدون ما ذكرناه، عشرات الألقاب الأخرى، ومن شاء التوسع فليعد إلى المخصص لابن سيده ١١٨/٢ ـ ١٤٢ حيث حشد المؤلف نحواً من مئة لقب على أن بعضها يتداخل في بعضها الآخر إما لفظاً وإما معنى.

(٧) اللسان (بكأ). وانظر عيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٨) الكامل ٧٦٢/٣. وانظر عيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٤٨.

٣ ـ **التعتعة**: التعتعة في الكلام أن يعيا بكلامه ويتردد من حَصَرٍ أو عِيٍّ، وقد تتعتع في كلامه وتعتعه العِيُّ، ومنه الحديث: "الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه "أي يتردد في قراءته ويتبلّد فيها لسانه[١].

٤ ـ **التلعثم**: التباطؤ في اللسان، ومنه الحديث: "ما عرضت الإسلام على أحدٍ إلا كانت فيه كبوةٌ إلا أن أبا بكر ما تلعثم" أي: أجاب من ساعته أول ما دعوته ولم ينتظر ولم يتلعثم وصدق بالإسلام ولم يتوقف[٢].

٥ ـ **الجَلَعُ**: انقلاب غطاء الشفة إلى الشارب، وشفة جلعاء وجَلَعَت اللّثة جَلَعاً، وهي جلعاء إذا انقلبت الشفة عنها حتى تبدو، وقيل الجَلَع ألا تنضم الشفتان عند المنطق بالباء والميم تقْلِص العليا فيكون الكلام بالسفلى وأطراف الثنايا العليا. ورجل أجلع لا تنضم شفتاه على أسنانه[٣].

٦ ـ **الحَصَر**: العِيُّ في الكلام[٤].

٧ ـ **الحُكْلَة**: غِلَظ اللسان وتقبضه، وفي لسانه حكلة أي عجمة[٥].

٨ ـ **الرُّتَّة**: عجلة في الكلام وقلة أناة فيه، وقيل هو قلب اللام ياء، وفي حديث المسوّر أنه رأى رجلاً أرتّ يؤم الناس فأخّره[٦]. وقال المبرد: "الرُّتَّة كالريح تمنع أول الكلام، فإذا جاء منه شيء اتصل "[٧].

---

(١) اللسان (تعع)، والمخصص ٢/١٢٣. وانظر عيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٤٩.

(٢) اللسان (لعثم). وانظر عيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٥١.

(٣) اللسان (جلع)، وأدب الكاتب ١٣٩. وانظر عيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٥٣.

(٤) اللسان (حصر). وانظر البيان والتبيين ١/٣ وما بعدها، والمخصص ٢/١٢٣ ـ ١٢٤، وعيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٥٤.

(٥) المخصص ٢/١٢٢. وانظر اللسان (حكل)، وعيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٥٥.

(٦) اللسان (رتت).

(٧) الكامل ٣/٧٦٢، وانظر المخصص ٢/١١٨.

٩ ـ **الضَّجَم**: عيب خَلْقي في الفم، قال ابن قتيبة: "والضَّجَمُ ميلٌ يكون في الفم وفيما يليه من الوجه "(١).

١٠ ـ **الضَّزَزُ**: عيب خَلْقي في تركيب الحنكين، قال ابن قتيبة: "والضَّزَزُ: لصوق الحنك الأعلى بالحنك الأسفل، فإذا تكلم تكاد أضراسه العليا تمسّ السفلى "(٢).

١١ ـ **الطَّمْطَمة**: العجمة. قال المبرد: "والطمطمة أن يكون الكلام مشبهاً لكلام العجم "(٣). ورجل أعجم طِمْطمٌ وطُمطُمانيٌّ وطُماطِمِ(٤).

١٢ ـ **العُجمة**: الأعجم الذي لا يبين الكلام من العرب والعجم، والاسم العُجمة، ومنه الحديث: "صلاة النهار عجماء" أي: لا تبين فيها القراءة(٥).

١٣ ـ **العَلَم**: والعَلَمَةُ والعُلْمَةُ: الشقُّ في الشفة العليا، عَلِمَ عَلَماً فهو أعْلَم، والمرأة علماء(٦).

١٤ ـ **الفَقَمُ**: عيب خَلْقي في الفم. قال ابن قتيبة: "الفقم في الفم وهو أن تتقدم الثنايا السفلى إذا ضم الرجل فاه فلا تقع عليها العليا "(٧).

١٥ ـ **الفَلَح**: شَقٌّ في الشفة السفلى، واسم ذلك الشق الفَلَحَة مثل القَطَعَة، رجل أفلح وامرأة فلْحاء(٨).

---

(١) أدب الكاتب ١٣٧. وانظر عيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٦٣.

(٢) أدب الكاتب ١٣٧. وانظر عيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٦٣.

(٣) الكامل ٧٦٢/٣.

(٤) المخصص ١٢٢/٢. وانظر اللسان (طمم).

(٥) المخصص ١١٩/٢. وانظر اللسان (عجم)، وعيوب اللسان ٢٦٩.

(٦) اللسان (علم).

(٧) أدب الكاتب ١٣٦ ـ ١٣٧. وانظر اللسان (فقم)، وعيوب اللسان ٢٧٨.

(٨) اللسان (فلح). ولعل من أطرف ما قيل في الأفلح الأعلم بيت الزمخشري:

ومُـذ أفلـح الجهّـال أيقنـت أنـني ... أنـا المـيم والأيـام أفلـحُ أعلـمُ

١٦ ـ **الفَهَهُ**: الفهُّ العَيُّ الكليل اللسان، يقال منه: جئت لحاجة فأفهَّني عنها حتى فههْتُ أي: أنسانيها. وهو الفَهَهُ والفَهِيهُ والأنثى فَهَّةٌ على بناء فهٌ، وقد فَهَّ يفَهُّ فَهَهاً وفهاهةً وفَهًّا وفهَّةً[١].

١٧ ـ **اللّجلجة**: ثقل اللسان ونقص الكلام وأن لا يخرج بعضه في إثر بعض ورجل لجَلاج وقد لَجلج وتلَجْلَج[٢].

١٨ ـ **اللّفف**: إدخال حرف في حرف[٣].

١٩ ـ **اللّيَغُ**: رجوع اللسان إلى الياء[٤]، ويسمى صاحب هذا العيب الألْيَغ.

٢٠ ـ **المَقْمَقَة**: التكلم من أقصى الحلق، قال ابن سيده: "المُقامق المتكلم بأقصى حلقه وفيه مَقْمَقة "[٥].

٢١ ـ **الهَتْهتة**: قال الأزهري: الهَتْهَتَةُ والتَّهْتَهَةُ أيضاً في التواء اللسان عند الكلام[٦].

◆ الخاتمة

إن ما شهدته العقود الأخيرة من هذا القرن من تطورات مهمة في مجالات الإلكترونيات والحواسيب واللسانيات كان له الأثر المباشر في تطور الدراسات حول أمراض الكلام وطرق علاجها وإدخال التقنيات العلمية الحديثة في ذلك، وفي مقدمتها نظم تركيب الكلام Synthese de la parole ونظم تعرف الكلام Reconnaicenc de la parole ونظم

يريد أن زمنه لم ينصفه لأنه أفلح أعلم ومن كان كذلك لم يقدر على النطق بحرف الميم، والزّمخشري هو حرف الميم هذا الذي عجزت الأيام عن النطق به!.

(١) المخصص ١٢٢/٢. وانظر اللسان (فهه)، وعيوب اللسان ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) اللسان (لهج). وانظر المخصص ١٢٢/٢، وعيوب اللسان ٢٨٤ ـ ٢٨٥. وأمراض الكلام ٣٣٠.

(٣) الكامل ٧٦٢/٣. وانظر المخصص ١١٨/٢، واللسان (لفف) وعيوب اللسان ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٤) اللسان (ليغ).

(٥) المخصص ١١٩/٢. وانظر اللسان (مقق) وعيوب اللسان ٢٩٥.

(٦) تهذيب اللغة ٣٥٨/٥. وانظر اللسان (هتت) وعيوب اللسان ٢٩٦. وأمراض الكلام ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

التعلم الذاتي بالحاسوب I'apprentissage assite par I'ordinateur التي يمكن أن تسهم في تقويم نطق المصابين ببعض أمرض الكلام وتدريبهم على النطق السليم أو الأدنى إلى السلامة[١]. على أن ذلك كله لا يغضّ من شأن تراثنا العريق في هذا المجال ـ وكل مجال ـ وإنما هو على العكس من ذلك يشعر بمسيس الحاجة إلى تحقيق هذا التراث بغية جمع أكبر قدر ممكن من مصطلحات هذا العلم لنواجه بها ما استجدّ من مصطلحات، ولعل ما أشرنا إليه في هذا البحث من مصطلحات يكون نواة لمعجم متخصص في أمراض الكلام لا يقتصر فيه على ألقاب هذه الأمراض بل يجمع إليها كل ما يتعلق بها من كلام على عللها وأسبابها ووصف لمخارج الحروف وهيئات نطقها وما إلى ذلك.

---

(١) انظر البحث الذي قدمه الدكتور محمد مراياتي في الندوة العلمية الخامسة للاتحاد العربي للهيئات العاملة في رعاة الصم، دمشق ٧ ـ ١٩٩٣/١١/٩. بعنوان: "تقنيات مستقبلية لتعليم الصم ومساعدتهم".

أهم مراجع البحث

❖ أدب الكاتب لابن قتيبة، تحقيق محمد الدالي، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط١، ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢م.

❖ أمراض الكلام، د. مصطفى فهمي، مكتبة مصر ودار مصر للطباعة، ط٥.

❖ البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥.

❖ تقنيات مستقبلية لتعليم الصم ومساعدتهم، د. محمد مراياتي، الندوة العلمية الخامسة للاتحاد العربي للهيئات العاملة في رعاية الصم، دمشق ٧ ـ ١٩٩٣/١١/٩.

❖ رسالة أسباب حدوث الحروف لابن سينا، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣.

❖ رسالة يعقوب الكندي في اللثغة، تحقيق محمد حسان الطيان، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٦٠، ج٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

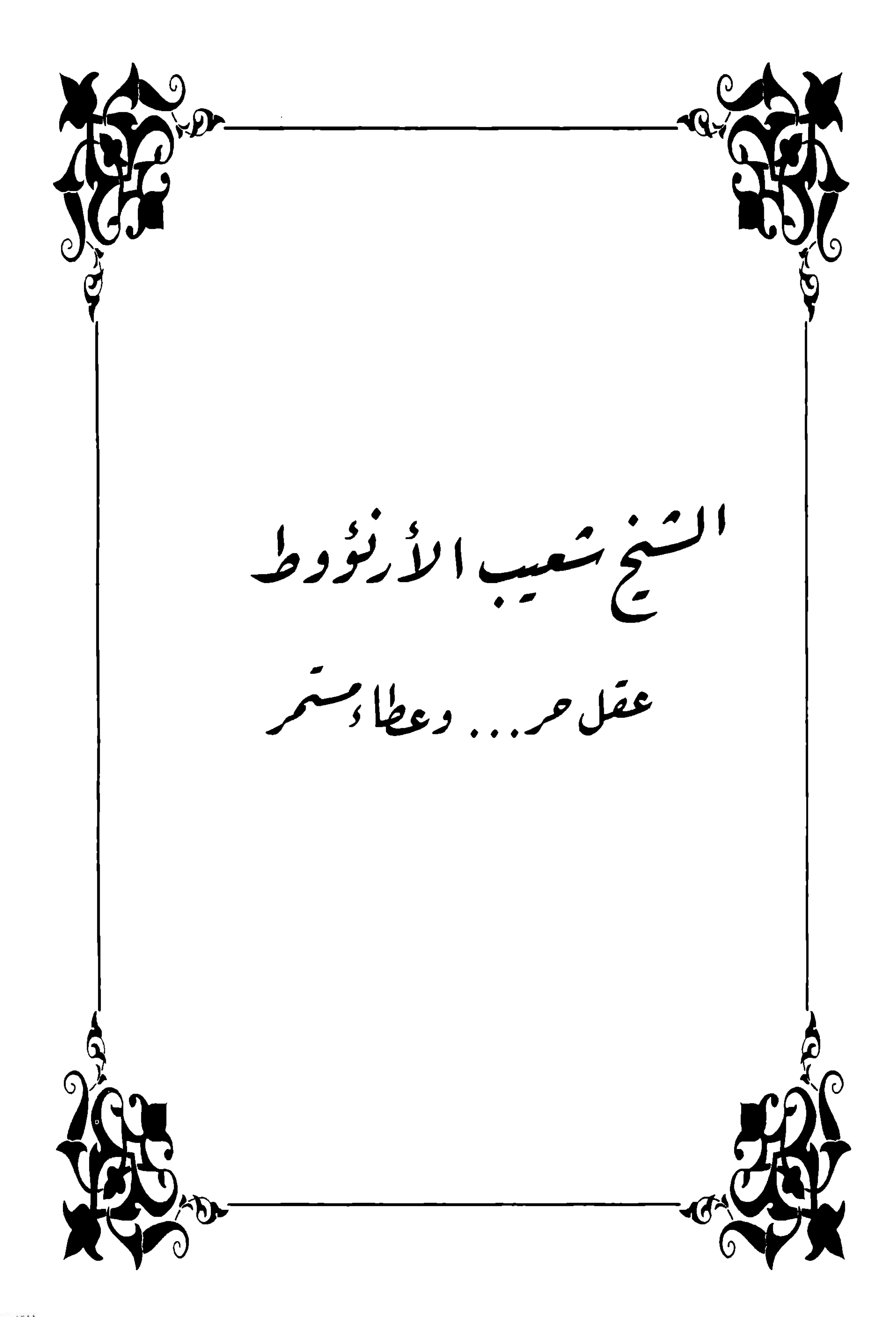
❖ عيون اللسان واللهجات المذمومة، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، مجلة المجمع العراقي، مجلد ٣٦، ج٣، ١٩٨٥م.

❖ الكامل، محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

❖ كتاب سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

❖ لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.

❖ المخصص لابن سيده، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت.



الشيخ شعيب الأرنؤوط

عقل حر... وعطاء مستمر

الشيخ شعيب الأرنؤوط
عقلٌ حرّ.. وعطاءٌ مستمرّ *

الحمد لله فاتحةُ كلِّ خيرٍ وتمامُ كلِّ نعمة، والصلاة والسلام على من أُرسِلَ للعالمين هدًى ورحمةً.

وبعد، فإنَّ من جميلِ صُنعِ الله بي أن سَنَّى لي صحبةَ العلاّمة الجليل والمحدِّث المحقق الثبْت الشيخ شعيب الأرنؤوط (أبو أسامة)، أمتع الله به وزاد من نفعه، فكان نعم المعلِّم والمرشد، وجدت لديه ما افتقدته عند غيره، إذ صحَّح لي أوهاماً كنت أظنها حقائق، وفتح لي مغاليق كنت في غفلة عنها، ودلني على مفاهيم كنت أبعد الناس عنها، وأخذ بيدي إلى طريق البحث والتحقيق وأنا بعدُ رَيِّضٌ غضٌّ طريٌّ لم يصلُب لي عودٌ ولم يستحصِدْ لي أمرٌ.

ولو رحتُ أذكر فضائل الشيخ ومناقبه ومآثره لما وسعتني الصفحات ذوات العدد، ولكن حسبي من ذلك كله أن أومئ إلى خَلَّتين اثنتين فيه بلوتهما بنفسي وخبرتهما بتجربتي.

أما الأولى فهي سعةُ العلم وتنوّع موارِده، فهو إلى جانب تخصّصه في علوم الحديث النبوي الشريف روايةً ودرايةً فقيهٌ أصوليٌّ ومفسّر لغوي، يروعُكَ فيه تمكُّنُه من لغة العرب وحفظُهُ الكثيرَ من شواهدها، وروايته الطريفَ من أخبارها بل حِذَقُهُ العويصَ من مسائلها ومشكلاتها.

ولقد كان من سوالف الأقضية أن خصَّني وبعضَ الصحب بمجلسين اثنين كنا نقرأ عليه في أولهما تفسير النسفي، ونقرأ في الآخر فقه السنة لسيد سابق، وفي هذين المجلسين تكشَّفت لنا شخصيّة الشيخ العلمية وسعة اطلاعه على نحوٍ لم نعرفْهُ أو نعهدْهُ عند غيره ممن عرفنا، فالرجل

---

* كتبت هذه الكلمة ليلقيها الأخ الحبيب والمحقق الأريب الشيخ محمد بن ناصر العجمي في إثنينية الوجيه السعودي الفاضل الأستاذ عبد المقصود الخوجة التي خصصت لتكريم شيخنا العلامة المحدث شعيب الأرناؤوط سنة ١٩٩٧ ولكن شيخنا الجليل آثر الاعتذار.

أستاذٌ مُفْتَنٌّ جمع أصنافَ المعارف وحوى أفانينَ العلوم، ولم يصرفْهُ ذلك كله عن تحضير الدرس الذي سيقرأ، وجَمْعِ كلِّ ما من شأنه إيضاحُ عبارة الكتاب وإغناؤها، ولا تزال نسختي من هذين الكتابين تذخر بالفوائد والفرائد التي التقطتها من فِلْقِ في الشيخ حفظه الله، وإن تعجبْ فعجبٌ أن حواشي تلك الكتب لم تكن تتّسع لكل ما كان الشيخ يُتحفنا به من جليل النقول ونفيس النصوص فكنا نكتب بعض ذلك في قصاصاتٍ نلحقها بالمواضع المتعلقة بها من التفسير أو الفقه، وهو إلى هذا كله لا يُغفل التنبيه على كلام المصنف نفسه إن اقتضى الأمر ذلك.

وأما الخَلّةُ الثانية فهي بناء الرجال

يبني الرجالَ وغيرُه يبني القرى شتَّانَ بين قرًى وبين رجالِ

لم يكن الشيخ ـ حرس الله مهجته ـ يكتفي بما يلقّننا من علم، وإنما كان يرمي إلى بناء شخصيتنا العلمية، إذ زرع فينا أول ما زرع التفكيرَ الحرَّ المستقلَّ وعدَم التبعيّة لأحد، وكرَّهَ إلينا الطاعة العمياء التي تورث الذُّلَّ وتُخمِلُ التفكير وتُميتُ الإبداع وتُعطِّل العقل، وكانت عبارته التي ما فتئ يردِّدُها على مسامِعنا: "لا تبِعْ عقلَكَ لأحد". ومن ثمَّ فقد نمَّى فينا ـ معشر تلامذته ـ تحمُّلَ المسؤولية وحملَ الأمانة التي أعجزتِ السماواتِ والأرضَ والجبالَ فأبَيْنَ أن يحملْنَها وأشفقْنَ منها وحَمَلَها الإنسانُ...

وكانت أولى خطواتِ هذا التحميل أن وجّهنا إلى تحقيق أمَّات الكتب كسرِّ صناعة الإعراب لابن جنّي، والدرّ المصون للسمين الحلبي، ولا تسل عن دهشة أستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ رحمه الله حين أخبره في أثناء زيارتنا المعتادة له من كل يوم ثلاثاء بأن يحيى وحسان يعتزمان النهوض بتحقيق سر الصناعة ذلك الكتاب الذي تَقَطَّعَتْ دونه أعناقُ الرجال[1]!!.

---

(١) وكان قد طلب مخطوط الكتاب فعلاً من مستودع المكتبة الظاهرية ودفعه إلينا في صباح ذلك اليوم من أيام الثلاثاء التي كنا ننعم فيها بصحبة الشيخ في قاعة الباحثين بالمكتبة الظاهرية، وغالباً ما كانت تنتهي بنزهة إلى الربوة أو عين الفيجة فما أحلاها من أيام!.

وقد تحوّل هذا التشجيع والتوجيه إلى واقع علمي حين دفعَ إلينا بالجزء الأول من موسوعة الذهبي "سير أعلام النبلاء" التي لم تكن لترى النور لولاه، ومضينا نخطو الخطوات الأولى في عالم التحقيق، ننسخ ثم نقابل مع الشيخ، وهو في أثناء ذلك يعلّمنا ويرشدنا ويُلقّنُنا أصول هذا الفن بملاحظات عملية سرعان ما تتحول إلى واقع علمي، وما هي إلا مدّة وجيزة حتى كنت ترى جيلاً جديداً من المحققين الشباب تَخَرَّجوا بالشيخ ونبُهوا به، أذكر منهم: الشيخ نعيم العرقسوسي والدكتور يحيى مير علم والأستاذ إبراهيم الزيبق والدكتور علي أبو زيد والأستاذ مأمون الصاغرجي وغيرهم ممّن صاروا ملء السمع والبصر.

ولئن تناول بعض أساتذتنا عمل الشيخ هذا بالنقد والتعقّب لقد استبان اليوم مقدارُ صوابه وبُعدُ نظره بعد أن استوى كلٌّ من هؤلاء المحققين على سوقه، ورأيتَهم ينهضون بتحقيق كبريات كتب التراث في شتّى أنواع العلوم الشرعية والأدبية واللغوية والتاريخية.

وحاشى لله أن يكون الشيخ على خطأ؛ ذلك لأنه لم يدع واحداً منهم يحطب على هواه، وإنما ظل يأخذ بيده حتى بلغ أشدَّه، واستوى محقّقاً اكتملت لديه أدوات التحقيق:

إنّ الهلالَ إذا رأيتَ نموَّه ... أيقنتَ أن سيكون بدراً كاملاً

أيها الحفل الكريم:

معذرةً منكم إن أنا سرحت بخيالي وعدتُ بذاكرتي إلى أيام الطلب، فحدثتُكم عن عَلَمٍ لا يكاد يخفى علمُه وفضله ومشاركاتُه على أحدٍ من شُداةِ العلم بَلْهَ الراسخين به والمتخصصين. فالشيخ شعيب هو الشيخ شعيب وكفى. فليس عدلاً أن أعرِّف برجل ملأت آثاره المكتبات، وغدا اسمه مقترناً بكثيرٍ من كتب الحديث والتراجم والتاريخ، أحياها لنا وجلاها في أجمل صورة وأبهى حُلّة، وإنما يعلو مثلي بالحديث عن أمثاله:

وليس يصحّ في الأذهان شيءٌ ... إذا احْتاج النهار إلى دليل

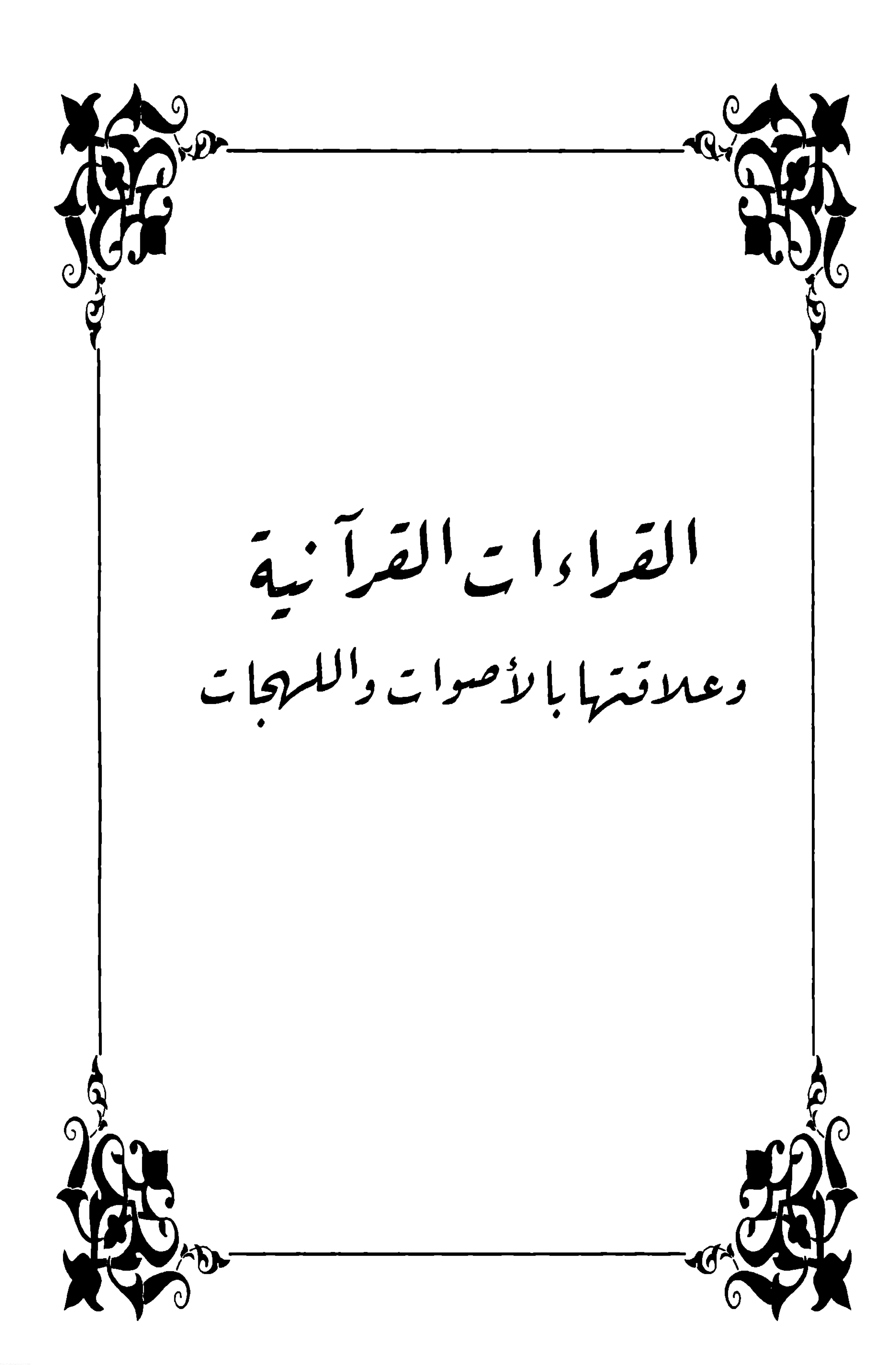
وإني لأحسبه ـ ولا أزكي على الله أحداً ـ من العدولِ الذين خبَّر عنهم الصادق المصدوق، بقوله: **«يحمل هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عدولُهُ، ينفون عنه تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين وتأويل الجاهلين»**.

وأنت يا أبا أسامة سلامٌ عليكَ من تلميذٍ محبٍّ انتفع بكَ ونهل من علمكَ وسَعِدَ بصحبتِكَ، أسأل الله سبحانه أن يبلِّغَك سؤلَكَ، وأن يجعلَ ما قدمتَ من عملٍ وما أخرجْتَ من كتبٍ وما ربَّيت من رجلٍ زُلفى لك عند ربِّكَ يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

والحمد لله رب العالمين.

دمشق ٥ جمادى الأخرى ١٤١٨هـ

٧ تشرين الأول ١٩٩٧م



القراءات القرآنية
وعلاقتها بالأصوات واللهجات

القراءات القرآنية
وعلاقتها بالأصوات واللهجات ❖

أولاً: القراءات[١]

◆ تعريفها

القراءة سنة[٢] متبعة تلقّاها الخلف عن السلف عن رسول الله ﷺ بالسند المتصل. وقد عرّف ابن الجزري علم القراءات بأنه: "علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوًّا لناقله"[٣]. وتوسّع القسطلاني في هذا التعريف فقال: "هو علم يعرف منه اتفاق الناقلين لكتاب الله واختلافهم في اللغة والإعراب والحذف والإثبات والتحريك والإسكان والفصل والاتصال. وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال، من حيث السماع"[٤].

والقراءات والقرآن حقيقتان متغايرتان؛ فالقرآن هو اللفظ الموحى به إلى محمد، للبيان والإعجاز.

❖ نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٧٢ جزء ٢ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

(١) هذا مبحث دقيق ذو مزالق خطيرة، وهو كما قال الزرقاني: "مبحث طريف وشائق غير أنه مخيف وشائك" مناهل العرفان ١/١٣٧. لذا فقد كنت معه على حذر متبعاً لا مبتدعاً، قابساً لا مصنفاً، وأوجزت فيه الكلام معتمداً عبارات أهل الفن ما استطعت.

(٢) هو قول الصحابي الجليل زيد بن ثابت، انظر السبعة ٤٩ - ٥١، وإبراز المعاني ٥، والنشر ١/١٧، والإتقان ١/٧٥، وفي المرشد الوجيز ١٧٠: "عن ابن المنكدر وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وعامر الشعبي من التابعين أنهم قالوا: القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول، فاقرؤوا كما عُلّمتموه، قال زيد: القراءة سنة".

(٣) منجد المقرئين ٣. وقد وردت فيه الكلمتان الأخيرتان هكذا: "بعزو الناقلة" على حين ورد النص وفق ما أثبت في كلٍّ من لطائف الإشارات ١/١٧٠، وإتحاف فضلاء البشر ٥، والبدور الزاهرة ٧ (مع تعديل يسير)، والقراءات القرآنية ٥٥. ومع ذلك فقد جاء على صيغته الواردة في نشرة المنجد في كلٍّ من مناهل العرفان ١/٤١٢، والأحرف السبعة ٢٩٤.

(٤) لطائف الإشارات ١/١٧٠، وانظر إتحاف فضلاء البشر ٥.

والقراءات ما يعتور هذا اللفظ من أوجه النطق والأداء كالمد والقصر والتخفيف والتثقيل والإمالة والفتح وغيرها مما قرأ به الرسول ﷺ ونقل عنه بالسند الصحيح المتصل[(١)].

◆ منشؤها

القراءات القرآنية جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن[(٢)] وتضافرت النصوص على أنها رخصة يسّر الله بها سبحانه قراءة كتابه على العرب الأميّين بلغات قبائلهم المتفاوتة، من ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من قول رسول الله ﷺ: **"إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسّر منه"**[(٣)] ومثله كثير[(٤)].

وقد ذهب العلماء مذاهب شتّى في تفسير المراد بهذه الأحرف السبعة عدّ منها ابن الجزري الكثير ثم قال: "ولا زلت أستشكل هذا الحديث وأفكر فيه وأمعن النظر من نيّف وثلاثين سنة حتى فتح الله عليّ بما يمكن أن يكون صواباً إن شاء الله"[(٥)] ولعل أشبه هذه المذاهب بالصواب

---

(١) البرهان ٣١٨/١، وانظر لطائف الإشارات ١٧١/١ ـ ١٧٢. والكلّيات ٣٨/٤، والقراءات القرآنية ٦١.

(٢) وهو رأي مكي بن أبي طالب في الإبانة ٢٢ وغيره من علماء الأمة كابن حيان والرازي والمهدوي وابن الجزري، النشر ٣٣/١ ـ ٣٤، والأحرف السبعة ٣٥٥ ـ ٣٥٦. خلافاً لرأي الإمام الطبري ومن تابعه في أن القراءات كلها ليست إلا حرفاً واحداً من الأحرف السبعة. تفسير الطبري ٦٣/١. وثمة رأي ثالث يذهب إلى أن القراءات بمجموعها هي الأحرف السبعة وأن الأحرف السبعة مستمرة النقل بالتواتر إلى اليوم. انظر النشر ٣٣/١، ومناهل العرفان ١٦٨/١ ـ ١٦٩، والأحرف السبعة ٣٥٤.

(٣) البخاري ٨٥٢/٢ رقم (٢٢٨٧) وقد تكرر في غير موضع، وأخرجه مسلم أيضاً في باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف رقم (٨١٨).

(٤) انظر أحاديث الأحرف السبعة في تفسير الطبري ٢١/١ ـ ٤٦، والمرشد الوجيز ٧٧ ـ ٩٠، والبخاري ١٩٠٩/٤، والنشر ١٩/١ ـ ٢١، ومناهل العرفان ١٣٩/١ ـ ١٤٦، والأحرف السبعة ٥٧ ـ ١١٢ (حيث بسط د. عتر الكلام على هذه الأحاديث مستنبطاً ما يؤخذ منها من أحكام داحضاً ما حام حولها من شبهات) وتاريخ القرآن ٢٣ ـ ٤٤.

(٥) النشر ٢٦/١.

وأدناها إلى القبول أن المراد بهذه الأحرف السبعة لغات العرب الأكثر انتشاراً آنئذٍ، وهو قول جمهرة علماء الحديث واللغة والقراءات كابن قتيبة وابن سيده وأبي عبيد القاسم بن سلام والأزهري وثعلب والطبري وابن الأثير[1]، وفي كلمة ابن قتيبة ما يجلو هذا المذهب ويمثّل له. قال: "... فكان من تيسيره أن أمره بأن يقرئ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عاداتهم، فالهذليّ يقرأ: (عتّى حين) يريد (حتّى حين) لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها. والأسديّ يقرأ (تِعلمون) و(تِعلم) و(تِسودّ وجوه) (وألم إِعهد إليكم). والتميميّ يهمز والقرشيّ لايهمز. والآخر يقرأ (وإذا قيل لهم) و(غيض الماء) بإشمام الضم مع الكسر، و(هذه بضاعتُنا رُدَّتْ إلينا) بإشمام الكسر مع الضم، و(مالك لاتأمنّا) بإشمام الضم مع الإدغام، وهذا ما لا يطوع به كلّ لسان. ولو أن كل فريقٍ من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتدّ ذلك عليه وعظمت عليه المحنة فيه ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان وقطعٍ للعادة. فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات.."[2].

وغَبَرَ الصحابةُ بعد ذلك زماناً ـ في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته ـ يَقرؤون القرآن ويُقرئونه وَفقَ ما لُقّنوه، ولكن انسياحهم في الأرض إبّان الفتوحات الإسلامية ومخالطتهم الأعاجم، وتعدّدَ أوجهِ القراءة أحدث اختلافاتٍ كبيرةً في قراءاتهم القرآن[3]؛ لعدم وجود المرجع المضبوط المحرر الذي يمكن أن يئِلوا إليه، فقد كان مكتوباً في الصحف بعد أن نسخه أبو بكر رضي الله عنه حين استحرّ القتل بقرّاء القرآن يوم اليمامة، وكانت الصحف عند أبي بكر حتى مات، ثم

---

(١) جمع أكثر أقوال هؤلاء الأئمة ابن منظور في اللسان (حرف). وانظر تهذيب اللغة ٥/١٣ ـ ١٤، وتفسير الطبري ١/٤٧، وتأويل مشكل القرآن ٣٩ ـ ٤٠، ومقدمتان في علوم القرآن ٢٠٧ ـ ٢٣٤، ومناهل العرفان ١٥٣ ـ ١٩٢، وتاريخ آداب العرب للرافعي ٦٨، والأحرف السبعة ١٧٧ ـ ١٨٠.

(٢) تأويل مشكل القرآن ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) مقدمتان في علوم القرآن ١٨، والإبانة ٤٨ ـ ٤٩، والمقنع ٤، والمرشد الوجيز ٥٠، وأثر القراءات في الأصوات والنحو العربي ٩٨ ـ ٩٩، ومعجم القراءات القرآنية ٣٢، وتفسير الطبري ١/٦٢.

كانت عند عمر حتى مات، ثم كانت عند حفصة بنت عمر[١]. إلا أن هذه الصحف لم تلغ ما كان في أيدي الناس من مصاحف بل بقي مصوناً لا يمسّ[٢]، مما أسهم في استشراء الخلاف وكاد الأمر يفضي إلى فتنةٍ لولا أن تداركهُ عثمان رضي الله عنه بعمله العظيم في توحيد الأمة على كتاب الله سبحانه[٣]. وروى البخاري في كتاب فضائل القرآن من صحيحه عن أنس بن مالك "أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفَةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخْها في المصاحف ثم نردُّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفقٍ بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق"[٤].

وهكذا أجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنته هذه المصاحف وترك ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى مما كان مأذوناً فيه توسعةً عليهم ولم يثبت عندهم ثبوتاً مستفيضاً أنه من القرآن[٥].

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ١٨، والإبانة ٤٦، والمرشد الوجيز ٤٩، والمقنع ٣ ـ ٤، وتفسير الطبري ١/ ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) معجم القراءات القرآنية ٣٢.

(٣) تاريخ آداب العرب ٣٧.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٩٠٨ رقم (٤٧٠٢)، وانظر في هذا الحديث والحادثة تفسير الطبري ١/ ٥٩ ـ ٦٣، وكتاب المصاحف ٢٥ ـ ٣٤، ومقدمتان في علوم القرآن ٤٤ ـ ٥٢، والإبانة ٤٨ ـ ٥٢، والمقنع ٤ ـ ٩، والمرشد الوجيز ٤٩ ـ ٧٦، والنشر ١/ ٧ ـ ٨، وتاريخ آداب العرب ٢/ ٣٦ ـ ٤٢.

(٥) النشر ١/ ٧.

وذهب جمهور علماء السلف والخلف إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملةٌ على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام متضمنة لها لم تترك حرفاً منها[١]. ومما يؤكد ذلك أن ثمة رواياتٍ تشير إلى شهود زيد بن ثابت هذه العرضة، قال أبو عبد الرحمن السلمي: "قرأ زيد بن ثابت على رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وإنما سُمِّيت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت، لأنه كتبها لرسول الله ﷺ، وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة وكان يُقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولاه عثمان كَتْب المصاحف رضي الله عنهم أجمعين"[٢]. هذا وقد اختُلف في عدد النسخ التي نسخها عثمان، ولكن أكثر العلماء على أنها أربع: وجّه بواحدة إلى الكوفة، وثانية إلى البصرة، وإلى الشام الثالثة، وأمسك عنده واحدة[٣].

ولما كانت هذه المصاحف غُفْلاً من النقْط والشكل فإن رسمها ظل يحتمل وجوهاً من القراءات المروية عن رسول الله ﷺ[٤]، فما طابق من هذه الوجوه روايةً من هذه الروايات أُخِذَ بِهِ واعتُمِدَ، وما لم يطابق اطُّرِحَ وأُعرض عنه؛ إذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخطّ[٥]،

---

(١) النشر ٣١/١.

(٢) المرشد الوجيز ٦٩، وانظر في خبر زيد أيضاً: مقدمتان في علوم القرآن ٢٥، وتاريخ آداب العرب ٣٦ و٥٠، حيث أحال الرافعي على كتاب (حجج النبوة) للجاحظ الذي تكلم كلاماً حسناً في الاحتجاج لجمع الناس على قراءة زيد دون غيره.

(٣) وقيل إنه جعله على سبع نسخ ووجه من ذلك أيضاً نسخة إلى مكة ونسخة إلى اليمن ونسخة إلى البحرين والأول أصح وعليه الأئمة. المقنع ٩، وفي الإبانة ٤٩: "كتبوه في سبع نسخ، وقيل في خمس. ورواة الأول أكثر، والجدير أن في هذه النسخ اختلافات في حروف محددة جمعها أهل هذا الفن وعقد لها صاحب كتاب المباني فصلاً خاصاً". انظر مقدمتان في علوم القرآن ١١٧ ـ ١٣٣، والمقنع ٩٢ ـ ٩٩.

(٤) المحكم للداني ٢ ـ ٣، والنشر ٧/١.

(٥) النشر ٧/١ ـ ٨.

بيد أن الحفظ إن لم يوافق أحدَ المصاحف العثمانية ـ ولو احتمالاً[(١)] ـ حكم عليه بالشذوذ أيضاً، فلا عبرة برواية لا توافق رسماً، ولا برسم لا روايةَ له. ومن هنا كانت أركان القراءةالثلاثة: صحة السند، وموافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وموافقة العربية ولو بوجه[(٢)]. ونُقل عن أبي عمرو بن العلاء سيّد القراء قولُه: "لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قد قُرئ به لقرأت حرف كذا كذا، وحرف كذا كذا"[(٣)].

◆ تدوين القراءات وتاريخ التأليف فيها

منذ أن استقرت مصاحف الأمصار التي أرسلها عثمان أخذ أهل كل مصر يقرؤون بما في مصحفهم ويتلقّون ما فيه عن الصحابة الذين تلقّوه عن رسول الله ﷺ، فلما كان أواخر عهد التابعين في المئة الأولى تجرّد قوم من كل مِصر من الأمصار لتلاوة القرآن وضبطها والعناية بها وبتلقّيها الشفوي المرويّ عن رسول الله ﷺ، لما رأوا من مسيس الحاجة إلى ذلك بعد اضطراب السلائق، وجعلوها علماً كما فعل بالحديث والتفسير آنئذٍ، وكانوا فيها الأئمة الذين يرحل إليهم ويؤخذ عنهم، ثم اشتهر منهم ومن الطبقة التي تلتهم مقرئون أجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول ولم يختلف فيها اثنان، وكان في مقدمتهم أولئك الأئمة السبعة الذين تنسب إليهم القراءات إلى اليوم، وهم: عبد الله بن عامر الشامي (١١٨هـ)، وعبد الله بن كثير المكي (١٢٠هـ)، وعاصم بن أبي النجود الكوفي (١٢٨هـ)، وأبو عمرو بن العلاء البصري (١٥٤هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات الكوفي (١٥٦هـ)، ونافع بن عبد الرحمن المدني (١٦٩هـ)، وعلي بن حمزة الكسائي الكوفي (١٨٩هـ)[(٤)].

---

(١) المراد بموافقة أحد المصاحف ما كان ثابتاً في بعضها دون بعض كقراءة ابن عامر (قالوا اتخذ الله ولداً) في البقرة بغير واو فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي. والمراد بالاحتمال ما يوافق الرسم ولو تقديراً نحو (السموات والصلحات) انظر النشر ١/١١ ـ ١٣، ومقدمتان في علوم القرآن ١١٧ ـ ١٣٣.

(٢) الإبانة ٦٥، والمرشد الوجيز ١٧١ ـ ١٧٢، والنشر ١/٩.

(٣) روى هذه المقولة عنه الأصمعي الراوية اللغوي المعروف. انظر السبعة ٤٨.

(٤) النشر ١/٧ـ٩، وتاريخ آداب العرب ٢ـ٥، وانظر تراجم هؤلاء السبعة ورواتهم في السبعة ٥٣ـ١٠١، والتيسير ٤ـ٧.

ويعيد مؤرخو علم القراءات أوَّليّة التأليف فيها إلى أبي عبيد القاسم بن سلاّم (٢٢٤هـ)، الذي جعل القراء خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة[١]، ويذهب بعض الباحثين إلى أنه سُبق بكتب عديدة يقدمُها كتابٌ ليحيى بن يعمر (٨٩هـ) أحد تلامذة أبي الأسود الدؤلي، يقال إنه ظل مرجعاً إلى أن ألّف ابن مجاهد كتابه في القراءات[٢].

وقد أتى بعده أحمد بن جبير (٢٥٨هـ) الذي جمع كتاباً في القراءات الخمسة، من كل مصرٍ واحد، ثم القاضي إسماعيل بن إسحاق (٢٨٢هـ) صاحب قالون الذي ألّف كتاباً في القراءات جمع فيه قراءة عشرين إماماً منهم هؤلاء السبعة، ثم الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) الذي جمع كتاباً حافلاً سمّاه (الجامع) فيه نيّف وعشرون قراءة[٣].

ويجمع الباحثون ـ قدماء ومحدثين ـ على أن شيخ الصنعة وأول من سبّع السبعة أبو بكر بن مجاهد[٤] (٣٢٤هـ) في كتابه (السبعة)[٥]، وذلك أنه نظر إلى إمام مشهور بالثقة والأمانة في النقل وحسن الدين وكمال العلم، قد طال عمره، واشتهر أمره، وأجمع أهل مصر على عدالته فيما نقل، وثقته فيما قرأ وروى، وعلمه بما يقرأ، فلم تخرج قراءته عن خط مصحفهم المنسوب إليهم، فأفرد من كل مصر وجّه إليه عثمان مصحفاً، إماماً هذه صفته، وقراءته على مصحف ذلك المصر[٦]، ثم زاد

---

(١) النشر ١/٣٤، ومقدمة إبراز المعاني.. وتاريخ آداب العرب ٢/٥٣.

(٢) تاريخ التراث العربي ١/٩ وقد اعتمد فيه مؤلفه د. سزكين على ما ذكره ابن عطية في مقدمة تفسيره، انظر مقدمتان في علوم القرآن ٢٧٥، وانظر أيضاً القراءات القرآنية، تاريخ وتعريف ٢٧ ـ ٢٩، حيث عدّ مؤلفه كتاب ابن سلام بعد تسعة عشر كتاباً في القراءة كلها تقدّمَهُ.

(٣) النشر ١/٧ ـ ٩، ومقدمة إبراز المعاني ٢٢، والمرشد الوجيز ١٥٢.

(٤) الإبانة ٦٤، والمرشد الوجيز ١٥٧، ١٦٠، والنشر ١/٣٤، ومقدمة إبراز المعاني ٢٢، والقواعد والإشارات ٣١، وتاريخ آداب العرب ٢/٥٢ ـ ٥٣، وتاريخ التراث العربي ١/١٧ ـ ١٨ و٢٨، والقراءات القرآنية ٣٣. وانظر ترجمة ابن مجاهد في النص المحقق من الدر النثير ٤٣.

(٥) نشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٧١ بتحقيق الدكتور شوقي ضيف.

(٦) الإبانة ٦٢، وانظر تاريخ آداب العرب ٢/٥٢ ـ ٥٣.

فجعلهم سبعة[١]، إما لموافقة عدد الأحرف السبعة ـ لا لكون القراءات هي الأحرف السبعة ـ[٢] أو لمراعاة عدد المصاحف الذي قيل إنه سبعة كما سلف[٣].

وتلا تسبيعَ ابن مجاهد للقراءات التأليفُ في الاحتجاج لها لغةً ونحواً وصرفاً[٤]، وكان من أشهر ما وضع في ذلك ثلاثة كتب أولها كتاب أبي علي الفارسي (٣٧٧هـ) "الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد"[٥]. وثانيها "الحجة في القراءات السبع" المنسوب إلى ابن خالويه[٦] (٣٧٠هـ) تلميذ ابن مجاهد. وثالثها "حجة القراءات" لأبي زرعة بن زنجلة (من رجال المئة الرابعة)[٧].

ويبدو أن معاصري ابن مجاهد وخالِفيه من علماء القراءة حاولوا أن يبدّدوا وهماً ساد عند العامة بجعل القراءات السبع هي الأحرف السبعة[٨]، فألفوا كتباً في القراءات توخّوا فيها مجانبة

---

(١) لأن الأمصار التي اختار منها القراء خمسة، وهي: مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام.

(٢) مقدمة إبراز المعاني ٢٢.

(٣) تاريخ آداب العرب ٢/٥٣، والمرشد الوجيز ١٦٠، والقواعد والإشارات ٣٢.

(٤) أفرد الزركشي لهذا الفن نوعاً من أنواع كتابه البرهان سماه "معرفة توجيه القراءات وتبيين وجه ما ذهب إليه كل قارئ" البرهان ١/٣٣٩ ـ ٣٤١.

(٥) هذا من تمام العنوان كما ظهر على طبعة دار المأمون بدمشق بتحقيق الأستاذين بدر الدين قهوجي، وبشير جويجاتي، وكان الجزءان الأول والثاني قد صدرا عن دار الكتاب العربي بمصر منذ ربع قرن بتحقيق ناصف والنجار وشلبي تحت عنوان الحجة في علل القراءات السبع.

(٦) حققه د. عبد العالم سالم مكرم وطبع في دار الشروق ببيروت ١٩٧٠، وقد كتب عنه الأستاذ محمد العابد الفاسي مقالاً في اللسان العربي (مج٨ ج١ ص٥٢١) فنّد فيه نسبة الكتاب إلى ابن خالويه، على أن المحقق عقب عليه في طبعة الكتاب الثانية بمقال كان قد نشره في مجلة اللسان العربي (مج ٩ ج١ ص٣١٥). ثم طالعنا د. عبد الرحمن العثيمين بنشره كتاب إعراب القراءات السبع لابن خالويه (١٩٩٢م) داحضاً نسبة الحجة إلى ابن خالويه بما فيه مقنع. انظر المقدمة ١/٨٦ ـ ٨٩.

(٧) حققه الأستاذ سعيد الأفغاني ونشر في جامعة بنغازي ١٩٧٤م، وللأستاذ المحقق كلام على الاحتجاج للقراءات والتأليف فيه ضمّنه مقدمة الكتاب ١٨ ـ ٢٤.

(٨) قال ابن الجزري في النشر ١/٣٦: "... ولذلك كره كثير من الأئمة المتقدمين اقتصار ابن مجاهد على سبعة من القراء وخطؤوه في ذلك وقالوا: ألا اقتصر على دون هذا العدد أو زاده أو بيّن مراده ليخلص من لا يعلم من هذه الشبهة".

العدد سبعة بالزيادة عليه أو النقصان منه ؛ فمن ذلك ما ألفه أبو بكر بن مهران الأصبهاني (٣٨١هـ) في القراءات العشر وفي مقدمته كتاباه: الغاية[١] والمبسوط[٢]، وفيهما تمام القراء العشرة وهم: أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المدني (١٣٠هـ) ويعقوب الحضرمي البصري (٢٠٥هـ) وخلف البزار الكوفي (٢٢٩هـ)[٣].

ومن ذلك أيضاً كتاب التذكرة في القراءات الثمان لأبي الحسن طاهر بن غلبون الحلبي (٣٩٩هـ)[٤] الذي زاد على السبعة المعروفين يعقوب الحضرمي من العشرة.

ويعد مطلع القرن الخامس الهجري منعطفاً في تاريخ التأليف في القراءات القرآنية[٥]، إذ شهد تحوّلاً في الاهتمام بها من المشرق إلى المغرب والأندلس التي لم يكن فيها شيء من القراءات إلى أواخر المئة الرابعة، فرحل من أهلها من روى القراءات بمصر ودخل بها، وكان أبو عمر أحمد بن محمد الطلمنكي (٤٢٩هـ) أول من أدخل القراءات إلى الأندلس[٦] وهو صاحب كتاب الروضة[٧].

---

(١) لم يقتصر هذا الكتاب على القراءات العشر، وإنما ضمّ إليها قراءة اختيارية انفرد المؤلف بها وحده عن سهل ابن محمد أبي حاتم السجستاني وذكر إسناده فيها ص ٧١ ـ ٧٢، وقد حقق الكتاب الأستاذ محمد غياث الجنباز وطبعه في السعودية ١٩٨٥م، وذكر أن عليه شرحين للقُهندزي والكرماني. انظر الغاية ١٧.

(٢) صدر ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٦م، بتحقيق الأستاذ سبيع حمزة الحاكمي.

(٣) تاريخ التراث العربي ١/ ١٨، وانظر في تراجم هؤلاء الثلاثة معرفة القراء ١/ ٧٢، ١٥٧، ٢٠٨، والغاية ٢/ ٣٨٢، ٣٨٦، ٢٧٢، ومقدمة حجة القراءات للأفغاني ٦٢ ـ ٦٦، وهي مبثوثة أيضاً في كتب القراءات والتراجم.

(٤) نشرته دار الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة ١٩٩٠م بتحقيق د. عبد الفتاح بحيري إبراهيم، ثم نشرته دار القلم بتحقيق الشيخ الدكتور أيمن سويد ١٩٩٢.

(٥) ليس من همي هنا أن أستقصي كل ما ألف في القراءات القرآنية على سبيل الحصر، فذا أمر يعسر مناله، ومن أراد استقصاءً أو شبهه لكتب القراءات فليراجع كشف الظنون ٢/ ١٣١٧ ـ ١٣٢٣ حيث ذكر حاجي خليفة أكثر من مئة وثلاثين مؤلفاً، وفاتَهُ مع ذلك الكثير.. والنشر ١/ ٣٤ ـ ٣٦، ٥٨ ـ ٩٨، ومقدمة إبراز المعاني ٢٢ ـ ٢٥، ولطائف الإشارات ٨٥ ـ ٩١.

(٦) النشر ١/ ٣٤، ومقدمة إبراز المعاني ٢٢.

(٧) من مصادر ابن الجزري في النشر ١/ ٧١.

وتتابع بعده أئمة القراءات في الأندلس يقدمهم أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ) صاحب التصانيف الجليلة في علوم القرآن عموماً والقراءات القرآنية خصوصاً، وهي كثيرة أبرزها التبصرة في القراءات السبع(١)، والكشف عن وجوه القراءات السبع(٢)، والإبانة عن معاني القراءات(٣).

على أن أرسخ الأندلسيين قدماً في هذا الباب وأعلاهم كعباً الإمام الحافظ أبو عمرو الداني (٤٤٤هـ) صاحب التيسير، و"إليه المنتهى في تحرير علم القراءات وعلم المصاحف"(٤). وقد بلغت تواليفه مئة وعشرين كتاباً جلّها في القراءات وعلوم القرآن، منها جامع البيان الذي لم يؤلف مثله في هذا الفن، إذ اشتمل على نيف وخمسمئة رواية وطريق عن الأئمة السبعة، وقيل إنه جمع فيه كل ما يعلمه في هذ العلم(٥). ومنها إيجاز البيان والمفردات، والمفصح، والموضح، والتعريف(٦)... وغيرها كثير.

واستمرت حركة التأليف في القراءات بعد الداني، إذ برز أعلام أندلسيون كثر أذكر منهم: أبا طاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري (٤٥٥هـ) صاحب العنوان في القراءات السبع(٧)، ومحمد بن شريح الرعيني (٤٧٦هـ) صاحب الكافي(٨)، وأبا جعفر بن الباذِش (٥٤٠هـ) صاحب الإقناع في القراءات السبع(٩).

---

(١) نشر مرتين في الهند والكويت.

(٢) نشره مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤م، بتحقيق د. محيي الدين رمضان.

(٣) نشر مرتين، الأولى في مصر ١٩٦٠م، بتحقيق د. عبد الفتاح شلبي، والثانية في دمشق ١٩٧٩م، بتحقيق محيي الدين رمضان.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٨٠.

(٥) النشر ١/ ٣٥، ٦١، ومقدمة إبراز المعاني ٢٣.

(٦) طبع في المغرب ١٩٨٢ بتحقيق د. التهامي الراجي الهاشمي، وفي مقدمة تحقيقه كلام مفصّل على مؤلفات الداني.

(٧) طبع في بيروت ١٩٨٦م (ط٢) بتحقيق د. زهير زاهد، و د. خليل عطية.

(٨) طبع بمصر عام ١٣٢٦هـ طبعة قديمة على هامش كتاب المكرر فيما تواتر من القراءات السبع.

(٩) نشره مركز البحوث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بمكة المكرمة ١٤٠٣هـ، بتحقيق د. عبد المجيد قطامش في جزأين.

ولا ريبَ أن أبعد مصنّفات الأندلسيين في القراءات أثراً وأعظمها شأناً إنما هو قصيدة حرز الأماني المشهورة بالشاطبية للإمام أبي القاسم بن فِيرُّه الشاطبي (٥٩٠هـ) التي نظم فيها كتاب التيسير في ألف ومئة وثلاثة وسبعين بيتاً، فغدا الفرع أشهر من الأصل، وتداولها الناس واستغنوا بها وبشروحها عن أمّات كتب القراءات[١] حتى باتت طريق هذا العلم لا يكاد يؤخذ إلا بحفظها، ولا زالت كذلك حتى يوم الناس هذا. ولأجل ذلك اعتنى العلماء بها وتناولوها بالشرح والتعليق والمحاكاة والاختصار والتكميل، فبلغ ما ألف حولها نحواً من خمسين كتاباً[٢] من أشهرها إبراز المعاني في حرز الأماني لأبي شامة المقدسي[٣] (٦٦٥هـ) وسراج القارئ لابن القاصح البغدادي[٤] (٨٠١هـ). وفتح الوصيد للسخاوي (٦٤٣هـ) وهو أول من شرحها، واشتهرت بسببه[٥].

ثم جاء المالقي، عبد الواحد بن محمد (٧٠٥هـ)، فتوّج مؤلفات الأندلسيين في القراءات بكتابه "الدر النثير" الذي شرح فيه تيسير الداني معتمداً بالموازنة والتبيان على كتابي التبصرة والكافي، ومعوّلاً على جلّ ما تقدمه من مصنفات القراءات في الأندلس بدءاً من كشف مكي وتذكرته وتمهيد الداني وجامعه ومفرداته ومفصحه وتفصيله... ومروراً بإقناع ابن الباذش.. وانتهاءً بقصيدة الشاطبي وبعض شروحها. فجاء كتابه يضم عصارة علم الأندلسيين في القراءات[٦].

---

(١) قال القسطلاني: "وكان أهل مصر كثيراً ما يحفظون العنوان، فلما ظهرت القصيدة تركوه". لطائف الإشارات ١/٨٩.

(٢) ذكر منها حاجي خليفة ما يقرب من أربعين كتاباً في كشف الظنون ١/٦٤٦ ـ ٦٤٩، وانظر في شروح الشاطبية أيضاً: النشر ١/٦١ ـ ٦٤، والقراءات القرآنية ٤٢ ـ ٤٤.

(٣) طبع في مصر ١٩٧٨ بتحقيق الأستاذ إبراهيم عطوة عوض.

(٤) طبع في مصر بمراجعة الشيخ علي محمد الصباغ، ثم صورت الطبعة بدار الفكر ببيروت ١٩٨١م.

(٥) لطائف الإشارات ١/٨٩، والقراءات القرآنية ٤٠٢، ومعرفة القراء ٢/٦٣١، وبغية الوعاة ٢/١٩٢.

(٦) كان هذا الكتاب ـ دراسة وتحقيقاً ـ موضوع رسالة نال بها الكاتب درجة الدكتوراه من جامعة دمشق، وقد نشرها مجمع اللغة العربية بدمشق في ثلاثة أجزاء عام ٢٠٠٦م.

ولم تتوقف حركة التأليف في المشرق خلال هذه الحقبة التي شهدت ازدهار فن القراءات في الأندلس، بل تابعت مسيرتها ـ لكن على تخوّف ـ وكان ممن اشتهر آنذاك أبو علي الحسن بن علي الأهوازي (٤٤٦هـ) مؤلف الوجيز والإيجاز والإيضاح والاتضاح[١] وأبو القاسم يوسف بن علي الهذلي (٤٦٥هـ) صاحب كتاب الكامل في القراءات الخمسين[٢] وأبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري (٤٧٨هـ) صاحب كتاب التلخيص في القراءات الثمان[٣]، وأبو القاسم عيسى بن عبد العزيز الإسكندري (٦٢٩هـ) صاحب كتاب الجامع الأكبر والبحر الأذخر[٤].

ويفضي بي حديث المشارقة إلى ذكر عَلَم مشرقي تأخر زمنه ولكنه أنسى من تقدمه حتى قيل فيه: إنه لم تسمح الأعصار بمثله[٥]، ذلك هو ابن الجزري خاتمة المحققين في هذا الفن، وحسبه أنه نظم قصيدةً ضاهت الشاطبية، وأربت عليها، وهي "طيبة النشر في القراءات العشر" التي غدت قرينة الشاطبية في جَمْع القراءات وتلقّيها، وأكمل التيسير بكتابه تحبير التيسير، وله دون ذلك كتب كثيرة في القراءات والتجويد يتصدَّرها: النشر في القراءات العشر، ومنها: تقريب النشر، ومنجد المقرئين وغيرها[٦].

---

(١) النشر ١/٣٥، ٨٠، ومقدمة إبراز المعاني ٢٣، وكشف الظنون ٢/٢٠٠٤، ولطائف الإشارات ٨٧.

(٢) النشر ١/٥٣، ٩١، ومقدمة إبراز المعاني ٢٣، وكشف الظنون ٢/١٣٨١، ومعجم الأدباء ٢٠/٦١ ـ ٦٢. هذا وقد جاء اسم الكتاب في إبراز المعاني: "الكامل في العشر والأربع الزائدة عليها" مما يوهم أنه في القراءات الأربع عشرة، على حين جاء في النشر: "الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها"، وهو الصواب، وكذا في لطائف الإشارات ٨٧.

(٣) انظر النشر ١/٣٥، ٧٧، ومقدمة إبراز المعاني ٢٣، وكشف الظنون ١/٤٧٩. وقد نشر الكتاب مؤخراً بتحقيق محمد حسن عقيل موسى ضمن نشريات الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

(٤) النشر ١/٣٥.

(٥) مقدمة إبراز المعاني ٢٥، ولطائف الإشارات ٩١.

(٦) انظر سائر مؤلفاته في الأعلام ٧/٤٥، وكل الكتب التي ذكرتُها لها نشراتٌ غير محققة، وانظر في مؤلفات ابن الجزري وتراجمه مقالاً ضافياً للدكتور محمد مطيع الحافظ بعنوان "شمس الدين ابن الجزري، مؤلفاته، ومن ترجم له" في مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد ٣ سنة ١٩٩٣، ص٨٠ ـ ١١٢.

وليس فيما وراء ذلك كبير أهمية، وإن لم يتوقف التأليف في هذا الفن حتى يوم الناس هذا[١]، ولعل من أبرز ما وصلنا كتاب "المكرّر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرّر"[٢] لأبي حفص عمر بن قاسم الأنصاري (٩٣٨هـ). وكتاب إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر[٣] لأحمد ابن عبد الغني الدمياطي البناء (١١١٧هـ) وكتاب غيث النفع في القراءات السبع[٤] لعلي النوري الصفاقسي (١١١٨هـ). ولا بد في هذا المقام من الإشارة إلى كتاب البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة للشيخ عبد الفتاح القاضي، وهو من أكثر كتب القراءة اعتماداً لدى القراء اليوم[٥].

---

(١) شهد العقدان الأخيران ظهور العشرات من كتب القراءات بيد أن أكثرها يدور في فلك كتب المتقدمين من ذلك كتب الدكتور محمد سالم محيسن: المستنير، والمهذب، والتذكرة.. وغيرها (انظر ثبتاً بها في آخر كتابه القراءات وأثرها في علوم العربية ٣٩٩/٢) ومما وضع بأَخَرة معجم القراءات القرآنية للدكتور أحمد مختار عمر والدكتور عبد العال سالم مكرم - جامعة الكويت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، وتحفة العصر في علم القراءات العشر للشيخ شكري لحفي، وإتحاف حرز الأماني برواية الأصبهاني لشيخ قراء دمشق الشيخ حسين خطاب رحمه الله، دمشق ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. والقراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة لخَلَفِهِ الشيخ كريّم راجح شيخ القراء - اليوم - والشيخ محمد فهد خاروف (دمشق ١٩٩٢م). والميسّر في القراءات الأربعة عشرة للشيخ محمد فهد خاروف، على أن أعظم معجم للقراءات القرآنية هو الذي صنعه الأخ الكبير الأستاذ الدكتور عبد اللطيف الخطيب بعنوان معجم القراءات في أحد عشر مجلداً (دمشق ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

(٢) طبع عام ١٣٢٦هـ بمطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر، وبهامشه كتاب الكافي لابن شريح.

(٣) له طبعة مصرية قديمة غير مؤرخة علق عليها الشيخ علي محمد الصباغ، وهي مصورة في دار الندوة الجديدة - بيروت.

(٤) له طبعة مصرية قديمة بعناية الشيخ علي محمد الصباغ على هامش كتاب سراج القارئ، وهي مصورة في دار الفكر ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٥) ألحقت بالمقال جدولين، يشتمل أولهما على أسماء القراء العشرة ورواتهم، ويشتمل ثانيهما على أشهر المصنفات التي وصلتنا في علم القراءات مشفوعة بأسماء أصحابها.

◆ منهج التأليف في القراءات

جرى المؤلفون في فن القراءات على منهج عام يكاد ينتظم كل ما ألف في هذا الباب، ويمكننا أن نتبيَّن فيه المواضيع التالية:

١ ـ مقدمة يعرض فيها المؤلف غالباً لدواعي تأليفه ومنهجه في مؤلفه من حيث الإسهاب أو الإيجاز، وعددُ القراء المختارين، وطريقتُهُ في عرض قراءاتهم[١].

٢ ـ باب ذكر الأسانيد التي أوصلت القراءة إلى المؤلف، وهو باب مهم وضروري في كتب القراءة؛ لأن أساس القراءة النقل، وهي سنة متبعة كما سلف، لذا حرص المؤلفون فيها على تصدير كتبهم بذكر أسانيدهم إلى كل قارئ من القراء الذين اختاروا قراءتهم، بل إلى كل راوٍ من رواة هؤلاء القراء، ثم يرفعون تلك الأسانيد إلى رسول الله ﷺ، وكثيراً ما تُستهل هذه الأسانيد بذكر أسماء القراء ورواتهم وشيء من تراجمهم[٢].

٣ ـ أبواب الأصول: وهي تتناول الأحكام العامة التي تبنى على قاعدة بطرد القياس عليها؛ لأنها تنتظم جملةً من حروف القراءات المختلف فيها، ومثالها الإدغام الكبير فهو يبنى على قاعدة التقاء الحرفين المتماثلين أو المتقاربين، وينضوي تحته اثنان وتسعون وثلاث مئة وألف موضع (١٣٩٢).

وفيما يلي جملة أبواب الأصول التي يتناولها أرباب هذا الفن:

١ ـ الاستعاذة.

٢ ـ التسمية[٣].

---

(١) تتفاوت مقدمات كتب القراءات طولاً وقصراً ومضموناً، ولعل خير مثال للمقدمة التي ذكرت مقدمة ابن غلبون لكتابه التذكرة في القراءات ١/٣٧ ـ ٤٣.

(٢) وقد يفرد لهذا باب على حدة كما فعل صاحب التبصرة في "ذكر أسماء القراء ومن يذكر من الرواة عنهم" التبصرة ٢٨ ـ ٣٢، وصاحب التيسير في "باب ذكر أسماء القراء والناقلين عنهم وأنسابهم وبلدانهم، وكناهم وموتهم" ٤ ـ ٧.

(٣) ليس هذان البابان (الاستعاذة والتسمية) من الأصول على وجه الحقيقة وإنما يلحقان بها حكماً، لأن جلّ =

٣ ـ الإدغام الكبير لأبي عمرو[1].

٤ ـ هاء الكناية.

٥ ـ المد والقصر.

٦ ـ اجتماع الهمزتين في كلمة.

٧ ـ اجتماع الهمزتين في كلمتين.

٨ ـ الهمزة المفردة.

٩ ـ نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها.

١٠ ـ مذهب أبي عمرو في ترك الهمزة.

١١ ـ مذهب حمزة وهشام في الوقف على الهمزة.

١٢ ـ الإظهار والإدغام للحروف السواكن.

١٣ ـ الفتح والإمالة وبين اللفظين.

١٤ ـ مذهب الكسائي في الوقف على هاء التأنيث.

١٥ ـ مذهب ورش في الراءات مجملاً.

١٦ ـ اللامات.

١٧ ـ الوقف على أواخر الكلم.

١٨ ـ الوقف على مرسوم الخط.

١٩ ـ مذهب حمزة في السكوت على الساكن قبل الهمزة.

المؤلفين يخلطون بين الأصول والفرش، فيذكرون الاستعاذة والتسمية إثر ذكر الإسناد، ثم يتبعونهما بذكر فرش سورة الفاتحة، فبداية البقرة، حيث تبدأ أبواب الأصول بباب الإدغام أو هاء الكناية إلى آخر الأبواب، ثم يستأنف الفرش. (انظر التيسير والتذكرة والكافي والتبصرة..) أما صاحب الإقناع فقد أحكم الفصل بين الأصول والفرش جاعلاً كلاً منهما قسماً على حدة، لكنه ألحق الاستعاذة والتسمية بالأصول كما فعل غيره. انظر الإقناع ١/٢٩ ـ ٣٠ و٢/٥٩٥ ـ ٥٩٧.

(١) للمؤلفين في ذكر هذا الباب طرق مختلفة عرض لها ابن الجزري في النشر ١/٢٧٥ ـ ٢٧٦.

٢٠ ـ مذاهبهم في الفتح والإسكان لياءات الإضافة.

٢١ ـ أصولهم في الياءات المحذوفات من الرسم[(١)].

٤ ـ فرش الحروف: والمراد به ما اختلف فيه القراء من حروف متفرقة لا تؤول إلى قاعدة تنتظمها، وهي لما كانت مذكورة في أماكنها من السور، صارت كالمفروشة في القرآن الكريم، وتُذكَرُ هذه الحروف عادةً منسوقةً حسب ترتيب السور من أول المصحف إلى آخره. ومن أمثلتها: قراءة عاصم والكسائي ﴿مالك﴾ بالألف وقراءة الباقين ﴿مَلِك﴾ بغير ألف في سورة الفاتحة [٤][(٢)]، وقراءة أبي بكر وحمزة والكسائي ﴿مَنْ يَصرِف عنه﴾ بفتح الياء وكسر الراء وقراءة الباقين بضم الياء وفتح الراء في سورة الأنعام [١٦][(٣)]، وقراءة عاصم وابن عامر وحمزة ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ بتشديد الميم وقراءة الباقين ﴿لَمَا﴾ بالتخفيف في سورة يس [٢٢][(٤)].

هذا ويلتزم مصنفو كتب القراءات بذكر ياءات كل سورة في آخرها، والمقصود بالياءات ما اختلف القراء فيه بين الحذف والإثبات والفتح والإسكان لحرف الياء في آخر الكلمة[(٥)].

٥ ـ خاتمة يذكر فيها التكبير في قراءة ابن كثير، وغالباً ما تسمى باباً أو فصلاً يأتي في نهاية الكتاب، ويتناول موضوع التكبير في رواية البزي عن ابن كثير فيحدد أحكامه.

---

(١) يختلف ترتيب هذه الأبواب من كتاب إلى آخر، وقد اخترت هنا ترتيب كتاب التيسير، ولعل أكثر المؤلفين عناية بترتيب هذه الأبواب وضم النظائر بعضها إلى بعض ابن الباذش في كتابه الإقناع فهو يذكر مثلاً أحكام الهمزات كلها تحت باب واحد هو باب الهمز، انظر الإقناع ١/٣٥٨ـ ٤٥٩.

(٢) التيسير ١٨.

(٣) التبصرة ١٩١.

(٤) المبسوط ٣٧٠.

(٥) انظر على سبيل المثال السبعة ٤٥٠، والمبسوط ٣٢٩، والتذكرة ٢/٤٨٨، والتبصرة ١٨٩، والتيسير ١٠٨، والإقناع ٢/٦٥٦.

هذا هو المنهج العام لكتب القراءات[١]، وهو قد يضطرب أحياناً فتتبعثر المسائل بين الأصول والفرش مما يُعنِت الباحثين. ويلاحظ المتتبع لكتب القراءات أن أبواب الأصول بمجموعها أصغر من فرش الحروف، على أن الأمر انعكس في كتابين أولهما الإقناع لابن الباذش وثانيهما الدر النثير للمالقي، فقد تضخمت أبواب الأصول في كليهما وتضاءل فرش الحروف؛ أما الكتاب الأول فلأن مؤلفه عُني بأبواب الأصول وأفاض فيها ثم أخلى الفرش من أيّ مسألة تعود إلى مسائل الأصول، بالإضافة إلى أنه اكتفى في الفرش بذكر القراءة لبعض السبعة ليفهم من ذلك أن خلافَها هي قراءة الباقين[٢]، يقول ابن الباذش: "وأنا الآن آخذ في الأصول على ما شرطته، ثم أتبعها الفرش مختصراً، لأنه من فهم أصول كتابي فهو لفرشه أفهم"[٣]. وأما الكتاب الثاني ـ وهو الدر النثير ـ فقد فصلت الكلام عليه في دراسة مفردة.

ثانياً: علم الأصوات والقراءات

"بين علوم القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية ترابط محكم، فمهما تتقنْ من علوم العربية وأنت خاوي الوفاض من علوم القرآن فعلمك بها ناقص واهي الأساس، وقدمك فيها غير ثابتة، وتصورك للغة غامض يعرضك لمزالق تشرف منها على السقوط كل لحظة، وسبب ذلك واضح لكل من ألمَّ بتاريخ العربية، فهو يعلم حق العلم أنها جميعاً نشأت حول القرآن وخدمة له"[٤].

وعلم القراءات القرآنية واحد من أبرز علوم القرآن؛ لأجل هذا ما كان له بعلوم العربية

---

(١) المراد كتب القراءات العامة التي تعنى برواية عدد من القراءات، أما تلك التي تختص برواية قراءة واحدة مفردة ككتاب التعريف في اختلاف الرواة عن نافع للداني، أو تلك التي تعنى ببيان حجج القراءات وعللها فأمرها مختلف.

(٢) مقدمة التحقيق للإقناع ١/ ٣٠.

(٣) الإقناع ١/ ١٤٨.

(٤) من مقدمة الأستاذ سعيد الأفغاني لحجة القراءات ١٩.

أوثق العلاقة وأعمق الأثر، وهي علاقة لا تقتصر على واحد من علوم العربية وإنما تتسع لتشمل أكثر هذه العلوم من نحو وصرف ولغة وبلاغة وصوت...

ويضيق المجال هنا عن بسط الكلام على علاقة القراءات بكلٍّ من هذه العلوم على حدة، لذا أكتفي بالإيماء إلى ثلاث نقاط أحسبها قمينةً بجلائها على نحو عام:

١ ـ من شروط القراءة الصحيحة موافقة العربية ولو بوجه منها مجمعٍ عليه أو مختلفٍ فيه اختلافاً لا يضرّ مثله[١]. ومن هنا نشأ التأليف في حجج القراءات وعللها لغة ونحواً وصرفاً ومعنًى، فكان للعربية وعلومها من ذلك خير وفير[٢].

٢ ـ إن كتب اللغة والنحو والصرف سجلٌّ حافلٌ بالاستشهاد بالقراءات ولها، وهي لا تقتصر على القراءات الصحيحة المشهورة وإنما تتعدّاها إلى القراءات الشاذّة، فهذا سيبويه إمام النحاة يكثر من الاستشهاد بها ويخصها بهالة من التقديس يرى معها عدم جواز مخالفتها: "إلا أن القراءة لاتخالَف؛ لأن القراءة السنة"[٣]. والمعجمات العربية على اختلاف أنواعها تمور بذكرها. وابن يعيش يكثر من الاستشهاد بها ويتصدّى للنحاة الذين طعنوا في بعض القراءات: "وإذا صحت الرواية لم يكن سبيل إلى ردها"[٤]. والسيوطي يعدها على رأس ما يحتج به من مصادر السماع: "أما القرآن فكلُّ ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواتراً أم آحاداً أم شاذًّا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً، بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه وإن لم يجز القياس عليه"[٥].

---

(١) تقدمت الإشارة إلى شروط القراءة الصحيحة أو أركانها.

(٢) تقدم الكلام على بعض من صنف في الاحتجاج للقراءات، انظر في ذلك مقدمة الأستاذ الأفغاني لحجة القراءات ١٨ ـ ٢٤.

(٣) الكتاب ١٤٨/١ (٧٤/١). وانظر أثر القرآن والقراءات في النحو العربي ٣٣٠.

(٤) شرح المفصل ٧٨/٢.

(٥) الاقتراح ٤٨. وانظر في حجّية القراءات والردّ على منكريها: في أصول النحو ٢٨ ـ ٤٥.

٣ ـ إن كبار أئمة القراءة هم من أئمة العربية الفحول كأبي عمرو بن العلاء ويعقوب الحضرمي والكسائي، وسائرهم كذلك على مَكِنَةٍ من العربية وعلومها، فابن كثير "أعلم بالعربية من مجاهد"[١] وعاصم "جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد"[٢] وكان حمزة "عارفاً بالفرائض والعربية"[٣]... والعلم بالعربية أصل من الأصول التي بنى عليها ابن مجاهد اختياره للقراء: "لا يقوم بالتمام إلا نحوي عالم بالقراءات عالم بالتفسير عالم بالقصص وتخليص بعضها من بعض، عالم باللغة التي نزل بها القرآن"[٤].

وهو يجعل المعرب العالم بوجوه الإعراب على رأس من يُركَن إليه من القراء: "فمن حملة القرآن المعرب العالم بوجوه الإعراب والقراءات، العارف باللغات ومعاني الكلمات، البصير بعيب القراءات المنتقد للآثار، فذلك الإمام الذي يفزع إليه حفّاظ القرآن في كل مصر من أمصار المسلمين"[٥].

وإذا كان أثر القراءات في الدراسات النحوية والصرفية كذلك[٦] فإن أثرها في الدراسات اللغوية عامة واللهجية الصوتية خاصة أكثرُ غنًى وأعمق غوراً؛ ذلك لأن القراءات ما هي في حقيقة أمرها إلا وجوه أداء وتنوعٍ في الصوت تؤول إلى ما كانت عليه لهجات العرب قديماً،

---

(١) غاية النهاية ١/٤٤٣.

(٢) غاية النهاية ١/٣٤٦.

(٣) النشر ١/١٦٦.

(٤) يعزو الأستاذ سعيد الأفغاني هذا النص إلى ابن مجاهد نقلاً عن الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢٥، ولم أجده في السبعة على كثرة البحث، انظر مقدمة حجة القراءات ٢٠.

(٥) السبعة ٤٥.

(٦) ثمة دراسات حديثة متعددة أفردت لأثر القراءات في النحو، أذكر منها: أثر القراءات في الدراسات النحوية للدكتور عبد العال سالم مكرم ١٩٧٩م، وأثر القرآن والقراءات في النحو العربي للدكتور سمير اللبدي ١٩٧٨م، وأثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي للدكتور عفيف دمشقية ١٩٧٨م. ومما ينحو هذا النحو أيضاً: القراءات وأثرها في علوم العربية للدكتور محمد سالم محيسن ١٩٨٤، وأثر القراءات في الأصوات والنحو العربي للدكتور عبد الصبور شاهين ١٩٨٧م.

ومن هنا عُدَّت سجلاً صادقاً لما كان يجري في كلام العرب من تصرفات صوتية ولغوية ؛ إذ هي تعكس صورة حقيقية للنطق العربي الفصيح بمختلف صوره وهيئاته، وذلك باشتمالها على الكثير من لهجات العرب التي كانت سائدة آنَ نزولِ القرآن، لأجلِ هذا ما عدَّها الباحثون مصدراً ثرًّا من أعظم مصادر الدراسات اللهجية وأصدقها، وهي تتبوأ هذا المقام لأن منهجها وطريقها يختلف عن كل الطرق التي نقلت بها المصادر الأخرى كالشعر والنثر... بل يختلف عن طرق نقل الحديث - وهي ما هي علواً وتوثيقاً - إذ لم يكتف أصحاب القراءات بالسماع من لفظ الشيخ فحسب في التحمّل وإن اكتفوا به في الحديث، لأن المقصود هنا كيفية الأداء، وليس كل من سمع من لفظ الشيخ يقدر على الأداء فلا بد من قراءة الطالب على الشيخ[١]، وهذان الطريقان: التلقّي والعرض هما أصحُّ الطرق في النقل اللغوي[٢].

أما اللهجات واللغات التي وسعتها القراءات القرآنية فكثيرة أفردها بالتصنيف جماعة من القدماء، ذكر ابنُ النديم منهم: الفراءَ، وأبا زيد، والأصمعي، والهيثم بن عدي، ومحمد بن يحيى القطيعي، وابن دريد. وينسب إلى كلّ منهم كتاباً في لغات القرآن[٣].

ولم ينتهِ إلينا من كتب لغات القرآن سوى كتاب واحد هو كتاب اللغات الذي رواه ابن حسنون المقرئ (٣٨٦هـ) بإسناده إلى ابن عباس وحققه د. صلاح الدين المنجد، وقد أحصى محققه عدد الألفاظ التي وردت فيه لكل قبيلة فكان نصيب قريش ١٠٤، وهذيل ٤٥، وكنانة ٣٦، وحِمْيَر ٢٣، وجُرْهُم ٢١، وتميم وقيس عَيْلان ١٣، وقبائل أخرى بلغت اثنتين وعشرين قبيلة تردَّدت ألفاظها بين لفظة واحدة وستة ألفاظ[٤].

---

(١) إتحاف فضلاء البشر ٥.

(٢) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ٨٤.

(٣) الفهرست ٣٨، ٦٠، ٦١، ٦٧، ٧٣.

(٤) مقدمة اللغات في القرآن ٧، وقد صدرت الطبعة الثانية منه عن دار الكتاب الجديد ببيروت ١٩٧٢م.

وقد بلغ ما أحصى العلماء من لغات القرآن خمسين لغة، يقول السيوطي: "وقال أبو بكر الواسطي في كتابه الإرشاد في القراءات العشر: في القرآن من اللغات خمسون لغة: لغة قُريش، وهُذيل، وكِنانة، وخَثْعَم، والخَزْرَج، وأَشْعَر، ونُمَير، وقَيْس عَيلان، وجُرْهُم، واليَمَن، وأَزد شَنُوءَة، وتَميم، وكِندَة، وحِمْيَر، ومَدْيَن، ولَخْم، وسَعْد العَشِيرَة، وحَضْرَمَوْت، وسَدُوس، والعَمالِقَة، وأَنْمار، وغَسَّان، ومَذْحِج، وخُزَاعَة، وغَطَفَان، وسَبَأ، وعُمَان، وبنو حَنيفة، وتَغْلِب، وطَيِّئ، وعامِر بن صَعْصَعَة، وأَوْس، ومُزَيْنَة، وثَقِيف، وجُذَام، وبَلِيّ، وعُذْرَة، وهَوَازِن، والنَّمِر، واليَمَامة..."[١]. ثم ذكر ما فيه من اللغات الأعجمية.

ولا سبيل إلى تحقيق ذلك لدروس هذه اللغات وتداخلها وتقطّع أسباب المقارنة بينها وبين لغة قريش التي مضى أكثر العرب على استعمالها بعد القرآن وأطبقوا عليها[٢]، بيد أن المتتبع لكتب القراءات وعللها وحججها يقع على عشرات المواضع التي تذكر فيها لغات القبائل المختلفة، فمما ذكر الفارسي مثلاً: "قريش، والحجاز، وتميم، وبكر بن وائل، وطَيِّئ، وقيس، وبنو سُلَيْم، وهُذَيل، وبنو أسد، وبنو ضَبَّة، وغطفان، والطائف، وفهد"[٣] ومثله كثير مبثوث في كتب القراءات واللغة والنحو[٤]، حسبي منه أن أبيّن نسبة أشهر وجوه الأداء القرآني إلى لهجاتها العربية والقبائل التي نطقت بها لتكون شاهداً على ما وراءها.

---

(١) الإتقان ١/١٣٥. هذا وينسب إلى أبي عبيد القاسم بن سلام كتاب اسمه لغات القبائل الواردة في القرآن طبع بهامش تفسير الجلالين ولم أقف عليه (عن مراجع اللهجات في الكتاب لسيبويه أصواتاً وبنية).

(٢) تاريخ آداب العرب.

(٣) نقلاً عن اللهجات العربية في القراءات القرآنية ٩٠.

(٤) ممن تتبع طرفاً منه الدكتور داود عبده في كتابه اللهجات العربية في القراءات القرآنية ٩٠ وما بعدها، والدكتور عبد العال سالم مكرم في كتابه قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية ٣٩ ـ ٤٣ حيث أورد أمثلة لقراءات مختلفة وافقت لغات هذيل وتميم وقيس وأسد وبني الحارث وخثعم وزبيد وهمدان وبعض بني العنبر وعذرة ومراد...

ثالثاً: أشهر اللهجات العربية في القراءات القرآنية

إن أهم ما يفرق بين اللهجات هو الاختلاف الصوتي في طبيعة الأصوات وكيفية صدورها، وهو بعينه الفارق الأساسي بين قراءات القرآن الكريم. وفيما يلي عرض لأشهر وجوه أدائها وهي: الإدغام والهمز والإمالة مع نسبة كل منها إلى أصله اللهجي وفق ما جاء عند المتقدمين والمتأخرين من أهل هذا العلم.

١ ـ الإدغام:

الإدغام إدخال الحرف في الحرف حتى يصيرا حرفاً واحداً مشدَّداً يلزم اللسان فيه موضعاً واحداً[١]، ويكون إما في حرفين متماثلين كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم﴾ [الحجرات: ١٢] وإما في حرفين متقاربين كقوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ﴾ [البقرة: ٢٥٦] على أن يبدل الأول حرفاً من جنس الثاني ثم يدغم في الثاني[٢]. والإدغام نوعان: صغير وهو ما كان فيه الحرف الأول ساكناً كالأمثلة السابقة. وكبير وهو ما كان حرفه الأول متحركاً كقوله تعالى: ﴿الرَّحِيم مَّلِكِ﴾ [الفاتحة: ٣ ـ ٤] على أن يسكن الأول ثم يدغم في الثاني[٣].

والإدغام ظاهرة لهجية قديمة أُثِرَتْ فيها كلمة أبي عمرو بن العلاء: "الإدغام كلام العرب الذي يجري على ألسنتها ولا يحسنون غيره"[٤]. وذكر ابن فارس أن الإدغام "مما اختصت به العرب"[٥].

بيد أن جلَّ أهل اللغة والنحو ـ وفي مقدمتهم سيبويه ـ يخصون بني تميم بهذه الظاهرة،

---

(١) الدر النثير ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) الدر النثير ٥٣ ـ ٥٤.

(٣) الدر النثير ٨٢.

(٤) النشر ١/١٧٥، وأثر القراءات في الأصوات ٧٢.

(٥) الصاحبي ١٥ نقلاً عن أثر القراءات في الأصوات، ٧٢.

ويخصون أهل الحجاز بالإظهار والبيان[١]، يؤيد ذلك ما جاء من شواهد على ألسنة شعراء تميم، كقول عدي بن زيد العبادي التميمي:

وتــذكر رَّبُّ الخوزنــقِ إذ أشــ ـــرفَ يومـاً وللهـدى تفكـيرُ[٢]

وقول طريف بن تميم العنبري (وهو من فرسان بني تميم):

تقـول إذا اسـتهلكتُ مـالاً للـذّةٍ فكيهـةُ: هشّـيءٌ بكفيـكَ لائـقُ[٣]

يريد هل شيءٌ فأدغم اللام في الشين.

ويؤيد ذلك أيضاً ما ورد من كلمات مدغمة منسوبة إليها، كقولهم: (عَبَشْمسْ) بفتح الباء في عبد شمس[٤]، و(الودّ) الوتد بلغة تميم[٥].

وتجمع دراسات اللسانيين المحدثين في اللهجات وما إليها على أن الإدغام لغة تميم وما جاورها من قبائل وسط الجزيرة العربية وشرقها (كأسد وطيّئ وبكر بن وائل وعبد القيس وتغلب) ومعظمها بيئات بدوية تنزع نحو التخفف والسرعة في نطق الكلمات ومزجها بعضها ببعض دون إعطاء الحرف حقه الصوتي من التجويد أو التحقيق في النطق به، في حين تنحو لهجات الحجاز وما جاورها من قبائل (قريش والأنصار وثقيف وهوازن وسعد وكنانة) نحو الإظهار والتأني في الأداء وتجويد النطق بتحقيق كل حرف فيه[٦].

---

(١) الكتاب ٣/٥٣٠، ٤/١٠٧، ٤١٨، ٤٣٧، ٤٧٣، والحجة للفارسي ٣/٣٤٣، والكشف لمكي ١/٤١٣، ٢/١٩٦، والخصائص ٢/١٤٠، والمزهر ١/١٩٤.

(٢) النشر ١/١٧٥، وأثر القراءات في الأصوات ٧٢.

(٣) الكتاب ٤/٤٥٨ (٢/٤١٧) وشرح المفصل ١٠/١٤١، واللسان (ليق) وأثر القراءات في الأصوات ٧٣.

(٤) أثر القراءات في الأصوات ٧٥.

(٥) اللسان (وتد) وأثر القراءات في الأصوات ٧٥ وقد جمع فيه مؤلفه جملة صالحة من شواهد الإدغام وأمثلته في لغة تميم. انظر ٧٢ ـ ٧٧.

(٦) في اللهجات العربية ٦٠ ـ ٦٥، واللهجات العربية في القراءات ١٣٣، وأثر القراءات في النحو والأصوات ٧٢، ودراسات في فقه اللغة ٨١، وتاريخ الأدب العربي ٢/٦٥، واللهجات في الكتاب ١٩٠ ـ ٢٢٣.

٢ ـ الهمز:

الهمز لغة الضغط[١]، يطلق اصطلاحاً على حرف من حروف الهجاء العربية له أحكام خاصة تتناول تحقيقه وتخفيفه أو نبره وتسهيله، فتحقيقه هو الإتيان به على صورته كامل الصفة من مخرجه[٢]. وتسهيله صرفه عن هذه الصورة إلى إحدى صور ثلاث: أولها جعل الهمزة بين بين، أي: بين الهمزة وحرف المد الذي منه حركتها كقول كُثَيِّر:

أانْ زُمَّ أجمـالٌ وفـارقَ جِـيرةٌ ... وصاح غرابُ البينِ أنتَ حزينُ[٣]

وثانيها حذفها رأساً كيسَلْ، وثالثها إبدالها واواً إن انضم ما قبلها كـ: يُوَيِّد، وياءً إن انكسر كـ: إيتِ، وألفاً إن افتح كـ: ياتي[٤].

إن نبر الهمز (أو تحقيقه) وتسهيله (أو تخفيفه) ظاهرتان لهجيتان قديمتان تواردت الآثار فيهما، من ذلك أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا نبيء الله، فقال: لا تنبر باسمي ولا تهمز، وفي رواية: فقال: إنا معشر قريش لا ننبر. والنبر: همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز في كلامها[٥].

وينسب الرواة وأرباب اللغة تحقيق الهمز إلى بني تميم على حين ينسبون التخفيف أو التسهيل إلى أرض الحجاز، قال سيبويه: "... ذلك قولك: سل في لغة أهل الحجاز إذا لم تحقق كما يحقق بنو تميم..."[٦]. وقال ابن يعيش: "الهمزة حرف شديد مستثقل من أقصى الحلق إذ كان أدخل الحروف في الحلق فاستثقل النطق به إذ كان إخراجه كالتهوّع، فلذلك من الاستثقال ساغ فيها التخفيف، وهو لغة قريش وأكثر أهل الحجاز، وهو نوع استحسان لثقل الهمزة، والتحقيق لغة تميم وقيس،

---

(١) اللسان (همز).

(٢) القواعد والإشارات ٤٩.

(٣) سر الصناعة ٥٤.

(٤) القواعد والإشارات ٤٦ ـ ٤٧، وفي الدر النثير (ورقة ٤٩/ب) فضل بيان وتفصيل حول مصطلح التسهيل.

(٥) اللسان (نبر) و(نبأ) والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك، ولكن الذهبي ضعفه بقوله: ....

(٦) الكتاب ٥٤٢/٣ (١٣/٢). ويراجع فيه أيضاً ٥٤٨/٣، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١.

قالوا لأن الهمزة حرف فوجب الإتيان به كغيره من الحروف"[١]. وجاء في اللسان: "قال أبو زيد: أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون. وقف عليها عيسى ابن عمر فقال: ما أخذ من قول تميم إلا بالنبر، وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا"[٢].

وتجمع دراسات اللسانيين المحدثين على أن الهمز خاصةٌ من الخصائص البدوية التي اشتهرت بها تميم وما جاورها من قبائل وسط الجزيرة وشرقها كغَنِي وعكل وأسد وعُقَيل وقيس وبني سلامة من أسد[٣]، ويعلل بعضهم ذلك بأن تحقيق الهمز يخفف من عيب السرعة في النطق التي اتسمت بها هذه القبائل البدوية[٤]. أما عدم الهمز فهو خاصة حضرية امتازت بها لهجة القبائل في شمال الجزيرة وغربها كأهل الحجاز وهُذيل وأهل مكة والمدينة وكِنانة وثقيف وهَوازن[٣]، وتعليل ذلك أن ما اتَّسم به نطق هؤلاء من التأنّي والاتئاد لم يكن بحاجة إلى المزيد من مظاهر الأناة فعمدوا إلى إهمال الهمز وتسهيله[٥].

٣ ـ الإمالة:

الإمالة أن تنحو بالألف نحو الياء، وبالفتحة نحو الكسرة، وهي لا تكون إلا فيهما[٦]. وضدها الفتح وهو الأصل في صوتَي الألف والفتحة. وحقيقة الإمالة تحويل هذين الصائتين إلى ما يطابق الصائت (é) بالفرنسية[٧] مع مراعاة طول الصائت (الألف والفتحة).

---

(١) شرح المفصل ١٠٧/٩. وانظر أيضاً همع الهوامع ٢٣٣/٢.

(٢) من مقدمة اللسان ٢٢/١ وقد أفرد ابن منظور فيه كلاماً مفصلاً على الهمزة ١٧ـ٢٢.

(٣) في اللهجات العربية ٦٥ ـ ٧٠، واللهجات العربية في القراءات القرآنية ١٠٥، واللهجات العربية في التراث ٢٥٩، وتاريخ آداب العرب ١١٤/١، والقراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ٣٠.

(٤) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ٣٠. وانظر أيضاً في تعليل الهمز والتسهيل: "اللهجات في كتاب سيبويه" ٢٤٠.

(٥) انظر الحاشية ( ) من الصفحة السابقة.

(٦) الدر النثير ورقة ٧٨/أ.

(٧) قال الدكتور عبد الفتاح شلبي: "ويمكن أن يكون الرمز الدولي (é) للإمالة الشديدة والرمز (E) للإمالة الخفيفة". الإمالة في القراءات واللهجات العربية ٤٤.

وهي ضربان: كبرى أو محضة وهي المرادة عند الإطلاق، وصغرى أو بين بين، أي بين لفظ الفتح الخالص والإمالة المحضة وهي التي يُعبِّر عنها بالتقليل[(١)].

والإمالة ظاهرة لهجية صوتية قديمة من لهجات العرب المستحسنة، ينسبها أهل اللغة والقراءة إلى بني تميم في حين ينسبون الفتح إلى أهل الحجاز، قال سيبويه في باب ما تمال به الألفات: "وجميع هذا لا يميله أهل الحجاز"[(٢)]. وقال الرضي: وليست الإمالة لغة جميع العرب، وأهل الحجاز لا يميلون، وأشدهم حرصاً عليها بنو تميم"[(٣)]. وقال الداني: "الفتح والإمالة لغتان مشهورتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فالفتح لغة أهل الحجاز، والإمالة لغة عامّة أهل نجد وتميم وأسد وقيس"[(٤)].

ويمثل هذا ـ أو قريب منه ـ قال أبو شامة[(٥)]، والمالقي[(٦)] وابن الجزري[(٧)]، والسيوطي[(٨)]، وغيرهم.

أما الباحثون في اللهجات من المحدثين فجمهرتهم على أن الإمالة لهجة بدوية انتشرت بين قبائل أهل نجد ومن جاورهم كبني تميم وأسد وقيس وطيئ وبكر بن وائل وعبد القيس وتغلب، وأن الفتح لهجة حضرية انتشرت بين قبائل أهل الحجاز ومن جاورهم كقريش والأنصار وثقيف وهوازن وسعد وكنانة[(٩)]، بيد أن الدكتور عبد الفتاح شلبي خالف عن ذلك

---

(١) القواعد والإشارات ٥٠، والدر النثير ورقة ٧٩/أ.

(٢) الكتاب ٤/١١٨ (٢/٢٥٩).

(٣) شرح الشافية ٢/٤.

(٤) الإتقان ١/٩١.

(٥) إبراز المعاني ٢٠٤.

(٦) الدر النثير ورقة ٧٨/أ.

(٧) النشر ٢/٣٠.

(٨) همع الهوامع ٢/٢٠٠، ٢٠٤.

(٩) في اللهجات العربية ٥٠ و٥٩، واللهجات العربية في القراءات القرآنية ١٣٩ ـ ١٤٠، وتاريخ آداب العرب ١/١١٥ ـ ١١٧.

بعض الشيء إذ نسب الإمالة إلى بعض الحجازيين معتمداً دلائل وبينات من كلام المتقدمين أنفسهم[١] ، بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك إذ انتهى إلى "أن الإمالة لم تكن مقصورة على تلك القبائل التي أشار إليها الأقدمون في كتبهم ، وإنما كانت ظاهرة أكثر شيوعاً مما ذكروه ، فقد كانت تنتظم معظم القبائل العربية وإن تفاوتت قلةً وكثرةً ، فهي إذن صفة كثيرة الشيوع جدًّا عن العرب في نطقهم"[٢].

إن العلاقة بين القراءات القرآنية والأصوات لا تقتصر على كون القراءات مورداً أساسياً من موارد الدراسات اللهجية الصوتية ، وإنما تتعدى ذلك إلى الدخول في صميم علم الأصوات بنوعيه العام والوظيفي ، ففي النوع الأول قدمت كتب القراءة والتجويد المادة الدراسية لوصف النظام الصوتي العربي وتحليله من حيث مخارج الحروف وصفاتها ، وسأعرض لذلك بالتفصيل متخذاً من كتاب الدر النثير مادة للدراسة.

وفي النوع الثاني كان لوجوه الأداء القرآني المختلفة (لا سيما الأصول كالإدغام والهمز والإمالة...) أكبر الأثر في دراسة الوحدات الصوتية في العربية phonémes وما يعتورها من تغيير وما يمكن أن يطبق عليها من قوانين صوتية كقانون الجهد الأقل[٣] moindre effort Le وقانون القوة[٤] Energie وقانون المماثلة[٥] Assimilation وغيرها من القوانين التي بحث فيها علم الأصوات الوظيفي.

(١) الإمالة في القراءات واللهجات العربية ٧٩ ـ ٩٤.

(٢) الإمالة في القراءات واللهجات العربية ٩٥ ، وانظر في الإمالة وعللها أيضاً الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ٢٠٢ ـ ٢٠٥.

(٣) الأصوات اللغوية ١٨٤ ، ومقدمة إدغام القراء صفحة (ف) وأثر القراءات في الأصوات ٢١١.

(٤) أثر القراءات في الأصوات ٢٢٣ ـ ٢٣٥. وانظر معجم اللسانية ٧٠.

(٥) أثر القراءات في الأصوات ٢٣١ ـ ٢٣٩. وانظر معجم اللسانية ٢٢ ، والمعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات ٩٤.

وليست العلاقة بين القراءات وعلم الصوت علاقة تأثير فحسب، وإنما هي علاقة متبادلة قوامها التأثير والتأثر، فكما أن القراءات القرآنية أثّرت في علم الأصوات وأغنته، فإنها تأثّرت به، لكن هذا التأثّر لم يكن من قبيل الأخذ عنه لأنها سنة متبعة كما سلف القول، وإنما هو من قبيل الاحتجاج لها بالأصوات، وتعليل الكثير من وجوهها بالعلل والقوانين الصوتية، كما احتج لها بالنحو والصرف وعللت وجوهها بعلل النحو والصرف وقواعدهما.

وتمور كتب الاحتجاج للقراءات بمثل هذه التعليلات الصوتية. من ذلك قول الفارسي في تعليل قراءات ﴿صراط﴾ [الفاتحة: ٧]: "ويقول من يقرأ بالصاد إنها أخف على اللسان، لأن الصاد حرف مطبق كالطاء، فتتقاربان وتحسنان في السمع، والسين حرف مهموس فهو أبعد من الطاء... ويقول من قرأ بالزاي أبدلْتُ منها حرفاً مجهوراً حتى يشبه الطاء في الجهر، ورُمْت الخفّة، ويحتج بقول العرب: صقْر وسقْر وزقْر"[1].

ومن ذلك ما ورد في الكتاب المنسوب إلى ابن خالويه في تعليل إدغام ﴿فِيه هُدًى﴾ [البقرة: ٢]: "فالحجةُ لمن أدغم مماثلةُ الحرفين؛ لأن الإدغام على وجهين: مماثلة الحرفين، ومقاربتهما. فالمماثلة كونهما من جنس واحد، والمقاربة أن يتقاربا في المخرج كقرب القاف من الكاف، والميم من الباء، واللام من النون، وإنما وجب الإدغام في ذلك لأن النطق بالمتماثلين والمتقاربين ثقيل، فخففوه بالإدغام إذ لم يمكن حذف أحد الحرفين"[2].

ومن ذلك أيضاً قول مكي في تعليل كره التكرير في الهمزة: "... فالجواب أن الهمزة على انفرادها حرف بعيد المخرج جَلْدٌ صعبٌ على اللافظ به بخلاف سائر الحروف، مع ما فيها من الجهر والقوة، ولذلك استعملت العرب في الهمزة المفردة ما لم تستعمله في غيرها من الحروف، فقد استعملوا فيها التحقيق، والتخفيف، وإلقاء حركتها على ما قبلها، وإبدالها بغيرها من الحروف، وحذفَها في مواضعها، وذلك كله لاستثقالهم لها، ولم يستعملوا ذلك في شيء من

---

(١) الحجة للقراء السبعة ١/٤٩ ـ ٥٠.

(٢) الحجة في القراءات السبع ٦٣.

الحروف غيرها، فإذا انضاف إلى ذلك تكريرها كان أثقل كثيراً عليهم، فاستعملوا في تكرير الهمزة من كلمتين التخفيف للأولى، والتخفيف للثانية، والحذف للثانية، والحذف للأولى، وبعضهم يحققهما جميعاً، إذ الأولى كالمنفصلة من الثانية؛ إذ هي من كلمة أخرى"[١].

ومثل هذا كثير لا يكاد يخلو منه كتاب من كتب القراءات القرآنية بله كتب الاحتجاج لها والكشف عن عللها، وقد وقفت في دراستي لكتاب الدر النثير للمالقي على مواضع بلغ فيها صاحبها الغاية في تعليل القراءات بعلل صوتية، وتتبع ما وراء هذه العلل من أحكام صوتية. أرجو أن يتسنّى لي عرضها في مقال لاحق.

وفيما يلي جدولا: القراء العشرة ورواتهم، وأشهر المصنفات في علم القراءات:

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٧٢.

القراء العشرة ورواتهم

	القارئ	الراويان
١	عبد الله بن عامر الشامي (١١٨هـ)	ابن ذكوان عبد الله بن أحمد
		هشام بن عامر
٢	عبد الله بن كثير المكي (١٢٠هـ)	قنبل محمد بن عبد الرحمن
		البزي أحمد بن محمد
٣	عاصم بن أبي النجود الكوفي (١٢٨هـ)	أبو بكر شعبة بن عياش
		حفص بن سليمان البزار
٤	أبو عمرو بن العلاء البصري (١٥٤هـ)	الدوري حفص بن عمر
		السوسي صالح بن زياد
٥	حمزة بن حبيب الزيات الكوفي (١٥٦هـ)	خلف بن هشام البزار
		خلاد بن خالد الصيرفي
٦	نافع بن عبد الرحمن المدني (١٦٩هـ)	قالون عيسى بن مينا
		ورش عثمان بن سعيد
٧	علي بن حمزة الكسائي الكوفي (١٨٩هـ)	الدوري حفص بن عمر
		الليث بن خالد البغدادي
٨	أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني (١٣٠هـ)	ابن وردان أبو الحارث عيسى
		ابن جماز سليمان بن مسلم
٩	يعقوب الحضرمي البصري (٢٠٥هـ)	رويس محمد بن المتوكل
		روح بن عبد المؤمن
١٠	خلف البزار الكوفي (٢٢٩هـ)	إسحاق بن إبراهيم بن عثمان
		إدريس بن عبد الكريم

أشهر المصنفات في علم القراءات

اسم الكتاب	المؤلف	وفاته
السبعة في القراءات	ابن مجاهد	٣٢٤هـ
إعراب القراءات السبع وعللها	ابن خالويه	٣٧٠هـ
الحجة للقراء السبعة	أبو علي الفارسي	٣٧٧هـ
المبسوط في القراءات العشر	ابن مهران الأصبهاني	٣٨١هـ
التذكرة في القراءات	ابن غلبون	٣٨١هـ
حجة القراءات	ابن زنجلة	=٤٠٠هـ
التبصرة في القراءات	مكي بن طالب	٤٣٧هـ
التيسير في القراءات السبع	أبو عمرو الداني	٤٤٤هـ
العنوان في القراءات السبع	إسماعيل بن خلف الأنصاري	٤٥٥هـ
الكافي في القراءات	ابن شريح الرعيني	٤٧٦هـ
التلخيص في القراءات الثمان	عبد الكريم الطبري	٤٧٨هـ
الإقناع في القراءات السبع	أبو جعفر بن الباذش	٥٣٨هـ
حرز الأماني (الشاطبية)	أبو القاسم بن فيرّه الشاطبي	٥٩٠هـ
فتح الوصيد في شرح القصيد	السخاوي	٦٤٣هـ
إبراز المعاني في حرز الأماني	أبو شامة المقدسي	٦٦٥هـ
الدر النثير في شرح التيسير	عبد الواحد بن محمد المالقي	٧٠٥هـ
سراج القارئ (في شرح الشاطبية)	ابن القاصح البغدادي	٨٠١هـ
النشر في القراءات العشر	ابن الجزري	٨٣٣هـ
لطائف الإشارات لفنون القراءات	شهاب الدين القسطلاني	٩٢٣هـ
المكرر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرر	عمر بن قاسم الأنصاري	٩٣٨هـ
إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر	أحمد بن عبد الغني الدمياطي	١١١٧هـ
غيث النفع في القراءات السبع	علي النوري الصفاقسي	١١١٨هـ
البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة	عبد الفتاح القاضي	

ثبت المراجع

❖ الإبانة عن معاني القراءات، مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ). تحقيق د. محيي الدين رمضان، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

❖ إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع، عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة الدمشقي (٦٦٥هـ)، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، ط البابي الحلبي بمصر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

❖ إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، أحمد بن عبد الغني الدمياطي البناء (١١١٧هـ)، علق عليه علي محمد الضباع، دار الندوة الجديدة، بيروت.

❖ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ)، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣هـ.

❖ أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

❖ الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها، د. حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م.

❖ الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٧٥م.

❖ إعراب القراءات السبع وعللها، ابن خالويه (٣٧٠هـ)، تحقيق د. عبد الرحمن سليمان العثيمين، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

❖ الأعلام، خير الدين الزركلي (١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.

❖ الاقتراح في علم أصول النحو، عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق أحمد محمد قاسم، مطبعة دار السعادة، القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

❖ الإقناع في القراءات السبع، أبو جعفر بن الباذش الأنصاري (٥٤٠هـ)، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٣هـ.

❖ الإمالة في القراءات واللهجات العربية، د. عبد الفتاح شلبي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.

❖ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرّة، عبد الفتاح القاضي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

❖ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

❖ تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

❖ تاريخ التراث العربي، د. فؤاد سزكين، ترجمة د. محمود حجازي ود. فهمي أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م.

❖ تاريخ القرآن، د. عبد الصبور شاهين، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٦م.

❖ تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة (٢٧٦هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة ط٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

❖ التبصرة في القراءات، مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ)، تحقيق د. محيي الدين رمضان، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. نشرة الهند بتحقيق د. محمد غوث الندوي، حيدرأباد، ١٩٧٩م.

❖ التذكرة في القراءات، طاهر بن عبد المنعم بن غلبون (٣٩٩هـ)، تحقيق د. عبد الفتاح إبراهيم، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

❖ التلخيص في القراءات الثمان، عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري (٤٧٨هـ)، تحقيق محمد حسن عقيل موسى، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، جدة، ط١، ١٤١٢هـ ت ١٩٩٢م.

❖ تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠هـ)، تحقيق عبد السلام هارون وزملائه، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

❖ التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (٤٤٤هـ)، بعناية أوتوبرتزل، مصورة دار الكتاب العربي ببيروت، ط٣، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

❖ الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه (٣٧٠هـ)، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

❖ الحجة للقراء السبعة، أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي (٣٧٧هـ)، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

❖ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت ط٢.

❖ الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، د. حسام سعيد النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠م.

❖ الدر النثير في شرح التيسير، عبد الواحد المالقي (٧٠٥هـ) تحقيق د. محمد حسان الطيان.

❖ السبعة في القراءات، ابن مجاهد (٣٢٤هـ)، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ.

❖ سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي، علي بن عثمان بن محمد القاصح العذري (٨٠١هـ)، مراجعة الشيخ علي محمد الضباع، دار الفكر، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

❖ سر صناعة الإعراب، عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، الجزء الأول، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م.

❖ نسخة ثانية دراسة وتحقيق د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

❖ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط وزملائه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠١ ـ ١٤٠٩هـ/١٩٨١ ـ ١٩٨٨م.

❖ شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي، تحقيق محمد نور الحسن والزفزاف وعبد الحميد، درا الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

❖ شرح المفصل، ابن يعيش النحوي (٦٤٣هـ)، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة.

❖ صحيح البخاري، الإمام البخاري (٢٥٦هـ)، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، مطبعة الهندي، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

❖ صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ)، تصحيح فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

❖ العنوان في القراءات السبع، إسماعيل بن خلف المقرئ الأنصاري الأندلسي (٤٥٥هـ)، تحقيق د. زهير زاهد ـ د. خليل العطية، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

❖ الغاية في القراءات العشر، أحمد بن مهران النيسابوري (٣٨١هـ)، تحقيق محمد غياث الجنباز، شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

❖ غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري (٨٣٣هـ)، بعناية ج. برجستراسر، مكتبة المتنبي، القاهرة.

❖ غيث النفع في القراءات السبع، علي النوري الصفاقسي (١١١٨هـ)، على هامش كتاب سراج القارئ، دار الفكر، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

❖ الفهرست، ابن النديم (٣٨٥هـ)، تحقيق رضا ـ تجدّد، طهران، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

❖ في أصول النحو، سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

❖ في اللهجات العربية، د. إبراهيم أنيس، لجنة البيان العربي، مصر، ط٢، ١٩٥٢م.

❖ القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٦م.

❖ القواعد والإشارات في أصول القراءات، أحمد بن عمر بن محمد بن أبي الرضا الحموي (٧٩١هـ)، تحقيق د. عبد الكريم بكار، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٦٨م.

❖ الكافي في القراءات، (بهامش كتاب المكرر لسراج الدين الأنصاري)، محمد بن شريح الرعيني (٤٧٦هـ)، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر، ١٣٢٦هـ.

❖ كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، عالم الكتب، بيروت، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

❖ كتاب المصاحف، عبد الله بن أبي داود السجستاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

❖ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الرومي المعروف بحاجي خليفة (١٠١٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

❖ اللغات في القرآن، رواية بن حسنون المقرئ بإسناده إلى ابن عباس، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

❖ اللهجات في الكتاب لسيبويه أصواتاً وبُنية، صالحة راشد غنيم، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

❖ اللهجات العربية في القراءات القرآنية، د. عبده الراجحي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.

❖ المبسوط في القراءات العشر، ابن مهران الأصبهاني (٣٨١هـ)، تحقيق سبيع حاكمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

❖ المحكم في نقط المصاحف، أبو عمرو الداني (٤٤٤هـ)، تحقيق د. عزة حسن، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

❖ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، أبو شامة المقدسي (٦٦٥هـ)، تحقيق طيار آلتي قولاج، دار صادر، بيروت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

❖ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ)، بعناية أحمد جاد المولى وزميليه، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

❖ معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

❖ معجم القراءات القرآنية، د. أحمد مختار عمر - د. عبد العال سالم مكرم، مطبوعات جامعة الكويت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

❖ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق بشار عوّاد وشعيب الأرنؤوط وصالح عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

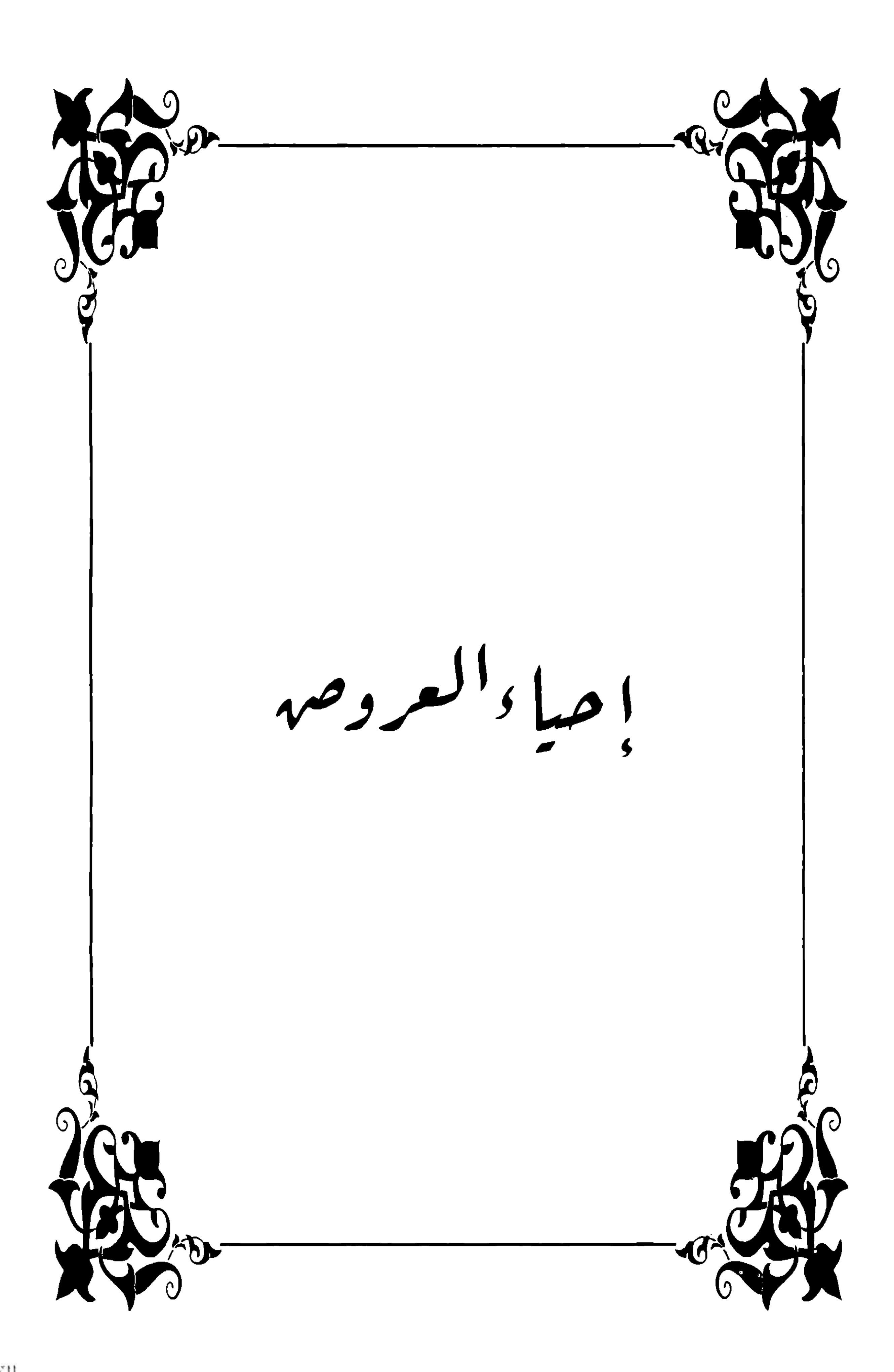
❖ مقدمتان في علوم القرآن، مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية (٥٤٢هـ)، بعناية آرثر جفري وعبد الله الصاوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

❖ المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار عن كتاب النقط، أبو عمرو الداني (٤٤٤هـ)، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، مصور عن الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

❖ منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ابن الجزري (٨٣٣هـ)، دار زاهد القدسي، القاهرة.

❖ مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط٣، ١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م.

❖ النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (٨٣٣هـ)، تصحيح علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت.



إحياء العروض

إحياء العروض* (1)

حكى ابن جني في الخصائص عن الخليل: "أن الأصمعي كان أراده على أن يعلّمَهُ العروض، فتعذّر ذلك على الأصمعي وبعُدَ عنه، فيئس الخليل منه، فقال له يوماً: يا أبا سعيد، كيف تقطّع قول الشاعر:

إذا لم تستطعْ شيئاً فدَعهُ ... وجاوِزْه إلى ما تستطيعُ

قال: فعلم الأصمعي أن الخليل قد تأذّى ببعده عن علم العروض فلم يعاودْه فيه"(2).

ليست صعوبة هذا الفن إذن وليدةَ هذا العصر، ولا نتيجة من نتائج تدنّي مستوى التعليم، أو ثمرةً أعقبَناها طولُ الأمد، وبُعدُ الشُّقّة، وتبلّدُ الحسِّ، وتنوّعُ فنون الأدب. وإنما هي مشكلة قديمة قدَمَ هذا الفن نفسه، إذ تعود إلى عصر الخليل واضع العروض، وقد اصطلى بنارها الأصمعي، وهو من هو معرفةً بالشعر، ورواية له، ودرايةً بأساليبه وفنونه، ونقداً لغرره وعيونه.

على أن الخطب اليوم قد عمَّ، إذ سرى اعتياص هذا الفن إلى صفوف بعض المدرّسين والمتخصصين بَلْهَ الطلاب والمعلمين. "لضياع هذا العلم الجليل في زماننا، وقلة الاحتفال به وبأهله"(3).

---

* شاركت بهذا البحث في الندوة التي أقامها مجمع اللغة العربية بدمشق بعنوان "اللغة العربية: معالم الحاضر وآفاق المستقبل" من ٢٦ ـ ٢٩/١٠/١٩٩٧.

ثم نشر في عدد خاص من مجلة المجمع، المجلد ٧٣، الجزء الثالث (ربيع الأول ١٤١٩هـ ت تموز ١٩٩٨م).

(1) عنوان البحث وبعض ما جاء فيه مقبوسٌ من كتاب "إحياء العروض" للمرحوم الأستاذ عز الدين التنوخي أمين مجمع اللغة العربية بدمشق، ومدرّس العروض والقافية في جامعات الشام، والعراق، ومعاهدهما، وهو كتاب نحا فيه مؤلفه نحو التيسير في تعليم العروض، ونفى عنه كثيراً من غوائله.

(2) الخصائص ١/٣٦٢.

(3) نمط صعب ونمط مخيف ص ٨٨ ـ ٨٩.

وبِتَّ تفتقد هذا الحسّ العروضي لدى الكثرة الكاثرة من خريجي الجامعات ذوي التخصص الدقيق في العربية وآدابها. وصار الأمر إلى ما قاله أبو العلاء:

تولّى الخليلُ إلى ربِّه وخلّى العَروضَ لأربابِها

فليسَ بذاكرِ أوتادِها ولا مرتجٍ فضلَ أسبابها

أسباب صعوبة العروض

يوصَف العروضُ بأنه العلم الموسيقي السهل بطبيعته الصعب بطريقته. ولهذه الصعوبة أسباب مختلفة يمكن أن نذكر منها:

١ ـ إغفال الصلة بين العروض من ناحية وبين الموسيقى والنغم والإيقاع من ناحية أخرى. مع أن الصلة بينهما قديمة تعود إلى نشأة العروض وابتكاره، ولو عدنا إلى أخبار هذه النشأة لوقفنا على حقائق كثيرة تجلو هذه الصلة.

من ذلك ما رواه أبو الحسن الأخفش عن الحسن بن يزيد أنه قال:

"سألت الخليل بن أحمد عن العروض فقلت له هلاَّ عرفتَ لها أصلاً؟ قال: نعم، مررت بالمدينة حاجًّا، فبينما أنا في بعض طرقاتها إذ بصُرت بشيخ على بابٍ يعلّم غلاماً وهو يقول له قل:

نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم نعم نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم لا لا

قال الخليل: فدنوت منه فسلمت عليه وقلت له: أيها الشيخ ما الذي تقوله لهذا الصبيّ؟ فذكر أن هذا العلم شيء يتوارثه هؤلاء الصبية عن سلفهم وهو علم عندهم يسمى التنعيم لقولهم فيه: نعم.

قال الخليل: فحججت ثم رجعت إلى المدينة فأحكمتها"[1].

(١) المستشار في العروض وموسيقى الشعر ص ١٢.

ومن ذلك ما يروى أن الخليل كان يقطّع بيتاً فرآه ولده في تلك الحالة فخرج إلى الناس يقول: إن أبي قد جُنَّ، فدخل الناس عليه وهو يقطّع البيت، فأخبروه بما قال ابنه، فقال له:

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عذرتَني ... أو كنتَ تعلمُ ما تقول عذلتكا

لكنْ جهلتْ مقالتي فعذلتَني ... وعلمتُ أنّك جاهلٌ فعذرتكا

وقيل: إن الخليل مرّ بالصفّارين فأخذ العروض من وقع مطرقةٍ على طَسْتٍ[1]، ولا ريب أن الخليل كان على علم جمٍّ بالموسيقى، بل إن بعضهم ينسب إليه اختراع علم الموسيقى العربية، وتكاد مصادر ترجمته تجمع على أنّه صنّف كتاباً في الإيقاع وآخر في النغم[2]. قال عنه السيوطي: "وكذلك ألّف كتاب الموسيقى فَزَمَّ [أي: ربط] فيه أصناف النغم، وحصر به أنواع اللحون، وحدّد ذلك كله، ولخّصه، وذكر مبالغ أقسامه، ونهايات أعداده، فصار الكتاب عبرةً للمعتبرين وآية للمتوسِّمين"[3].

فالصلة إذن بين العروض والموسيقى قديمة ثابتة وإغفالها يؤدي إلى فصم عرًى وثيقةٍ فصماً يخلُّ بفهم العروض وإتقانه وتطبيقه.

٢ ـ التوسّل لتقطيع الأبيات بوضع الإشارات المختلفة التي تمثّل المتحرك والساكن (/ ٥ أو ـ) وهي لا تفيد شيئاً في معرفة وزن البيت أو الكشف عن مواطن كسره وما قد يكون فيه من خلل، بل هي وسيلة يتحول فيها هذا الفن السماعي المعتمد على الذوق إلى رموز مكتوبة لا طائل منها. وأذكر أن علاّمة الشام أستاذنا النّفّاخ رحمه الله كان ينهانا عن سلوك هذا المسلك ـ أي: عن استعمال هذه الإشارات التي لا تغني عن المقطّع شيئاً ـ وكان أن اعترض عليه أحد الطلبة بأنه لا يقوى على التقطيع إلا بهذه الوسيلة فأجابه الأستاذ على التوّ: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/٤٣١.

(٢) معجم الأدباء ١/٧٤ ـ ٧٥، والمزهر ١/٤١، والفهرست ص ٤٩.

(٣) المزهر ١/٨١.

٣ ـ ربطُ تعلّم العروض بفهم دوائر البحور، وهي دوائر تدل على عبقرية الخليل وقوة إبداعه في تأليف تفعيلات البحور، وفكّها بعضها من بعض، والإشارة إلى ما استعمل من البحور وما أهمل[١]، لكنها على ما فيها من إبداع وابتكار لا تفيد في تيسير معرفة الوزن ولا تقوّي الحسّ العروضي بل لا تكاد تسهم في ذلك، ووقعها على المتعلم الريّض المبتدئ أشبه بوقع الطلاسم والمعمَّيات، ومن طريف ما يروى "أن محمد بن عبد الوهاب الثقفي لقي ابن مُناذِر الشاعر ـ وكان بينهما إِحْنَةٌ ـ في مسجد البصرة ومعه دفترٌ فيه كتاب العروض بدوائره، ولم يكن محمدٌ يعرف العروض، فجعل يلحظُ الكتاب ويقرؤه فلا يفهمه وابن مناذر متغافلٌ عن فعله، ثم قال له: ما في كتابك هذا؟ فخبَّأَهُ في كمّه وقال: وأيُّ شيءٍ عليك مما فيه؟ فتعلق به ولبّبه، فقال ابن مناذر: يا أبا الصلت الله الله في دمي، فطمع فيه وصاح: يا زنديق، في كمّك الزندقة، فاجتمع الناس إليه، فأخرج الدفتر من كُمِّه وأراهم إياه، فعرفوا براءته مما قذفه به، ووثبوا على محمد بن عبد الوهاب واستخفوا به، وانصرف بخزيٍ..."[٢]. هذا وقد تناول نفرٌ من علماء العروض المحدثين الاحتكام إلى هذه الدوائر بالنقد.

٤ ـ مواجهة الطالب بحشد من المباحث والمصطلحات العروضية المتداخلة ينوء بحفظها، ويطول عهده بتطبيقها أو بتوزيعها على أبحرها الخاصة بها، وحقُّها أن ترجأ وتوزَّع على بحورها فلا تذكر أمام الطالب إلا بعد معرفته البحر الذي ترد فيه.

٥ ـ البدء بالصعب من البحور والتدرج نحو الأسهل مع أن طبيعة الأمور تقتضي العكس، فالبدء بالأسهل يعين على فهم الأصعب وأعني بالأسهل ما تألف من تفعيلة واحدة بسيطة أو خفيفة كفاعلن وفعولن، إذ إن تعلمها ومعرفة إيقاعها يعين الطالب على تعلم التفعيلات الأطول، ويمهد لمعرفة تداخل التفعيلات المختلفة.

---

(١) انظر ما كتب الأستاذ محمود شاكر في الكشف عن سرِّ هذه الدوائر في كتابه النفيس (نمط صعب ونمط مخيف). ص ٨٩ وما بعدها.

(٢) الأغاني ١٨/١٨٧ ـ ١٨٨ (ط دار إحياء التراث العربي).

إنَّ أسباب الصعوبة هذه على اختلافها جديرة بالدراسة والبحث، وفي تجنّبها تيسير لتعليم العروض، وتذليل لكثيرٍ من العقبات المعترضة طريقَه، على أنَّ أهمَّها وأكثرها تأثيراً في تعليم العروض السببُ الأول، وهو إغفال الصلة بين العروض والموسيقى والإيقاع، ففي إعادة هذه الصلة عودٌ بالعروض إلى منابعه الأولى وموارده الصافية. وهو ما يرمي إليه هذا البحث.

علاقة العروض بالغناء والإيقاع:

يقول حسَّان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ:

تغـنَّ بالشِّـعْرِ إمّـا كنـتَ قائلـهُ ... إنَّ الغنـاء لهـذا الشعـرِ مضـمارُ

والعلاقة بين الشعر وبين الموسيقى والنغم والإيقاع علاقة وثيقة لا تكاد تخفى على أحد، وأمثلتها في أدبنا القديم أكثر من أن تحصى أو تستظهر.

ولعل من أبرز مظاهرها الحُداء الذي كانت تساق به الإبل فإذا ما أسرع الحادي أسرعت الإبل، وإذا أبطأ أبطأت، ومنه الحديث المشهور: "ارْفُقْ يا أنجشةُ ويحك بالقوارير"[(١)] يريد أن يبطئ وقع الحُداء لتبطئ الإبل وقع المسير.

ومن نحو هذا ما يروى عن النابغة حين أقوى في شعره فلم ينبهه على ذلك إلا تغني الجواري ومدّهن الصوت بحركة حرف الروي وهو الدال في قوله:

زعـم البـوارحُ أنَّ رحلتنـا غـداً ... وبـذاكَ خبَّرنـا الغـرابُ الأسـودُ

لا مرحبـاً بغـدٍ ولا أهـلاً بـه ... إن كـانَ تفريـقُ الأحبـةِ في غـدِ

ولأهمية عنصر الموسيقى في الشعر قيل: الشعر موسيقى، وقال النقاد عن البحتري: أراد أن يشعر فغنَّى. ولا أدلّ على ذلك أيضاً من كتاب الأغاني الذي رمى منه مصنفه إلى جمع أشهر أغاني عصره فجاء سجلاً ضخماً لأشعار العرب وأخبار الشعراء والمغنِّين على حدٍّ سواء.

---

(١) صحيح البخاري ٢٢٩٤/٥ (كتاب الأدب، الحديث رقم ٥٨٥٦).

ومن ثمَّ كان العروض علم إرهاف الآذان وإتقان الألحان، يتطلب أول ما يتطلب ذوقاً سليماً وأذناً مرهفةً تميز الإيقاع الصحيح من الإيقاع المختل، والنغم المنضبط من النغم النشاز.

من أجل هذا كله لا بد من العودة إلى هذين العنصرين في معرفة العروض وهما النغم والإيقاع، ويمكننا الإفادة منهما على النحو الآتي:

١ ـ النغم (اللحن):

ولا أعني به مطلق النغم، وإنما المراد طريقةُ أداءِ الأغنيةِ أو النشيدِ، أو تلحينُها وغناؤُها، وكنت مستطيعاً، كما قال العلامة الراحل محمود شاكر: "أن أهزِل باسم الغناء والنغم فأستولج في كلامي ألفاظاً للتغرير والإثارة، فأقول: (السِّمْفُني) و(الهَرْمُنِي) وكُروباً وراء ذلك كثيراً!! ولكني آثرت أن أدع الأمر حيث هو من القرب..."[1] وأنا أوثر ما آثر الشيخ رحمه الله فأقول: كلٌّ بحر من بحور الشعر يمكن أن ينطبق على أغنية محفوظة أو أكثر، أو بعبارة أخرى يمكن أن يغنَّى وينشد كما تغنى تلك الأغنية أو ينشد ذلك النشيد، فتكون هذه الأغنية أو النشيد بمنزلة المفتاح لهذا البحر، فإذا ما حاول الطالب أداء بيت من الشعر ينتمي إلى هذا البحر على لحن تلك الأغنية طاوعه اللحن وانقاد له الغناء، وإذا ما حاول أداء بيت آخر لا ينتمي إلى هذا البحر على لحن تلك الأغنية تأبّى عليه اللحن ولم ينقد له الغناء، ومن ثم يكون قادراً على أن يحكم على ذلك البيت الذي انقاد له فيه الغناء بأنه ينتمي إلى ذلك البحر الذي تنطبق عليه الأغنية، وأما ذلك الذي لم ينقد له الغناء فيه بتلك الأغنية فإنه يبحث له عن أغنية أخرى لكي يصل إلى تحديد بحره. ولنأخذ مثالاً على ذلك البحر المتدارك:

متــــداركُنا نغــــمٌ عَجِــــلُ   فعلـــن فعلـــن فعلـــن فعلـــن

فهو ينطبق على لحن قصيدة الحصري القيرواني التي تشدو بها فيروز:

يـــا ليــلُ الصـــبُّ متـــى غَـــدُه   أقيـــامُ الســـاعةِ موعــــدُه

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف ٢٧٨.

وينطبق كذلك على تلحين الموسيقار محمد عبد الوهاب لقصيدة شوقي التي عارض بها قصيدة القيرواني:

مضـــــناكَ جفـــــاهُ مرقـــــدُه   وبكـــــاهُ ورحَّـــــم عـــــوَّدُه

وينطبق على لحن القصيدة التي يؤديها الأستاذ صباح فخري:

يـــا صـــاحِ الصـبرُ وهــى منِّــي   وشـــقيقُ الـــرُّوح نـــأى عنِّـــي

فإذا ما حاولنا تأدية أيِّ بيت ينتمي إلى البحر المتدارك، وفق ألحان هذه الأغاني طاوعنا الأداء وانقاد لنا اللحن فدلَّ ذلك على صحة انتماء هذا البيت إلى البحر المتدارك في حين لا يصحُّ ذلك في أي بيت لا ينتمي إلى البحر المتدارك، وسنطبِّق ذلك على المثالين التاليين فننشدهما وَفْقَ الألحان السابقة:

الأول لناصح الدين الأرّجاني:

سِـرْبٌ قـد عـنَّ بـذي سَـلَمٍ   وغـــدا بفـــؤادي أغيـــدُهُ

والثاني لشوقي:

النيـــلُ العـــذبُ هـــو الكـــوثرْ   والجنّـــةُ شـــاطئُهُ الأخضـــرْ

وكذلك معظم بحور الشعر، إذ ينطبق كلٌّ منها على أغنية مشهورة أو نشيد معروف يمكن أن يكون مفتاح ذلك البحر، فالمتقارب على النشيد السوري، والرمل على النشيد الجزائري، والوافر على الأغنية الشعبية المعروفة (سكابا يا دموع العين سكابا)... وهكذا.

وفيما يلي جدولٌ يوضّح مفاتيح أشهر البحور من الأغاني والأناشيد المختارة:

اسم البحر	مفتاحه	ملاحظات
المتدارك	يا ليلُ الصبُّ متى غدُهُ مُضناك جفاهُ مرقدُهُ	أداء فيروز الموسيقار محمد عبد الوهاب

	يا صاحِ الصبرُ وهى منّي رمضان تجلّى وابتسما	صباح فخري إنشاد توفيق المنجد
المتقارب	حماة الديار عليكم سلام	النشيد السوري
الرمل	قسماً بالنازلاتِ الماحقات والذي أسكرَ من عَرْفِ اللمى يا غزالي كيفَ عنّي أبعدوك	النشيد الجزائري موشح لصباح فخري موشح لصباح فخري
الوافر	سكابا يا دموع العين سكابا	موشح لصباح فخري
البسيط	مولاي صلِّ وسلمْ دائماً أبداً عالروزنا عالروزنا كل الهنا فيها	البردة للبوصيري أغنية لفيروز
الرجز **والكامل**	صلّوا عليه وسلّموا تسليما الله أكبرُ فوقَ كيدِ المعتدي	نشيد ديني النشيد الليبي
الهزج **ومجزوء الوافر**	بلادُ العربِ أوطاني	نشيد قومي معروف

٢ ـ الإيقاع:

كل شعر ـ بل كلّ كلام ـ يتألف من حروف متحركة وأخرى ساكنة، فإذا ما اقترن الحرف المتحرك بالحرف الساكن ألّفا مقطعاً واحداً طويلاً نحو: قا، لَمْ، في، عن... إلخ.

وإذا اقترن المتحرك بالمتحرك ألّفا مقطعين قصيرين نحو: لَهُ، بِكَ...إلخ.

ويمكن أن تتابع الحروف المتحركة فتكوِّن كلها مقاطع قصيرة إلى أن يأتي حرف ساكن فيؤلف مع ما قبله مقطعاً طويلاً نحو:

كَـتَـبَ / كَـتَـبَـهَـا / نُـوحِـيـهَـا

تِـتِـتِ / تِـتِـتِـتِـكْ / تِـكْ تِـكْ تِـكْ

٣ مقاطع قصيرة /٣ مقاطع قصيرة + مقطع طويل/ ٣ مقاطع طويلة

والإيقاع يقتضي أن نقابل كل حرف متحرك بنقرة وكل حرف ساكن بعدم النّقرة، فإذا تتابعت الحروف المتحركة تتابعت النقرات، وإذا جاء الساكن انقطعت، وهكذا يمكن أن تكون التفعيلة: **"فاعلن"** مقابلة للنقرات: تِكْ تِتِكْ. و**"فعولن"** مقابلة للنقرات: تِتِكْ تِكْ. (التاء هنا تقابل الحرف المتحرك والكاف تقابل الحرف الساكن)، فإذا أخذنا المثال الآتي:

زرنـــا يومـــاً قومـــاً عربـــاً قـــالوا أهـــلاً ســـهلاً رحبـــاً

وقرأناه ببطءٍ مع الإيقاع وجدنا إيقاعه أو نقراته على النحو التالي:

زرنا	يـومـاً	قـومـاً	عـربـاً
تك تك	تك تك	تك تك	تك تك
قـالـوا	أهـلاً	سـهـلاً	رحـبـاً
تك تك	تك تك	تك تك	تك تك

وهو أمر نصنعه بطبيعتنا كلما سمعنا كلاماً موزوناً أو ملحّناً، فالحركة تقابلها النقرة والسكون يقابله السكون.

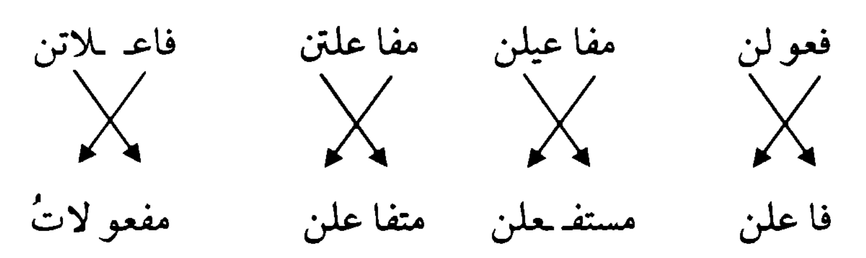
وإذا أخذنا بيتاً آخر:

شـــعر نثـــر علـــم أدب قلـــب فكـــر نـــور أرب

وقرأناه إيقاعاً وجدنا له الإيقاع نفسه مع اختلاف الجزء الأخير من كل شطر وهو (أَدَبٌ وأَرَبٌ) فإيقاع كل منهما (تِتِتِك تِتِتِكْ) خلافاً لإيقاع سائر البيت ففي كل منهما مقطعان قصيران ومقطع طويل.

وهكذا تختلف الإيقاعات باختلاف التفعيلات. ومن المعلوم أن التفعيلات ثمانٍ: أربعٌ

أصولٌ يتفرّع عنها أربعٌ فروعٌ، وذلك بقلب الأصول على النحو التالي:



فإذا شفعناها بإيقاعاتها كانت على النحو التالي:

التفعيلة	إيقاعها	التفعلية	إيقاعها
فعولن	تِتِكْ تِكْ	فاعلن	تِكْ تِتِكْ
مفاعيلن	تِتِكْ تِكْ تِكْ	مستفعلن	تِكْ تِكْ تِتِكْ
مفاعلتن	تِتِكْ تِتِتِكْ	متفاعلن	تِتِتِكْ تِتِكْ
فاعلاتن	تِكْ تِتِكْ تِكْ	مفعولات	تِكْ تِكْ تِكْ تِ

ولعل من نافلة القول هنا أن نشير إلى أن ما يعتور التفعيلات من تغيرات بالنقصان أو الزيادة، يقابله تغير بقدره في الإيقاع، مثل: فَعُولُ يقابله: تِتِكْتِ، ومفاعِلُن يقابلها: تِتِكْ تِتِكْ.. وهكذا. وبذلك لا يقتصر الإيقاع على تقطيع البيت - بعد معرفة بحره غناءً - وإنما يعين إلى ذلك على تحديد ما اعتراه من جوازات، وما أصابه من علل وزحافات.



مراجع البحث

❖ إحياء العروض، عز الدين التنوخي، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٣٦٦هـ-١٩٤٦م.

❖ الأغاني، الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي.

❖ الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت- ط٢.

❖ سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزملائه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

❖ صحيح البخاري، بعناية د. مصطفى البغا، دار القلم، دمشق، ١٩٨١م.

❖ الفهرست، ابن النديم، تحقيق رضا تجدّد.

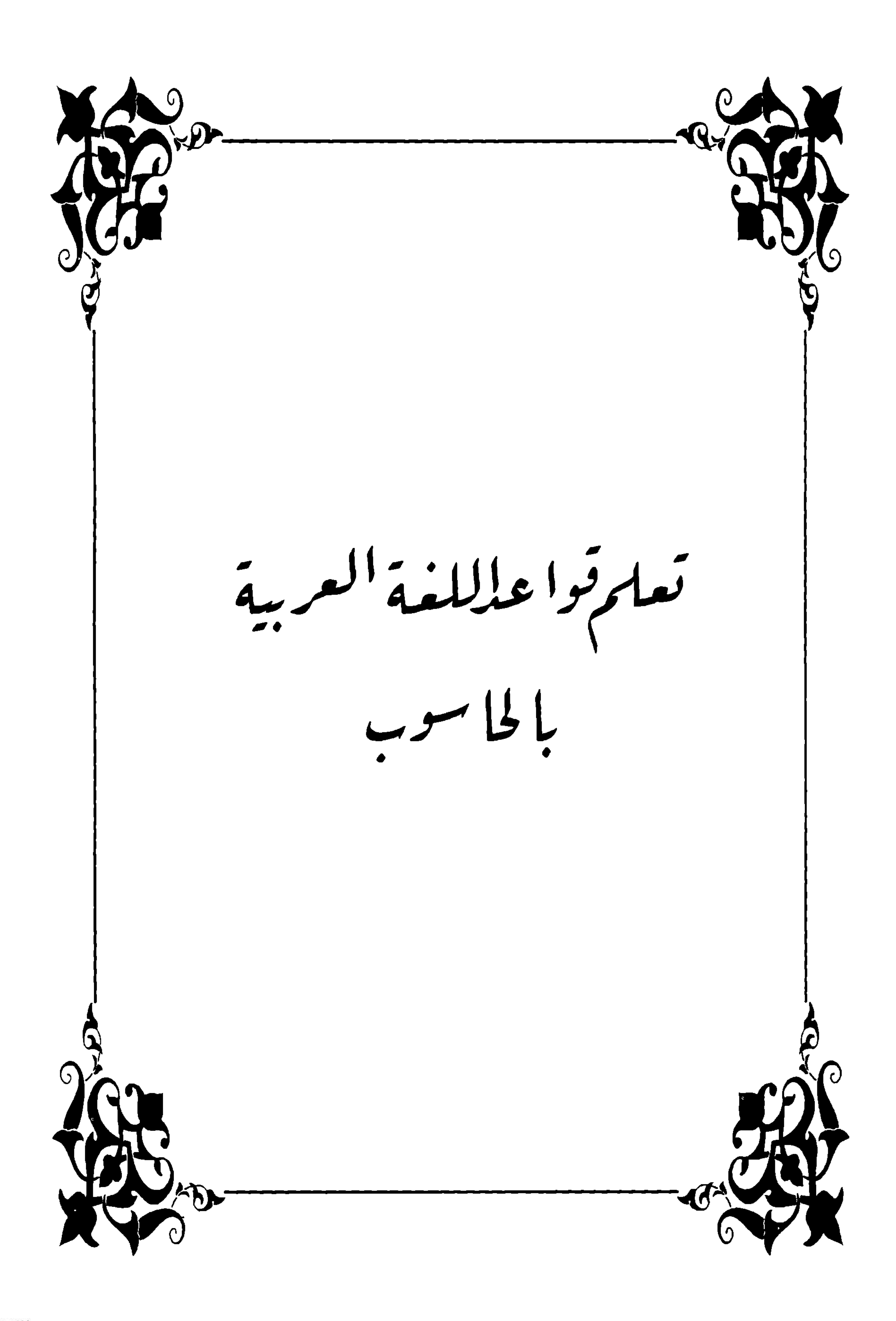
❖ المزهر في علوم العربية وأنواعها، السيوطي، بعناية محمد أحمد جاد المولى وزميله، دار إحياء الكتب العربية.

❖ المستشار في العروض وموسيقى الشعر، د. محمد هيثم غرّة، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

❖ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

❖ نمط صعب ونمط مخيف، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.





تعلم قواعد اللغة العربية
بالحاسوب

تعلّم قواعد اللغة العربية بالحاسوب ❖

المادة العلمية

جاء في ترجمة أبي علي الفارسي النحوي المشهور وشيخ ابن جني:

"قالوا: ولما صنّف أبو علي كتابَ الإيضاح، وحمله إلى عضد الدولة استَقْصَرَه عضد الدولة، وقال له: ما زدتَ على ما أعرف شيئاً وإنما يصلُحُ هذا للصبيان، فمضى أبو علي وصنَّف التكملة، وحملها إليه، فلما وقف عليها عضد الدولة قال: غضب الشيخ وجاء بما لا نفهمهُ نحن ولا هو". [معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢٣٨/٧].

ونحن أيضاً لم نخرج في صنيعنا هذا عن صنيع أبي علي في الإيضاح وصنيع أمثاله من النحاة الذي يسَّروا تعليم النحو بعرضه في أبسط صورة وأقربها مأخذاً ومتناولاً، نافين عنه ما خالطه من شوائبَ ومماحكاتٍ وشذوذٍ وتفريعات.

غير أننا استعنَّا على إظهار المادة النحوية وتقريبها من ذهن الناشئة وتيسير تعليمها بأبرز وسائل الإيضاح في هذا العصر وهو الحاسوب. وسخّرنا كل ما من شأنه أن يُسهم في هذا الإيضاح من وسائل التشويق ولفت الانتباه والتأثير باستعمال الوسائل المتعددة **Multmedia** من صوت وصورة وحركة.

سأتناول في حديثي هذا المادة العلمية للبرامج التي صنعناها وهو حديث ذو ثلاث شعب: أولاها: المادة النحوية، وثانيتها: صوغ القاعدة وحدودها، وثالثتها: الشواهد والأمثلة.

١ ـ المادة النحوية

اعتمدنا في إثبات المادة النحوية على طائفة من المراجع حرصنا فيها على أمرين اثنين:

❖ قدمت هذا البحث في الندوة العلمية الثالثة حول واقع المعلوماتية في سورية وآفاقها المستقبلية (المعلوماتية في التعليم العالي والبحث العلمي) التي انعقدت في دمشق ٢٥ ـ ٣٠ نيسان ١٩٩٨م.

أ ـ التنوع وتمثيل عدة أقطار عربية.

ب ـ مراعاة المستوى المطلوب بحيث لا يتعدى المرحلة الإعدادية. على أننا لم نقتصر على ما كان من الكتب محصوراً في هذا المستوى وإنما استأنسنا بمراجعَ أوسعَ ملتزمين عدم الخروج عن المستوى المطلوب. وفيما يلي أبرز ما اعتمدنا عليه من مراجع:

١ ـ الكتاب المرجع في قواعد اللغة العربية لمراحل التعليم العام وضعته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ضمن مشروع يرمي إلى وضع كتبٍ مرجعيةٍ في قواعد اللغة العربية في مراحِل التعليم العام في الوطن العربي وقد اعتمد على حصر مفردات مناهج القواعد النحوية المطبقة في الأقطار "العربية". [طبع في تونس ١٩٩٦].

٢ ـ الموجز في قواعد اللغة العربية وشواهدها للأستاذ سعيد الأفغاني.

٣ ـ من قواعد اللغة العربية للأستاذ عاصم البيطار [وكلاهما من سورية].

٤ ـ جامع الدروس العربية.

٥ ـ الدروس العربية للمدارس الابتدائية. [وكلاهما للشيخ مصطفى غلاييني من لبنان].

٦ ـ قواعد اللغة العربية لحفني ناصف وزملائه.

٧ ـ كتاب الدروس النحوية لتلاميذ المدارس الابتدائية لحفني ناصف وزملائه.

٨ ـ النحو الواضح في قواعد اللغة العربية للمدارس الابتدائية والمدارس الثانوية لعلي الجارم ومصطفى أمين. [وهذه الكتب من مصر].

٩ ـ النحو الشافي د. محمود حسني مَغالسة. [من الأردن].

١٠ ـ دروس في النحو د. عبد الكريم محمد الأسعد. [من السعودية].

٢ ـ صوغ القاعدة وحدودها

توخينا في صوغ القاعدة السهولة والوضوح، وتجنبنا كل ما من شأنه أن يُعقِّد القاعدة أو يبعدَها عن متناول الطالب أو يخوضَ في تفريعاتٍ واستثناءات لا تهمُّهُ، مقتصرين على ما يحتاج إليه في المرحلة الإعدادية.

فمن ذلك مثلاً أننا تجنبنا الحديث عن لا النافية للجنس وعن قواعد كسر همزة إن وفتحها، وقصرنا صاحب الحال على الفاعل والمفعول، ولم نعرِض للاسم السادس الملحق بالأسماء الخمسة، ولم نتطرّق إلى تمام كان (أي: كان التامة). أو إلى حذفها أو زيادتها، لأن هذه التفصيلات مُرجأةٌ إلى المرحلة الثانوية في مقررات التعليم العام.

هذا وقد تدَرّجنا في كل مبحث تدرجاً منطقياً يبدأ بالتعريف مشفوعاً بالأمثلة المناسبة، تليه الأحكام المختلفة مع أمثلتها أيضاً، ثم تُعْرَض أمثلةٌ عامّةٌ تستغرق جميع حالات المبحث، تليها التدريبات المختلفة فالاختبار الأخير الذي يشتمل على كل ما جاء في التدريبات.

والمبحث في عرضِهِ هذا يتوسل بكل الوسائل المعينة على الفهم ووضوح الفكرة، والمستحوذَةِ على انتباه الطالب ومتابعتِهِ بَدْءاً من الكتابة على اختلاف أشكالها وألوانها وأحجامها، واعتمادها على الرسوم المختلفة الثابتة والمتحركة، وانتهاءً بالصوت والصورة مما يوفّره الحاسوب بوسائطه المتعددة. وهو في أثناء ذلك كله يعتمد أسلوب التشويق والتفاعل الدائم بين الطالب والحاسوب، وسنرى في العرض الحاسوبي بعد قليل كيف تدخل كان على الجملة الاسمية فتجري التغييرات فيها في الحركات وألقاب الإعراب.

٣ ـ الشواهد والأمثلة

من أهم الأسس التي أخذنا بها في هذه الدروس الإكثار من الأمثلة والشواهد والتدريبات، وقد توخينا من ذلك أن يقف الطالب على أكبر عدد ممكن من الاستعمالات للقاعدة مما يجعلها حيّةً نابضةً على سمعه وبصره، ولا يخفى ما للنصوص من أثر في تكوين الملكة اللغوية السليمة لدى الطالب ورفده برصيد لغوي يكون معه بنجوةٍ من اللحن والخطأ، فهي السبيل الأمثل إلى الأداء المتقن وتحصيل المهارة اللغوية وتنميتها. يقول الأستاذ الأفغاني: "لم يعد يقبل في هذا العصر عرض القواعد دون مناقشة ما تستند إليه من شواهد، لأن الشواهد روح تلك القواعد تضفي عليها حياة ومُتعة وأصالة وعلى هذه المادة ـ أي: النحو ـ أن تكون ثقافةَ شواهد أكثر مما هي ثقافة قواعد، وهي ـ أي: الشواهد ـ متى استُوعِبَتْ أعْوَد على الملكات من كثير من القواعد المحفوظة والتعليلات المتكلّفة".

وقد بلغ عدد الأمثلة في بحث الأسماء الخمسة على سبيل المثال نحواً من مئتين وسبعين مثالاً، وفي الأفعال الخمسة نحواً من مئتين وأربعين مثالاً، وليس في هذه الكثرة عبءٌ على الطالب، فالكثرة الكاثرة من الأمثلة إنما كانت في التدريبات، وما يعرض عليه منها لا يعدو خمسة أسئلة ترد في كل مرة على نحوٍ عشوائي بحيث لا يتكرر المثال إن أعاد الطالب المحاولة المرة تلو المرة.

هذا وقد حَرَصنا ما استطعنا أن نتخيّر هذه الأمثلة والشواهد من فصيح الكلام وبليغ القول متجنبين ـ قدر الإمكان ـ العبارات المصنوعة والجمل المتكلفة، وحاولنا في جملتها أن ننحوَ نحوَ السهولة واليسر، ما خلا أمثلةً يسيرةً قصدنا استبقاءَها حفزاً لهمّة الطالب وإعمالاً لفكره، وتمييزاً لمستويات الطلاب المختلفة.

وعلى هذا فقد نهِلت هذه الشواهد والأمثلة من معين القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي قديمه وحديثه، والأمثال والحكم. ولم نقتصر على ما وجدناه في المراجع النحوية السالفة الذكر وإنما عمدنا إلى البرامج الحاسوبية المشتملة على القرآن الكريم وعلى الحديث الشريف فتخيّرنا منها ما يليق بالدروس المبرمجة، كما رجعنا إلى طائفة من الكتب الأدبية والمختارات الشعرية والكتب النحوية فانتقينا منها ما يناسب المقام، ولم ندع أن نضيف إلى ذلك كله أمثلة مستقاةً من الكتب المدرسية (كتاب الرياضيات) مثلاً.

أما عرض الأمثلة والشواهد فقد جاء على ثلاث صور:

أ ـ أمثلة وشواهد معربة (أعرب فيها وجه الشاهد).

ب ـ تدريبات مختلفة (تعرض على نحو لا يتكرر فيه المثال).

ج ـ اختبارات.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أننا ضبطنا الشواهد الضبط التامَّ الدقيق كتابةً وصوتاً كي لا يقرأ الشاهد على غير وجهه وليكون من ناحية أخرى زاداً للطالب ورصيداً لغويًّا يسهم في تقويم لسانه وقلمه.

ولابد لي قبل أن أختِم حديثي أن أشير إلى أن معالجة العربية بالحاسوب غدا من الأمور الهامة والاستراتيجية إن صح التعبير فهو ضرورة قومية ووطنية وشرعية وإذا لم تتم هذه المعالجة بأيدٍ أمينة على العربية عالمة بها غيورةٍ عليها فإنها ستتِمّ على أيدٍ غريبةٍ عنها لا همَّ لها إلا الربح السريع والمكسب الجاهز، هذا إن أحسنا الظن بها وغضضنا الطرف عما يدبّر لهذه الأمة ولغتها من مكر بليل ونهار، وقد أخبرني أستاذنا الدكتور مازن المبارك أنه دعي إلى جامعة الكويت محكّماً في برنامج حاسوبي يتناول قواعد اللغة العربية ونحوَها فوجد فيه من العبث والفساد ما جعله يردُّه ويأباه برغم العروض السخية التي وعد بها فيما لو وافق عليه.

◆ ملحق بأهم المراجع التي انتقيت منها الشواهد والأمثلة:

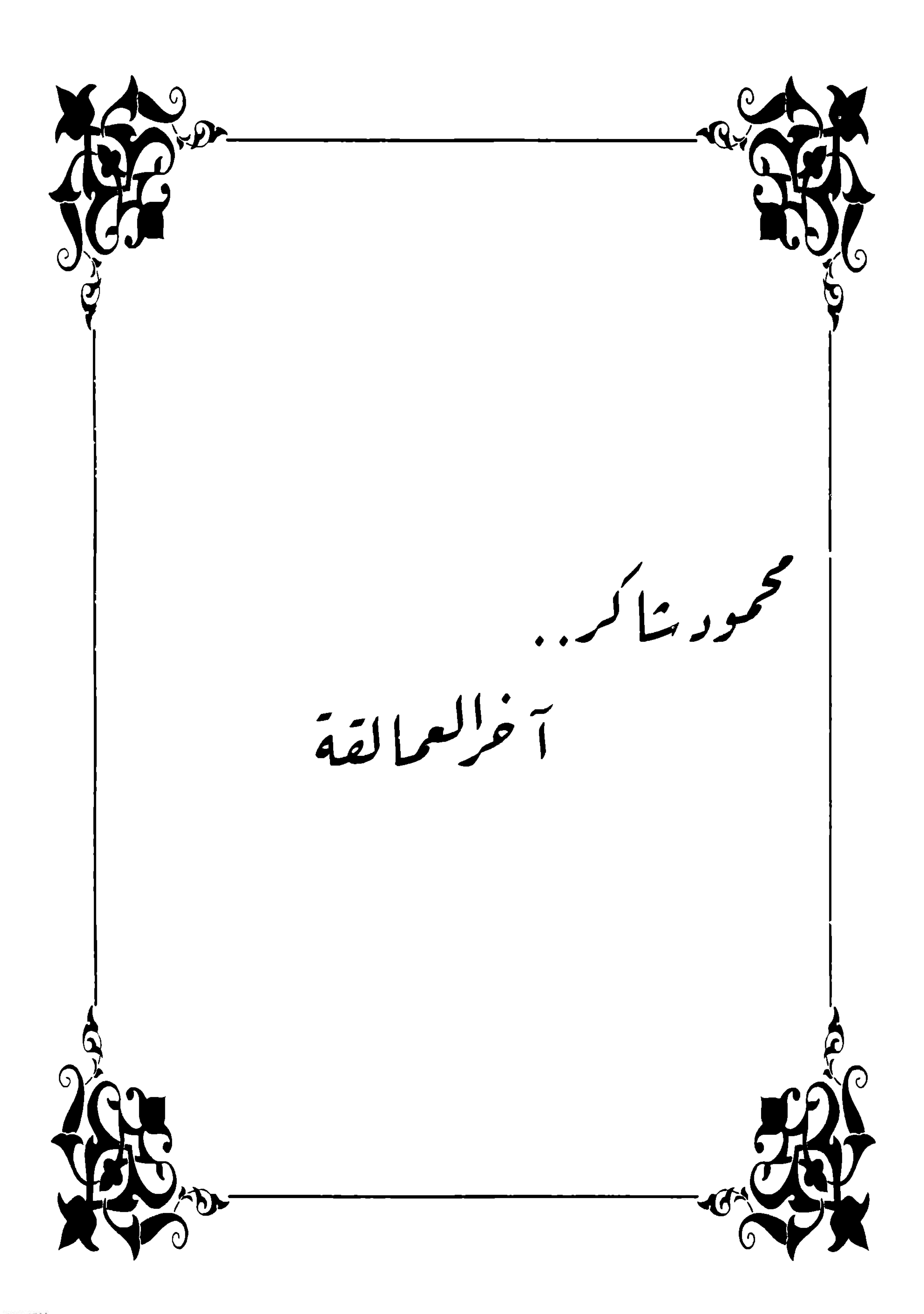
١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الحديث الشريف [الكتب التسعة].

٣ ـ نهج البلاغة.

٤ ـ كتب أدبية ونحوية ومختارات شعرية مختلفة [عيون الأشعار، ديوان حافظ إبراهيم، ديوان جرير، تاريخ الأدب العربي للزيات، العصر الجاهلي والعصر العباسي لشوقي ضيف، شواهد مغني اللبيب، مختارات الشعر الجاهلي للنفاخ، الكشكول للعاملي...].





محمود شاكر..

آخر العمالقة

محمود شاكر.. آخر العمالقة *

"ولو قد يسَّرَ الله لكل شاعر أو كاتب أو عالم صديقاً وفيًّا ينقله إلى الناس أحاديث وأخباراً وأعمالاً - كما يسَّر الله للرافعي - لما أضلّت العربية مجد أدبائها وعلمائها، ولما تفلّت من أدبها علم أسرار الأساليب، وعلم وجوه المعاني التي تعتلج في النفوس وترتكض في القلوب حتى يُؤذن لها أن تكون أدباً يُصطفى وعلماً يتوارث "

محمود محمد شاكر

وما كان قيس هُلكه هُلك واحدٍ ولكنّه بنيانُ قوم تهدّما

شهد عام ١٩٩٧م رحيل رجالات علم وأئمة بيان وفكرٍ لا نظير لهم ولا خلف عنهم، بدءاً من شيخ نحاة العصر الأستاذ سعيد الأفغاني (١٨ فبراير/شباط ١٩٩٧م) وانتهاءً بشيخ أدباء العصر محمود محمد شاكر (٧ أغسطس/آب/ ١٩٩٧م) ومروراً بشيخ شعراء العصر محمد مهدي الجواهري (٢٩ يوليو/تموز ١٩٩٧م) وبشيخ مؤرخي العصر شاكر مصطفى (١أغسطس/آب ١٩٩٧م).

حلف الزمان ليأتينَّ بمثلهم حَنثتْ يمينك يا زمانُ فكفّر

لكنّ أبعدهم أثراً في حمل راية العربية ونصرتها والدفاع عنها، والذّود عن حماها،

---

* نشرت في مجلة الفيصل العدد ٢٦٦ (كانون الأول ١٩٩٨) وكنت قد ألقيت محاضرة بمضمونها في المركز الثقافي العربي بدمشق تحت عنوان "محمود محمد شاكر نمط فرد في التحقيق والأدب والنقد"في العام نفسه، ثم ألقيتها في جامعة الكويت بمناسبة احتفالية الكويت عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠١، وذلك في ٢٠٠١/١٢/٢٥..

والتّصدي لمن ابتلاها[1]، أبو فهر محمود محمد شاكر الذي تفرّد بالسؤدد بعد أن مضى عصر العمالقة، وغيّب الثرى كبار أئمة البيان أمثال الرافعي والعقاد والمازني والزيات وكرد علي وزكي مبارك وطه حسين، فكان أبو فهر الشاهد الوحيد على ذلك العصر، والبقية الباقية لثلّة نفحت العربية بروح نابضة حيّة بعد أن أتى عليها حينٌ من الدهر لم تعد شيئاً مذكوراً، ولكم كان يسوءُه هذا التفرّد فينشد بيت حارثة بنِ بدرٍ الغُداني:

خلتِ الدِّيار فسُدتُ غير مسوَّدٍ ومن الشقاءِ تفرُّدي بالسُّؤدد

ولعلَّ خير عزاء لنا في فقده قول الآخر:

لقد عزّى ربيعةَ أن يوماً عليها مثل يومك لن يعودا

لقد كان أبو فهر صاحب بيانٍ لا يجارى في دنيا الأدب، وأسلوب لا يبارى في دنيا الكتابة، تقرأ له فتسمو نفسك وتعلو مشاعرك حتى تكاد تلامس نجوم السماء، يأسرك أسلوبه الجزل، ويروعك تركيب جمله وعباراته، ويبهرك روعة استشهاده وحسن تأتّيه، ويخلبك تخيُّره لمفرداته وانتقاؤه لكلماته:

في نظام من البلاغة ما شكْـ ـكَ امرؤ أنّه نظام فريد

بل يصح فيها قول القائل:

هي السحر الحلال لمجتليه ولم أرَ قبلها سحراً حلالا

وإذا وقع الاختيار منه على كلمة غريبة أو غير مألوفة، لم يدعها حتى يشرحها، فإذا ما شرحها استبان لك أنَّ كل مرادفاتها التي قد تخطر في البال لا يمكن أن تفي بمعناها، أو أن تُحلَّ محلّها في بنيان ذلك التركيب. استمع إليه يبيّن طبيعة ما سمّاه "مَيدان ما قبل المنهج "(وأمرٌ

---

(١) أي: من ابتلاها بسوء. والبلاء يكون في الخير والشر، يقال: ابتليته بلاءً حسناً وبلاءً سيئاً، والله تعالى يُبلي العبد بلاءً حسناً ويبليه بلاءً سيئاً، نسأل الله تعالى العفو والعافية.

النازلين فيه أمر شديد الخطر، يحتاج إلى ضبط وتحرٍّ وحذر، ولا يغرُرك ما غَرِي به (أي أولع) بعض المتشدقين المموّهين: "أن القاعدة الأساسية في منهج ديكارت هي أن يتجرّد الباحث من كلِّ شيءٍ كان يعلمه من قبلُ، وأن يستقبل بحثه خالي الذهن خلوًّا تامًّا مما قيل "[في الشعر الجاهلي: ١] فإنه شيء لا أصل له، ويكاد يكون، بهذه الصياغة، كذباً مصفى لا يشوبه ذرو من الصدق "والذّرو: دقيق التراب "، بل هو بهذه الصورة خارج عن طوق البشر)[1].

نمط فرد في القراءة والنقد

وكان أبو فهر القارئ الفهم، والمتذوق الحصيف، والناقد المتبصّر لإبداعات العرب في شتى فنون الفكر والتاريخ والأدب ولاسيما الشعر.

فقد نشأ مشغوفاً بالشعر، منهوماً بالأدب، كلفاً بالتاريخ، وسلخ شبابه يعمل في العربية حتى أمكنته اللغة من قيادها وألقت إليه بأسرارها.

ولا أحسب أحداً أوتي في ملكة النقد الأدبي وتذوّق الكلام العربي عموماً والشعر العربي خصوصاً، واكتناه أسراره وتحسس خباياه ودفائنه ـ بعد الإمام الجرجاني ـ مثلما أوتي أبو فهر، ومن شاء الوقوف على حقيقة ذلك فليقرأ كتابه "أباطيل وأسمار "حيث قرأ أبو فهر شيئاً من شعر أبي العلاء ففهمه على وجهه، وهدى الناس إلى فهمه، وأماط عنه ما لحقه من أذى أدّى إليه سوء الفهم ؛ وَلْيقرأ مقالاته التي جعل عنوانها "نمط صعب ونمط مخيف "حيث تناول القصيدة اللامية المنسوبة إلى تأبّط شرًّا:

إنَّ بالشِّعبِ الذي دون سلعٍ ... لقتيلاً دمه ما يُطَلُّ

في سبع مقالات طوال، دار فيها الكلام على كل مسائل التحقيق والعروض وعلاقة

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص ٤١.

البحر العروضي باللغة والمعنى، وتذوق الشعر ونقده، ونقد السند والرجال، وتمحيص الكتب والروايات، وقضية الوحدة العضوية في القصيدة الجاهلية، وترجمة الشعر من لغة إلى لغة. بل ليقرأ ما كَتب عن سيد شعراء العربية "المتنبي "، حيث أعاد أبو فهر قراءة شعر أبي الطيّب ليخرج لنا عمود صورته من خلال شعره على نحو يغاير كل ما كتب الناس وألفوا عن المتنبي مذ كان يسعى بينهم حتى يومهم هذا.

واستمع إليه إن شئت يصف منهجه في القراءة وطريقته في التذوق:

"ويومئذ طويت كلَّ نفسي على عزيمة حذّاء ماضية: أن أبدأ وحيداً منفرداً، رحلة طويلة جدًّا، وبعيدة جدًّا، وشاقّة جدًّا، ومثيرةً جدًّا. بدأت بإعادة قراءة الشعر العربي كلّه، أو ما وقع تحت يدي منه يومئذ على الأصح، قراءة طويلة الأناة عند كلّ لفظ ومعنى، كأنّي أقلّبُهما بعقلي وأروزهما "أي: أَزِنُهما مختبراً "بقلبي، وأجُسّهما جسًّا ببصري وببصيرتي، وكأني أريد أن أتحسسهما بيدي، وأستنشي "أي: أشَمّ" ما يفوح منهما بأنفي، وأسَمّع دبيب الخفيّ فيهما بأذني، ثم أتذوقهما تذوُّقاً بعقلي وقلبي وبصيرتي وأناملي وأنفي وسمعي ولساني، كأني أطلب فيهما خبيئاً قد أخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته، وأتدسَّس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفواً أو سهواً تحت نظم كلماته ومعانيه دون قصد منه أو تعمّد أو إرادة "[١] أي كلام هذا وأيُّ بيان ؟!!

قراءة لا تحقيق

وكان أبو فهر المحقق الثبت الذي لا يُشقّ له غبار، بل كان شيخ المحققين كما نعته كثير من علماء عصره، وما أجمل ما وصفه به الأستاذ عباس محمود عقاد حين قال: "هو على رأس المحققين لأنه أديب فنّان "[٢].

أخرج لقراء التراث أسفاراً لا يقوى عليها إلا أمثاله من فحول التحقيق، من أشهرها

---

(١) المرجع السابق، ص٧.

(٢) دراسات عربية وإسلامية، ص٦١٠.

"طبقات فحول الشعراء "لابن سلاّم في جزأين كبيرين، و"تفسير الطبري "الذي حقق منه ستة عشر جزءاً في كل منها علم غزير هو علم الأوائل الفحول، و"دلائل الإعجاز "للجرجاني في مجلد ضخم ألحق به "الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز وأسرار البلاغة "للجرجاني أيضاً، و"تهذيب الآثار "للطبري، و"جمهرة نسب قريش وأخبارها "للزبير بن بكّار.

وكان في التحقيق أمّة وحده، لم يرتض أن يوصف بالمحقّق وإنما أصرّ على أن يضع على أغلفة ما أخرجه من كتب التراث: "قرأه وشرحه "وكأن في هذه العبارة الحدَّ الفاصل بين طبيعة عمله وطبيعة عمل غيره من أعلام التحقيق. يقول مبيناً ذلك: "وكذلك نبذتُ أيضاً مُستنكفاً لفظ "حقق، وتحقيق، ومحقّق "وما يخرج منها نبذاً بعيداً دَبْرَ أُذني، لما فيه من التبجُّح والتعالي والادّعاء، واقتصرت على "قرأ "لأن عملي في كل كتاب لا يزيد على هذا، أن أقرأ الكتاب قراءة صحيحة، وأؤديه للناس بقراءة صحيحة، وكلُّ ما أعلّق به عليه فهو شرح لغامضه، أو دلالة للقارئ من بعدي على ما يعينه على فهم الكلام المقروء والاطمئنان إلى صحّة قراءته وصحّة معناه لا أكثر، ولا أقل، إن شاء الله "[١]. إنه يوجّه النص، ويبيّن معناه على نحو يجعل منه النص المحرّر المقروء الميسّر لطلاب المعرفة، ذلك لأنه يصدر عن قراءة ترفدها خبرة عالية موسوعية عميقة بطريقة الكتابة العربية ونمط منطقها وطبيعة أساليبها، وهو إذا مال بالقراءة ناحية معينة أتى شرحه مقارباً، وضبطه مقنعاً، وأفق فهمه واسعاً، فخلع على النص بعض تفسيره، وأصبح كأنّه صاحبه ومبدعه[٢].

ولا غرو في ذلك فكلام الشيخ محمود شاكر ـ كما يقول الدكتور الطناحي ـ موصول بكلام الأوائل، منتزع منه، ودالٌّ عليه، ومكمّل له، وهو يسير في طريق الفحول من علماء أمتنا المتقدمين لا تخرِم مِشيته مِشية واحد منهم[٣].

---

(١) برنامج طبقات فحول الشعراء، ص١٥٨.

(٢) الشيخ الذي لم يكن تقليدياً، للدكتور محمود الربيعي، مجلة العربي العدد (٤٦٩).

(٣) من كلمة للدكتور محمود الطناحي في مقدمة كتاب الشعر الفارسي، ١/٦٩.

فن لا يغني عن فن

وكان أبو فهر العالم الموسوعي الذي نُشرت أمامه العربية كلُّها فراح يعُبُّ منها ويرفدنا بسيل من المعارف، ففي آثاره ما شئت من فقه باللغة، وبصرٍ بالعربية، وتذوّق للشعر، ومعرفة بالتفسير، ودراية بالحديث، ورواية للأخبار، وتتبُّع للآثار، وحفظ للشواهد، وتمثّل للتاريخ، وتحليل لوقائعه تحليلاً لا يرقى إليه نوابغ المختصين فيه. وإلى هذا كله ذهن لمّاح، وبصر حديد نافذ. وحسن مواتاة أوفى فيه على الغاية، وصار مضرب المثل.

ولا غرو فعلم الأمة عنده كلّ متكامل لا يستغني بعضه عن بعض، ولا يغني فن عن فن.

وكثيراً ما كان يُسأل عن مسائل أعيت أصحابها بحثاً عنها في المظانّ وتنقيراً في المصادر والمراجع فيستخرجها من غير مظانِّها.

تحسّس دبيب المكر الخفي

والأستاذ شاكر ـ فوق ذلك كلّه وقبل ذلك كله ـ قلب نابض بحبٍّ أمته وتحقيق آمالها، وعقل واعٍ لتاريخها وثقافتها، وعينٌ راصدة لعالمها المتراحب، وحارس أمين يحرسُها من كلِّ خطر دقّ أو جلَّ، ومن كل عدو تخفّى أو تبدّى.

سخّر قلمه وعلمه للدفاع عن العربية لغة القرآن، يقول في مقدمة تحقيقه لدلائل الإعجاز: "وأسأله أن يُعينني على ما أقحم نفسي فيه من عمل أريد به وجهه سبحانه، ثم ما أضمره من خدمة هذه اللغة الشريفة النبيلة التي شرّفها الله وكرّمها بتنزيل كتابه بلسان عربي مبين "[(١)].

ونذر نفسه لفضح ما دُسّ من دسائس، وما حيك من مؤامرات، وما دُبّر من مكر ضدّ هذه الأمة وتاريخها ورجالاتها ودينها ولغتها.

---

(١) مقدمة دلائل الإعجاز، صفحة ل.

وكان شعاره في ذلك قول رسول الله : "ألا لا يمنعنَّ رجلاً هيبة الناس أن يقول بحقٍّ إذا علمه "[(١)].

هاهو ذا يصف تحسُّسه لدبيب المكر الخفي يتسرّب من وراء سطور قرأها : "ولكني كنت امرأ نهماً يأخذه للكلام المكتوب سُعار ، فتناولت الصحيفة وبدأت أقرأ سطراً بعد سطر ، وكان الضحك يشقُّ عن حلقي ، ويباعد بين فكي.. حتى فوجئت بشيء أمسك عليَّ ضحكي ، وكظمه في بلعومي ، شيء سمعت حسّ دبيبه من تحت الألفاظ ، فجعلت استسمِعُه فإذا هو :

كشيش أفعى أجمعت لعضٍّ　　　فهي تحُكُّ بعضَها ببعض[(٢)]

وفي كلامه هذا من لطافة الحسّ ، وخفة الروح ، ورحابة النفس ما لا يخفى على أحد ، وهذا ديدنه وهجِّيراه في كلِّ ما كتب ، فروح الفكاهة لا تكاد تخطئه ، ولو كان يهجو ويشتُم[(٣)] وقد أعانه عليها استحضار للشواهد عجيب ، وتمثّلٌ للأمثال غريب ، وقلب واعٍ ، وفؤاد ذكيّ لمّاح ، وفيضٌ من عذوبة ماء النيل الذي حبا الله به مصر وأهل مصر. يقول بعد أن فضح أساليب المستشرقين وغطرستهم المتعالية معلّلاً غفلة أحدهم عن كتاب كان منه على طرف الثُّمام : "ولكنَّ العلة في الحقيقة هي أن الأهواء الكامنة المتسترة تحت التعالم تارة ، وتحت التظاهر بالإنصاف تارة أخرى ، هي من الحدّة والشراسة بحيث تجعل العقل المستشرق يمشي في كتب لغة العرب ، بصفة أبي النجم التي وصف بها نفسه عندما يخرج من بيت صديقه زياد ثملاً يترنح :

أخرج من عند زيادٍ كالخَرِفْ　　　تخُطُّ رجلايَ بخطٍّ مختلف

كأنّما تُكتّبانِ لامَ الفْ[(٤)]

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ص٥. وثمة تخريجه.

(٢) أباطيل وأسمار ، ص١١ ـ ١٢.

(٣) كان العقاد يقول : "إن مفتاح شخصية الكاتب أو الأديب هو روح الفكاهة عنده" ، وقد شهد أن حظ الأستاذ محمود شاكر منها عالٍ زائد ، انظر مقدمة الدكتور الطناحي لكتّاب الشعر ، ١/٥٦ ، حاشية رقم (١).

(٤) برنامج طبقات فحول الشعراء ، ص١٢٤.

ويقول بعد أن قرأ مقالة المستشرق مرجليوث عن الشكل في الشعر الجاهلي في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية: "ثم بعد أيام لقيتُ أحمد تيمور باشا، وأعدتُ إليه المجلة، فسألني: ماذا رأيت؟ قلتُ: رأيت أعجميًّا بارداً شديد البرودة، لا يستحي كعادته! فابتسم وتلألأت عيناه، فقلتُ له: أنا بلا شك أعرف من الإنجليزية فوق ما يعرفه هذا الأعجم من العربية أضعافاً مضاعفة، بل فوق ما يمكن أن يعرفه منها إلى أن يبلغ أرذلَ العمر، وأستطيع أن أتلعّب بنشأة الشعر الإنجليزي منذ شوسر إلى يومنا هذا تلعُّباً هو أفضل في العقل من كل ما يدخل في طاقته أن يكتبه عن الشعر العربي، ولكن ليس عندي من وقاحة التهجّم وصفاقة الوجه، ما يسوّل لي أن أخط حرفاً واحداً عن نشأة الشعر الإنجليزي. ولكن صروف الدهر هي التي ترفعُ أقواماً وتخفض آخرين، قد أنزلت بنا وبلغتنا وبأدبنا ما يبيح لمثل هذا المسكين وأشباهه من المستشرقين أن يتكلموا في شعرنا وأن يجدوا فينا من يستمع إليهم، وأن يجدوا أيضاً من يختارهم أعضاء في بعض مجامع اللغة العربية!!!"(١).

وأبو فهر - كما هو بيّن - من أعلم الناس بمواطن السخرية في الكلام، كيف تكون؟ ومتى تكون؟ ومع من تكون؟ وقلّ من الكتّاب من يجيدها أو يتقنها، لأنها كما يقول: "من أشقِّ ضروب الكتابة، وليس يغني فيها أن يشتري المشتهي قلماً بقرش، وورقاً بقرشين، فإذا هو كاتب ساخر.."(٢).

تربية الرجال

وكان أبو فهر - أحسن الله جزاءه - أستاذاً إماماً تخرّج به رجال صاروا ملء السمع والبصر علماً وفضلاً، ورواية ودراية، في شتى صنوف المعرفة اللغوية والأدبية والتاريخية والنقدية.

---

(١) المتنبي، ١/١٢.

(٢) نمط صعب ونمط مخيف، ص٣٩١.

يبني الرجال وغيره يبني القرى   شتّان بين قرًى وبين رجالِ

فقد خلص إليه طلاب العلم وروّاد المعرفة ينهلون من معينه، ويهتدون بسديد رأيه، ويسترشدون بطويل خبرته ونفاذ بصره وبصيرته، يفزعون إليه في مشكلاتهم، ويفيدون من خزائن كتبه ونفائس مخطوطاته ونوادر مقتنياته. وكان شيخنا النفاخ واحداً منهم. وهو الذي يقول في تقديم ما صنعه من ديوان ابن الدمينة: "ولا يسعني في ختام هذه الكلمة إلا أن أتقدم بأعمق الشكر إلى الأخ الكبير العلاّمة الراوية المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر الذي طالما أفدت من علمه ومكتبته - لا زالت معمورة - وطالما فزعت إليه فيما اعترضني من مشكلات، فكان لي من علمه الجمّ وبصره النافذ خيرُ معين "[١].

وهكذا غدا بيته مثابة للعلماء والباحثين، وقبلة لعشّاق العربية ودارسيها، أمُّوه من كل مكان على اختلاف أوطانهم وأعمارهم واختصاصاتهم وميولهم وانتماءاتهم ومشاربهم، فانتفعوا بعلمه، وصار لكثير منهم به نباهة وشأن وذكر.

فمن سورية أستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ رحمه الله، وهو الذي عرّفنا فضل الأستاذ شاكر وسَبْقه، ودلّنا على آثاره، وأتاح لنا الاطلاع على بعض ما لم يكن مطبوعاً منها في كتاب[٢].

ومنهم أستاذنا الكبير الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق حفظه الله وعافاه، والأستاذ الدكتور إحسان النص نائب رئيس المجمع، والأستاذ الدكتور مازن المبارك والأخ الدكتور عز الدين البدوي النجار. وغيرهم كثير. ومن السعودية علاّمة الجزيرة الأستاذ حمد الجاسر "وهو صنو الأستاذ وقرينه"، والأستاذ الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، والأستاذ الدكتور عبد الله العسيلان. وغيرهم كثير.

---

(١) ديوان ابن الدمينة، ص٧.

(٢) أطلعني رحمه الله على كتاب المتنبي يوم لم يكن منه نسخة واحدة في السوق، وكان الأستاذ محمود قد خصّه بعدد من النسخ، وأعارني - أحسن الله مثوبته - مقالاته السبع (نمط صعب ونمط مخيف) وأشفق عليّ آنذاك من وعورة مسالكها وصعوبة نمطها.

ومن الكويت الأستاذ الدكتور يعقوب يوسف الغنيم وزير التربية والتعليم الأسبق وشقيقه الأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم وزير التربية الحالي[١]، والأستاذ الدكتور عبد الله محارب، والأستاذ جمعة محمد الياسين، والأستاذ جاسم المطوّع.. وغيرهم كثير. ومن الأردن الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد وزير التعليم العالي، والأستاذ الدكتور محمد حسن عواد وغيرهما. ومن العراق الأستاذ الدكتور عبد الله الجبوري، والأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور نوري القيسي والدكتور بشار عواد.. وغيرهم كثير. ومن فلسطين الأستاذ الدكتور إحسان عباس وغيره. ومن المغرب الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة وغيره. ومن تونس الأستاذ الدكتور إبراهيم شبوح وغيره.

ومن أرض الكنانة خلق لا يحصون، أذكر منهم الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم، والأستاذ الوزير فتحي رضوان، والأستاذ الوزير الدكتور حسن الباقوري، والشاعر حسن كامل الصيرفي، والأستاذ الدكتور حسين نصار، والروائي المعروف الأستاذ يحيى حقي، والشاعر محمود حسن إسماعيل، والأستاذ الدكتور محمود الطناحي، والأستاذ العروضي الحساني حسن عبدالله، والأستاذ الأديب عبد الحميد البسيوني، والأستاذ الدكتور محمود الربيعي.. وغيرهم وغيرهم كثير كثير[٢].

وكان أبو فهر ـ أكرم الله مثواه ـ حفيًّا بأصحابه وإخوانه، وفيًّا لعهدهم برًّا بهم، ألوفاً لصحبتهم، كالذي قال أبو الطيّب:

خُلقتُ ألوفاً لو رجعت إلى الصِّبا ... لفارقتُ شيبي موجعَ القلب باكيا

يتبدى ذلك جليًّا في حاله ومقاله، وحلّه وترحاله، ويعرف ذلك عنه كلُّ من قرأ له عن بعد أو من زاره فعرفه من كثب وقرب، أو دنا منه ووصل سببه بأسبابه فجالسه وخالطه، وآكله وسامره وأكرِم به من جليس، وأعظِمْ به من عشير.

---

(١) كان ذلك عند كتابة المقال، أما اليوم فهو مدير مركز البحوث والدراسات الكويتية.

(٢) أعتذر عن الإحاطة بهم جميعاً، فالمقام والمقال لا يتسعان لكل هذا، وهم حفظهم الله أجلُّ من أن يعتبوا.

ولعل خير شاهد على برّه بشيوخه ما كان من موقفه لدى وفاة أستاذه الرافعي، فقد بلغ به الأمر أن أوقف معركته المشهورة مع الدكتور طه حسين، يقول في مقدمة الجزء الثاني من كتابه المتنبي: "ثم لم أثبت شيئاً مما كتب عن كتابي هذا مما فيه ثناء عليه لقلة انتفاع هذا الجيل به، إلا كلمةً واحدةً أثبتها، لا لما فيها من ثناء، بل لأنّ صاحبها كان أستاذي وصديقي، ولأن وفاته كانت أحدَ الأسباب الداعية إلى ترك الاستمرار في نقد كتاب الدكتور طه، رحم الله الرافعي، وغفر له، ولنا جميعاً "[(١)].

وهو في هذه المقدمة نفسها يضرب أروع الأمثلة في نسبة الفضل إلى أهله، والثناء على أصحابه، وإن كانوا من طلاّبه:

"... وأما التراجم الثلاث الأخر فقد بيّنتُ أمرها في مقدمة الطبعة السابقة، وكان الفضل كل الفضل في الوقوف على هذه التراجم الثلاث الأخيرة مصروفاً إلى أخي وصديقي الأستاذ الجليل أحمد راتب النفاخ عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، نقل بعضها قديماً بخطّه، وصوّر لي بعضها. وشكري له لا يفي بقليل كرمه، فكيف بالكثير الذي غمرني به آسياً ومُواسياً في كل ضرّاء لحقتني، أو آتياً ومواتياً في كل سرّاء زادها بهجة إسراعه إليَّ وهو أنا، وأنا هو، أطال الله بقاءه ونفع به "[(٢)].

أسمعتم شيخاً يشكر تلميذه بمثل هذا الضرب من التبجيل والتكريم والحفاوة والتعظيم؟! إنه كرم في النفس وسموٌّ في البيان يفوق كل وصف أو تقدير، بل لقد وصل به الأمر إلى أن سمّاه - أي الأستاذ النفاخ - أستاذه في موضع آخر من الكتاب نفسه حيث يقول: "وذات يوم دخل عليّ يتهلّل وجهه، وتنير أساريره صديقي وتلميذي، وأستاذي فيما بعد، الأستاذ أحمد راتب النفاخ، وهو اليوم عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، ومدّ يده بورقات مكتوبة بخطه.. "[(٣)].

---

(١) المتنبي، ٣٩٥/٢.

(٢) المتنبي، ٣٩٦/٢.

(٣) المتنبي، ٥٤/١.

فلسفته في إتقان العمل

وكان الإتقان ديدنه في الحياة، حين يكتب، وحين يحقق، وحين يبدع، وحين ينقل إلينا إبداع المبدعين، بل حين يُزاول أيّ عمل من الأعمال، حتى صار كما قال في مقدمة "القوس العذراء": "وإذا كلُّ عمل يفصم عنه متقناً، وكأنّه لم يجهد في إتقانه، وإذا هو مشرف فيه على الغاية، وكأنه مسلوب كلّ تدبير ومشيئة، ولكنه لا يفصم عنه حين يفصم، إلا مطويًّا على حُشاشة من سرّ نفسه وحياته، موسوماً بلوعة مُتضرِّمة على صبوة فنيت في عشرته ومعاناته"[1].

وما قوسُه العذراء هذه سوى عصارةِ فلسفته في إتقانه العمل:

ما هي قوس في يَدَيْ نابلٍ وإنّما ألواح سحر نزلْ[2]

وذلك لأنه استلهمها من عمل رجل أتقن عمله حتى أوفى به على الغاية، إنه عامرٌ أخو الخُضر الذي جاء وصفه في قصيدة الشماخ رجلاً يتعيش بكدِّ يديه، صابرَ الفاقةَ عامين، ثم شمّر عن ساعد الجدِّ فتخيّر قوساً من أطيب الشجر وأحسنه، وتوفّر عليها، فأحسن قطعها وصنعها وتمظيعها [أي: وضعها في الشمس لتشرب ماء لحائها] وتثقيفها وتقويمها وذوقها مختبراً شدّتها ولينها، حتى إذا استوت في يديه آيةً في الإبداع:

إذا أنبَضَ الرامون عنها ترنّمت ترنّمَ ثكلى أوجعتها الجنائز

وافى بها أهل الموسم، فأغراه مقتنص خبير رائز للنفائس بما بهره، وكاد يُنسيه ما عانى من صنعها وكابد في إتقانها، ولكنه تماسك وجعل يناجي نفسه متردّداً بين بؤس مخلٍّ وثراءٍ مذلٍّ، بين حنين تخالطه الفاقة والفقر وأنين دونه النُّعمى والغنى:

---

(١) القوس العذراء، ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) من قصيدة "فيها" للشاعر محمود حسن إسماعيل، القوس العذراء، ص٨.

يـــرى نِعمـــةً لبســـت نِقَمـــةً ونـوراً تـدجّى وسـحراً بطـل[١]

وقطع عليه تردُدَه أصواتٌ أحاطت به من كل ناحية تستحثه على البيع فباعها، وما إن شعر بفقدها حتى بكاها "وفي الصّدر حزّاز من الوجد حامز".

وصف الشماخ هذا القوّاس وقوسه فأجاد الوصف، ولا غرو فهو أحد الشعراء الوصّافين، أُنشِدَ الوليد بنُ عبد الملك شيئاً من شعره في صفة حُمُرِ الوحش فقال: "ما أوصفه لها! إنّي لأحسَب أحدَ أبويه كان حماراً "[٢].

وقرأ أبو فهر ما جاء في هذا الوصف فافتُتن به، أعجب بالواصف كما أعجب بالموصوف، وفيه يقول: "لم أعرفه، ولكن حدثني عنه رجل مثْلُهُ، علمَهُ البيان، ذاك فطرته في يديه، وهذا فطرتُه في اللسان "[٣] وكان أن عمد إلى قصيدة الشمّاخ هذه ذاتِ الثلاثة والعشرين بيتاً فاستلهم منها بيانها الحافل، وتذوّقها غائصاً في أغوار دلالة ألفاظها وتراكيبها ونظمها، فأثار بهذا التذوق دفائن نظمها ولفظها، واستدرج خباياها المتحجبة من مكامنها، وأماط اللثام عن أخفى أسرارها المكتّمة وأغمض سرائرها المغيّبة، فبعثها من مرقدها ضمن قصيدة تزيد على ثلاثمئة بيت، كلُّ ما فيها نبيثة مستخرجة من بيان أبيات الشمّاخ ومن رِكاز نظمها وكلماتها[٤].

وكان أبو فهر يتوخّى في كل ما يعمل وجه ربه، ويرجو أن يكون عمله خالصاً له لا تشوبه شائبة من أمر الدنيا، أحسبه كذلك ـ وعلى هذا مدار عمله كله ـ ولا أزكي على الله أحداً، يتبدّى ذلك جليًّا في كل ما كتب وحقق وأخرج للناس، ولعل خير ما يجلو هذا المعنى كلمته في مستهل تحقيقه لتفسير الطبري:

---

(١) القوس العذراء، ص ٦٧.

(٢) القوس العذراء، ص ١٠.

(٣) القوس العذراء، ص ٣٠.

(٤) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص ٢٧.

"وبعد فقد بذلت جهدي، وتحرّيت الصواب ما استطعت، وأردت أن أجعل نشر هذا الكتاب الإمام في التفسير، زُلفى إلى الله خالصة. ولكن كيف يخلص في زماننا عمل من شائبة تشوبه ! فأسأل الله أن يتقبّل مني ما أخلصت فيه، وأن يغفر لي ما خالَطَهُ من أمر هذه الدنيا، وأن يتغمّدني برحمته يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم... "[١].

خاتمة

وبعد، فإن أبا فهر أعظم من أن يحيط بفضله مقال، أو يحصي مناقبَه ويُعدّد مزاياه كتاب أو خطاب، وكم في القلب من معنى أجدني عاجزاً عن التعبير عنه، وكم في النفس من شعور لم يستطع قلمي أن يترجمه كلاماً يكتب أو بياناً يُؤثر. إنها مشاعر كل محبّ للعربية وأهل العربية، وما أحسن ما عبّر أبو فهر عن مثل هذا بقوله:

"وقد وجدت في نفسي شيئاً طلبت الإبانة عنه فلا أدري أأحسنت أم أسأت، أبلغت أم قصرت، وما كل ما تحسُّه واضحاً في نفسك تستطيع أن تحسن الإبانة عنه، ورحم الله إمامنا الشافعي فقد قال عندما سئل عن مسألة: إني لأجد بيانَها في قلبي ولكن ليس ينطلق بها لساني"[٢].

وأنت يا أبا فهر، كأنّي بأبي العلاء المعري ما يعني إلاّك في قوله:

مـن النـاس مـن لفظُـه لؤلـؤٌ ... يبـادِره اللقـطُ إذ يُلفـظُ

ويعني شانئيك من دعاة الحداثة والتجديد وتمزيق التركيب العربي وكسر رقبة الشعر العربي بقوله:

وبعضُـهُمُ قولُـه كالحصـا ... يقـال فيُلغـى ولا يُحفـظُ

---

(١) مقدمة تفسير الطبري، ١/ ٢٠.

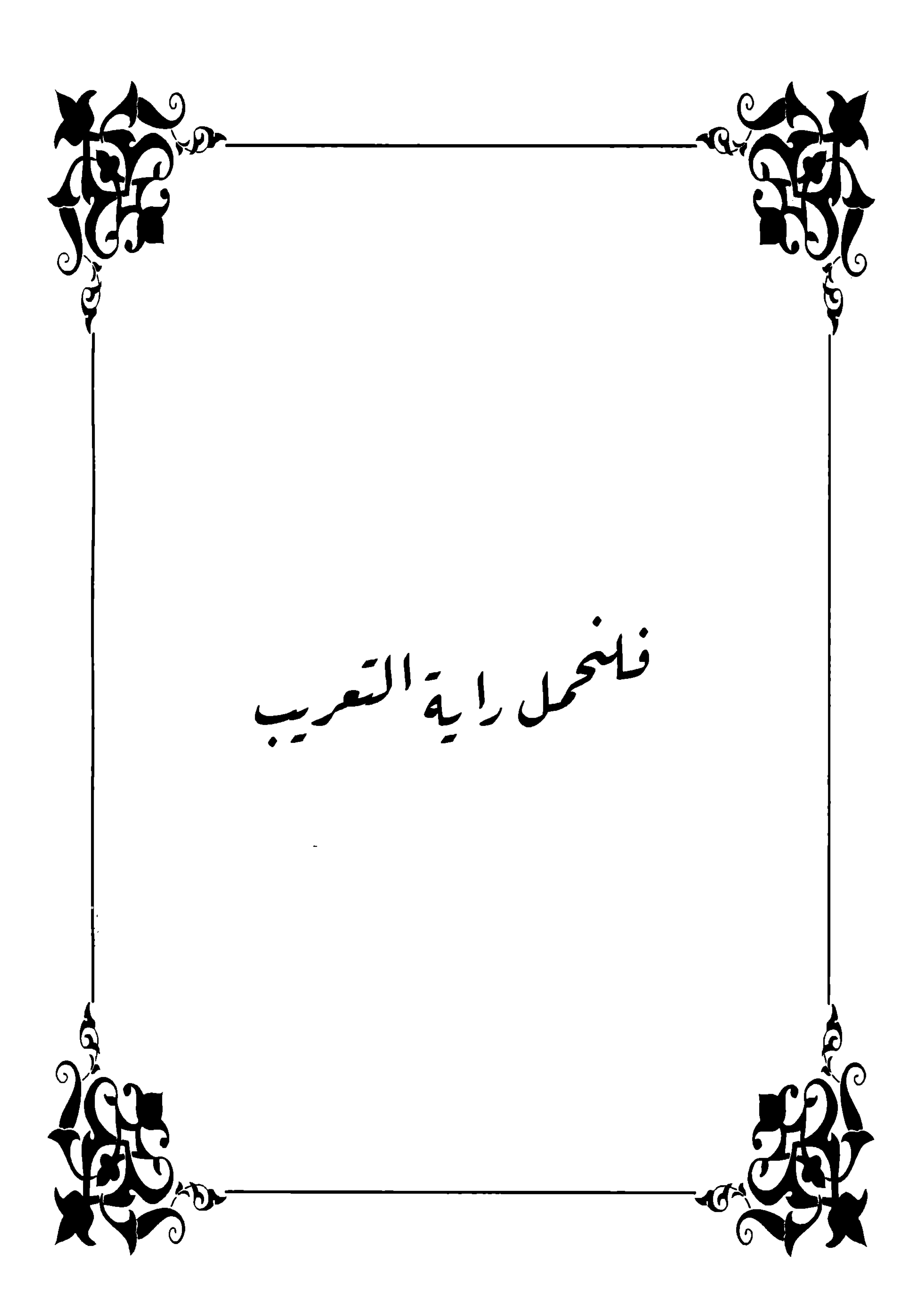
(٢) نمط صعب ونمط مخيف، ص١١٦.

ستبقى آثارك الرائعة شاهدَ صدق على علمك وعلوّ بيانك، وحجّةَ حقٍّ على إيمانك وجهادك، وأرجو أن تكون زُلفى لك عند ربك تنال بها رضاه، وتبلغ بها غايتك وسؤلك.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

رحمك الله الرحمة الواسعة وأجزل لك الأجر والمثوبة.





فلنحمل راية التعريب

فلنحمل راية التعريب *

قديماً قالوا: "إن الخلاف في الرأي لا يفسد للودّ قضية ". وقد شهدت ساحات العلوم خلافات ومطارحات حفلت بالآراء والأفكار، ونجم عنها خير كثير، وفكر سديد، وعلم ينتفع به.

ولقد شدّني هذا الخلاف الناشب حول (الحاسوب) و(الكمبيوتر) وهو بلا ريب فرع عن مسألة أكبر، تلك هي مسألة الصراع بين الأصيل والدخيل التي ابتدرها الأستاذ فداء ياسر الجندي، وأسهم فيها الأستاذ عبد القادر الكاملي وشارك آخرون من ورائهما، فكنت أتابعه بشغف به، وإكبارٍ للمتحاورين الذين لم يُفسِد خلافُهم للودّ قضية، بل كنت أشعر برباط الأخوة الذي يربطهم، واعتصامهم بالحق الذي كان وما زال رائدهم.

وحسب هذا الخلاف أنه دفع إلى تخصيص ركن لمواضيع اللغة العربية والتعريب، وفتح ندوة تعريب الحاسوب وتقنية المعلومات ليكون قد آتى أكله على خير وجه. والشكر مصروف أولاً وآخراً إلى مجلتنا الحبيبة والقائمين عليها، جزاهم الله عن العربية وأهلها خير الجزاء.

وإذا قدِّر لي أن أنخرط في هذا الحوار أو أسهم في هذه الندوة، فإني أقف إلى جانب التعريب وأدعو إليه وأذود عنه مؤيداً ما جاء من دلائل بينة عليه ومؤازراً بإضافة النقاط التالية إليه:

١ ـ إذا استسلمت الأمة للحضارة الوافدة وذابت فيها فسيكون مآلها إلى الفناء. ولقد أشار إلى ذلك مؤسس علم الاجتماع عالمنا الفذّ ابن خلدون في مقدمته حيث يقول: "إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده "ثم يقول: "إن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء "[1].

❖ كتبت هذه المقالة بطلب ملحّ من الأستاذ فداء ياسر الجندي المحرر في مجلة (p.c.Magazine) الطبعة العربية (عام ١٩٩٩) وأرسلتها إلى الأستاذ المذكور ولم أتلق حتى اليوم جواباً عنها فما أدري أنشرت أم أهملت!!.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٣٧.

٢ ـ قبولُ المصطلح الأجنبي في العربية مرهونٌ بصياغته وَفْقَ المقاييس والأوزان الصرفية العربية بحيث يصبح قابلاً للتعريف والاشتقاق بمختلف أنواعه والنسبة والتصغير... ككلمة دِرْهم التي استعمل منها: دَرْهَمَه ومُدَرْهَم ودِرْهَمِيّ ودُرَيْهِم... ولعلّ من طريف استعمالاتها ما جاء على لسان أستاذنا الدكتور مازن المبارك حينما نفِد ما عنده من مال عندما كان طالباً مغترباً في القاهرة، فأرسل برقية يستنجد فيها بأهله، اقتصر فيها على كلمة "دَرْهِمُونا". ومن ذلك أيضاً فِهْرِس وفَهْرَسة وفهارس ومفهرسة، وهندسة وهندسية ومهندس، وتِلْفاز وتَلْفَز، وبَسْتَر، وكَهْرَب، وقَوْلَب... فكل هذه المصطلحات دخلت في صميم العربية، واشتقت منها كلمات أنْسَتِ الناسَ أصلها الأول، فهل يستقيم ذلك في كلمة (كمبيوتر) ؟!!..

٣ ـ إن التذرع بكثرة من يستعمل كلمة (كمبيوتر) لا يقتضي أبداً صوابها أو تصويبها، لأن الأكثرية لا تعني بالضرورة الحقَّ، فقد تكون الغلبة لغير أهل الحق لكثرتهم، يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ مع أن اتخاذ المساجد على قبور الصالحين منهيّ عنه شرعاً، لقوله ﷺ: "ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك" [رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة].

٤ ـ إن ما نشعر به اليوم من قصور لغتنا وعجزها عن اللحاق بركب الحضارة، شعر به الغربيون إبان نهضتهم حينما كانوا يترجمون الكتب العربية إلى اللاتينية، ولنستمع إلى بترارك شاعر الطليان يستنهض قومه ويبث في نفوسهم الثقة والعزيمة: "ماذا ؟ لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديمستن، واستطاع فرجليوس أن يكون شاعراً بعد هوميروس، وبعد العرب لا يسمح لأحدٍ بالكتابة !! لقد جارينا اليونان غالباً، وتجاوزناهم أحياناً، وبذلك جارينا وتجاوزنا غالبية الأمم، وتقولون إننا لا نستطيع الوصول إلى شأو العرب! يا للجنون! ويا للخبال ! بل يا لعبقرية إيطاليا الغافية أو المنطفئة "[١].

---

(١) عن مقال للدكتور عبد الكريم اليافي في مجلة اللغة العربية بدمشق مج٦٣ ج٢ ص١٩٨.

٥ ـ كثيراً ما يوجد مصطلحان ؛ الأول عربي أصيل، والثاني أعجمي دخيل، فينتشر الثاني بين الناس بادي الرأي لا لكونه هو الأفضل أو الأنسب، وإنما لجهل الكثيرين بالمصطلح الأصيل ؛ إما عن قصور أو تقصير أو عن كليهما.

ولكن للباطل جولة ثم يضمحل، وللحق دولة لا بد أن تظهر، فلا يلبث المصطلح الدخيل أن يزول، ولا يلبث المصطلح الأصيل أن يظهر وينتشر.

والأمثلة على ذلك كثيرة أذكر منها (الهاتف والتلفون ـ السيارة والأوتوموبيل ! ـ والجريدة والجورنال ـ ومبنى الحكومة والسراي).

٦ ـ في تراثنا العربي الإسلامي إرث هائل من المصطلحات العلمية استعملها أجدادنا وهم يتربعون على عرش الحضارة الغالبة المتبوعة، ونسيناها ونحن نقتات على فتات الحضارة مغلوبين تابعين. ولكن حركة التعريب الناشطة في أوائل هذا القرن أسهمت في إحياء جزء منها ولاسيما في علوم الطبّ، وما زالت الكثرة الكاثرة تنتظر من ينهض بها أو ينهد لها ليبعثها من مرقدها بعد طول سُبات، وليذيعها وينشرها بعد طول خمول، وقد وُفّقنا إلى شيء من هذا القبيل في عمل اتصلت أسبابنا به[1]، وهو تحقيق ما في تراثنا من مخطوطات في علم التعمية واستخراج المعمى (التشفير وكسر الشفرة) إذ تكشّف لنا هذا التراث عن مئات المصطلحات العربية المستعملة في هذين العلمين مثل: (التعمية ـ التعمية المركبة ـ استخراج التعمية ـ المفتاح ـ الرمز ـ المدمج ـ الفاصل ـ الكلمة المحتملة ـ الأغفال ـ التبديل ـ الأحبار السرية ـ الإعاضة...)[2] مما يمكن أن يؤلف نواة لمعجم متخصص يستغني فيه الباحثون عن كثير من المصطلحات الدخيلة أو الوافدة في هذا المجال العلمي الخصب، ولا يخفى ما لهذا العلم من أهمية في حياتنا اليومية تتبدّى في التطبيقات المختلفة له في المجالات العسكرية، والمالية المصرفية، والتجارية، والإعلامية (القنوات الفضائية)، والمعلوماتية (أمن الحاسوب).

---

(١) وقد نتج عنه إنجاز موسوعة علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، نشر جزؤها الأول سنة ١٩٨٧ والثاني سنة ١٩٩٧ عن مجمع اللغة العربية بدمشق ولايزال العمل مستمراً.

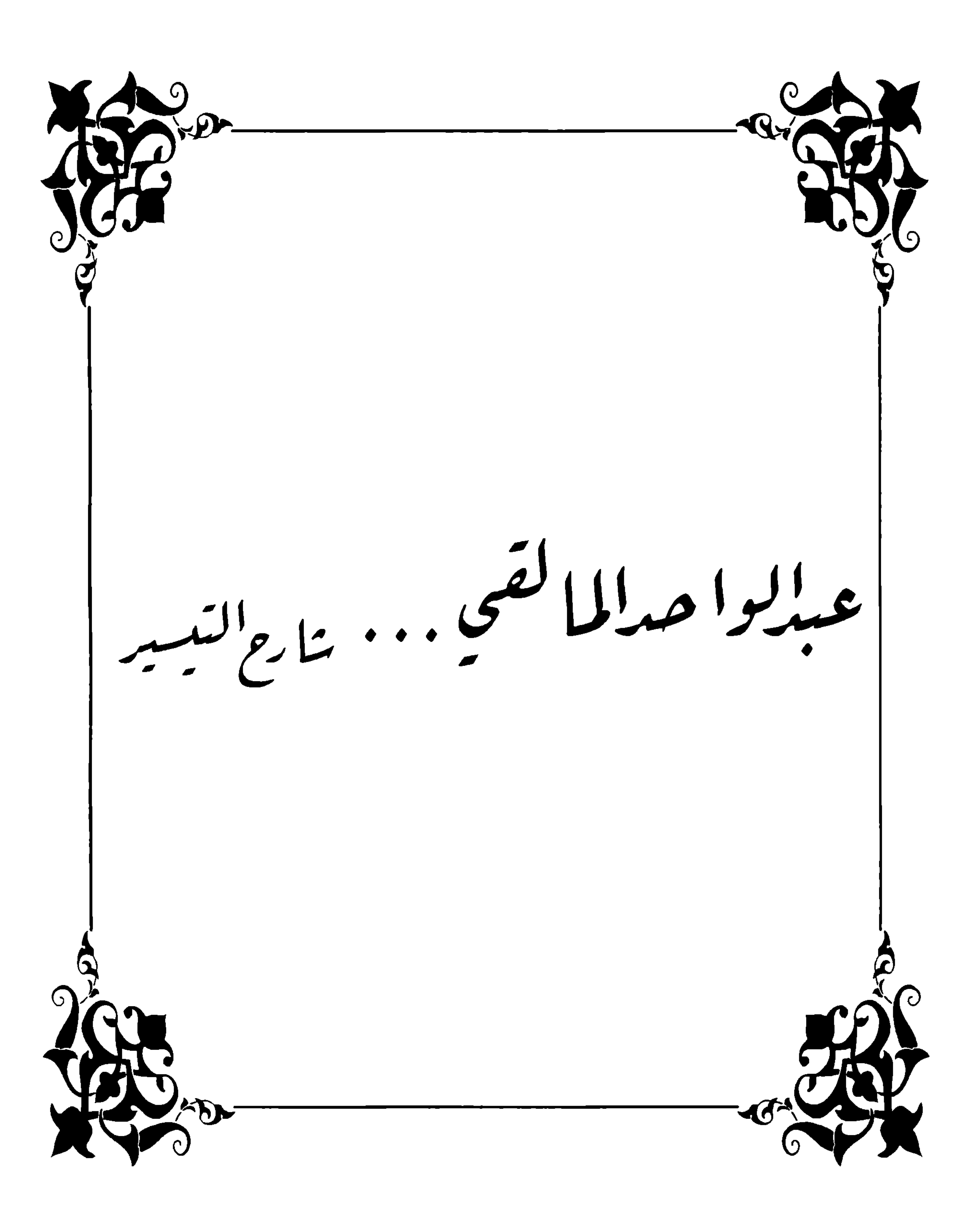
(٢) انظر فهرس علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب ١/ ٣٨٥ ـ ٣٩٨.

وبعد فإنه لا يداخلني ريب ولا يخالجني شك أن انتصار العربية واستحكام أمرها نتيجة حتمية تشير إليها كل المقدمات وتؤكدها كل الدلائل. فالعربية باقية ما دام في الأرض قرآن يتلى وذكر يرفع ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

فإذا كان الأمر كذلك فليكن لنا شرف الإسهام، ولتكن هذه المجلة منبراً سبّاقاً لتحقيق هذه الغاية في غدٍ مأمول قريب:

فإنْ يكُ صَدْرُ هذا اليوم ولّى ... فإنّ غداً لناظره قريبُ





عبد الواحد المالقي ... شارح التيسير

عبد الواحد المالَقي... شارح التيسير❖

يعدُّ المالَقي (٧٠٥هـ)، واحداً من أبرز علماء القراءات القرآنية في الأندلس، فقد شرح كتاب التيسير للداني[١]ـ وهو من أشهر كتب القراءات القرآنية، وعمدة القرّاء في هذا الفن والأصل الذي نظم عنه الشاطبي قصيدته المشهورة بالشاطبية ـ وتصدّر للإقراء والإجازة دهراً طويلاً في كلٍّ من غرناطة ومالَقة، فتخرّج به الكثيرون، وأفاد من كتابه كبار المؤلفين في فن القراءات ولعل أبرزهم ابن الجزري (٨٣٣هـ) خاتمة المحققين وإمام القرّاء في كتابه الكبير "النشر في القراءات العشر".

❖ ❖ ❖

❖ نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٥ الجزء ٢ (١٩٩٩).

(١) أفردتُ للداني أبي عمرو وكتابه التيسير مقالاً نشرته مجلة المجمع في مج: ٦٨، ص٣٤٦ ـ ٣٦١ بعنوان "دفاع عن كتاب التيسير للداني".

ترجمة المالَقي[١]

◆ اسمه ونسبه

عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السَّداد، أبو محمد، الأمويّ الأندلسي، المالَقي، الشهير بالباهليّ والبائع.

فهو ينتسب إلى بني أمية، البيت ذوي الأوَّليّة والشأن في الأندلس، إذ كان منه الولاة والأمراء ثم الخلفاء، وهو واحد من بيوتات كثيرة ينسب إليها الأندلسيون[٢]، ولعلَّ نسبته إلى الأمويين إنما هي بالولاء شأن الكثير من الأندلسيين؛ لأن شهرته بالباهليّ لا تتفق مع هذه النسبة.

وينتمي إلى الأندلس عامة، وإلى مَالَقة خاصة وهي موطنه الذي فيه ولد وعاش ومات[٣].

---

(١) مصادر ترجمته: الإحاطة في أخبار غَرْناطة ٥٥٣/٣ ـ ٥٥٤، وبرنامج الوادي آشي ١٤٦ ـ ١٤٧، وبرنامج التجيبي ١٠٢، والديباج المذهب ٦٣/٢، ودرّة الحجال ١٣٧/٣ ـ ١٣٨، وغاية النهاية ٤٧٧/١، وبغية الوعاة ١٢١/٢ ـ ١٢٢، وطبقات المفسرين ٣٥٩/١ ـ ٣٦٠، وكشف الظنون ١١٤/١، ٥٢٠، وهدية العارفين ٦٣٥/١ ـ ٦٣٦، والخزانة التيمورية ٢٧٩/١، ٢٦٧/٣، والأعلام ١٧٧/٤، ومعجم المؤلفين ٢١٢/٦ ـ ٢١٣. و١: ٤٠٧ Brok.

(٢) قال ابن الخطيب في الإحاطة ١٣٥/١ يصف أحوال أهل غرناطة: "وأنسابهم حسبما يظهر من الاشتراءات والبَيْعات السلطانية والإجازات عربية يكثر فيها القُرَشي، والفِهْري، والأُمَوي والأنصاري... والباهلي..."ونقل هذا النص الأمير شكيب أرسلان ثم علق عليه بقوله: "الأموي نسبة إلى بني أمية وهما أميتان الأكبر والأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف من قريش والنسبة إليهم أُمَوي بضم ففتح، وأموي بالتحريك على التخفيف". الحلل السندسية ٢٢٧/١.

(٣) مالَقة: مدينة أندلسية ساحلية تقع على الشاطئ الجنوبي الشرقي للبحر المتوسط، كانت العاصمة الثانية في مملكة غرناطة. ومالَقَة: بفح اللام كما في معجم البلدان "ملق"٤٣/٥ والقاموس، والتاج، والتكملة، وقد جاء في حاشية الدسوقي على المغني ١٧/١: "المالَقي: بفتح اللام نسبة إلى مالَقة مدينة بالأندلس، وضبطها بالكسر غلط".

وأما شهرته بالباهلي فهي نسبة إلى باهِلَة قبيلة من قيس عَيْلان. وهي أيضاً من البيوتات النازلة بالأندلس[١].

وأما شهرته بالبائع فلم أقف على أصل لها أو تعليل، وأول من ذكرها له السيوطي في البغية وتابعه الداوودي في طبقات المفسرين[٢].

◆ ملامح من حياته

ولد أبو محمد بمالَقَة، والمصادر لا تسعف بتحديد تاريخ مولده، وإذا لم يكن من التقدير بدٌّ فيمكننا الرَّجْم ـ من غير ما جَزْم ـ بأنها كانت في نحو العقد الرابع من القرن السابع الهجري. آية ذلك أن من شيوخه الذين روى عنهم وأجازوه مَنْ أدركته الوفاةُ في العقد السابع من ذلك القرن، كأبي الوليد العطّار الغرناطي المتوفى سنة ٦٦٨هـ الذي روى عنه أبو محمد كتابَي التبصرة والكافي، وذلك بعد أن شبَّ عن الطَّوقِ ورحل إلى غَرْناطة[٣]، وكتب له أبو الوليد بالإجازة العامّة، وكمحمد بن أحمد اللخمي المتوفى سنة ٦٦٦هـ الذي روى عنه أبو محمد كتاب الكافي[٤]، مما يرجّح أن سنّه عند وفاتيهما لا تقلّ عن الخامسة والعشرين، وإذا أضفنا إلى ذلك أن شيخَه ابنَ الزبير المتوفى سنة ٧٠٨هـ كانت ولادته سنة ٦٢٧هـ، غلب على ظننا أنه لم يتجاوز الثلاثين في ذلك الحين (أي: في العقد السابع) لأنَّ الأصل أن يصغر التلميذُ شيخَه ولو بسنوات ما أحسبها كثيرةً عند المالَقي بدلالة أمرين، الأول: أن كثيراً ممن أخذ عن المالَقي أخذ

---

(١) ذكر ابن الخطيب في اللمحة البدرية ٢٦ البيوتات التي نزلت بالكورة الإلبيرية من قبائل العرب فعدَّ منها قيس عيلان التي تنتسب إليها باهلة. وقال الأمير شكيب أرسلان في تمام النص السابق: "والباهلي نسبة إلى باهلة قبيلة من قيس عيلان، وباهلة اسم امرأة من همدان كانت تحت معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان فنسب ولده إليها" الحلل السندسية ١/٢٢٩.

(٢) بغية الوعاة ٢/١٢١، وطبقات المفسرين ١/٣٥٩.

(٣) انظر الإحاطة ١/٥٥٣، وغاية النهاية ١/١٧٠.

(٤) انظر غاية النهاية ٢/٧٠.

عن شيخه ابن الزبير[١]، فهما من جيل واحد، والثاني: أنه امتدَّ به العمر كما تنبئ ترجمته وأخباره، ومع ذلك فقد أدركته الوفاة قبل شيخه ابن الزبير بثلاث سنوات!.

ولا نكاد نعثر على أثر صريح يدلنا على أوَّلية أبي محمد ونشأته، ويظهر أنه ينتسب إلى أسرة أوتيت حظاً غير قليل من العلم والفضل والنباهة والذكر، فأبوه الشيخ الأجلُّ الورع الأفضل المقدس أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي السداد الأموي، كما جاء في نسخة من كتاب عمدة النحرير في الإدغام الكبير[٢]، وخاله وليُّ الله أبو محمد عبد العظيم ابن ولي الله محمد بن أبي الحجَّاج ابن الشيخ رحمه الله، كما جاء في الإحاطة[٣].

وهذه الأسرة الكريمة قيَّضت لأبي محمد بلا شك نشأةً صالحة، وحببت إليه طَلَبَ العلم، فحفظ القرآن الكريم، وأفاد من أبيه وخاله[٤]، واعتاد مجالس العلماء والفقهاء والقراء من أهل بلدة مالَقَة ومن حلّ بها من غير أهلها من الشيوخ كابن الزبير الغَرْناطي[٥]، ومحمد بن أحمد اللخمي الإشبيلي[٦]، أخذ عنهم وتفقّه بهم، وتلقّى القراءات عن كثيرٍ منهم وروى عنهم كتبها، ثم رحل إلى غَرْناطة فأقام بها مدة، وسمع على رواتها، وكتب له بعضهم بالإجازة العامة كأبي الوليد العطار الغَرْناطي[٧]، وهناك بلغ أبو محمد رتبة الأستاذية إذ أقرأ أهل غَرْناطَة زماناً[٨].

---

(١) انظر على سبيل المثال الإحاطة ١٣٩/٢، ١٧٩، ٦٤/٣، ١٥٧ (وثمة ترجمةُ وَلَدِ ابنِ الزبير محمد الذي أجازه المالقي) و١٨٥/٣، و١٢٧/٤ وغير ذلك من المواضع التي تأتي الإحاطة عليها عند ذكر تلامذته.

(٢) وهو لصاحب الترجمة، وسيأتي ذكره في مؤلفاته. وما نقلته هنا موجود في الورقة الأولى من جزء فيه فرش الحروف من هذا الكتاب تحتفظ به مكتبة الأسد الوطنية بدمشق تحت رقم ٥٩٦٤ (وهو من مخطوطات الظاهرية).

(٣) الإحاطة ٥٥٣/٣، وقد ذكر الوادي آشي أبا محمد هذا في شيوخ صاحب الترجمة لكنه لم ينص على القرابة بينهما، انظر برنامج الوادي آشي ١٤٧، وكذا صنع صاحب درّة الحجال: ١٣٧/٣.

(٤) الإحاطة ٥٥٣/٣.

(٥) الإحاطة ٥٥٣/٣.

(٦) الإحاطة ٥٥٣/٣.

(٧) الإحاطة ٥٥٣/٣.

(٨) الإحاطة ٥٥٤/٣.

ثم عاد إلى موطنه فكان خطيبَ مسجدها الأعظم، وقعد للإقراء والتعليم والوعظ، فكان مقسوم الأزمنة على العلم وأهله[١]، أمَّهُ الطَّلَبَةُ من كلّ مكان فلم يكن يكتفي بتعليمهم وإقرائهم وإنما كان يغدق عليهم من عطاياه وكرمه حتى وصفه ابن الخطيب في غير ما موضع من الإحاطة بأنه مُولي النعمة على الطلبة من أهل بلده[٢]، ولم يقتصر نفعه على الخاصّة من أهل بلده وإنما تعداهم ليشمل العامة منهم ومن أهل الأندلس[٣].

أما وفاته فأكثر المصادر على أنها في خامس ذي القعدة من سنة ٧٠٥هـ لم يخالف عن ذلك إلا حاجي خليفة إذ جعلها ٧٥٠هـ في موضعين مختلفين من كشف الظنون[٤]، وظاهر أنه تحريف غير مقصود، إلا أنه متابعة البغدادي له في هدية العارفين[٥]، أوهمت صاحب معجم المؤلفين أن عبد الواحد المالَقي المتوفى سنة ٧٠٥هـ غيرُ عبد الواحد الباهلي المتوفى سنة ٧٥٠، فترجم للرجل مرتين[٦]!.

هذا وقد كان لوفاة أبي محمد وقع كبير على مالَقَة وما حولها، ولا غرو فهو شيخها، وواعظها، وخطيبها، ومُولي النعمة على الطلبة من أهلها، أقرأ فيها عمرَه، وأخذ عنه الكثير من أهل الأندلس[٧]. لهذا ما كان الحفل في جنازته عظيماً، إذ اجتمع الناس وحفّوا بنعشه، وحمله الطلبة وأهل العلم على رؤوسهم[٨]، ودفنوه في بلدة مالَقَة حيث توفي، يرحمه الله.

---

(١) الإحاطة ٣/٥٥٣. وانظر ما سيأتي من ذكر تلامذته.

(٢) الإحاطة ١/٢٢٢، و٣/١٨٩. ٥٥٣.

(٣) الإحاطة ٣/٥٥٣، وانظر ما سيأتي من ذكر تلامذته.

(٤) كشف الظنون ١/١١٤، ٥٢٠.

(٥) هدية العارفين ١/٦٣٥.

(٦) معجم المؤلفين ٦/٢١٢ ـ ٢١٣.

(٧) الإحاطة ٣/٥٥٣، وبغية والوعاة ٢/١٢١.

(٨) الإحاطة ٤/٥٥٤، وبغية الوعاة ٢/١٢١.

◆ مذهبه وخلقه

مذهبُ أبي محمد مذهبُ أهل الأندلس عامّةً وهو مذهب الإمام مالك إمام دار الهجرة، وقد عُرِفوا به منذ أوَّليتهم في أواخر القرن الهجري الثاني[١].

وكان أبو محمد رأساً من رؤوس المالكية في عصره، آية ذلك أن ابن فرحون ترجم له في كتابه (الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب) ووصفه هو وغيره ممن ترجموا له بأنه كان فقيهاً.. أصولياً، وبأنَّ له تواليفَ في الفقه[٢].

هذا وقد تفقَّه بأبي محمد طائفةٌ من كبار فقهاء عصره كان لهم فيما بعد شأن كبير في الفقه وغيره من العلوم أمثال قاضي الجماعة الفقيه الشيخ محمد بن يحيى الأشعري، والقاضي الفقيه محمد بن عبيد الله القيسي، والشيخ يوسف بن موسى المنتشافري، وغيرهم ممن سيأتي ذكره من تلامذته[٣].

أمَّا خُلُقُهُ فقد كان مرآةَ دينِه، أوفى فيه على الغاية صلاحاً وإحساناً وتواضعاً، وقد بلغ من صلاحه أن غلب عليه لقب الشيخ الصالح لا يكاد يذكر إلا به، وما أحسن ما وصفه ابنُ الخطيب بقوله: "كان رحمه الله بعيدَ المدى منقطعَ القرين في الدين المتين والصلاح، وسكونِ النفس، ولينِ الجانب والتواضع، وحسنِ الخلق، إلى وسامةِ الصورة، وملاحةِ الشيبة وطيبِ القراءة، مُولي النعمةِ على الطلبة من أهل بلده... مقسومَ الأزمنةِ على العلم وأهله، كثيرَ الخضوع والخشوع، قريبَ الدمعة..."[٤]، وقريبٌ من هذا نعتُ ابنِ فرحون له بأنه: "منقطع القرين في الدين المتين والصلاح والتواضع وحسن الخلق"[٥].

---

(١) الإحاطة ١٣٤/١، ونفح الطيب ٢٢١/١، ونهاية الأندلس ٤٤٤، وتاريخ الفكر الأندلسي ٤١٧ـ٤١٨.

(٢) الديباج المذهب ٦٣/٢، والإحاطة ٥٥٣/٣، والبغية ١٢١/٢.

(٣) انظر الكلام على تلامذته فيما سيأتي.

(٤) الإحاطة ٥٥٣/٣.

(٥) من كلام ابن فرحون في الديباج ٦٣/٢.

ولا يعدو هذا الوصف أن يكون صدًى لما جاء في شعره وما وصفه به تلامذته، وما كلمةُ تلميذه ابنِ بكرون منا ببعيد[١].

◆ شيوخه

تخرَّج أبو محمد بطائفةٍ صالحة من مشايخ عصره وقرّائِه، وكانت القراءةُ السمةَ الغالبَة على مشايخه، لا سيما أولئك الذين ذكرهم في مطلع كتابه الدر النثير، وروى عنهم كتب القراءات الثلاثة المعتمدة في شرحه، وهي: "تيسير الداني، وتبصرة مكي وكافي ابن شريح" على أن من ورائهم شيوخاً آخرين ذكرتهم كتب التراجم والتأريخ، تلقّى على أيديهم أفانين العلوم المختلفة، وكتب له بعضهم بالإجازة العامّة. وفيما يلي مسرد ببعض هؤلاء وأولئك منسوقٌ على أحرف الهجاء، مع بيانٍ موجزٍ لصلة أبي محمد بكلٍّ منهم.

١ ـ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، أبو جعفر (٧٠٨هـ) الإمام المقرئ المحدث المؤرخ صاحب كتاب صلة الصلة. قرأ أبو محمد عليه "وكان من مفاخره"[٢]، وروى عنه كتابي التيسير، والتبصرة.

٢ ـ أحمد بن يوسف الهاشمي الطنجائي[٣]، أبو جعفر. الشيخ الصالح. ذكر ابن الخطيب والسيوطي أن أبا محمد أخذ عنه.

٣ ـ إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل العطار، أبو الوليد الغرناطي (٦٦٨هـ) المقرئ الراوية، كتب لأبي محمد بالإجازة العامة[٤]، وروى المالقي عنه كتابي التيسير، والتبصرة.

---

(١) سيأتي نصها في منزلته العلمية.

(٢) الإحاطة ٣/٥٥٣، وانظر غاية النهاية ١/٤٧٧، وبغية الوعاة ٢/٢١.

(٣) كذا ورد اللقب في بغية الوعاة ٢/١٢٢، والذي في الإحاطة ٣/٥٥٤: "الطنجالي" وهو في كلا الموضعين مندرج في ترجمة المالقي، أما ترجمة الطنجائي فلم أُصِبْها فيما بين يدي من كتب التراجم.

(٤) الإحاطة ٣/٥٥٣.

٤ ـ الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص الفهري، أبو علي (٦٩٩هـ) الأستاذ المجود قاضي المَرِيَّة ومالَقَة. قرأ عليه أبو محمد[١]، وروى عنه ثلاثة الكتب التيسير، والتبصرة، والكافي.

٥ ـ عبد الرحمن بن عبد الله بن حوط الله الأنصاري، أبو عمر. المقرئ الراوية. سمع عليه أبو محمد[٢]، وروى عنه كتابي التيسير، والتبصرة.

٦ ـ عبد العظيم بن محمد بن أبي الحجّاج. وصفه صاحبُ الإحاطة بوليّ الله، وهو خال أبي محمد المالَقي. قال ابن الخطيب: "ويحمل عن خاله وليّ الله أبي محمد عبد العظيم ابن ولي الله محمد بن أبي الحجاج ابن الشيخ رحمه الله"[٣].

٧ ـ قاسم بن أحمد بن حسن الحِجري السَّكوت، أبو القاسم المالَقي (٦٩٠هـ) المقرئ القاضي. قرأ أبو محمد عليه[٤]، وروى عنه القراءات من كتاب التيسير[٥].

٨ ـ أبو القاسم بن ربيع، ذكره صاحب درة الحجال في عداد شيوخ المالَقي، قال: "وكتب له القاضي أبو القاسم بن ربيع"[٦].

٩ ـ محمد بن إبراهيم بن أحمد الطائي، أبو عبد الله الأندلسي المعروف بابن سمعون (٦٧٠هـ) المقرئ الإمام الكبير، قرأ على عبد الله بن محمد الكواب، وقرأ عليه الإمام أبو جعفر بن الزبير وأخذ عنه التيسير والعربية[٧].

---

(١) الإحاطة ٥٥٣/٣، وبرنامج الوادي آشي ١٤٦ ـ ١٤٧، وغاية النهاية ٤٧٧/١، وتاريخ قضاة الأندلس ١٢٧، والبغية ١٢١/٢.

(٢) الإحاطة ٥٥٣/٣، وبرنامج الوادي آشي ١٤٦، والديباج المذهب ١٧٨، والبغية ١٢١/٢.

(٣) الإحاطة ٥٥٤/٣. ولم أصب ترجمة هذا العَلَم.

(٤) الإحاطة ٥٥٣/٣ ـ ٥٥٤، والغاية ٤٧٧/١.

(٥) الذيل والتكملة ٢/٥ ص ٥٤٣، وغاية النهاية ١٦/٢.

(٦) درة الحجال ١٣٨/٣.

(٧) غاية النهاية ٤٣/٢.

وذكر ابنُ الخطيب أن ابنَ سمعون كتب لأبي محمد المالَقي بالإجازة العامة[(١)].

١٠ ـ محمد بن أحمد بن عبيد الله اللخمي الإشبيلي أبو بكر (٦٦٦هـ) الأستاذ الخطيب المصدَّر. أقرأ الناس دهراً بمالَقة[(٢)]، وروى عنه أبو محمد كتاب الكافي سماعاً.

١١ ـ محمد بن علي الحسن السهيلي، أبو عبد الله الجذامي، المقرئ الضرير، قرأ على أحمد بن غالب وأبي عمرو سالم بن صالح المالَقي وعبد الله بن محمد الجذامي[(٣)]. وذكر ابنُ الخطيب وابنُ الجزري أن أبا محمد قرأ عليه[(٤)].

١٢ ـ محمد بن عيَّاش بن محمد الخزرجي القرطبي، أبو عبد الله، المقرئ الكبير، روى عنه أبو محمد كتاب التبصرة.

١٣ ـ محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري البَلَنسي بن مَشَلْيون (٦٧٠هـ) المقرئ الكبير، روى عنه أبو محمد كتاب التيسير[(٥)].

١٤ ـ يوسف بن إبراهيم بن أبي ريحانة المَرْبلي، أبو الحجّاج، المقرئ الراوية. قرأ عليه أبو محمد[(٦)]، وروى عنه كتاب التيسير[(٧)].

◆ تلامذته

وصف صاحب الإحاطة أبا محمد بجملة صفات، جاء فيها أنه كان: "بعيد المدى.. طيبَ القراءة.. مُولي النعمة على الطلبة من أهل بلده.. أستاذاً حافلاً متفنناً مضطلعاً، إماماً في

---

(١) الإحاطة ٣/٥٥٣.

(٢) غاية النهاية ٢/٧٠.

(٣) غاية النهاية ٢/٢٠٢.

(٤) الإحاطة ٣/٥٥٣، والغاية ١/٤٧٧.

(٥) غاية النهاية ٢/٢٣٨.

(٦) الإحاطة ٣/٥٥٣، وبرنامج الوادي آشي ١٤٦ ـ ١٤٧، وغاية النهاية ١/٤٧٧.

(٧) غاية النهاية ٢/٣٩٣.

القراءات.. مقسومَ الأزمنة على العلم وأهله.. أقرأ عمره، وخطب بالمسجد الأعظم من مالَقَة، وأخذ عنه الكثيرُ من أهل الأندلس"[١].

فلا غرو بعدُ أن عمَّ نفعُه، وطار صيتُه بين الناس؛ ولم يقتصر تعليمُه على أهل بلده، بل أمَّهُ الطلبة من كل مكان يقرؤون عليه، ويلازمونه، ويتخرَّجون به. ولقد نبُهَ منهم كثيرون بين قاضٍ وقارئٍ وعالمٍ وكاتبٍ وشاعرٍ وخطيبٍ وإمام حفلت كتب التراجم بذكرهم، وسأعرض فيما يلي لأشهرهم منسوقين على حروف الهجاء:

١ ـ أحمد بن إبراهيم المعروف بابن صفوان المالَقي، أبو جعفر (٧٦٣هـ) أديبٌ شاعر، كان آيةً في فكّ المعمّى، ذكر ابن الخطيب في الإحاطة أنه "قرأ على الأستاذ أبي محمد الباهلي أستاذ الجملة من أهل بلده، وموليِ النعمة عليهم، لازمَهُ وانتفع به"[٢].

٢ ـ عبد الله بن علي المعروف بابن سلمون الكناني، أبو محمد (٧٤١هـ) مقرئ لغوي فقيه، وهو صاحب كتاب "الشافي في تجربة[٣]، ما وقع من الخلاف بين التيسير والتبصرة والكافي"جاء في مشيخته أنه قرأ "بمالَقَة على الأستاذ أبي محمد الباهلي"[٤].

٣ ـ عثمان بن يحيى بن محمد بن منظور القيسي المالَقي، أبو عمرو (٧٣٥هـ) الأستاذ القاضي "لازم الأستاذَ أبا محمد بن أبي السداد الباهلي"[٥]، وله مؤلفات منها "اللُّمَعُ الجدلية في كيفية التحدث في علم العربية".

٤ ـ علي بن محمد بن سليمان الأنصاري المعروف بابن الجيّاب، أبو الحسن (٧٤٩هـ) وزير الدولة النصرية، وأحد كبار كتّابها وشعرائها المعروفين، وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، وقد نقل من خطّه أسماء

---

(١) الإحاطة ٥٥٣/٣.

(٢) الإحاطة ٢٢٢/١ وترجمته ثمة ٢٢١ ـ ٢٣٢.

(٣) كذا في الإحاطة ولعل الصواب: تحرير.

(٤) الإحاطة ٤٠١/٣ وترجمته ثمة ٤٠٠ ـ ٤٠٤ وفي الغاية ٤٣٦/١.

(٥) الإحاطة ٨٦/٤ وترجمته ثمة ٨٦ ـ ٨٧.

٥ - القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (٧٣٠ هـ) صاحب البرنامج المعروف باسمه، وقد جاء فيه: "وسمعت أيضاً يسيراً من صدر هذا الكتاب [الجامع الكبير المختصر في السنن المفردة] من فِلْقِ في الشيخ المقرئ الفاضل أبي محمد عبد الواحد بن محمد الأموي المعروف بالباهلي رحمه الله"(١).

٦ - محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير، أبو عمرو (٧٦٥ هـ) وهو ولدُ شيخ المالَقي أبي جعفر بن الزبير. وقد "استجاز لَه أبوه الطِّمَّ والرِّمَّ من أهل المشرق والمغرب... ومن أهل الأندلس أبو محمد بن أبي السداد"(٢).

٧ - محمد بن أحمد بن خميس الأنصاري (٧٥٠ هـ) العالم الخطيب وأحد بلغاء عصره، له مصنفات منها "النفحة الأَرَجِيَّة في الغزوة المرْجيَّة" وقد أجازه الشيخ أبو محمد الباهلي(٣).

٨ - محمد بن أحمد بن الزيات الكلاعي، أبو بكر، القاضي الخطيب ابن الشيخ الخطيب أبي جعفر بن الزيات لَه مشاركة في فنون عدة، "قرأ على الأستاذ الخطيب أبي محمد بن أبي السداد الباهلي"(٤).

٩ - محمد بن أحمد الغسّاني المعروف بابن حفيد الأمين، أبو القاسم (٧٤١ هـ) من أهل العربية والفقه والفرائض، ذكر ابن الخطيب في مشيخته أبا محمد بن أبي السداد(٥).

١٠ - محمد بن أحمد الغسّاني المعروف بابن حفيد الأمين أيضاً، أبو الحكم (٧٤٩ هـ) وهو شقيق أبي القاسم المتقدم، وخطيب مسجد مالَقَة الأعظم "قرأ على الأستاذ الخطيب أبي محمد الباهلي"(٦).

---

(١) برنامج التجيبي ١٠٢. وفِلْق الفم شِقّه ومنفرجه، يقال كلمني من فِلْق فيه: من شِقّه. القاموس والتاج (فلق).

(٢) الإحاطة ٣/١٥٧. والطِّم والرِّم كناية عن الكثرة. اللسان (طمّ).

(٣) الإحاطة ٣/١٨٤ -١٨٥.

(٤) الإحاطة ٢/١٣٩. وترجمته ثمة ١٣٨ -١٣٩ وفي غاية النهاية ١/٤٧٧.

(٥) الإحاطة ٣/٦٤.

(٦) الإحاطة ٣/٦٧ وترجمته ثمة ٦٦ -٦٧.

١١ـ محمد بن بكرون بن حزب الله، أبو عبد الله، من أهل الخصوصية والفضل، استهلَّ ابن الخطيب مشيخَتَهُ بقوله: "منهم الأستاذ مولي النعمة على أهل بلده، أبو محمد عبد الواحد بن أبي السداد الباهلي، قرأ عليه القرآن العظيم أربع عشرة خَتمةً قراءةَ تجويدٍ وإتقانٍ بالأحرف السبعة، وسمع عليه كتباً كثيرة، وقال عند ذكره في بعض الاستدعاءات: ولازمتُه رضي الله عنه وأرضاه إلى حين وفاته"[١]. ولم يذكر تاريخ وفاته.

١٢ ـ محمد بن جابر الوادي آشي (٧٤٩هـ) الإمام المقرئ المحدث الثقة المشهور، وهو صاحب برنامج معروف باسمه، ذكر فيه المالَقي وعدَّ بعض مشايخه[٢].

١٣ ـ محمد بن عبد الله بن فُرتون الأنصاري المعروف بالهنا، أبو القاسم (٧٥٠هـ) قاضي القضاة "أخذ عن الجلّة من أهل بلده كالأستاذ أبي محمد بن أبي السداد الباهلي، لازمه وانتفع به"[٣].

١٤ ـ محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي المالَقي، أبو بكر (٧٥٠هـ) القاضي الفقيه، "قرأ على الأستاذ أبي محمد بن أبي السداد الباهلي، ولازمه وانتفع به.."وله تصانيف عديدة منها "نفحات المُسُوك وعيون التبر المَسْبوك في أشعار الخلفاء والوزراء والملوك"[٤].

١٥ ـ محمد بن محمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف بالمُعَمَّم، أبو عبد الله (٧٥٤هـ) الشيخ الخطيب، قرأ على كثيرين "منهم الأستاذ أبو محمد بن أبي السداد الباهلي.."ونسبت إليه مؤلفات كثيرة منها "إرشاد السائل لنهج الوسائل"[٥].

---

(١) الإحاطة ١٨٩/٣ وستأتي تمام كلمة ابن بكرون في شيخه المالقي ص ٦٥.

(٢) برنامج الوادي آشي ١٤٦ ـ ١٤٧. وانظر ترجمته في غاية النهاية ١٠٦/٢.

(٣) الإحاطة ٢٢٧/٣. وترجمته ثمة ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٤) الإحاطة ١٧٠/٢ ـ ١٧٢، وانظر في ترجمته أيضاً تاريخ قضاة الأندلس ١٤٥، وغاية النهاية ٤٧٧/١.

(٥) الإحاطة ١٩١/٣ ـ ١٩٣.

١٦ ـ محمد بن محمد بن يوسف الهاشمي المعروف بالطنجالي، أبو بكر (٧٣٣هـ) ممن جمع بين الدراية والرواية، وخطب بمسجد مالَقة الأعظم "قرأ على الأستاذ أبي محمد الباهلي..."[١].

١٧ ـ محمد بن يحيى بن سعد الأشعري المالَقي، أبو عبد الله، المعروف بابن بكر (٧٤١هـ) قاضي الجماعة الصدر المتفنّن، أحد أشياخ لسان الدين ابن الخطيب[٢]، وصاحب كتاب "التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان"[٣]. قال ابن الخطيب عندما عرض لمشيخته: "قرأ على الأستاذ المتفنن الخطيب أبي محمد بن أبي السداد الباهلي القرآن العظيم جمعاً وإفراداً، وأخذ عنه العربية، والفقه، والحديث، ولازمه، وتأدب به"[٤].

وابن بكر هذا هو راوي كتاب شيخه المالَقي (الدر النثير) قال ابن الجزري في معرض إسناده كتاب التيسير: "وأخبرني بشرحه للأستاذ أبي محمد عبد الواحد بن محمد الباهلي الأندلسي المالَقي، وتوفي سنة خمس وسبع مئة بمالَقَة، غيرُ واحدٍ من الثقات مشافهة عن القاضي أبي عبد الله محمد بن يحيى بن بكر الأشعري عن المؤلف تلاوةً وسماعاً"[٥].

١٨ ـ يحيى بن عبد الله بن أبي عزَفة اللخمي، الرئيس أبو زكريا (٧١٩هـ) محدث ضابط وشاعر مُجيد، رأس بسَبْتَةَ نائباً عن ملك المغرب السلطان أبي سعيد بن عبد الحق. أخذ عن كثيرين منهم: "أبو محمد الباهلي.."[٦].

١٩ ـ يوسف بن موسى بن سليمان الجذامي المنتشافري، أبو الحجّاج، الشيخ الفقيه القاضي المتصوف والشاعر الكاتب، نقل ابنُ الخطيب من خطّه في ثبتٍ أجاز فيه أولاده قولَهُ:

---

(١) الإحاطة ٣/١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) نفح الطيب ٥/٣٨٥.

(٣) نشر في بيروت عام ١٩٦٤ بتحقيق الدكتور محمود يوسف زايد.

(٤) الإحاطة ٢/١٧٩، وقد نقل هذه العبارة المقري في نفح الطيب ٥/٣٨٧.

(٥) النشر ١/٦٠.

(٦) الإحاطة ٤/٣٤١، وترجمته ثمة ٣٤٠ ـ ٣٤٣.

"فمن شيوخي الذين رويت عنهم، واسترفدت البركة منهم، الشيخ الخطيب الصالح المتفنّن، أبو محمد عبد الواحد بن أبي السداد الباهلي..."[١]، وأبو الحجاج هذا هو راوي قطعة الشعر التي أوردها ابن الخطيب في ترجمة المالَقي[٢]، وسيأتي الكلام عليها، هذا ولم يؤرخ ابن الخطيب لوفاته وإنما قال: "كان حيًّا عام أحد وستين وسبع مئة"على حين قدَّرها البغدادي بنحو سنة ٧٦٧هـ، وذكر له مصنفات عدّة تنحو في مجملها نحو التصوف والرقائق منها: "تخميس البردة"[٣].

◆ مؤلفاته

أجمعت مصادر ترجمة الرجل أنّه شرح كتاب التيسير في القراءات شرحاً أفاد فيه وأجاد ـ وذلك بكتابه المسمى "الدر النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير"ـ وسأخصه بنبذة يسيرة بعد تمام هذه الفقرة ـ وأنَّ له كتباً غيره في القراءات والفقه[٤]، إلا أنهم لم ينصّوا على أسماء تلك الكتب خلا صاحب كشف الظنون فقد نسب إليه كتاباً اسمه "الأصول الخمسة التي بني الإسلام عليها"[٥]، وتابعه البغدادي في هدية العارفين، فذكر هذا الكتاب مع شرح التيسير وزاد كتاباً آخر اسمه "المنتخب في فضائل القرآن"[٦]، وبهذا تكون مؤلفات المالَقي التي بلغَنا علمُها ثلاثةً.

على أنّ من ورائها مؤلفاتٍ أخرى للمالَقي على ما يبدو؛ فقد عثرتُ على رسالة مخطوطة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، نسبت إليه كما جاء في عنوانها الذي دلَّ على أنها جزء من كتاب اسمه "عمدة النحرير في الإدغام الكبير". وهذا نص العنوان: "جزء فيه فرش الحروف من

---

(١) الإحاطة ٣٨٧/٤. وثمة ترجمته ٣٧٧ ـ ٣٩٠.

(٢) هي في الإحاطة ٥٥٤/٣.

(٣) هدية العارفين ٥٥٧/٢، وانظر الأعلام ٢٥٤/٨.

(٤) الإحاطة ٥٥٤/٣، والبغية ١٢٢/٢، وطبقات المفسرين ٣٥٩/١، والغاية ٤٧٧/١.

(٥) كشف الظنون ١١٤/١.

(٦) هدية العارفين ٦٣٥/١ ـ ٦٣٦.

كتاب عمدة النحرير في الإدغام الكبير تأليف الشيخ الفقيه الأستاذ المقرئ المتفنّن الأوحد الأكمل الخطيب الإمام الأفضل أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ الأجلّ الورع الأفضل المقدّس المرحوم أبي عبد الله محمد بن علي بن أبي السّداد الأموي رضي الله عنه"[١].

ولعل قادِمات الأيام تكشف عن المزيد من هذه المؤلفات.

وكتاب الدر النثير كتاب مؤلف في القراءات القرآنية، وهو شرح لكتاب التيسير في القراءات السبع (للداني ٤٤٤هـ) الذي نظمت عنه الشاطبية (فصار الفرع أشهر من الأصل) وقد اعتمد المالقي في هذا الشرح مبدأ الموازنة بين التيسير وكتابي التبصرة لمكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ) والكافي لابن شريح (٤٧٦هـ)، وعوّل على كثير من كتب القراءات المعتمدة كالسبعة لابن مجاهد، والإقناع لابن الباذش، والتذكرة والكشف لمكي، ومؤلفات الداني المختلفة، فجاء جامعاً وملخصاً لعصارة علم الأندلسيين في هذا الباب.

وهو إلى هذا كله قد امتاز بمزيَّتين اثنتين:

الأولى: أنه استقصى ذكر أمثلة الأصول كالإدغام الكبير والإمالة، واستوعب وجوهها المختلفة، ولا أعلم كتاباً آخر يَشْرَكُهُ في هذه المزية.

والثانية: أنه جمع إلى شرف الرواية دقة الدراية، فلا تخلو مسألة من مسائله من الكلام على العلل والتماس وجوه الحكمة والقوانين الصوتية الكامنة وراء كل وجه من وجوه الأداء.

وقد وقفتُ على خمس نسخ خطية منه تحتفظ بها مكتبات مختلفة في العالم وهي:

١ ـ نسخة مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق (١٥٠ ورقة).

---

(١) يقع هذا الجزء ضمن مجموع من القطع الكبير يحمل رقم (٥٩٦٤) من مخطوطات الظاهرية في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق ويشغل منه ٧ ورقات (١٧٣ ـ ١٧٩) ولديّ مصورة عنه. وقد جرى فيه المالقي على حصر أمثلة الإدغام الكبير في القرآن الكريم مرتبة حسب ورودها فيه بروايتي الحافظ الداني والإمام ابن شريح. انظر فهرس المخطوطات الظاهرية ـ علوم القرآن ١/ ٢٢٠.

٢ ـ نسخة المكتبة الأزهرية بالقاهرة، رقم ٢٦٠، (١١٠ ورقة).

٣ ـ نسخة متحف طوبقبوسراي باصطنبول، رقم ١٥٣، (١٨٦ ورقة).

٤ ـ نسخة مكتبة إسميخان سلطان في المكتبة السليمانية باصطنبول، رقم ١١، (٨٣ ورقة).

٥ ـ نسخة مكتبة كوبريللي باصطنبول، رقم ١٦، (٢٣٦ ورقة).

وكان تحقيق هذا الكتاب (مع دراسة مستفيضة عنه) موضوع أطروحة علمية نهضتُ بها وأشرف عليها الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ونلت بها درجة الدكتوراه بتقدير شرف من جامعة دمشق بتاريخ ١٩٩٤/٦/٢٨م.

◆ منزلته العلمية

أتيح لأبي محمد أن يصيب حظًّا من فنونٍ من العلم مختلفة، وكانت موارده في ذلك متعددةً متنوعةً، أولها شيوخه الذين أخذ عنهم وقد تقدم ذكرهم. وثانيها تراث عريض من علم القراءات وكتبها، تتلمذ عليه واستقى منه، وصرَّح في مواطن كثيرة من كتابه الدر النثير بالنقل عنه، من مثل مؤلفات الداني ومكي بن أبي طالب وابن شريح الرُّعيني وابن فِيْرُّه وابن الباذِش والمعدّل وغيرِهم، بالإضافة إلى كتب النحو واللغة وفي مقدمتها كتاب سيبويه، فلا غروَ أن كان بعد ذلك ـ فيما ذكر ابن الخطيب ـ: "أستاذاً حافلاً متفنّناً، مضطلعاً، إماماً في القراءات، حائزاً خَصْل السباق إتقاناً وأداءً ومعرفةً وروايةً وتحقيقاً، ماهراً في صناعة النحو، فقيهاً، أصوليًّا، حسنَ التعليم، مستمرَّ القراءة، فسيح التحليق[1]، نافعاً متحبباً، مقسوم الأزمنة على العلم وأهله.."[2].

ونعته ابنُ الجزري بقوله: "أستاذ كبير، شرح كتاب التيسير شرحاً حسناً أفاد فيه وأجاد.."[3].

---

(١) التحليق لغة الارتفاع، جاء في التاج (حلق): "... قال شمر: لا أدري التحليق إلا الارتفاع"ولعل هذه العبارة كناية عن سعة علم الرجل ورفعة شأنه.

(٢) الإحاطة ٥٥٣/٣. وانظر بغية الوعاة ١٢١/٢.

(٣) غاية النهاية ٤٧٧/١. ولا يبعد عن ذلك قول ابن فرحون فيه: "كان فقيهاً نحوياً أصولياً حسن التعليم نافعاً منجباً منقطع القرين في الدين المتين، والصلاح والتواضع وحسن الخلق". الديباج المذهب ٦٣/٢.

هذا وقد أحَلَّه ذلك كلُّه مكانَ الصدارة والأستاذية بين أهل بلده وما جاوره، فغلب عليه لقب الأستاذ الخطيب المتفنّن، حتى لا يكاد يذكر إلا به[١]، بالإضافة إلى ألقاب أخرى عرف بها كالمقرئ، والفقيه، والشيخ الصالح... إلى غير ذلك مما يدلُّ على مكانته العلمية ورفعة شأنه، وسأعرض فيما يلي لدلالة كلٍّ من هذه الألقاب على صاحبها المالَقي:

الأستاذ: هذا لقب اختصَّ به في الأندلس كبار العلماء، لا يكاد يطلق إلا على من تبوَّأ منزلةً علميةً مرموقة وكثر طلابه ومن تخرَّج به: كابن الباذِش[٢]، وابن الزبير[٣]، والمالَقي[٤]، وأضرابهم.

الخطيب: غلب هذا اللقب على أبي محمد لاعتلائه منبر الخطابة في مسجد مالَقَة الأعظم عُمرَه[٥].

النحوي: أقدم من نَحَله هذا اللقب قرينُهُ أبو حيان الأندلسي شيخ النحاة في عصره (٧٥٤هـ) وستأتي كلمتُه فيه[٦]. وفي الدر النثير من المباحث النحوية ما يدل على علوِّ كعب صاحبه في هذه الصناعة.

الفقيه: عرف به أبو محمد لتمكّنه من الفقه، وتأليفِهِ فيه، وتفقُّهِ الكثيرين به كما جاء في مواضع متعددة من الإحاطة[٧]، على أن لهذا اللقب خاصيةً متميزةً عند الأندلسيين فقد جاء في نفح الطيب نقلاً عن المغرب: "وسمة الفقيه عندهم جليلةٌ حتى إن الملثّمين كانوا يسمّون الأمير

---

(١) الإحاطة ١٣٩/٢، ١٧٦، و١٨٩/٣. و١٢٧/٤، ٣٨٧.

(٢) انظر مقدمة تحقيق الإقناع ٢٢/١-٢٦، والإحاطة ١٩٥/١، هذا وممن نعت المالَقي بالأستاذ ابن الجزري في النشر ٦٠/١، ٣٥٣، وهو في الموضع الثاني "الأستاذ المحقق".

(٣) الإحاطة ١٨٨/١.

(٤) الإحاطة ١٣٩/٢، ١٧٦، و١٨٩/٣، و١٢٧/٤، ٣٨٧.

(٥) الإحاطة ٥٥٣/٣.

(٦) انظر كلمة أبي حيان فيما سيأتي وهي في بغية الوعاة ١٢٢/٢.

(٧) انظر ما سبق من ذكر مذهبه وتلامذته.

الأعظم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات"(١).

المقرئ: القراءة رأس العلوم التي برع بها أبو محمد، ومن ثَمَّ فقد أقرأ عمره(٢)، ولا أدلّ على علوّ كعبه فيه من مؤلّفه الدر النثير الذي جمع فيه فأوعى.

المتفنّن: يشير هذا اللقب إلى كثرة العلوم التي حازها أبو محمد، كالقراءات، والنحو، والفقه، والأصول، والحديث(٣).

الشيخ الصالح: تقدمت الإشارة إلى هذا اللقب في عرض مذهب الرجل وخلقه(٤)، وأضيفُ إلى ذلك هنا خبراً يدل على صلاحه أيضاً وتصدّره للوعظ، جاء في الإحاطة: حدث الشيخ الفقيه القاضي أبو الحجاج المنتشافري، قال: رأيت في النوم أبا محمد الباهلي أيام قراءاتي عليه بمالَقة في المسجد الجامع بها، وهو قائم يذكّر الناس ويعظهم فعقلتُ من قوله: أتحسبونني غنيًّا فقيراً، أنا فقير أنا...فاستيقظت وقصصتها عليه، فاستغفر الله وقال: يا بني حقًّا ما رأيت، ثم رفع إلي ثاني يوم تعريفه [كذا] رقعة فيها مكتوب:

لئن ظنّ قوم من اهل الدُّنا   بأن لهم قوةً أو غنى

الأبيات..."(٥).

ومن الجدير بالذكر أن ثمّةَ علوماً أخرى حازها أبو محمد وعلّمها لم يشر إليها مترجموه، لكن المتتبع لتراجم تلامذته يقع على عبارات تفيد مشاركة المالَقي بهذه العلوم، من ذلك مثلاً ما

---

(١) نفح الطيب ٢٢١/١.

(٢) الإحاطة ٥٥٣/٣.

(٣) الإحاطة ٥٥٣/٣ وانظر في علمه بالحديث ما سيأتي في الصفحة التالية.

(٤) انظر ما تقدم، وانظر الإحاطة ١٢٧/٤، ٣٨٧.

(٥) الإحاطة ٥٥٤/٣، وسيأتي تمام الأبيات في الكلام على شعره.

مرّ من كلامٍ على تلميذه قاضي الجماعة ابن بكر الذي "أخذ عنه العربية، والفقه، والحديث، ولازمه، وتأدّب به.."[١]. مما يدلّ على علم المالَقي بالحديث والعربية والأدب...

وكان أبو محمد إلى ذلك كلّه قريناً لمشاهير العلماء والنحاة والقراء مثل أبي حيان النحوي الذي ذكره في كتابه (النُّضار في المسلاة عن نُضار)[٢]، بقوله: "صاحبنا الأستاذ المقرئ النحوي"[٣]. ويبدو أنهما اشتركا في الأخذ عن كثير من الشيوخ[٤].

وقد كان للشيخ أبي محمد في نفوس طلابه ومريديه محبّةٌ فاقت حدَّ الوصف ولعلَّ خيرَ ما يجلوها كلمةُ تلميذه محمد بن بكرون بن حزب الله التي يقول فيها: "ولازمتُهُ رضي الله عنه وأرضاه إلى حين وفاته، ونلت من عظيم بركاته وخالص دعواته ما هو عندي أجلُّ الوسائل، وأعظم الذخيرة، وأفضل ما أعددته لهذه الدار والدار الآخرة.

وكان في صدر هذا الشيخ الفاضل كثيرٌ من علم اليقين، وهو علم يجعله الله في قلب العبد إذا أحبه، لأنه يؤول بأهله إلى احتمال المكروه، والتزام الصبر، ومجاهدة الهوى، ومحاسبة النفس، ومراعاة خواطر القلب، والمراقبة لله، والحياء من الله، وصحة المعاملة له، ودوام الإقبال عليه، وصحة النية، واستشعار الخشية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فكفى بخشية الله علماً، وبالإقبال عليه عزًّا"[٥].

---

(١) الإحاطة ١٧٩/٢، وانظر ما تقدم ص ٣٩٧.

(٢) وهو كتاب صنفه أبو حيان بعد موت ابنته نُضار، ذكر فيه أول حاله واشتغاله ورحلته وشيوخه. انظر كشف الظنون ١٩٥٨/٢.

(٣) بغية الوعاة ١١٢/٢.

(٤) كأبي جعفر بن الزبير وأبي علي الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص الفهري، انظر مشيخة أبي حيان في الإحاطة ٤٤/٣، وانظر المدارس النحوية ٣٢٠.

(٥) الإحاطة ١٨٩/٣ ـ ١٩٠.

◆ شعره

لم يكن أبو محمد شاعراً، ولكن أُثرتْ عنه بعض مقطّعات الشعر، مما هو إلى شعر العلماء أقرب، ويدور ما وصلنا من شعره حول غرض واحد لا يكاد يبرحه هو الدعاء والابتهال والتذلل لله سبحانه، من ذلك ما أنشده في مستهلِّ كتابه الدر النثير حيث قال:

وقفتُ ببابِ اللهِ جلَّ جلالُهُ ... لأحظَى بتوفيقٍ ينيرُ هلالُهُ

وقلتُ إلهي نجّني وأحلَّني ... بمقعدِ صدقٍ لا يخاف حِلالُهُ

بمنزلِ رضوانٍ بهِ كلُّ مشتهًى ... وللعينِ لذاتٌ ظليل ظلالُهُ

وأتممْ عليَّ الفضلَ بالنظرِ الذي ... تخصّ به من تستقيمُ خلالُهُ

وعُمَّ جميعَ المسلمينَ بمثلِهِ ... وذا رحمٍ حقٌّ عليَّ بِلالُهُ[1]

ومن ذلك ما أنشده في ختام كتابه حيث قال:

كملَ الكتابُ بحمد ربِّي وحدَهُ ... والحمد لله المصدّقِ وعدَهُ

وصلاتُهُ وسلامُهُ ورضاه والـ ... ـبركات تختصُّ المشفعَ عندَهُ

خيرَ البريّةِ رحمةً للعالميـ ... ـنَ ولا نبيَّ من البريَّةِ بعدَهُ

وتعمُّ أعلامَ الهُدَى أصحابَهُ ... والتابعينَ ومن يُراعي عهدَهُ

والحمدُ آخرُ دعوةٍ أدعو بها ... واللهُ عزَّ وجلَّ يسمع حمدَهُ[2]

ومن شعره أيضاً ما حكاه ابن الخطيب في الإحاطة عن تلميذ المالَقي الشيخ الفقيه القاضي أبي الحجاج المنتشافري:

---

(١) الدر النثير الورقة ١/أ.

(٢) الدر النثير الورقة ١٥٠/أ.

لـئن ظـنَّ قـومٌ مـن اهـل الـدنُّا ... بـأنَّ لهـم قـوّةً أو غِنـى

لقـد غلطـوا ويحهـم، مـالَهم؟ ... فتـاهوا عقـولاً عَمُـوا أعينـا[1]

فـلا تحسـبوني أرى رأيَهـم ... فـإنّي ضـعيفٌ فقـيرٌ أنـا

ولـيس افتقـاري وفقـري معـاً ... لخلـقٍ فمـا عنـدَ خلـقٍ غنـى

ولكـنْ إلى خـالقي وحـدَهُ ... وفي ذاك عـزٌّ ونيـلُ المنـى

فمـنْ ذلَّ للحـقِّ يـرقَ العـلا ... ومـن ذلَّ للخلـقِ يلـقَ العَنـا[2]

وبعد... فليس هذا كل شيء في ترجمة المالَقي وعلمه، وإنما هو صدى لما اجتمع لديّ من كتب التراجم التي عرضتْ له أو ألمَعَتْ إليه، ولاريب أن من ورائها كتباً أخرى لم تصلْ إلينا - أو وصلَتْ ولم ترَ النّورَ بعد- كتاريخ مالَقة لابن عساكر، والإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالَقَة لأصبغ ابن عباس[3]، وغيرهما مما عسى أن يوضّح غامضاً أو يبيّن خافياً أو يزيد فيما نقص من مراحل حياة الرجل. أما علمه فما أحسب شيئاً سيوفيه حقّه حقيقته كدراسة ما خلَّفَهُ من آثار، وعلى رأسها سِفْرُه الأكبر "الدر النثير" وهو ما أصبو إليه في بحوث تالية.

❖ ❖ ❖

---

(١) جاء هذا البيت في الأصل على النحو التالي:

لقـد غلطـوا ويحهـم بجمـع مـالهم ... فتـاهوا عقـولاً وعمـوا أعينـا

فأصلحته بما يقيم وزنه ولا يضر بمعناه!.

(٢) الإحاطة ٣/٥٥٤.

(٣) نص عليهما ابن الخطيب في معرض ذكره لمصادره في الإحاطة ١/٨٣.

ثبت المراجع

❖ الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ)، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

❖ الأعلام، خير الدين الزركلي (١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.

❖ الإقناع في القراءات السبع، أبو جعفر بن الباذش الأنصاري (٥٤٠هـ)، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٣هـ.

❖ برنامج التجيبي، القاسم بن يوسف التجيبي (٧٣٠هـ)، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، ١٩٨١م.

❖ برنامج الوادي آشي، محمد بن جابر الوادي آشي (٧٤٩هـ)، تحقيق محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.

❖ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

❖ تأريخ قضاة الأندلس، أبو الحسن علي بن عبد الله النُّباهي (٧٩٢هـ)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

❖ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الأمير شكيب أرسلان، المكتبة التجارية الكبرى بفاس، ط١، ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م.

❖ الدر النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير، عبد الواحد المالقي (٧٠٥هـ)، تحقيق محمد حسان الطيان، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق ١٩٩٤م.

❖ درَّة الحَجَّال في أسماء الرجال، أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي (١٠٢٥هـ)، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة بتونس، ودار التراث بالقاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

❖ الديباج المُذْهَب في معرفة أعيان المذهب، ابن فرحون المالكي (٧٩٦هـ)، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة. ٢٠٠٧

❖ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي (٧٠٣هـ)، تحقيق د. محمد بن شريفة ـ د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥م.

❖ طبقات المفسرين، محمد بن علي الداوودي (٩٤٥هـ)، تحقيق علي محمد عمر، مركز تحقيق التراث بدار الكتب ـ مكتبة وهبة، مصر، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

❖ عمدة النحرير في الإدغام الكبير، عبد الواحد المالقي (٧٠٥هـ)، مصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية الموجودة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق رقم (٥٩٦٤).

❖ غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري (٨٣٣هـ)، بعناية ج. برجستراسر، مكتبة المتنبي، القاهرة.

❖ فهرس الخزانة التيمورية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

❖ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الرومي المعروف بحاجي خليفة (١٠١٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

❖ اللمحة البدرية في الدولة النصرية، لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

❖ معجم المؤلفين، عمر رضا كحّالة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٦هـ ت ١٩٥٧م.

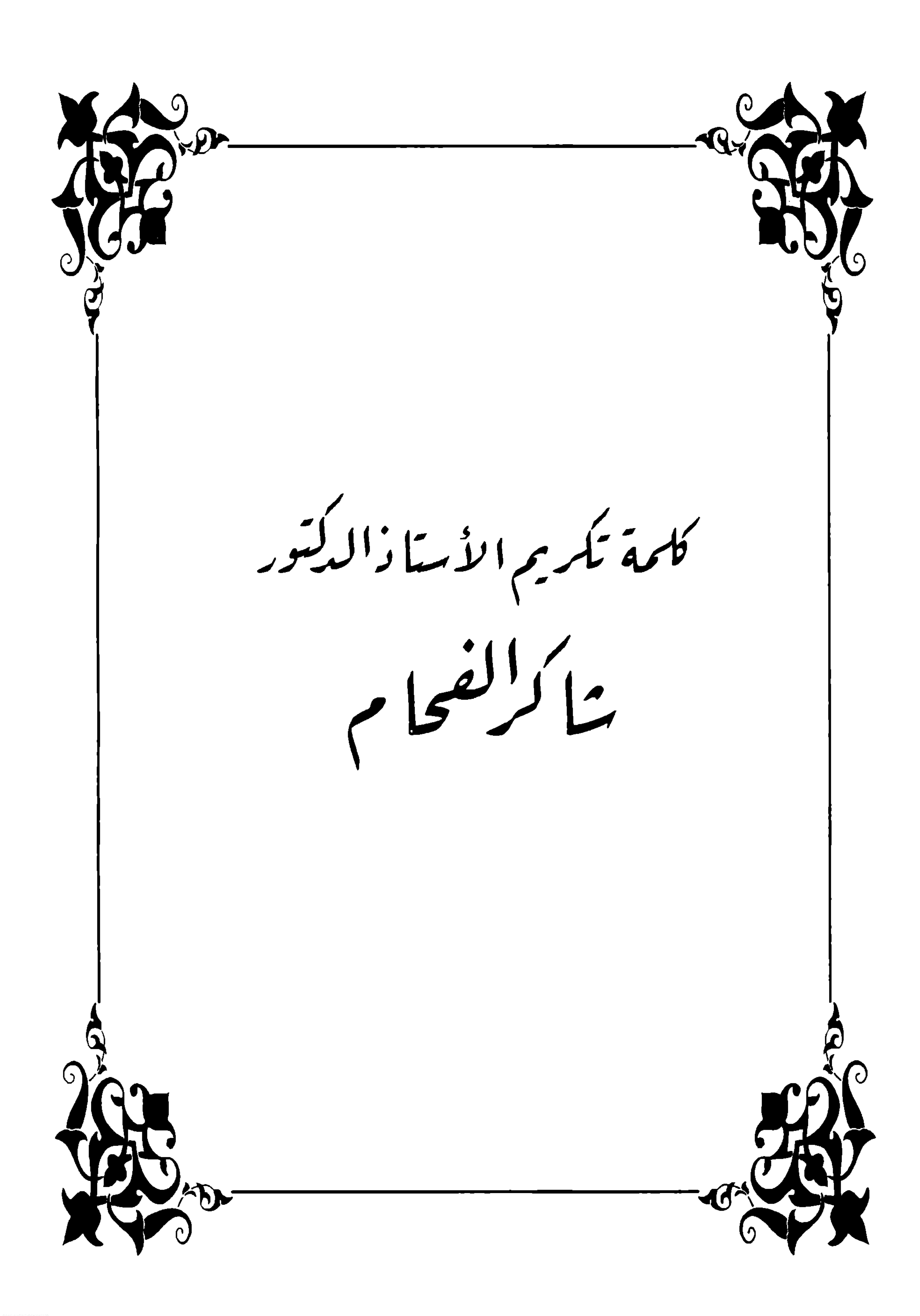
❖ النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (٨٣٣هـ)، تصحيح علي محمد الضباع، دارالكتب العلمية، بيروت.

❖ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المَقَّري التلمساني (١٠٤١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

❖ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي (١٣٣٩هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

❖ C. Brockelmann، Oeschichte، Der Arabischen – Litteratur، Leiden، 1937.





كلمة تكريم الأستاذ الدكتور

شاكر الفحام

كلمة تكريم الأستاذ الدكتور شاكر الفحام*

في الأسبوع الثقافي الرابع لقسم اللغة العربية

كلية الآداب ـ جامعة دمشق

١٢ ـ ١٩٩٩/٤/١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

"مثل العلماء في الأرض مَثل النجوم في السماء، من تركها ضل، ومن غابت عنه تحيّر".

[أبو قلابة]

حقٌّ علينا أيها السادة أن نرفع من رفعه الله، وأجمل بها من سنّة استنها قسم اللغة العربية لتكريم أساتيذه الكبار، الذين وطّؤوا لنا الطريق ودمَّثوا صعابه، فاسمحوا لي بادئ بَدْءٍ أن أستهلَّ كلمتي هذه بالتوجه بالشكر إلى كلٍّ من عمل على إنفاذ هذا الحفل الخاص بتكريم رأسِ علماء العربية في جامعة دمشق، أستاذِنا الدكتور شاكر الفحام رئيسِ مجمع اللغة العربية بدمشق.

ففي هذا التكريم إعلاءٌ لراية العلم، وإحقاقٌ لرفعة العلماء، وإقرارٌ بعظيم منزلتهم وسموِّ مكانتهم.

---

* كتبت هذه الكلمة بتكليف من رئيسة قسم اللغة العربية بجامعة دمشق أ.د. منى الياس، وألقيتها في الحفل الذي خصصه القسم لتكريم أستاذنا الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق بتاريخ ١٩٩٩/٤/١٢.

ثم نشرت في مجلة البيان الكويتية العدد ٤٢٢ سبتمبر ٢٠٠٥ بعنوان "العلامة شاكر الفحام.. مازج اللغة بالأدب".

وحينما كلِّفت تَوَلّي الكلام على فضل أستاذنا الفحام ومكانته الرفيعة، تملكني شعور غامر بالفرحة والاعتزاز، فقد رأيتني - وأنا من أصغر تلاميذه - قد ظفرت بما فوق المنى، فمثل يشرُف بالكلام على أمثاله، ويعلو بالحديث عن مناقبه وأفضاله، ويكبر بتتبع أخباره وآثاره. ولا ريب عندي أن هذه الكلمة يدٌ جديدةٌ للأستاذ يضيفها إلى أيادٍ كثيرة بيضاء، تتابعت عليّ مترادفةً لا يعكّرُها النماء، مذ عرفت الجامعة حتى يومي هذا.

وقيــدتُ نفســي في ذَراكَ محبّــةً   ومـن وجـد الإحسـانَ قيـداً تقيَّـدا

فقد عرفت الأستاذ الدكتور شاكر عندما كنت على مقاعد الدرس في قسم اللغة العربية، وإن أنسَ لا أنسَ إطلالته المحببة أستاذاً للأدب الأندلسي في المحاضرة الأولى من يوم الثلاثاء، لا يصرفه عنها صارف، ولا يصدِفُهُ عنها ما كان يتقلّده من أعباء الوزارة، ولا ما يشغله من المهامِّ الجسام. ولعلّ أجمل ما في محاضرته - وكلّها رائع مفيد - تلك الفوائد التي كان ينثرها في تضاعيفها، ويتبدّى فيها جانبٌ من جوانب علمه الغزير، وحرصه على إفادة طلابه.

وفي رحاب الدراسات العليا تعرفت إلى جانبٍ آخرَ من جوانب علم أستاذنا من خلال تدريسه مادةَ الدراسات الأدبيةِ لطلبةِ دبلوم الدراسات اللغوية، وفيه عرفنا كيف تمتزج اللغة بالأدب، ويفيد اللغويون من الدراسات الأدبية وذلك اعتماداً على دراسته المتميزة للفرزدق، شاعرِ العربية الفحل.

ثم سنّى لي الله أن أنعم بصحبة أستاذنا الجليل في رحلة علمية طويلة؛ وذلك حين شرّفني بإشرافه على رسالَتَي الماجستير والدكتوراه - وهو الذي أشرف على عشرات الرسائل - فتكشَّفت لي جوانب من علمه وفضله وخلقه لا يكاد يعرفها كثير من الناس، لقد وجدت فيه المشرف العالم، والمعلم الإنسان، والمربي الشفوق، والأديب المرهف، والمتتبع الخبير، والقارئ المدقق، إلى أمانة نادرة، وقلب واعٍ، وحافظة مستحضرة (وخير الفقه ما حوضر به). لا يألو جهداً في تعليم طالبه، والأخذ بيده وتشجيعه، وتقويم خطئه بأرق ما أوتي المعلمون من أساليب التقويم، لا يمسُّ كرامة، ولا يجرح شعوراً، بل هو يرقى بتلميذه أعلى معارج السمو الإنساني.

استمع إليه يقول لي بعد قراءته الفصل الأول من رسالتي للدكتوراه، ووضع الملاحظات المختلفة عليها: "الأخ حسان هذه ملاحظات أرجو أن تناقشها ثم تذاكرَني بها، إنها ليست قاطعة، ولكنها مناسبة للتفكير للوصول إلى الأحسن حتى يخرج التحقيق بأحسن وجه ممكن إن شاء الله، وأرجو الإسراع فما قدّمته قليل قليل، فمتى تبلغُ الغايةَ إذا مضيت على هذه المسيرة؟!"أيُّ رقة هذه وأيُّ مربٍّ عظيم وراءها؟!.

على أن عناية الأستاذ بنا معشر طلابه لم تقتصر على إشرافه على رسائلنا الجامعية، وإنما تعدتها إلى كل بحث نقوم به، فهو مفزعنا، وصاحب معضلاتنا، وموضِحُ مشكلاتنا، نقصده فما نجد عنده إلا الحفاوة والتشجيع، ولا غرو فهو حفيٌّ بطلابه، كريم بعطائه، لا يضنُّ عليهم باستشارة، ولا يبخل بمراجعة أو تدقيق أو تقديم. صحبته بضعاً وعشرين سنة ما أذكر أني رجوته النظرَ في مقال أو مراجعةَ كتاب أو التقديمَ لتحقيق أو بحث إلا كان نعم المجيب.

ولا أعرف أحداً من أصحابنا قصده للإشراف على بحث، أو النهوض بدراسة، أو مراجعة تحقيق، أو حتى الحصول على مخطوط، أو كتابة مقدمة لمؤلَّف إلا مدَّ له يد العون والعناية، والتشجيع والرعاية، وما أكثر ما أخذ بيد الناشئين في رحاب العربية من طلابها ومحبيها ودارسيها، يشجعهم ويغذوهم بلِبان العلم، ويشدّ من أزرهم، ويذْكي فيهم روح المتابعة والتحصيل، يقرِّب إليهم البعيد، ويدني منهم النائي، يشرف على بحوثهم، ويقوِّم منآدها وينفي عنها ما أصابها من الخطأ والخطل، وكثيراً ما يتوِّج ذلك كلَّه بكتابة مقدماتٍ لها ولسان حاله ومقاله يردد:

إنَّ الهلال إذا رأيتَ نموَّهُ ... أيقنْتَ أنْ سيكونُ بدراً كاملا

ولو أن ما كتبه من مقدمات جُمع في صعيد واحد لكان لنا منه كتاب عنوانُهُ: تشجيع الباحثين وشحذ الهمم. بل إن عنوانه بكلمة واحدة: بناء الرجال

يبني الرجالَ وغيرُهُ يبني القرى ... شتّان بين قرًى وبينَ رجالِ

ولم يتوقف أستاذنا ـ نضَّر الله وجهه ـ عند حدود الدراسات التراثية ـ على حبّه لها وإيثاره إياها ـ وإنّما تطلّع نحو الجديد والمبتكَر في الدراسات اللغوية والأدبية لاسيما تلك التي تستعمل تِقْنيّاتِ العصر في معالجة العربية فتذللها لخدمتها، وفي مقدمة ذلك المعلوماتية وما قدمته لهذه الدراسات من آفاق رحبة، فقد أشرف على رسائل جامعية كان الحاسوب عمادَها في إحصاء اللغة، ورصدِ ظواهرها المختلفة، والأجهزة الصوتية المخبرية وسيلَتَها في تحليلِ الصوت ووصفِ مخارجِه وتحديدِ صفاتِهِ. ولا تسل عن فرحتِهِ وسروره يوم عرضنا عليه في مركز الدراسات والبحوث العلمية النظام الحاسوبيَّ لمعالجة الصرف العربي اشتقاقاً وتحليلاً. فقد تابع العرضَ مع أستاذنا المرحومَ أحمد راتب النفاخ، وأتحفنا كلاهما بملاحظات قيمة كان لها أثرٌ طيِّبٌ في تقويم النظام. وكانت له كذلك مشاركة فاعلة في تحكيم المشاريع العلمية اللغوية في مركز الدراسات والبحوث العلمية، والمعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا، لم يصرفْهُ عنها صارفٌ على كثرة مشاغِلِه وثِقَلِ أعبائِه، فقد كان كالعهد به المشجعَ والدافعَ لإنجازِ المزيد من هذه البحوث، حبًّا بالعربية وصوناً لها، ودفعاً للبحوث الناهضة بها، لقد كان يؤلمه دائماً أن يرى الآخرين يتبارَونَ في تحسين لغاتهم والنهوض بها وتسخير تِقْنِيَّاتِ الحاسوب لها، ونقعدُ نحن لا حول لنا ولا قوةَ في مواجهة هذا المدِّ الهادر. فيردد مع الشاعر قوله:

وسِعْتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً	وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعظاتِ
فكيفَ أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ	وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعاتِ
أنا البحرُ في أحشائِهِ الدُّرُّ كامنٌ	فهل سألوا الغوَّاص عن صدفاتي

ولعلَّ من أبرز مظاهر عناية الأستاذ بطلابه تلك المناقشاتِ التي كان يشارك فيها، فقد تحوّلت به وبأمثاله من كبار الأساتيذ إلى أنديةٍ علميّةٍ يسمع فيها الطالب كل مفيدٍ وطريفٍ. كنّا وما زلنا نقصد هذه المناقشات لنستمع إلى أستاذنا الفحام، فكان يفسح المجال للأساتذة المناقشين يتقدمونه بالقول حتى إذا ما فرغت جَعَباتُهم شرع يقول: "لم يتركْ لي الزملاء بقيّة..." وراح يتحفنا من أفانينِ القول ودقائقِ التحقيق وطرائفِ الأمثال والشواهد ما ينسي به كلَّ ما تقدّم.

إذا قلتُ شارفنا أواخر علمه تدفّق حتى قلت هذي أوائله

أحبَّ أستاذُنا الفحامُ ـ حرس الله مهجته ـ العربيةَ وأصفاها زهرة عمره، ومنحها كلَّ وقته، ووهبها كل طاقته وجهده، فهو المتبتِّل في محرابها أبداً، والقائم بشؤونها أنّى كان أو حلَّ وارتحل، لا تكاد تراه إلا كاتباً لمقال عنها، أو مشاركاً في ندوة لها، أو مؤلفاً لكتاب فيها، أو مراجعاً لنتاج يتعلق بها، أو مترئساً للجنة تعمل في سبيلها.

وهو ـ حفظه الله وأمتع به ـ عالم أسس بنيانه على قاعدة صُلبة من قراءة التراث العربي الإسلامي القراءَةَ المستوعبة، فهو عنده كلّ متكامل لا يغني فيه فنٌّ عن فنّ، ولا يُترك كتاب لكتاب، نهلَ ما نهل وعلَّ ما علَّ من علوم اللغة العربية وآدابها، وتاريخ الرجال وسيرهم، وعلوم القرآن والحديث وغريبهما، فاستوى له من ذلك كلِّهِ علمٌ أصيلٌ غزيرٌ موصولٌ بعلم الأوائل من أرباب اللغة وأعلامها.

فما شئت من بصرٍ بالشعر وعلم بغرائبه، وإحاطةٍ بالتاريخ ووقوف على دقائقه، ومَكِنَةٍ من العربية تجاوزت حدَّ التخصص إلى حيِّزِ الإبداع والابتكار؛ فقد أمكنته اللغة من قيادها وألقت إليه بأسرارها. إلى خلق نبيل، وتعامل حلو جميل، وسياسة وحُنْكةٍ فاقت الوصف "إنَّ الكلامَ يَزينُ ربَّ المجلس" فهو كما قال الأول: "حَنيكٌ مَلِيٌّ بالأمورِ إذا عَرَتْ".

ترنو إليه الحُـدَّاثُ غاديةً ولا تملُّ الحديثَ من عجبِهْ

يزدحمُ الناسُ كلَّ شارقةٍ ببابِهِ مُشرِعينَ في أدبِهْ

ولأستاذنا الفحام نمطٌ فريدٌ آسرٌ في الكتابة كأنّما قُدَّ له، لا يكاد يَشْرَكُهُ فيه أحدٌ من الأدباء أو الكتّاب.

في نظامٍ من البلاغة ما شكـ ـكَ امرؤٌ أنّه نظام فريدُ

يروعُكَ فيه هذا النَّفَسُ الأدبي المتميز، والغنى المبهرُ بنفائسِ التراث شعرِه ونثرِهِ وأمثالِه، وفي أسلوبه من الإشراق، وجمال الديباجة، وإحكام النسج، وعذوبة البيان، وسلامة الطبع،

ما لا يخفى على كلِّ قارئ متذوّق، شهد بذلك أساتذته ورصفاؤه قبل تلامذته ومريديه، وتُوِّج بنيله جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي لعام ١٩٨٨. وحسبي أن أدلل على ذلك بفقرة جاءت في ختام كلام طويل له من كتابه نظرات في ديوان بشار بن برد يقول فيها: "وأنا لا أزعم أن ما جئت به هو الحقُّ الصُّراح، وإنما هو الرأيُ لاح لي فسجَّلتُه مقروناً بحجّته، لا أملِك أن أقطع فيه بيقين. فإنْ قُسم لي أن أُصيبَ فبحمد الله وعونه، وإن تكن الأخرى فليشفعْ لي أني ما ابتغيتُ فيما أتيتُ إلا وجه الحقِّ وحده، أدور معه حيث يدور، لا يميل بي هوًى، ولا تستفزُّني شهوةُ المغالبة، ولا يعطِفُني إلْفٌ، ولا أنزِع إلى عصبية. وليعلّمْني أساتذتي السادةُ العلماء، ولْيفيضوا عليَّ من أنوار معارفهم. وإنما العلم بالتعلّم، جعلني الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه". أيُّ بيان هذا وأيُّ خلق نبيل وراءه؟!.

وتسنَّم أستاذنا أرفع المناصب، وحمل أعظم الألوية فشرَّفها وزانَها. إنه العلم يعلو بأهله ويسمو بأصحابه وأربابه، وكفى بالعلم شرفاً وكفى به مقاماً وعزًّا.

كان السفيرَ وكان الوزير، وكان النائب، وكان الأمين، وكان رئيس الجامعة ومديرَ الموسوعة، وكان الأستاذ الجامعي. وقد أعاد بذلك صفحةً مطويّةً من تاريخنا العريق، ذلك التاريخُ الذي امتزج فيه العلم بالسياسة، والأدبُ والشعرُ بالوزارة والرئاسة، فكان لنا من ذلك كلِّهِ خيرٌ كثير ونفعٌ عميمٌ. من منا لم يقرأ عن ابن المعتزّ الخليفةِ الشاعر، وعن المأمونِ الخليفة العالم، وابن سينا الشيخ الرئيسِ الوزيرِ، وابنِ العميد وابن زيدون... وغيرُهم كثير. إنَّ أستاذنا الفحّام حلْقةٌ مضيئةٌ في هذه السلسلة الذهبية بل هو درّة ثمينة في هذا العِقد الفريد.

إذا سـيّدُ منّـا خـلا قـامَ سـيِّدٌ قـؤولٌ لمـا قـال الكـرام فعـولُ

وبعد فما قصدتُ من كلمتي هذه أن تحيط بمناقب أستاذنا الكبير وأفضاله، وأنّى لها ذلك؟ وإنما هي إشاراتٌ تومئ على استحياءٍ إلى ما انطبع في نفسي عن عَلَمٍ من أعلامنا الكبار، وأنا على يقين أن أستاذنا أكبرُ منها، وأن علمَه وفضْلَه وخُلُقَهُ وسيرتَه تحتاج منا إلى صفحاتٍ مطوّلة، بل إلى مؤلفات مفردةٍ، ولكنْ ما لا يدركُ كلُّه لا يُترك جلّه، وحسبك من القلادة ما

أحاط بالعنق، ويعلمُ الله أني ما مدحت حتى اختبرت، ولاوصفت حتى عرفت. وما كلُّ ما تَحُسُّه واضحاً في نفسك تستطيع الإبانةَ عنه، فإن قَصَرَتْ هذه الكليمةُ عن رسمِ الصورة الواجبةِ لأستاذنا فعذرُها أنّها من إعداد أصغرِ تلاميذه وأنّى يُدرِكُ التلميذُ أستاذَه؟!.

إذا نحنُ أثنينا عليكَ بصالحٍ فأنت كما نُثني وفوقَ الذي نُثني

وإن كانَ فيها شيء من إحسان فالإحسان منه وإليه:

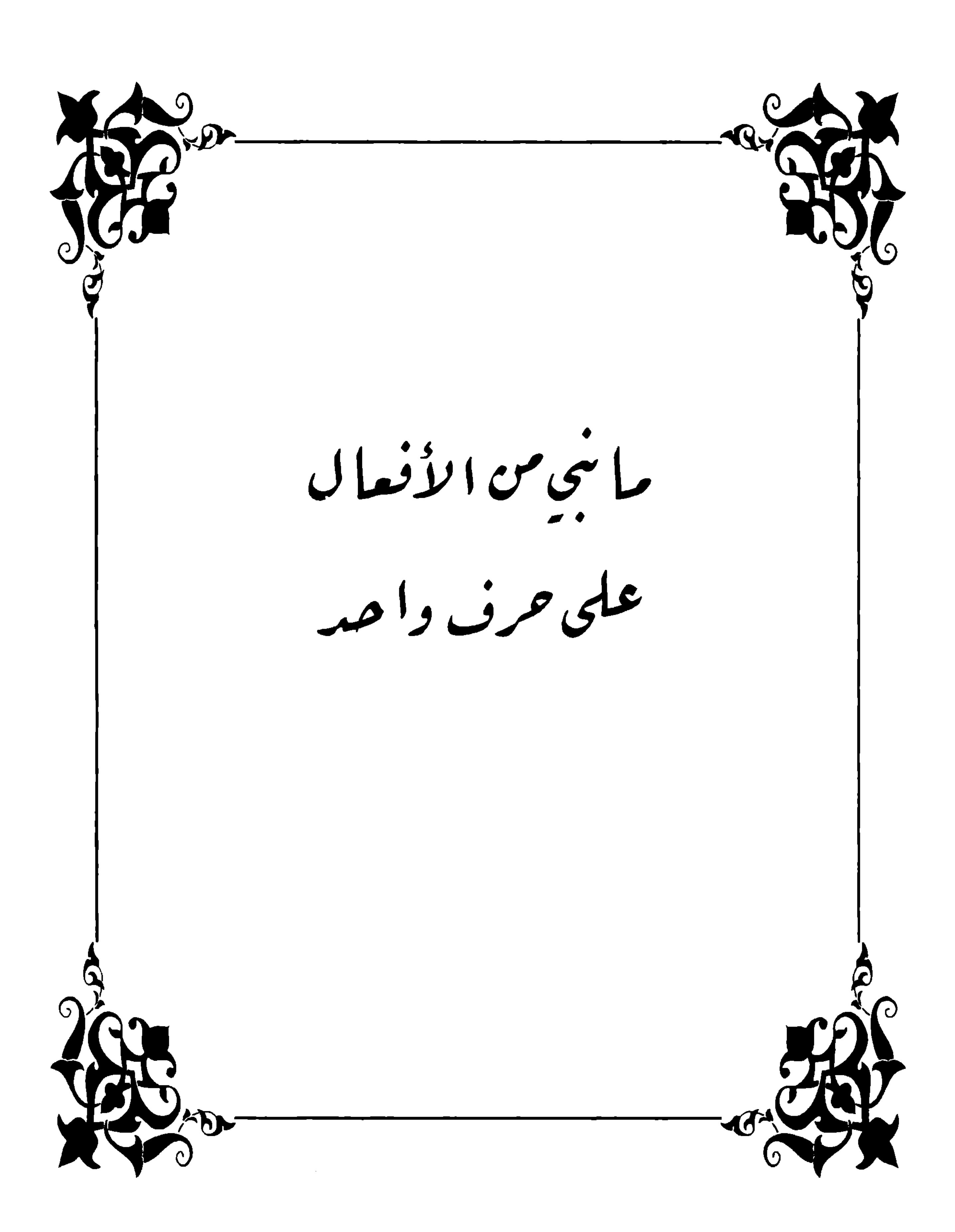
لا تُنْكِرَنْ إهداءَنا لكَ منطقاً منكَ استفدنا حُسْنَهُ ونِظامَهُ

فالله عزَّ وجلَّ يشكرُ فِعْلَ مَنْ يتلو عليه وحيَهُ وكلامَهُ

ولا أريد أن أغادرَ مقامي هذا قبل أن أدعو أصحابَ أستاذنا الدكتور شاكر الفحام ومحبيه وطلابَهُ إلى إصدار كتاب نحتفي فيه ببلوغ أستاذنا سنَّ الثمانين، نتناول فيه جانباً من جوانب الإبداع عنده وما أكثرها، أو نسهمُ في تحقيق نصٍّ أو عمل لغويٍّ يتصل بالعربية التي أحبَّ أستاذنا ووقفَ حياتَهُ لها. وذلك على غِرار ما صنع تلامذةُ الأستاذ محمود شاكر والدكتور إحسان عباس وغيرهما، ففي ذلك تكريم لعالم ونشرٌ لعلم وإحياءٌ لفضل...

حفظك الله يا أستاذَنا الجليل، وأسعدكَ وأمتع بك، وجمعَ لك الخيرَ كلّه، وجزاك عما قدمّت للعربية وأهلها وطلابها من توجيه ورعاية، وتشجيع وعناية، خيرَ الجزاء، وجعلَ كلَّ ذلك في موازينِك يومَ تجد كلُّ نفس ما عملت من خيرٍ محضراً، والحمد لله رب العالمين.





ما بني من الأفعال على حرف واحد

ما بني من الأفعال على حرف واحد *

حكى السيوطي في (البغية) أن أبا حاتم السجستاني[١] دخل بغداد فسُئل عن قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾[٢]، ما يقال منه للواحد؟ فقال: قِ، فقال: فالاثنين؟ فقال: قيا. قال فالجمع؟ قال: قوا، قال: فاجمع لي الثلاثة، قال: قِ، قيا، قوا.

قال وفي ناحية المسجد رجل جالس معه قماش، فقال لواحد: احتفظ بثيابي حتى أجيء، ومضى إلى صاحب الشُّرطة، وقال: إني ظفرت بقومٍ زنادقة يقرؤون القرآن على صياح الديك. فما شعرنا حتى هجم علينا الأعوان والشُّرطة فأخذونا وأحضرونا مجلس صاحب الشُّرْطة، فسألنا فتقدمت إليه وأعلمته بالخبر وقد اجتمع خلق من خلق الله، ينظرون ما يكون، فعنَّفني وقال: مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا! وعمَد إلى أصحابي فضربهم عشرة عشرة، وقال: لا تعودوا إلى مثل هذا، فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعاً، ولم يُقِمْ ببغداد ولم يأخذ عنه أهلها[٣].

فعل وقى وأمثاله عند الإسناد

سقت هذه القصة لأتوقف عند فعل (وقى) وما لفَّ لفّه مما يسمّى في العربية باللّفيف المفروق، إذ تحذف منه فاؤه لدى تصرّفه في المضارع كما تحذف من المثال الواوي "كوعد يعِد،

---

* نشر هذا البحث في مجلة الفيصل السعودية العدد ٢٨٤، عام ١٩٩٨.

(١) الإمام العلامة سهل بن محمد بن عثمان السجستاني ثم البصري، مقرئ نحوي لغوي، أخذ عن أبي زيد الأنصاري والأصمعي ويعقوب الحضرمي، وتصدّر للإقراء والحديث والعربية. حدّث عنه أبو داود والنسائي وعدد كثير، وتخّرج به أئمة منهم المبرد، وله باع طويل في اللغة والشعر والعروض واستخراج المعمّى. خلّف آثاراً كثيرةً منها: إعراب القرآن، والمقصور والممدود، وما يلحن فيه العامة، والقراءات، واختلاف المصاحف. وكان يقول: قرأت كتاب سيبويه على الأخفش مرتين. توفي سنة ٢٥٥هـ، سير أعلام النبلاء ١٢/٢٦٨ ـ ٢٧٠. وانظر طبقات النحويين واللغويين للزُّبيدي ٩٤ ـ ٩٦، وبغية الوعاة ١/٦٠٦.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) بغية الوعاة ١/٦٠٦

وورد يرِد "لوقوعها بين عدوتيها الياء المفتوحة والكسرة فيصير: (يقي) ثم يُبنى على حذف حرف العلة من آخره لدى تصرفه في الأمر كما يُبنى كل معتل ناقص كـ (اسعَ، وامشِ، وادنُ) فيصير (قِ) أي: إنه يبقى على حرف واحد هو عين الكلمة.

وقد جمع هذه الأفعال ابن مالك صاحب الألفية مبيّناً كيفية إسنادها للواحد المذكر، ثم المثنى مطلقاً، ثم الجمع المذكر، ثم الواحدة ثم جمعها، وذلك في عشر أبيات طريفة ـ ليست من الألفية ـ يقول فيها:

إنّي أقولُ لمنْ تُرجى مودّتُهُ ... قِ المستجير قياهُ قُوهُ قِي قِينَ

وإنْ صرفتَ لوَالٍ شُغْلَ آخرَ قُلْ ... لِ شُغْلَ هذا لِياهُ لُوهُ لِي لِينَ

وإنْ وشَى ثوبَ غيري قلتُ في ضجرٍ ... شِ الثوبَ وَيْكَ شِياهُ شُوهُ شِي شِينَ

وقُلْ لقاتِل إنسانٍ على خطأٍ ... دِ مَنْ قتَلْتَ دِياهُ دُوهُ دِي دِينَ

وإنْ همُ لمْ يَرَوْا رأيي أقُولُ لهمْ ... رَ الرأيَ وَيْكَ رَياه رَوْه رَيْ رَيْنَ

وإنْ همُ لمْ يَعُوا قوْلِي أقُولُ لهمْ ... عِ القولَ مِنِّي عِياهُ عُوهُ عِي عِينَ

وإن أمَرْتَ بِوَأْيٍ للمُحِبِّ فقلْ ... إِ مَنْ تُحِبُّ إِياهُ أوهُ إِي إِينَ

وإنْ أردْتَ الوَنَى وَهْوَ الفُتُورُ فقلْ ... نِ يا خَلِيلِي نِياهُ نُوهُ نِي نِينَ

وإنْ أَبَى أن يَفِي بالعهدِ قلتُ لَهُ ... فِ يا فلانُ فِياهُ فُوهُ فِي فِينَ

وقُلْ لساكِنِ قلْبِي إنْ سِوَاكَ بهِ ... جِ القلبَ مِنِّي جِياهُ جُوهُ جِي جِينَ[1]

---

(١) حاشية الخضري على ابن عقيل ٣١، وحاشية تشويق الخلان على شرح الآجرّومية ٩٤، والفضل في تنبيهي على هذه الأبيات ومصدرها ينصرف إلى شيخنا العلامة محمد صالح الفرفور رحمه الله تعالى وجزاه الجزاء الأوفى.

ذكر هذه الأبيات الشيخ الخضري في حاشيته على ابن عقيل ثم أردفها بالقول: "فهذه عشرة أفعال كلها بالكسر إلا (رَ) فيفتح في جميع أمثلته لفتح عين مضارعه، وكلها متعدية إلا (نِ) فلازم لأنه بمعنى تأنَّ. فالهاء في نِيَاه هاء المصدر لا المفعول به "[1].

والحقُّ أن هذه الأبيات لا تحيط بكل ما في العربية من أفعال اللفيف المفروق وإنما تقتصر على تسعة منها هي كل ما جاء مكسوراً فيها، أمّا (رَ) وهو المفتوح الوحيد فيها فليس من هذا الضرب، وإنما هو ناقص مهموز العين، إذ إن أصله (رأى) ومضارعه (يرأى) إلا أنَّ همزته تسقط تخفيفاً فيبقى على (يرى) ثم يبنى على حذف حرف العلة من آخره في صيغة الأمر فيبقى على (رَ) ووزنه (فَ) لأن ما سقط منه هو العين واللام خلافاً لسائر الأفعال المذكورة في الأبيات إذ إنَّ وزنها (عِ) لأن ما سقط منها هو الفاء واللام.

◆ شواهد على اللفيف المفروق

وأما مبلغ عدة اللفيف المفروق في العربية فهو ثمانية عشر فعلاً وفق ما دلَّ عليه إحصاؤنا للأفعال العربية في المعجم الحاسوبي[2]. يضاف إليها أربعة أفعال لم نثبتها في معجمنا لضعف روايتها وانفراد بعض المعجمات بها. ويبلغ المجموع بها اثنين وعشرين فعلاً، فإذا استثنينا ما جاء في الأبيات السالفة منها، بقي لدينا **ثلاثة عشر فعلاً** تحتاج إلى مزيد بيان وإيضاح، وسأسردها فيما يلي مشفوعة بأبوابها الصرفية، ومصادرها، ومعانيها المختلفة، مع شواهد لها، محيلاً على أشهر المعجمات التي وردت فيها:

١ ـ وَثَى: أورد صاحب اللسان هذا الفعل بمعنى وشى في رواية ـ انفرد بها ابن الأعرابي وهو مولع بالنوادر ـ هذا نصها:

"وثى به إلى السلطان: وشى، عن ابن الأعرابي، وأنشد:

---

(١) حاشية الخضراوي ٣١.

(٢) انظر "إحصاء الأفعال العربية في المعجم الحاسوبي" ص٢٤.

يجمــــع للرِّعـــاءِ في ثـــلاثِ

طــولَ الصَّــوى وقلــةَ الإرْعــاثِ

جمعَـــكَ للمُخاصــم المُـــواثي

كأنه جاء على واثاه، والمعروف عندنا أثى "[١].

على حين عدّ صاحب القاموس الوثيَ لغةً في الوثء[٢]، وهو وصْمٌ يصيب اللحم ولا يبلغ العظمَ فيَرِمُ[٣]، قال: "الوَثْيُ الوثْءُ ووُثِيَتْ يده بالضم فهي مَوْثِيَّة "[٤].

وزاد صاحب التاج: "ونصُّ الليث وُثِيَتْ يدُهُ كرُمِيَتْ "[٥].

ولم يرد هذا الفعل في إحصائنا الحاسوبي السالف لضعف روايته.

٢ ـ **وحَى**: وَحَى يحِي وحياً، وقد ورد هذا الفعل بعدةِ معانٍ أشهرها:

أ ـ الإشارة والإلهام: قال: وَحَيْتُ إليه الكلام وأوْحَيْتُ[٦].

ب ـ الكتابة: يقال: وَحَيْتُ الكتاب أَحِيه وَحْياً أي: كتبتُه. قال العجاج:

حتّــى نَحَــاهم جــدُّنا والنّــاحي

لقَــدَرٍ كــانَ وحــاهُ الــواحي

بثرْمَــــداءَ جهْــــرةَ الفِضـــاحِ

---

(١) اللسان (وثى).

(٢) القاموس (وثى).

(٣) اللسان (وثأ).

(٤) القاموس (وثى).

(٥) التاج (وثي).

(٦) اللسان والتاج (وحى).

جـ- **الإسراع**: وحى وتوحّى بالشيء أسرع[١].

٣- **وَخَى**: وَخَى يخِي وخْياً إذا توجه لوجه، ووخى الأمر: قصده.

أنشد الأصمعي:

قالــتْ ولم تقصِــدْ لــه ولم تَخِــهْ
مــا بــالُ شــيخ آضَ مــن تشــيُّخِهْ
كــالكُرَّزِ المربــوطِ بــين أفْرُخِــهْ[٢]؟

وقال الشاعر:

لو أبصرَتْ أبْكَمَ أعمى أصْلَخا — إذاً لسَمَّى واهتـدى أنَّـى وَخَـى

أي: أنَّى توجّه[٣].

٤- **وذي**: جاء في اللسان: "ابن الأعرابي: هو الوَدْيُ والوَدِيُّ، وقد أودَى وودِي"[٤].

وهذا الفعل مما استدركه الزبيدي في التاج على القاموس، قال: "ومما يستدرك عليه: الوذْيُ: هو الودي، لما يخرج من الذكر بعد البول، لغة فيه عن ابن الأعرابي، ويُشدَّد أيضاً، وقد وذِي وأوذَى. ونقل ابن القطّاع عن ابن دريد وَذَى الحمارُ: أدْلَى[٥] بالدال المهملة[٦]، وشهوة وذِيّة كغَبِيَّة أي: حقيرة"[٧]. ولم يرد هذا الفعل في إحصائنا أيضاً.

---

(١) اللسان والقاموس (وحى).

(٢) اللسان (وخى). وفي القاموس: "توخّى رضاه: تحرّاه، كوخاه".

(٣) اللسان (وخى وصلخ) التاج (وخى).

(٤) اللسان (وذي).

(٥) أدلى الفرس وغيره: أخرج جردانَهُ ليبول أو يضرب. اللسان (دلا).

(٦) الذي في طبعة التاج الحديثة (طبعة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت): "وذى الحمارُ: أذْلَى، بالذال المعجمة" وقد عزا المحقق ذلك إلى كتاب الأفعال ٣/٣٣٤.

(٧) التاج (وذي).

٥ ـ **وري**: وَرَى يرِي وَرْياً. ووري يري وَيورَى ورْياً ووُرِيًّا ورِيةً. وله معانٍ أشهرها:

أ ـ ورى القيحُ جوفَهُ يريه ورْياً أكَلَه، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "لأن يمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً حتى يرِيَهُ خيرٌ له من أن يمتلئ شِعراً".

وتقول منه: رِ يا رجل، وريا للاثنين، ورُوا للجماعة، وللمرأة رِي، وللمرأتين رِيا، وللنسوة رِينَ، والاسم الوَرَى بالتحريك[1].

ب ـ وَرَتِ النارُ ترِي وَرْياً ورِيَةً حسنةً، وَوَرِيَ الزَّند يرِي ووَرَى يرِي ويورَى وَرْياً ووُرِيًّا ورِيَةً، وهو وارٍ ووَرِيٌّ: اتَّقَد. قال الشاعر:

وجَدْنا زَنْدَ جدِّهمُ ورِيًّا وزِنْدَ بني هَوازِنَ غير وارِي[2]

جـ ـ وَرِيَ المخُّ كَوَلِيَ: اكتنز[3].

٦ ـ **وزى**: وزَى يزِي. وقد عدَّه صاحب القاموس[4] واويًّا إذ رسم واواً قبله فتعقَّبه الزّبيدي بقوله: "(و) هكذا في النسخ كأنه اغترَّ بما في نسخ الصحاح من كتابة الوزا بالألف فحسب أنه واوي، وقد صرَّح ابن عديس وغيره من الأئمة نقلاً عن البطليوسي أن الوزى يكتب بالياء لأن الفاء واللام لا يكونان واواً في حرف واحد، كما كرهوا أن تكون العين واللام في مثل قووت من القوّة فردُّوه إلى فعلت فقالوا قويت فتأمل ذلك"[5]. ولهذا الفعل معنيان:

أ ـ وَزَى الشيءُ يزِي: اجتمع وتقبّض[6].

---

(١) اللسان (وري).

(٢) اللسان (وري).

(٣) القاموس (وري).

(٤) القاموس (وزا).

(٥) التاج (وزي).

(٦) اللسان (وزي).

ب ـ وزَى فلاناً الأمرُ أي: غاظه، ووزاه الحسدُ: قال يزيد بن الحكم[٦]:

إذا ساف من أعْيارِ صَيْفٍ مَصامة وزاهُ نشـيجٌ عنـدها وشـهيقُ

ولا يخفى ما بين المعنيين من صلة؛ لأن المغبظ تنقبض أسارير وجهه وتجتمع.

٧ ـ **وسي**: وسَى رأسَهُ وأوْساهُ إذا حلقه بالمُوسَى[١]، وهو مما استدركه صاحب التاج على القاموس أيضاً، قال: "ومما يستدرك عليه الوسْيُ الحلْقُ، وقد وَسَى رأسَهُ كأوْسى "[٢].

٨ ـ **وصى**: وصَى يصِي وَصْياً: وصلَ واتّصل. جاء في اللسان:

ووصَى الرجلَ وصياً: وَصَلَهُ: ووصَى الشيءَ بغيره وصياً: وصله. أبو عبيد: وصيتُ الشيء ووصلتُه سواء: قال ذو الرمّة:

نَصِي الليلَ بالأيّام، حتى صلاتُنا مُقاسَمَةٌ يَشتَقُّ أنصافَها السَّفْرُ[٣]

ثم قال: "قال الأصمعي: وصَى الشيءُ يصي إذا اتّصل، ووصّاه غيره يصِيه وصلَه "[٣]. هذا وقد انفرد صاحب القاموس بإيراد معنى لهذا الفعل يجعله في زمرة الأضداد، قال: "وَصَى كوَعَى: خسَّ بعد رفْعة واتَّزنَ بعد خِفَّةٍ "[٤]. إلا أنّ الزبيدي تعقّبه بقوله: "قلت لم أر هذا لأحد من الأئمة وقد مرَّ هذا المعنى في (لشا) عن ابن الأعرابي "[٥].

٩ ـ **وطى**: نصَّ عليه صاحب اللسان بقوله: "وَطِيتُهُ وطْأً: لغة في وَطِئْتُهُ "[٦].

وهو مما استدركه الزبيدي على القاموس حيث قال: "ومما يستدرك عليه: وطِيتُه لغة في وطِئْتُهُ عن سيبويه، وقد تقدَّم "[٧].

---

(١) اللسان (وسي).

(٢) التاج (وسي).

(٣) اللسان (وصي).

(٤) القاموس (وصي).

(٥) التاج (وصى).

(٦) اللسان (وطي).

(٧) التاج (وطي).

وجاء في مادة (وطأ): "وقرأ بعضهم: ﴿طَهْ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ ـ ٢] بتسكين الهاء وقالوا أراد: طَأِ الأرض بقدميك جميعاً ؛ لأن النبي ﷺ كان يرفع إحدى رجليه في صلاته. قال ابن جني: فالهاء على هذا بدل من همزة طأ "[١].

قلت: وهذه القراءة تنسب إلى الحسن كما جاء في مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه[٢]. على حين نسبها أبو حيان في البحر إلى فرقة ؛ منهم الحسن وعكرمة وأبو حنيفة وورش في اختياره[٢].

وقد أورد أبو حيان في تفسير ﴿طه﴾ على قراءة الجمهور ـ أي: طاها ـ قولاً يلتقي مع ما جاء في اللسان، قال: "وقيل طا فعل أمر، وأصله طأ الأرضَ، أي: طأ الأرض بقدميك ولا تراوح، إذ كان يراوح حتى تورَّمت قدماه"[٣].

ولم يرد هذا الفعل في إحصائنا الحاسوبي لأننا استبعدنا اللغات.

١٠ ـ وكى: وَكَى القِرْبَةَ وأوكاها وأوكى عليها إذا شدَّ وِكاءَها أي: رِباطَها[٤]، جاء في التاج: ".. قال وأوكى رباعياً أفصح من الثلاثي كما في الفصيح وغيره. قلت: ولذا اقتصر عليه الجوهري "[٥].

١١ ـ ومى: وَمَى يَمِي. أورده صاحب اللسان بقوله: "الفرّاء: أومى يومي ووَمَى يَمِي مثل أوحى ووحى "[٦].

---

(١) اللسان والتاج (وطأ).

(٢) مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع ٨٧.

(٣) البحر المحيط ٦/٢٢٤. وانظر معجم القراءات للدكتور عبد اللطيف الخطيب ٥/٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٤) اللسان والقاموس (وكى).

(٥) التاج (وكي).

(٦) اللسان (ومي).

والإيماء الإشارة بالأعضاء. وهو مما استدركه الزبيدي على القاموس في التاج[(١)]. ولم يرد هذا الفعل في إحصائنا.

١٢ ـ وهى: وهَى يهِي: ووَهيَ يهِي وهياً، كوعَى ووَلِي: تخرَّق وانشقَّ واسترخى رباطُهُ. قال ابن هرْمة:

فـإن الغيـثَ قـد وهِيـتْ كُـلاهُ ببطحـاءِ السَّـيالة فـالنظيمِ[(٢)]

١٣ ـ يدي: يدَى يدِي، ويدِي يَيْدَى. يتصرف من بابين ولكل منهما معنى أو أكثر:

أ ـ يدِي فلانٌ من يدِه كرضي: ذهبت يده ويَبِسَتْ، ومنه قول الكميت:

فـأيٌّ مـا يكـنْ يـكُ وهْـو منّـا بأيـدٍ مـا وَبَطْـنَ ولا يَـدِينا[(٣)]

ب ـ يَدَيْتُ الرجلَ يَدْياً: أصبت يده أو ضربتها فهو مَيْديٌّ.

ويَدَيتُ الرجل: اتخذت عنده يداً، كأيديت عنده يداً فأنا مودٍ وهو مودًى إليه.

قال بعض بني أسد:

يَدَيتُ على ابنِ حسحاسِ بنِ وهْبٍ بأسـفلِ ذي الجِـذاةِ يَـدَ الكـريم

وأنشد شمر لابن أحمر:

يـدٌ مـا قـد يَـدَيْتُ علـى سُـكَينٍ وعبـد الله، إذ نهِـشَ الكُفُـوفُ[(٤)]

أفعال أخرى تبقى على حرف واحد

وبعدُ فليس هذا الضرب من الأفعال ـ أعني: ما يبقى على حرف واحد في صيغة الأمر ـ

(١) التاج (ومي).

(٢) اللسان والقاموس (وهي).

(٣) وبطن: ضعُفن، ويدين: شَلَلْنَ. اللسان والتاج (يدي).

(٤) اللسان (يدى).

مقصوراً على اللفيف المفروق، بل تدخل فيه أنواع صرفية أخرى كما رأينا في (رأى) التي تصبح على (رَ) وكما ذكر ابن جني في (بأى) التي تخفف في الأمور فتغدو (بَ)[١]. وعليه فإن معظم حروف العربية يمكن أن تستعمل على هذا النحو، وقد أفرد لها ابن جني فصلاً من كتاب سر الصناعة عنونه بقوله: "وهذا فصل لإفراد الحروف في الأمر ونظمها على المألوف من استعمال حروف المعجم "[٢] أتى فيه على حروف العربية حرفاً حرفاً، ونصَّ على إغفال ما أغفل منها ـ أي: لم يستعمل منه فعل أمر ـ وهي سبعة أحرف: (الضاد، والطاء، والظاء، والغين، والواو، والمدّة، والياء). وكل هذه الحروف مهمل في المعجمات أيضاً عدا الطاء، فقد ورد لغةً في وطِئ كما تقدّم.

إن إنعام النظر في جملة ما ورد من هذه الأفعال في العربية يفضي بنا إلى ملاحظة جملة من الأمور أهمها:

ـ كل هذه الأفعال واوي الفاء، عدا الأخيرة وهو (يدي) فيائيٌّ، ولم يمنع ذلك من وجود (ودي) الواوي.

ـ جل هذه الأفعال يتصرف من باب ضرب (الباب الثاني: فتح كسر) وبعضها يجمع إليه باب حسِب (الباب السادس: كسرتان) فيتصرف من بابين (كورِي ووهِي) وبعضها يقتصر على الباب السادس (كَوَلِي). وفي جميع ذلك ينبغي حذف الفاء لوقوعها بين عدوتيها كما سلف بيانه، غير أن هناك فعلاً واحداً اقتصر تصرُّفه على باب عَلِمَ (الباب الرابع: كسر فتح) وهو: (وجِي يوجَى) بمعنى حفِي، مما يقتضي ثبوت الفاء فيه في صيغتي المضارع والأمر لعدم وقوعها بين عدوتيها ؛ إذ انفتح ما بعدها. على أن ابن مالك لم يستعمل هذا الفعل في أبياته السالفة بهذا المعنى، وإنما استعمله بمعنى اللكز والقطع، مما يدل على أنه تسهيل لفعل (وجأ يجأ)[٣].

---

(١) سر الصناعة ٨٢٢/٢.

(٢) سر الصناعة ٨٣١/٢.

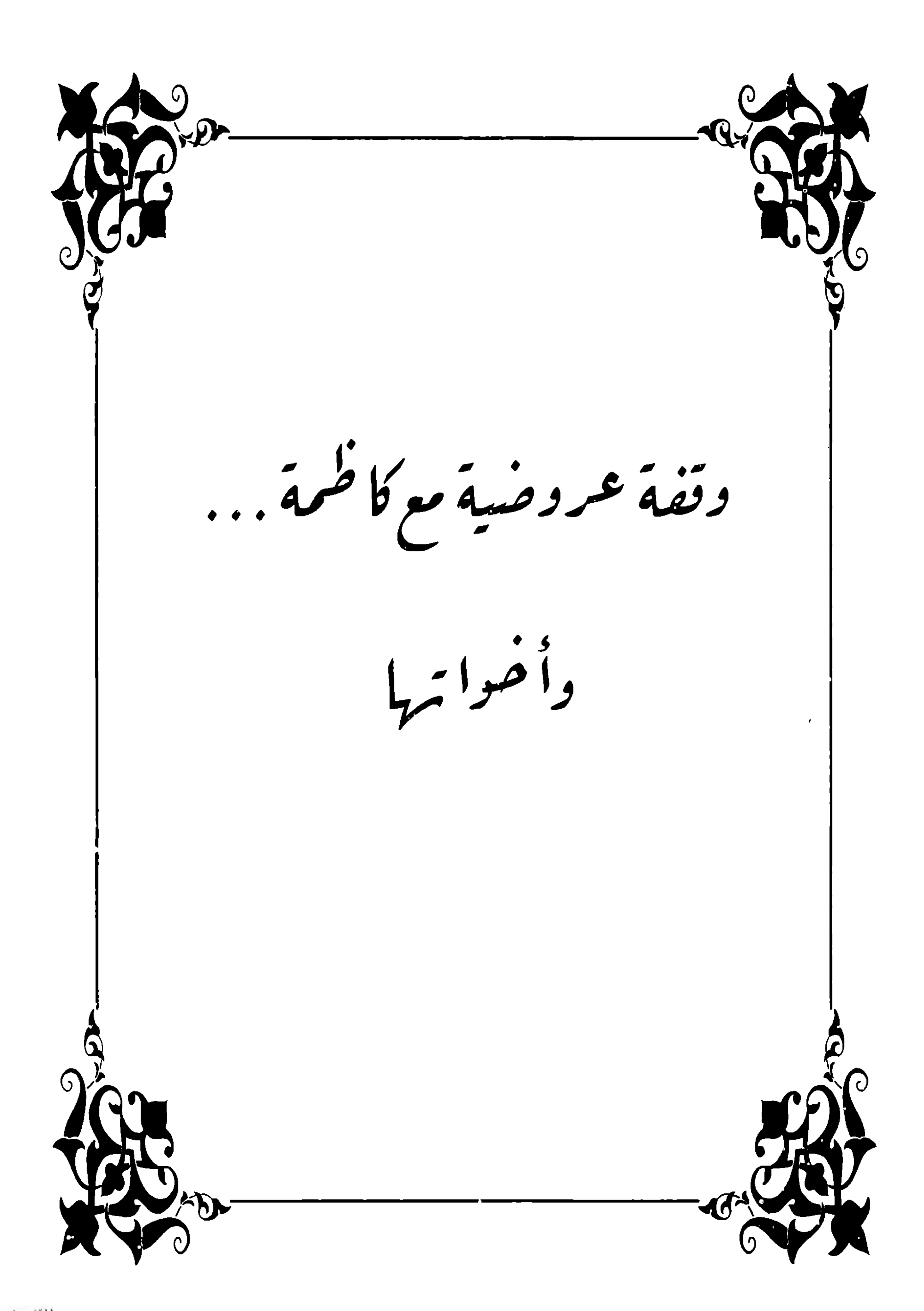
(٣) جاء في اللسان (وجأ) تعليقاً على حديث: "أنه ضحّى بكبشين موجوءين": "ومنهم من يرويه مَوْجِيَّين بغير همز على التخفيف، فيكون من وجيْتُهُ وجياً فهو موجِيٌّ".

وهو أيضاً مفتوح العين، وإن حذفت فاؤه كما حذفت من يَهَب ويضَع، مما يقتضي فتح العين في صيغة الأمر أيضاً، فنقول منه (جَ) يا فلان وليس (جِ) كما ورد في الأبيات، وعليه فثمَّة فعلان مفتوحان لا فعل واحد كما جاء في حاشية الخضري في النقل المتقدم. إلا أن ابن جني حكى لغةً لبعض العرب (جا يجي) بغير همز ثم قال: "فإذا أمرت قلت: جِ يا رجلُ، وجِيا، وجُوا، وجِي يا امرأة، وجِيا، وجِينَ، فاعرفه "[1].

وقبل أن أختم القول عنَّ لي أن أنظم ما فات ابن مالك رحمه الله نظمُهُ من هذه الأفعال، فقلت محاكياً نظمه:

إنّـي أقـولُ لمـنْ طالـت قطيعَتُـهُ	صِ الرَّحْمَ ويك صِياهُ صُوهُ صِي صِينَ
وإنْ وشَيْتَ بقومٍ مفسدين فقلْ	ثِ بالمسيءِ ثِياهُ ثُوهُ ثِي ثِينَ
وإنْ أمرتَ بكَتْبٍ للكتابِ فقل	حِ يا صديقي حِياهُ حُوهُ حِي حِينَ
كذا تقول من الإيماء في خَفَرٍ	مِ يا خليلي مِياهُ مُوهُ مِي مِينَ
وإنْ أشرْتَ بقصْدٍ للمسيرِ فقلْ	خِ الدَّربَ نهجاً خِياهُ خُوهُ خِي خِينَ
وإن فرَغْتُ من الإحرامِ نُودِيَ بي	سِ الرأسَ حالاً سِياهُ سُوهُ سِي سِينَ
وإنْ قصدتَ اتِّقاد الزَّند قلت له	رِ يا زُنيدُ رِياهُ رُوهُ رِي رِينَ
وقلْ لمن يُكثرُ الإسرافَ في بَطَرٍ	كِ الكيسَ وَيْكَ كِياهُ كُوهُ كِي كِينَ
وقلْ للابسِ ثوبٍ بعد طولِ بِلًى	هِ الثوبَ وَيْكَ هِياهُ هُوهُ هِي هِينَ
وإنْ أمرتَ بغيظٍ للعدوِّ فقلْ	زِ القومَ جَمْعاً زِياهُ زُوهُ زِي زِينَ
وقُلْ لمن يزدهي كبراً وعجرفةً	طَ التُّربَ وَيكَ طَياهُ طَوهُ طَيْ طَيْنَ
وإن أمرتَ بوذْيٍ قلت في ضَحِكٍ	ذِ يا حماري ذِياهُ ذُوهُ ذِي ذِينَ

(١) سر الصناعة ٢/٨٢٣ـ ٨٢٤.



وقفة عروضية مع كاظمة...

وأصواتها

وقفة عروضية مع كاظمة.. وأخواتها *

الحمد لله على آلائه، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه، وبعد:

فقد حكى ياقوتُ الحَمَوي في معجم الأدباء أن أبا جعفرٍ الطبري المفسّر المؤرّخ المشهور (ت ٣١٠هـ) قال: "لما دخلت مصر لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقيني وامتحنني في العلم الذي يَتحقّق به، فجاءني يوماً رجل فسألني عن شيءٍ من العروض ولم أكن نشِطت له قبل ذلك، فقلت له: عليَّ قولٌ ألاَّ أتكلمَ اليوم في شيء من العروض فإذا كان في غدٍ فصِرْ إليَّ، وطلبتُ من صديقٍ ليَ العروضَ للخليل بن أحمد فجاء به، فنظرتُ فيه ليلتي فأمسيتُ غيرَ عروضيٍّ وأصبحتُ عروضيًّا "[1].

تداعت إلى ذاكرتي هذه القصة وأنا أقرأ المقدمة الضافية التي توّج بها شاعرنا الأستاذ فاضل خلف مجموعته الشعرية "كاظمة.. وأخواتها "فقد روى فيها قصة تحوّله من عالم الشعر بلا أوزان إلى عالم البحور والأوزان، وأرجع الفضل في ذلك لتلك الليلة التي فجرت طاقاته الفنية وجعلت منه العروضي الحذِق، أجل فقد بات غير عروضي وأصبح عروضيًّا، فإذا بأوزان الشعر تنقادُ له مذللةً سهلة ينتقي منها ما يشاء، وإذا ببحور الخليل تمتد أمامه واسعةً رحبةً يبحر فيها متى يشاء.

والقارئ في ديوانه هذا يقف على حقيقةِ مَكِنَتِهِ من أوزان الشعر، وانتقائه من البحور ما يناسب الحال ويلائم المقام.

ولعل أوّلَ ما يلفت نظرَ الباحث أنّه بدأ بما افتتح به الخليل دوائره العروضية، أعني: سيد

---

* ألقيت في احتفالية قسم اللغة العربية بجامعة الكويت بيوم الأديب الكويتي احتفاءً بشاعري الكويت الأستاذ فاضل خلف، والأستاذ يعقوب الرشيد (٨ نوفمبر ٢٠٠٠م) ثم نشرت في مجلة البيان التي تصدر عن رابطة الأدباء في الكويت العدد ٣٦٧ ـ فبراير ٢٠٠١م.

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٦.

بحور الشعر الطويل حيث قال مخاطباً شيخ العروبة جابراً :

تمـرُّ السّنونَ الزُّهـرُ وهـي عـواطرُ وعهـدُكَ في ظـلِّ العدالـةِ زاهـرُ
تنـامُ عيـونُ الشـعبِ وهـي قريـرةٌ تظلّلـها النُّعمـى وطرفُـكَ سـاهرُ
ومـا أروعَ الأشـعارَ حـينَ يصـوغُها شـعورٌ مصـفًّى ردَّدَتْـهُ القيـاثرُ[(١)]

وإذا ذُكِر الطويل فينبغي أن يُشفع بالبسيط ، وهما كما يقول العلاّمة الدكتور عبد الله الطيب في كتابه الفذّ "المرشد إلى فهم أشعار العرب" : أطولا بحور الشعر العربي ، وأعظمُها أبّهةً وجلالاً ، وإليهما يعمَدُ أصحابُ الرصانة ، وفيهما يُفتَضَحُ أهلُ الركاكة والهُجنة[(٢)].

وقد أثبت شاعرنا أنه من أصحاب الرصانة حين تقحَّم هذين البحرين فنظم عليهما في مجموعته هذه وغيرها. فمن البحر البسيط قوله يتغنى بالشباب بين الأزهار والإنسان :

رأيتُهـا سـحَراً في الـروض عـاطرةً تُسـبِّح اللهَ بـين المـاء والشـجرِ
تـوزِّع العطـر لا ترجـو مكافـأةً ولا ثنـاءً لمـا صـاغَتْ مـن الـدُّررِ[(٣)]

والحقُّ أن اختلاف أوزان البحور يعني أن أغراضاً مختلفة دعت إليه ، وإلا فقد أغنى بحر واحد ووزن واحد[(٤)] ، كما يقول الشيخ الطيب. ومن ثمَّ اختلفت أوزان القصائد في ديوان شاعرنا باختلاف ما يطرقه من أغراض وما يعالجه من معانٍ. استمع إليه يقول بحماسة تناسب البحر الكامل :

أرضَ الكويتِ سلمتِ من كيدِ العِدا وبقِيـتِ للسـارين خـيرَ منـارِ
تاريخُـكِ المِعطـارُ يـروي قصّـةً عـن فتيـةٍ عاشـوا مـع الأخطـارِ

---

(١) كاظمة وأخواتها ١١.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ١/ ٤٤٣.

(٣) كاظمة وأخواتها ١٩.

(٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب ١/ ٩٤.

وطــني الحبيــبَ تحيــةً قلبيــةً مزدانــةً بالحــبِّ والإكبــار
صُنتَ الـديارَ مـن الغـزاة وكيـدِهم فكتبـتَ سِـفرَ المجـد للأحـرارِ[1]

ونراه في قصيدة أخرى يركب البحر الوافر ليستنكر الصلح مع العدو الغادر، وكأنه ينظر إلى ما صرنا إليه مع هؤلاء اليهود الذين لا يرقُبون في مؤمنٍ إلاً ولا ذمّة:

أصــلحٌ والمرابــعُ تسـتباحُ وسِـلمٌ والجـراحُ هـي الجـراحُ
ومــن حــربٍ مُســعّرةٍ ضــروسٍ إلى سِــلم توشّــيها الأقــاحُ
وللــدم في مرابعنــا ضــجيجٌ وللشــهداء ألســنةٌ فصــاحُ[2]

وكأني بالوافر بإيقاعه المتدفّق ونغمته القوية يتجاوب عنده مع هذا النداء الغاضب الثائر.

استمع إليه يردد على هذا البحر أيضاً قولَه في قصيدة الهجرة:

فأضـحى المسـجد الأقصـى غريبـاً يـدنِّس سـاحَهُ خصـمٌ لـدودُ
أبعــد المجــدِ والعــزِّ المصــفّى تملّــكَ رحبَــهُ بــاغٍ شــديدُ
أعيــدوها فــذكراها شــفاءٌ لأرواحٍ تقمَّصَـها الخمـودُ[3]

ونراه مع البحر الخفيف يخاطب الحجاجَ في عرفات بخشوع وحنين:

أيهــا الواقفــون في عرفــاتِ في ربــوعٍ قدسـيَّةِ النفحــاتِ
بــارك الله في ثراهــا وأهــدى ســاكنيها كــرائمَ السُّــوراتِ

إن ديوان كاظمة لا يكاد يُخلِفُ بحراً من بحور الشعر دون أن يركبه، حتى ما استدركه الأخفشُ على شيخه الخليل ـ أعني البحر المتدارك ـ فقد أدركه شاعرنا بحسّه الشفاف المرهف فنظم عليه رائعتَه في جدّته:

---

(١) كاظمة وأخواتها ٢١ ـ ٢٢.

(٢) كاظمة وأخواتها ٧٠.

(٣) كاظمة وأخواتها ٣٤.

لـو عـدتِ فرشـتُ لـكِ الـدَّربا   بــالوردِ وزيَّنـتُ العُشــبا
ولثمـتُ جبينَـكِ في شَـغَفٍ   ومسـحْتُ عـن الوجـه التُّربـا
أنسـاكِ ؟ وهـل أنسـى قَـدَري ؟   هــل أنسـى عالَمـكِ الرَّحبـا
لــولاك حيـاتي مـا اكتملَـتْ   وفتـاكِ لمـا عـرفَ الـدَّربا
فصـلاتك كانـت لـي نَغَمـاً   وصـيامُك كـان هـوًى عـذبا[1]

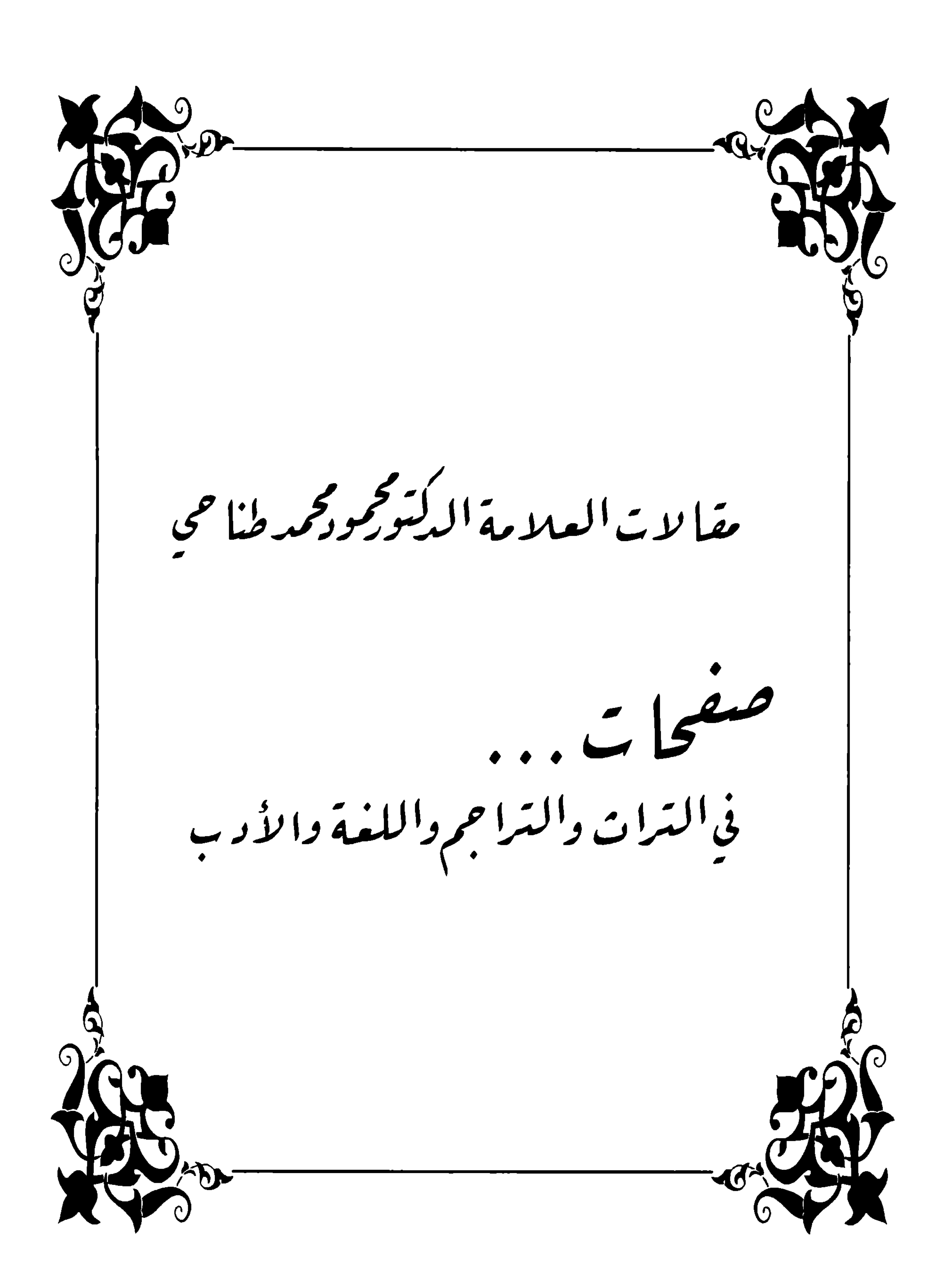
وبعد فالكلام على أوزان الشعر وعروضه عند شاعرنا الخَلَف يحتاج إلى حديث مطول.. والحديث ذو شجون.

وإنما هي اللمحة الخاطفة، والإشارة العجلى، تمليها علينا طبيعة الوقت المتاح، ووفرة الكلمات المكرِّمة، تحيةً وإجلالاً لشاعري الكويت الكريمين الأستاذ يعقوب الرشيد والأستاذ فاضل خلف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الكويت ٨ من نوفمبر ٢٠٠٠

(١) كاظمة وأخواتها ٦٧.



مقالات العلامة الدكتور محمود محمد طناحي

صفحات ...

في التراث والتراجم واللغة والأدب

مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي

صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب*

في حلة قشيبة وطبعة أنيقة صدرت مجموعة مقالات فقيد العربية الكبير الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي عن دار البشائر الإسلامية ببيروت في مجلدين فخمين جليلين كل ما فيهما ينطق بمكانة الرجل وعلو كعبه، وتضلعه من علوم العربية.. ومَكِنَتِهِ في فنونها، ودرايته بالتراث مخطوطه ومطبوعه.. وتحرِّيه الدقّة والصواب في تحقيق النصوص، وغيرته على علوم الأمة.. وذوده عن حياضها ومعَارفها، ومعرفته بالرجال.. ووفائه للشيوخ والأعلام، وبراعته في الكتابة.. وسمو بيانه.. وحلاوة لسانه.. وطلاوة تعبيره.. وفكاهته ومؤانسته.. واستحضاره للشواهد والأمثال.. وحسن تأتّيه في رصفها.

ولو شئت أن أمضي فيما برع فيه الرجل لمضيت ولما وسعتني هذه العجالة، فما كان الطناحي رجلاً عاديًّا.. ولكنه أمّة في رجل:

وقالوا الإمامُ قضى نَحبَهُ ... وصيحةُ مَن قد نعاهُ عَلَتْ

فقلتُ فما واحدٌ قد مضى ... ولكنّه أمَّةٌ قد خَلَتْ

لقد جمع فأوعى، ودرس فأوفى، وعرف فأغنى.. وكان كما قال الأول:

مُلقّنٌ ملهَمٌ فيما يحاولُهُ ... جمٌّ خواطرُهُ جوَّابُ آفاقِ

ولا شكَّ أن الأمة فقدت برحيله رجلاً عليماً بأسرار العربية، متذوقاً لبيانها، حاذقاً في لسانها، ناشراً لكنوزها وذخائرها.

وكانت مبادرةً كريمة تلك التي نهض بها رهطٌ من أهل العلم وعشاق أدب الطناحي إذ أخرجوا هذا الكتاب بقسميه، فأسدوا إلى العربية وأهلها يداً بيضاء ينبغي أن تُذكر فتُشكر،

---

* نشرت في مجلة العربي بالكويت، العدد ٥٢٤، ربيع الآخر ١٤٢٣هـ - يوليو ٢٠٠٢م.

أولهم الشيخ المحقق محمد بن ناصر العجمي صاحب الفكرة وباعثها والحاشد لها، وثانيهم ابن العلامة الطناحي البار الأستاذ محمد الذي قام بجمع مقالات والده المنشورة في المجلات والدوريات المختلفة، وثالثهم صفيُّ الطناحي وصنوه العالم الأديب الأستاذ عبد الحميد بسيوني الذي تفضل بقراءتها وتحضيرها للطباعة، ورابعهم الشيخ أمين شحرور الذي صحّحها وصنع فهارسها، وخامسهم ناشر الكتاب الأستاذ رمزي دمشقية الذي عني بإخراجه وبثَّ فيه من روحه.

وكي لا يظن القارئ أني أبالغُ في نعوت الرجل فسأجعل همي في هذه الكلمة الكشف عن حقيقة هذه النعوت والتدليل على كل منها بما جاء بين دفتي هذا الكتاب النفيس وفيما يلي بيان ذلك:

١ ـ مكانة الطناحي وعلوّ كعبه

تتبدى هذه المكانة فيما صُدِّر به الكتاب من كلمات تنوِّه بها، وتشيد بصاحبها، وتبين وجوه إبداعه.

أولها: كلمة الشيخ المحقق محمد بن ناصر العجمي [٦/١] الذي بيَّن حجم الرزء بوفاة الطناحي وفداحة الخسارة بفقده، وأثنى عليه بما هو أهله مستشهداً بقول الشاعر:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وثانيها: كلمة الأستاذ الدكتور عبد الله محارب: "الطناحي ورحلته مع التراث العربي" [٩/١] التي تحدث فيها عن مسيرة حياة الطناحي في طلب العلم، وأسفاره في صحبة المخطوطات والعناية بها تصويراً وفهرسةً وتحقيقاً، وصحبته لأكابر العلماء والباحثين، ووفائه لهم، وكلامه على أفضالهم، ثم عرض لعلمه وفضله مؤكداً أن الحديث في هذا الجانب "سوف يغرق في بحور إحسانه" وختم بوصف الأستاذ الأديب عبد الحميد بسيوني له بأنه "جبل من جبال العلم".

وثالثها: كلمة للطناحي نفسه كان أودعها مقدمة تحقيقه لكتاب "منال الطالب" لابن الأثير، فأوردها الناشر تحت عنوان: "من ذكريات الدكتور الطناحي في مكة" [١٩/١] يقول

فيها : ".. وقد أنزلني القوم آنذاك مُنزلاً كريماً، حيث عوملت وظيفيًّا تحت بندٍ هناك يسمّى (كفاءة نادرة) يعامل به الإنسان الذي أكرمه الله بشيء من العلم معاملة (العالم) لا معاملة (حامل الشهادة العليا) وفي ظلِّ هذا البند كان يعامل الأساتذة: محمد متولي الشعراوي، ومحمد الغزالي، والسيد أحمد صقر، والسيد سابق، ومحمد قطب، وطائفة من كبار مشايخ الأزهر...".

ورابعها: "السيرة الذاتية "[١/ ٢٢] التي ذكرت تحصيله الدراسي، ونشاطه العلمي، وإنتاجه الغزير من التحقيقات والمؤلفات التي بلغت خمسة وثلاثين كتاباً، وختمت هذه السيرة بذكر أعماله الوظيفية بين الجامعات، والمنظمات العربية، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ولا أدلَّ على هذه المكانة من رسائل العلماء إليه التي اشتمل الكتاب على نماذج منها [١/ ٣١] تصدرتها رسالتان من شيخنا العلامة أحمد راتب النفاخ طيب الله ثراه، تلتهما رسالة من شيخ المحققين الأستاذ عبد السلام هارون رحمه الله، ثم رسالة من أستاذنا العلامة الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق حرس الله مهجته وأطال بقاءه.

٢ ـ تضلّعه من علوم العربية.. ومَكِنَتُهُ في فنونها لغةً ونحواً وصرفاً وبلاغةً وأدباً

وشواهد ذلك في الكتاب كثيرة أجتزئ بالإشارة إلى براعته في كل فن من هذه الفنون بما خصه من مقالات. أما اللغة فكتب فيها: "صيحة من أجل اللغة العربية.. هل يتحول التراث العربي إلى ألغاز وطلاسم "١/ ١٣٦. وكتب أيضاً: "لسان العرب لابن منظور "١/ ١٧٧، و"التصحيح اللغوي.. وضرورة التحرّي "١/ ١٩٦، و"المعاجم اللغوية والهجوم الذي لا ينتهي "١/ ٣٦٥. و"تاج العروس.. والزمن البعيد "٢/ ٥٣٧، وعلى ذكر التاج فهو واحد من فرسانه الذين اضطلعوا بتحقيقه في نشرته الجليلة التي أخرجها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت في أربعين مجلداً احتفي مؤخراً بإنجازها وتكريم القائمين عليها في ندوة تاج العروس التي دعا إليها المجلس وحضرها رهط من أهل العربية وسدنتها من مشرق الوطن العربي ومغربه في الفترة: (٩ ـ ١٠) فبراير ٢٠٠٢ بدولة الكويت.

وأما النحو فكتب فيه مقالين بعنوان: "النحو العربي.. والحمى المستباح "٢/ ٤٣١ و٢/ ٤٥٣، وثالثاً بعنوان: "النحو والشعراء "١/ ٢١٤.

وأما الصرف فله مقال نفيس بسط فيه الكلام على كلمة "تترى "التي يظنها كثير من الناس فعلاً وما هي بفعل ! وإنما هي اسم بيّن الطناحي رحمه الله أصله واشتقاقه وحرّر معناه مستشهداً بغرر الشواهد الشعرية والنثرية فيه، ثم دفع شبهة الفعلية عنه، وذلك في المقال الذي يحمل عنوان "الآي تترى "٢/٥٥٢.

وأما البلاغة ففي مقالين رائعين حملا عنوان "البيان والطريق المهجور "١/٣٤٦ و١/٣٥٥. وأستميح القارئ أن أقتطف نبذة من مطلع المقال الأول جاء فيها [١/٣٤٦]: "من أجلّ نعم الله على عباده نعمة البيان، وقد امتنَّ الله على عباده بهذه النعمة فذكرها في أشرف سياق فقال تقدست أسماؤه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ ثم يتابع الطناحي قائلاً: "ووجوه الإحسان في تأدية المعاني كثيرة، ومنادحها واسعة، ولا يكاد يظفر بها إلا من وُهب لطافة الحسِّ وخفّة الروح ورحابة الصدر، والارتياح والطرب لمظاهر إبداع الله عز وجل في هذا الكون، وما بثَّه في ملكوت السماوات والأرض، وما أجراه على ألسنة خلقه، أما "أهل الكثافة "وهم الذي امتحنهم الله بثقل الظل وركود الهواء، فما أبعدهم عن البيان والإحسان:

وهُلكُ الفتى ألا يَراح إلى الندى ... وألا يرى شيئاً عجيباً فيعجبا "

وأما الأدب فيتبدى في مقاله البديع: "أجمل كتاب في حياتي.. البيان والتبيين للجاحظ "٢/٥٢٢ حيث بسط الكلام على محبته لهذا الكتاب وما فيه من أسرار وبيان وفن وأدب وفكر، بل لقد ذهب في ختام مقاله إلى أنه كتاب شامل للحضارة العربية، وأوصى بأن يلتفت إليه مدرسو العربية "وأن يجعلوا من نصوصه نصيباً مفروضاً على تلاميذهم، فقد استقامت بهذا الكتاب ألسنة، وارتقت عليه أذواق، واستوت به ملكات ". ٢/٥٣١.

٣ ـ درايته بالتراث مخطوطه ومطبوعه

تعود خبرة الطناحي بالمخطوطات العربية إلى نشأته بينها ناسخاً لها، ومفهرساً لطائفة منها، ثم محققاً لنفائس من غررها، وقد كان لعمله خبيراً بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية أكبرُ الأثر في هذا، إذ انتُدِب عضواً في بعثات المعهد إلى تركية والمغرب والسعودية واليمن، فكشف نوادر خزائنها، وفهرس لخبايا مخطوطاتها، وفي الكتاب الذي تعرض له شواهد كثيرة لهذه الخبرة، تجلّت في المقالات التالية:

"التراث العربي في المغرب.. وقضية التواصل بين المشرق والمغرب "١/٩٠، و"التحقيق" ١/١٢٤، و"حلقات مفقودة في تراثنا المطبوع "١/١٥٨، و"دار الكتب.. ونشر التراث في مصر" ١/١٧٠، و"تركيا والمخطوطات العربية "١/٣٢١، و"المتنبّي وعلم المخطوطات "١/٣٨٧.

على أن معرفته بالمطبوع لا تقل أهمية عن معرفته بالمخطوط، وقد تجلى ذلك في المقالات التالية: "الكتب الصفراء.. والحضارة العربية "١/٢٠٦، و"الكتاب والتواصل العلمي "١/٢٧٩، و"من حصاد الندوات: أولية الطباعة العربية في مصر "٢/٤٢٩، و"تراثنا.. رحلة شاقة شيقة "٢/٦٦٠.

والحق أننا لا نستطيع الفصل الحاسم بين المخطوط والمطبوع في هذه المقالات إذ يتداخل فيهما الكلام على نحو يبرز براعة الرجل في كل منهما. ولا أجد في هذا المقام خيراً من اقتباس كلمته التي ختم بها مقاله: "المتنبي.. وعلم المخطوطات "وقال فيها:

"إن علماء المخطوطات يتناقصون يوماً إثر يوم، بالموت الذي لا يُردُّ، وبالصوارف التي لا تدفع. وقد مات كثير من علماء المخطوطات وفي صدورهم الشيء الكثير، فبعضهم ضنَّ واحتجن، وبعضهم تراخى وغرَّه طول الأمل. ولهذا فإني أدعو كل من أنعم الله عليه بشيء من هذا العلم أن ينشره ويذيعه، فإن الموت لا موعد له، وعلمه عند علاَّم الغيوب" ١/٣٩٧ـ٣٩٨.

٤ ـ غيرته على علوم الأمة.. وذوده عن حياضها ومعارفها

وينبع ذلك من أصالة الرجل التي لا يخطئها قارئ في أي مقال من مقالاته، ولكن ثمة مقالات وضعت أساساً لمثل هذا الذود عن معارف الأمة، والحمية عنها، والغيرة على لغتها، ورفع رايتها، من مثل مقاله: "صيحة من أجل اللغة العربية.. هل يتحول التراث العربي إلى ألغاز وطلاسم ؟ "١/١٣٦، وهو يستهله بالقول:

"لم يعد خافياً على أحد ذلك التدنّي الذي وصل إليه خريجو أقسام اللغة العربية في جامعاتنا خلال العقود الأخيرة، وهؤلاء الخريجون هم الذين يتولون تعليم أولادنا في المدارس، وهم أيضاً الذين يسمعوننا الكلمة العربية من خلال الإذاعة والتلفزيون، ولو ترك الأمر على ما هو عليه الآن فالله وحده هو الذي يعلم أبعاد الكارثة التي ستطبق على هذه الأمة، ونخشى أن تغشانا طوارقها ذات يوم وقد استحال تراثنا الذي ضَنِيَ به الأوائل خلال أربعة عشر قرناً من الزمان ألغازاً وطِلّسْماتٍ كالذي تراه على جدران المقابر والمعابد ولفائف البردي، رموزاً قديمة تخفى على جمهرة الناس، ولايعقلها إلا العالمون، ويومها سنقول:

استعجمت دار ميٍّ ما تكلمنا   والدار لو كلمتنا ذات أخبار "

وقل مثل ذلك في مقالاته: "المعاجم اللغوية.. والهجوم الذي لاينتهي "١/٣٦٧، و"النحو العربي.. والحمى المستباح "٢/٤٣٧، ٤٥٣، و"هل أدلكم على تجارة ؟ "٢/٤٦٧.

٥ ـ معرفته بالرجال.. ووفاؤه للشيوخ والأعلام

يبدو أن هذه القضية قد استبدَّت بالطناحي على نحو كبير، إذ لا نبالغ إن زعمنا أنَّ نِصْفَ مقالاته إنما يدور حول الكلام على الرجال، وإبراز معارفهم، ومحاولة الإفادة من تجاربهم وخبراتهم، على اختلاف ألوانهم واختصاصاتهم، وأزمانهم وأمكنتهم. وفي كل مقالة يَبرز جانبٌ من جوانب المعرفة عند هؤلاء الأعلام فهو يتحدث عن العلم والإصلاح في مقاله: "ابن السبكي.. علم وإصلاح "١/٤٧، وعن الحديث والأثر في: "أحمد محمد شاكر "١/٦٥، وعن علم المكتبات وبناء الشخصية العصامية في: "فؤاد السيد.. العالم الذي فقدناه "١/٧٠، وعن

الوراقة والورَّاقين والخبرة بشؤون المخطوط العربي في مقاله: "رشاد عبد المطلب.. والديار التي خلت "١/٨٣، وعن آخر حارس من حراس معهد المخطوطات في: "محمد مرسي الخولي.. والبنيان الذي تهدم "١/١٣١، وعن قراء مصر وخصائص قراءتهم في: "الشيخ مصطفى إسماعيل.. وقراء مصر "١/١٨٧، وفي: "إقراء القرآن بمصر (ترجمة للشيخ عامر عثمان) "١/٢٣٥، وعن أثر اللغة في تكوين الداعية الإسلامي والواعظ الديني في: "الشيخ الشعراوي.. واللغة "١/٢٨٠، وعن تكريم الأعلام والإشادة بمناقبهم في مقاله: "محمود محمد شاكر.. والتكريم المستحق "٢/٤٣٤.

والحق أنه لم يكتفِ بمقال واحد عن شيخه العلامة محمود محمد شاكر رحمه الله ـ وهو الذي عرف به، وتعلق بمحبته، وتأثر بطريقته، واقتدى بهديه، وقفى أثره، ونافح عنه، وكنا نرى فيه الخليفة المرتجى لشيخه، ولكن المنية عاجلته ـ وإنما كتب عنه سبع مقالات انطوت على حقيقة ما يكنّه له من محبّة وتقدير ووفاء واحترام وهي على التوالي: "محمود محمد شاكر.. ومنهجه في تحقيق التراث "٢/٤٧٨، و"الشيخ محمود شاكر.. وتاريخ ضخم "٢/٥١٧، و"محمود شاكر.. والديار التي خلت "٢/٥٢٠، و"أي شلال هادر توقف (عن محمود شاكر) "٢/٥٣٢، و"محمود محمد شاكر.. ركن باذخ "٢/٦٠٣، و"محمود محمد شاكر.. والسهام الطائشة "٢/٦٠٨، بالإضافة إلى المقال الذي ذكر أولاً.

ويكفي أن نقرأ فقرة جاءت في مقاله: "محمود شاكر.. والديار التي خلت "لنعلم أيَّ مقام تبوَّأ ذلك الشيخ الجليل في نظر تلميذه الوفيّ: "وقد كتبت عن محمود شاكر كثيراً وحاولت أن ألتمس وجوهاً من الوصف تنبئ عن حقيقة حاله ومكنون أمره، وغاية ما انتهيت إليه أن الرجل رُزق عقل الشافعي وعبقرية الخليل ولسان ابن حزم وجلَد ابن تيمية، بل إني رأيت أن ليس بينه وبين الجاحظ أحد في الكتابة والبيان.. "٢/٥٢١.

٦ ـ براعته في الكتابة.. وسمو بيانه.. وحلاوة لسانه. وطلاوة تعبيره.. وفكاهته

إن كل حرف كتبه الطناحي يدلّ على أنه أديب مرهف الإحساس وكاتب متمرس عارف بأصول الكتاب ووجوه البيان، وفي أسلوبه إلى ذلك طلاوة محبَّبة، وفي تركيب عبارته حلاوة

بادية، وقد رزق من لطافة الحسّ، وخفة الروح ورحابة الصدر ما جعله آيةً في ذلك. اقرأ معي إن شئت ما أورده الأستاذ الدكتور عبد الله محارب في كلمته التي جُعلت مدخلاً للكتاب من كلام الطناحي في وصف هؤلاء الذين يتزلفون لتلاميذهم بأسلوب ساخر ممتع: "وإن منهم لفريقاً يتهافت على ذوي المناصب من تلاميذه، حتى إذا رأى أحدهم في مجلس طمح ببصره إليه، وأخذ يمدُّ عنقاً ويميل رأساً، ويسدّد نظراً ليريه مكانه، فتلتقي العينان، فيذهب بها غنيمةً باردة يحدث بها أهله وولده، فإذا أبصره في طريقه ركض خلفه حتى يكاد يتعثر في أذياله، وشق الصفوف إليه وقد علاه البهر وغلبه النهيج حتى يوشك أن يكتم أنفاسه، فإذا انتهى إليه ابتسم في صغار وانكسار وأخذ يذكره بتلمذته له في ثقل وغثاثة:

ولو أن أهلَ العلم صانوهُ صانَهم ... ولو عظَّموه في النفوس تعظَّما "

[١/ ١٧].

ومن ظريف تعبيراته في وصف شيخه محمود شاكر قوله: "والمكتبة العربية عند أبي فهر كتاب واحد، فهو يقرأ صحيح البخاري كما يقرأ الأغاني، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجي، وقد قلت عنه مرة بالتعبير المصري: "إنه خد البيعة على بعضها "٢/ ٤٨٠.

ومن طريف ما كتب في معرض الموازنة بين ما كانت عليه مناقشات الرسائل الجامعية من الرصانة والجدية وما هي عليه اليوم من الهشاشة والهزل: "أما اليوم فالأساتذة يدخلون في موكب بهيج من الضحك والانبساط والتطلق، ويسري هذا كسابقه إلى الحضور، فترى القاعة تموج بالانشراح والبهجة والتعليقات الحلوة، والأطفال يتقافزون ويمرحون في القاعة، وقد جيء بهم ليروا (بابا) في يوم عرسه، والنساء يزغردْنَ عند إعلان النتيجة، بل إني سمعت إحداهنَّ تنشد لقريبها الطالب

يا شجرة يا حلوه يا مفرّعه ... شرفت أعمامك الأربعة

هكذا والله ". ٢/ ٦٧٨ ـ ٦٧٩.

ومن عباراته التي حفظها الناس وتناقلوها حتى لقد ذهبت مذهب الأمثال قوله:

"وحظوظ الكتب كحظوظ الناس، يصيبها ما يصيبهم من ذيوع أو خمول "٢/ ٤٩٣.

ومن مداعباته وفكاهاته ما ذكره من انتشار عدوى العامية بين أساتذة الجامعة وشباب المعيدين من طلاب الدراسات العليا. حيث يقول: "طلبت يوماً من أحدهم شيئاً، فقال: حاضر يا عسل! فقلت: ما هذا يا بني؟ لاينبغي أن تستعمل مثل هذه الألفاظ، فقال: لقد سمعتها من فلان وفلان وفلان، وذكر أسماء كبيرة، فلما سمعت هذا قلت له: خلاص يا حلاوة، براءه، أنت كده في السليم، فنظر إلي نظرة انتصار، فهممت أن أقول له: "متبصليش بعين رديّه شوف إيه عملته في شرح الألفية". ٦٨١/٢.

٧ ـ استحضاره للشواهد والأمثال.. وحسنُ تأتّيه في رصفها

حفظ الطناحي القرآن الكريم منذ نعومة الأظفار وطراءة الصبا، وتربَّى تربية المشايخ التي تعتمد على حفظ المتون والاستكثار من مذاكرة الأشعار والأمثالِ والحكم والأخبار، فكان له من ذلك كله ركن مكين يتكئ عليه في كل ما يكتب، فلا تكاد صفحة مما كتبه تخلو من شاهد قرآني أو شعري أو نثري أو مثل أو حكمة أو خبر أو طرفة، فهو في هذا يغرف من بحرٍ عميقٍ غورُهُ كثيرٍ خيرُهُ، فيتحف القارئ بكل شاذّة وفاذّة، تضيء النص، وتزيّن الحديث، وتتوج الفكرة، وتجلو المعنى.

من ذلك ـ وهو كثير لا يكاد يحصى ـ قوله في معرض الحديث عن التوسع في المعذرة وتعمُّد الخطأ: "ذكر الحافظ الذهبي في ترجمته التابعي الجليل (قتادة بن دعامة السّدوسي) أنه كان يرى القول بالقدر، وهي مقالة منكورة عند أهل السنة والجماعة، ثم عقب الذهبي على ذلك فقال في كتاب سير أعلام النبلاء ٢٧١/٥: "ثم إن الكبير من أهل العلم إذا كثر صوابه، وعُلم تحريه للحق، واتَّسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه واتِّباعه يغفر له زلَلُه، ولا نضلّله ونطرحه وننسى محاسنه".

ثم استشهد الطناحي على ذلك بقول زفر بن الحارث:

أيذهب يومٌ واحد إن أسأتُهُ   بصالح أيامي وحسن بلائيا

وقول المتنبي:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً   فأفعاله اللائي سرَرْنَ ألوفُ

وقول الآخر:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ   جاءت محاسنه بألف شفيع

[٦١٩/٢].

ومن ذلك تمثله بأمثال العرب من نحو قولهم: "شِنشِنةٌ أعرفها من أخزم "٦٩٠/٢، وقولهم: "ذكرتني الطعن وكنت ناسيا "٤٣٧/٢، وربما جعل المثل عنواناً لمقال، كما في: "أبي يغزو وأمي تحدّث "٦٩٧/٢، وفي: "زاحم بعَوْدٍ أو فَدَعْ "٧٠٥/٢.

وأما الآي والأحاديث فهي تملأ الكتاب بقسميه مما حدا بالناشر إلى إفراد فهرس لكل منها [٧٠٩/٢ ـ ٧٢٠]. وليته صنع مثل ذلك للأشعار والأمثال، إذن لتمَّ له عمله، ولكن "جلَّ من لا عيب فيه وعلا ".

وبعد فإن ما ذكرته لا يعدو أن يكون صُوًى تشير إلى بعض مزايا الكتاب، ولكنها بلا ريب لا تحيط به ولا تكاد تبلغ ذلك، لأن من وراء ما ألمعت إليه علماً غزيراً.. وفكراً سديداً.. وبياناً سامياً.. وحمية للعربية جياشة. وما أحوجنا أن نتتلمذ عليه ونفيد منه، ونقبس من روائعه، فهو بحقّ معلمة ينتفع بها من كل جانب.

وحسبي هنا أن أسوق عناوين المقالات التي لم آت على ذكرها فيما سلف، ليدرك القارئ أيَّ مجال رحب جال فيه الكاتب، بل أي فضاء واسع حلَّق فيه المبدع:

١ ـ **القسم الأول:** "طبقات الفقهاء الشافعية "، "عينية ابن زريق "، "الحفظ وأثره في ضبط قوانين العربية "، "لسان العرب لابن منظور "، "العامة وقراءة التراث "، "قصيدة نادرة في المديح النبوي "، "مع بداية العام الدراسي الجديد.. من يقرأ هذه الكتب "، "من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن "، "الهجرة وكتابة التاريخ الإسلامي [في حلقتين] "، "الجامعة المصرية إلى أين ؟ "، "الكتاب الجامعي والطريق الصحيح "، "في كم يتلى القرآن ؟ ".

٢ ـ **القسم الثاني**: "هذه النقطة وقضية التصحيف والتحريف"، "السيرة الذاتية.. والصدق مع النفس [في حلقتين] "، "دراسة في مصادر الأدب (للدكتور أحمد مكي) [في حلقتين] "، "تاج العروس.. والزمن البعيد"، "مطبعة للمنشورات.. وليست للثقافة"، "كمال النجمي.. والثغور التي تتساقط"، "الناشرون الأوائل.. وسماحة مصر"، "ذيل الأعلام.. ومغالبة الهوى (لأحمد العلاونة) "، "القرآن الكريم.. وتفسير العوام"، "الرسائل الجامعية.. وساعة ثم تنقضي"، مقالات قصيرة بعنوان: (الكلمة الأخيرة) وقد ضمت الكلمات التالية: "المؤتمرات العلمية.. والنغمة المكرورة"، "الجزار الثالث"، "العامية في مهرجان أمير البيان"، "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"، "الندواتية"، "موائد الرحمن"، "جلال معوض.. وزمن الورد".

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الناشر نبه في كل مقال إلى مكان نشره وزمانه.

أما الزمان فقد بدأ في شهر إبريل/ نيسان عام ١٩٦٥ وانتهى في شهر يونيه/حزيران عام ١٩٩٩ بعد ثلاثة أشهر من وفاته بمقال نشرته مجلة الهلال وكُتب في هامشه: "هذا المقال كتبه الراحل د. محمود الطناحي قبيل وفاته وكأنه يكتب وصيته الأخيرة"[٢/٦٧٧].

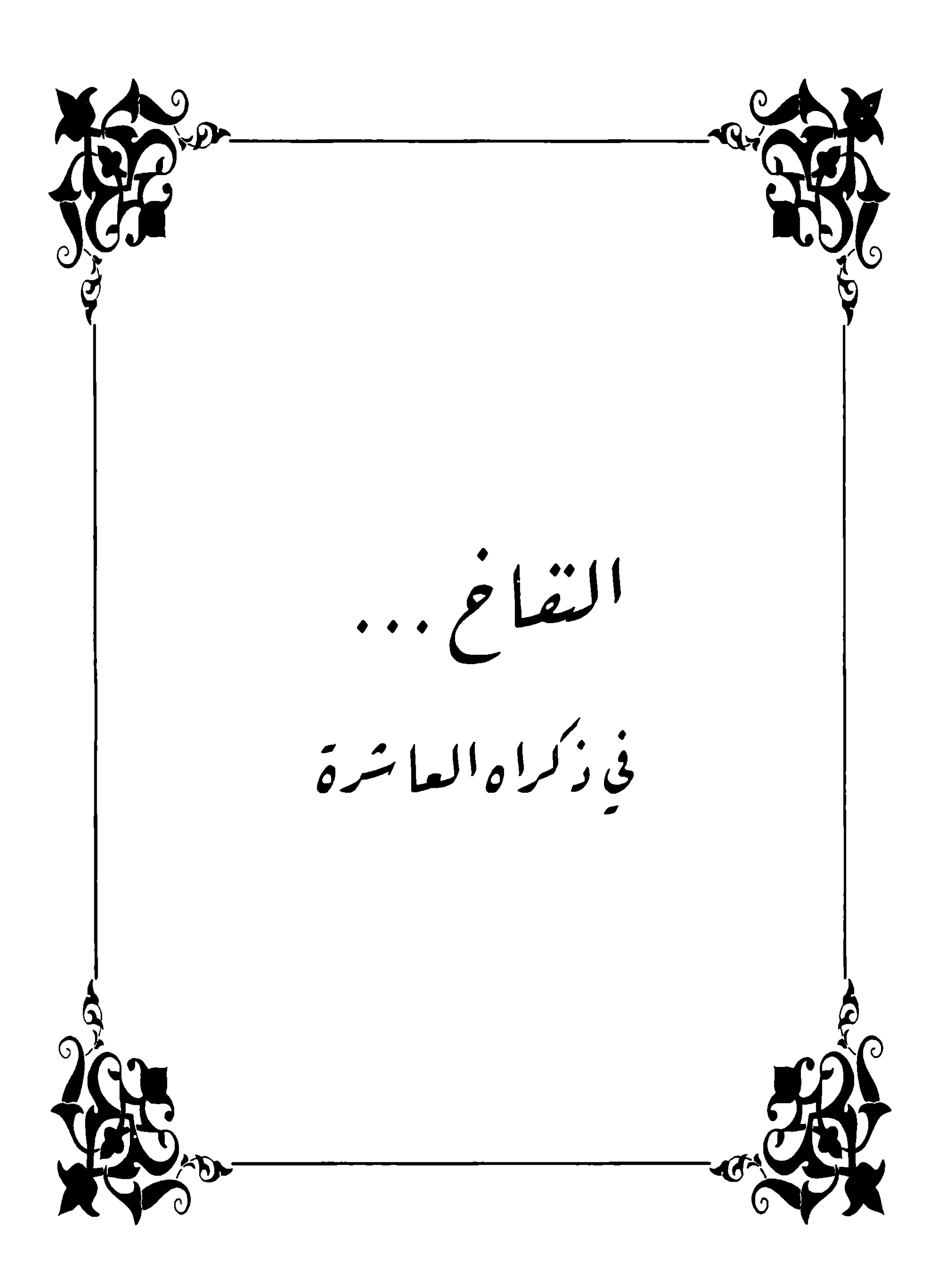
وأما المكان فقد توزعته المجلات التالية: الرسالة ـ الكتاب العربي ـ المجلة ـ الثقافة ـ دعوة الحق ـ مجلة الشعر ـ مجلة فن تحقيق التراث ـ صحيفة المدينة المنورة ـ مجلة الهلال (وقد حظيت بالقسط الأوفر من المقالات بدءاً من عام ١٩٩٠ حتى وفاته) ـ العربي ـ جريدة الأهرام ـ الوطن ـ مؤسسة الفرقان للتراث بلندن ـ الجيل ـ البيان بلندن.

هذا وقد كان من جميل صنع الناشر والقائمين على الكتاب أن ختموه بصور من حياة محمود الطناحي، ضمت الراحل الكبير مع بعض مشاهير عصره. ثم تلا ذلك الفهارس وهي بلا شك مفتاح لكثير من خبايا الكتاب ودرره، وكنت أودّ ألا تخلو من فهارس الأشعار والأمثال التي نثر الطناحي منها الكثير في ثنايا المقالات وتضاعيف الكتاب كما أسلفت.

جزى الله القائمين على إخراج هذا الكتاب خير الجزاء، فقد قربوا بعيداً.. وذلّلوا صعباً.. وجمعوا متفرقاً.. وقدموا لأهل هذا اللسان العربي لقمة سائغة لا يفرّط فيها إلا مغبون.

وأما أنت يا أبا محمد، فلله ما أثمر قلمك، وما انطوى عليه قلبك، لقد طاولت عَنان السماء فصاحة وبياناً، وجاوزت لجج البحار تعمّقاً وفكراً، وحزت من الفضائل والإحسان ما لم يحزه إلا الصفوة من الرجال.

أسأل الله العلي القدير أن يجعل ما خلّفت من أثر في ميزان حسناتك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً.



النفاخ...

في ذكراه العاشرة

النفّاخ في ذكراه العاشرة *

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

مرت على وفاة شيخنا النفّاخ[1] سنوات عشر كأنها دقائق عشر، فلم يزل الرجل ماثلاً في الأذهان، حاضراً في الكِيان بما حواه من علم، وما زرعه من مُثُل، وما خلّفه من آثار، وما بناه من رجال، وما وقف من مواقف، بل لن يزال كذلك ما بقي لساننا يلهج بالعربية، وما بقي قلبنا يخفق بحب العربية.

فقد عاش ما عاش لهذه اللغة، لا يكاد يخرج منها إلا إليها، ولا يرى نفسه إلا فيها، ولا ينقلب عنها أو يلتفت عن محبتها، أو يتقاعس عن الجهاد في سبيلها.

حمل رايتها رَدَحاً من الدهور هو كل ما كتب له أن يعيش في دنيا الناس، وتولّى الذود عن حياضها، والبحث في دقائقها، واكتناه أسرارها وخباياها، واجتلاء معانيها ومبانيها. لم يصرفه عنها صارف، ولم يلتوِ له فيها طريق، ولم يلذَّ له دونها مطعم ولا مشرب، ولم يبال ما أصابه من أذيةٍ في سبيلها. فهو هي، وهي هو، إنها قضيته التي عاش لها ومات لها، ولقي ما لقي من أجلها، وتلبّس بعزّتها وشموخها ولسان حاله يردد قول القاضي الجرجاني:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذلِّ أحجما

---

* شرعت في كتابة هذه الكلمة بعد فجر يوم عرفة (٩ ذو الحجة ١٤٢٢ الموافق لـ ٢١ شباط ٢٠٠٢) في الكويت بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاة شيخنا النفاخ رحمه الله، ثم قرأتها في عدة مجالس علمية في البحرين والكويت، ودفعتها لتنشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق حيث حظيت بالقبول، ولكن لما طال عليها الأمد نشرتها في مجلة الفيصل العدد ٣٣٠ (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م).

(١) الأستاذ أحمد راتب النفاخ، ولد في دمشق عام ١٩٢٧م، من أجلِّ أساتذة جامعة دمشق. درّس في قسم اللغة العربية. كلية الآداب بين عامي ١٩٥٣ و١٩٥٥م، وبين عامي ١٩٦٢ و١٩٧٩م. وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٧٦م. وتفرغ للعمل به منذ عام ١٩٧٩م إلى وفاته.

أرى الناس مَنْ داناهمُ هانَ عندهم ومن أكرمتْهُ عزّةُ النفس أُكرِما
إذا قيل هذا مشربٌ قلتُ قد أرى ولكن نفسَ الحرِّ تحتملُ الظما
ولم أبتذِل في خدمة العلم مهجتي لأخدمَ من لاقيتُ لكنْ لأُخدَما
ولو أنّ أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفوس لعُظِّما
ولكن أذلّوه جهاراً ودنَّسوا محيَّاه بالأطماع حتى تجهَّما

◆ ترفُّع وشموخ

لم يكن أستاذنا النفاخ ـ أعلى الله مقامه ـ يلتفت إلى شيء من مباهج الدنيا، وكأنه رجل من رجال السلف، يخالُهُ المرء منتسباً إلى القرون الأولى التي وصفها سيد البرية بالخيرية: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم "(١) لهذا ما كنت تراه يترفّع عن كثير مما يتهافت خاصّة الناس عليه بلْهَ عامَّتهم، وقد وصف يوماً صديقاً له اعتذر عن تسنّم مقاليد وزارة في الدولة بقوله: "إن هذا الرجل يترفّع أن يضع رجله حيث يضع الكثيرون جباهَهم "ويقيني أن أحقَّ الناس بهذا الوصف هو شيخنا النفاخ، فقد كان حقًّا من هذا الصنف الذي لا تستهويه الأهواء، ولا تعصف به الرغائب، ولا تثنيه المكاره.

قلت له مرة، وقد رأيت ما يعانيه في تنقلاته بين البيت والجامعة: "لم لا تتخذ لنفسك سيارة ؟ "فنظر إليَّ شزراً ثم قال: "وهل تريد أن أضع على رأسي قرنين ؟! ".

وطلب إليه أستاذ كبير أن يدرِّس في جامعة تُجزل العطاء لأساتذتها فرد بأنه لو قيِّض له أن يدرِّس ثَمَّةَ لأبى أن يتقاضى فلساً واحداً مقابل تدريسه، فهو أكبر من أي مال مبذول، وعلمه أعظم من أيِّ عَرَض من أعراض الدنيا، من أجل هذا كان يبذله لبعض طلاب العلم الفقراء، ويضنُّ به على كثير من طلاب السمعة والجاه الأغنياء.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود.

ومن هنا كان الأستاذ ـ عليه رحمة الله ـ قاسياً على نفسه أولاً، قاسياً على من حوله ثانياً، ولم تكن قسوته على الناس إلا فرعاً من قسوته على نفسه وجزءاً يسيراً منها، فقد حرم نفسه متاعاً كثيراً، ونعيماً موصولاً، ومراتب تتقطع دونها الرقاب، وقنع بأن يقبعَ في كِسْر بيته على حين ينعم الآخرون بما حصّلوه من غزير علمه، وبما نالوه من عظيم فوائده، وهو في هذا أشبه الناس بالخليل بن أحمد حين قال في حقِّهِ تلميذه النضر: "أكلنا الدنيا بعلم الخليل وهو في خُصٍّ بالبصرة لا يُشعر به" ولئن صدقت هذه الكلمة في رجل بعد الخليل لتصدقَنَّ على شيخنا النفاخ فقد أكلنا الدنيا بعلمه وهو قابع في كِسْر بيته، رحمه الله وعوضه خيراً.

◆ صلابة في الحق

وقد عُرِفَ الأستاذ النفاخ بمواقفه الصُّلبة، وإرادته القوية، لا يداهن صاحباً، ولا يجامل جليساً، ولا ينحني لكبير، ولا يخشى في الله لومة لائم، وإذا ما رأى الرأيَ مضى دونه مجاهداً، لا تلين له قناة، ولا يثنيه هوى، ولا يؤثر فيه ترغيب ولا ترهيب.

كنت عنده مرة فزاره وزير كبير له شأن خطير في دنيا السياسة والرئاسة، فرحب به وأكرم وفادته، وأسمعه من صنوف العلم وأفانين القول ما ملك به فؤاده، وانتزع منه إعجابه، ثم كالَ له من صنوف النقد والتعريض ما لا يقوى عليه أحد في ذلك الزمان، حتى لقد أشفق بعض أهل المجلس على صحة الأستاذ لما اعتراه من حِدّة، وما بدا عليه من أمارات الانفعال، وكأني به الصورة الحية لمقولة الرسول الكريم ﷺ: "ألا لا يمنعَنَّ رجلاً هيبةُ الناسِ أن يقول بحقٍّ إذا علمَهُ"[1]. فقد أعلن الحق الذي علمه، ولم يخشَ صولة الحاكم، ولا بأسَ المتحكّم، وإنما قال: "لا" بملءِ فيه، فكان رجلاً، والرجال قليل، وما أصدق ما قاله الأول فيه وفي أمثاله: "يعجبني من الرجل إذا سيمَ خسفاً أن يقول لا بملء فيه".

---

(١) رواه أحمد في المسند من حديث أبي سعيد الخدري ١٩/٣.

◆ جبل علم هوى

وكان الشيخ النفاخ - برَّد الله مضجعه - جبلاً من جبال العلم الراسخة، وبحراً من بحور الفهم العميقة، بَرَعَ في علوم العربية المختلفة، فأصبح حجةً في كل فن من فنونها، فما شئت من بصر باللغة، وعلم بالنحو، وفهم بالصرف، وتذوق للبلاغة، وإتقان للعروض، ورواية للشعر، ودراية بالأدب والنقد، ومَكِنَةٍ في الأصول، وتضلّع من القراءات القرآنية صحيحها وشاذّها، ومعرفة بالأحرف السبعة تاريخها وأسرارها، وخبرة بالتراث العربي مخطوطه ومطبوعه، وقدرة على تحليل النصوص والنفاذ إلى خباياها، ودقة في تحقيق المخطوطات واستدرار عطاياها.

ولو شئتُ أن أمضي فيما افْتَنَّ فيه الشيخ لمضيتُ، ولما وسعَتْني هذه الكُلَيمة.. فما كان النفاخ رجلاً كسائر الرجال.. ولكنه أمّةٌ في رجل:

وقالوا الإمامُ قضى نحْبَهُ   وصيحةُ مَنْ قد نعاهُ عَلَتْ
فقلتُ: فما واحدٌ قد مضى   ولكنَّهُ أمّةٌ قد خَلَتْ

وقد عرفته الجامعة (جامعة دمشق) محاضراً في غير ما فن من فنون العربية..

حاضر في الأدب الجاهلي فكان أصمعيَّ عصرِهِ، ودرّس المكتبة العربية والمعجمات فكان جوهريَّ دهره، وقرَّر مادة العروض فكان خليلَ وقتِهِ، وأقرأ الكتابَ القديم فكان مبرّدَ زمانِهِ، وتصدَّى للنحو والصرف فكان سيبويهِ أوانِهِ، وتناول الدراسات اللغوية فكان ابنَ جني عهدِهِ.

مُلقَّنٌ مُلْهَمٌ فيما يحاولُهُ   جمٌّ خواطرُهُ جَوَّابُ آفاقِ

وكان من جميل صنع الله بي أن درست عليه هذه الموادّ جميعاً في سني الدراسة الجامعية العادية والعليا، فتقلّبت في نُعْمى اختصاصاته، وتدرجت في معارج علومه، ورأيت منه كل عجيبة وغريبة، ورويتُ عنه كل شاذّة وفاذّة، فلا تعجب إن تمثّلت فيه بما أنشده أبو العباس اليشكري في محاسن أبي عمر اللغوي المعروف بغلام ثعلب:

فلـو أنـني أقـسـمتُ مـا كـنـت حانثـاً بـأن لم يـر الـراؤون حَـبراً يُعادِلُـهْ
هو الشَّخْتُ[١] جسماً والسَّمين فضيلةً فأعجِـبْ بمهـزولٍ سمـينٍ فضـائلُهْ
تضـمّن مـن دون الحنـاجر زاخـراً تغيـبُ علـى مـن لجَّ فيـه سـواحلُهْ
إذا قلـتُ: شـارفنا أواخـر علمِـهِ تفجّر حتـى قلـتُ: هـذي أوائلُـه[٢]

◆ بناء الرجال

وكان له من وراء هذه الجامعة جامعة أخرى تضمه مع النخبة من صحبه ومريديه، تلكم هي بيته الذي أصبح مثابة لطلاب العلم وقبلة للباحثين، يؤمونه من كل مكان، ويقصدونه في كل وقت وحين، فلم يكن - رحمه الله - يخصص يوماً لندوة أسبوعية أو شهرية، وإنما كانت ندوته تنعقد يوميًّا، لا تكاد تطرق بابه إلا وجدت عنده ضيوفاً تعمر بهم الدار، ويلتئم بهم المجلس، ويدور الحديث في كل علم وفن ومعرفة، والشيخ يزينه ويتوّجه بعلمه الجمِّ، وتواضعه المحبَّب، وصوته المجلجل، وحديثه لمفعم بالحبِّ والعطاء "إن الكلام يزين ربَّ المجلس".

ومن الوفاء لذلك المجلس وصاحبه أن نذكر أسماء بعض رواده الذي أفادوا منه، وأصبحوا ملء السمع والبصر، من مثل الأستاذ الدكتور محمود ربداوي، والأستاذ الدكتور رضوان الداية، والأستاذ الدكتور مسعود بوبو - رحمه الله - والأستاذ الدكتور وهب رومية، والأستاذ الدكتور عز الدين البدوي النجار، والأستاذ محسن الخرابة، والأستاذ الدكتور مصطفى الحدري - رحمه الله -، والأستاذة الدكتورة منى إلياس، والأستاذ مطيع الببيلي،

---

(١) الشَّخْتُ: (بفتح الخاء وسكونها) الدقيق من الأصل لا من الهزال، والدقيق الضامر لا عن هزال. والسمين: نقيض المهزول، والفضيلة: المزية والدرجة الرفيعة في الفضل (اللسان: شخت).

(٢) أنشدني البيت الأخير من هذه الأبيات الأخ الحبيب الأستاذ الدكتور عز الدين البدوي النجار إثر كلمة ألقيتها عن شيخ العربية محمود محمد شاكر رحمه الله. ثم وجدته مع سائر الأبيات في تذكرة الحفاظ للذهبي ٨٧٣/٣، ومعجم الأدباء لياقوت ٢٣٣/١٨. وإنباه الرواة ١٧٤/٣.

والأستاذ الدكتور عدنان درويش، والأستاذ بسام الجابي، والأستاذ نعيم العرقسوسي، والأستاذ إبراهيم الزيبق، والأستاذ الدكتور عبد الله النبهان، والأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الله، والأستاذ الدكتور أحمد راتب حموش، والأستاذ الدكتور طاهر الحمصي، والأستاذ الدكتور محمد الدالي، والأخ الدكتور يحيى ميرعلم، والدكتور عبد الكريم حسين، والدكتور نبيل أبو عمشة، وكاتب هذه السطور.. وغيرهم كثير.

ترنو إليه الحدَّاث غاديةً ولا تملُّ الحديث من عجبهْ
يزدحمُ الناس كلَّ شارقةٍ ببابِهِ مُشرِعين في أدبِهْ

والحقُّ أن الشيخ ـ رحمه الله ـ بنى رجالاً، وخلَّف جيلاً من الباحثين يدينون له بالكثير، حتى لقد أصبح شكره لازمةً لا تكاد تخلو منها رسالة جامعية، أو كتاب محقق، أو بحث علمي لغوي في جامعة دمشق، بل لقد تعدى أثر ذلك إلى جامعات أخرى، وإلى مواطن أخرى

يبني الرجالَ وغيرُهُ يبني القرى شتّانَ بينَ قرًى وبينَ رجالِ

◆ صنو النفاخ وقرينه

وإذا ذكرنا مجلس الأستاذ راتب فلا بد أن نذكر عَلَماً كبيراً وعالماً وزيراً كان يؤمُّهُ، وقد عرفناه فيه قبل أن نعرفه أستاذاً في كلية الآداب، ومشرفاً على رسائل الماجستير والدكتوراه، ومديراً للموسوعة العربية الكبرى، ورئيساً لمجمع اللغة العربية بدمشق، إنه أستاذنا الدكتور شاكر الفحام صِنْوُ النفاخ وقرينُهُ، وأخو الصدق الذي ما انفكَّ يشدُّ من أزره ويدفع عنه، ويحُوطُهُ بعين عنايته في الحِلِّ والسفر والإقامة والغربة، والسرّاء والضرّاء، آسياً ومؤاسياً، وراعياً ومنافحاً.

ما أعرف نفسي دخلتُ المجمع مرةً إلا رأيتهما معاً، وإن أنسَ لا أنسَ موقفين شهدتهما لهذين العالمين المتحابَّين يدلاَّن على العروة الوثقى بينهما:

الأول: دخولهما معاً قاعة المحاضرة على طلبة الدراسات العليا، في أول عام تفتتح فيه الدراسات العليا في جامعة دمشق، إذ أسند تدريس مادة الدراسات اللغوية إلى الأستاذ الدكتور شاكر فكان يصحب معه الأستاذ راتب ليقرئا الطلاب فصولاً من كتاب الخصائص لابن جني.

والثاني: رِباط الأستاذ راتب بجوار غرفة العناية المركزة التي عولج فيها الدكتور شاكر على أثر أزمة قلبية ألّمت به، فلم يبرحها إلا معه، فأيّ محبة هذه ؟! وأيُّ وفاءٍ هذا ؟! إنه العلمُ الرّحِمُ بين أهله.

◆ آثاره

ويأخذ بعض الناس على الأستاذ النفّاخ قلة ما خلفه من آثار، وندرة ما صنعهُ من أعمال، وما أحسن ما قيل في ذلك[1]:

بغـــاثُ الطـــيرِ أكثرُهـــا فِراخـــاً وأمُّ الصَّـــقرِ مقـــلاتٌ نـــزورُ؟!

فأعمال النفاخ بلغت الغاية دقة وإتقاناً، وفصاحة وبياناً، بدءاً من دراسته لابن الدمينة وتحقيقه ديوانه، ومروراً بصنعه فهارس شواهد سيبويه، واختياراته في الأدب الجاهلي، وانتهاءً بتحقيقه قوافي الأخفش. دع عنك ما حبَّره من مقالات غدت نموذجاً فريداً ومثالاً يحتذى في البحث العلمي، والتحقيق المستقصي، والنقد المحكم، والاطلاع الواسع[2].

ومن اطّلع على مكتبة الشيخ رأى عجباً فيما سطّره على هوامش كتبه من استدراكات وتحقيقات ونقدات لم يكد يخلو منها كتاب قرأ فيه، أو اطّلع عليه، أو عرض له. وكان ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يقول لنا: إنه ما يكاد يفتح كتاباً حتى تقع عينه على مواطن الخطأ والتصحيف والتحريف فيه، وكأنه موكّلٌ بعثرات المحققين والناشرين، والمؤلفين والباحثين، والسوأة السَوْءَاء لمن يقرأ الشيخ عمله على سبيل التتبع والنقد والتعقب والتقويم، إنك عند ذلك لن تجد بياضاً في الكتاب، لا في الهامش ولا في الأعلى ولا في الأسفل، فخط الشيخ يُحدِقُ بالكتاب من كلِّ

---

(١) تمثل بهذا البيت الأستاذ عبد الهادي هاشم ـ رحمه الله ـ في كلمته التي استقبل بها شيخنا النفاخ عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق. انظر مجلة المجمع مج٥٣، ج١/١٩٧٨م ص٢١٥.

(٢) من ذلك على سبيل التمثيل مقالاته الثلاث التي حملت عنوان نظرات في نظرات، ونشرتها مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج ٥٩، ج٣/١٩٨٤م، ومج ٦٠، ج٢، ج٣/١٩٨٥م.

جانب، بل هو يخالط السطور والأحرف ويدخل فيما بينها معلقاً ومدقّقاً، ومخرجاً ومحيلاً.. ومقوماً ومعقباً ومُدلّلاً ومستشهداً. وإذا رأيت ثَمَّ رأيتَ علماً غزيراً وفهماً عظيماً.

وقد يُحوجه الأمر إلى إضافة أوراق يودعها الكتاب الذي يتعقبه ليستكمل مسألة يحققها، أو تخريجاً يتتبَّعُهُ، أو إحالة يستوفيها. ولهذا ما كان يبقي على حجم الكتاب كما أخرجته المطبعة لا يقصٌّ منه جانباً، ولا ينقص منه هامشاً. وإن أنس لا أنسَ أسفه وحزنه على كتاب تطوَّع أحد أصحابنا بتجليده، فأعمل المجلّد مقصَّه فيه، فجاء على غير ما يحبُّ الشيخ ويرضى. وإن تعجب فعجب أمر القصاصات التي يجعلها الأستاذ بين صفحات الكتاب ليستدل على مواطن فيه، إذ لا يكاد يخلو منها سفر من أسفار المكتبة.

والحق أن من رواء هذا كله أعمالاً جليلة، كان الأستاذ قد أنجزها أو كاد، ثم حالت حوائل دون إخراجها للناس، على رأسها عمله في القراءات القرآنية والأحرف السبعة، ذلك العمل الذي أكل سني عمره، وكان يعدّه لنيل درجة الدكتوراه، ثم لما بلغ فيه الغاية استنكف أن يتقدم به لنيل الدرجة، وقد حدثني الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين[١] أنه قدم دمشق فزار الأستاذ النفاخ، وأخبره أن أستاذه الدكتور شوقي ضيف ـ وكان المشرف على رسالته ـ يطلب إليه أن يكتب ولو ورقة واحدة يلخص فيها نتائج بحثه ليمنحه عليها درجة الدكتوراه، فما كان جواب الأستاذ إلا أن أبى مترفعاً ـ وأكاد أقول مستنكراً ـ لأنه كان يرى نفسه فوق تلك الدرجة، بل فوق كثير ممن كان يمنحها.

ومن أعماله الأخرى التي توفّر عليها زمناً طويلاً، وأخذت منه كلّ مأخذ ولكنه لم يخرجها، تحقيقه معاني القرآن للأخفش، ومعرفة القراء الكبار للذهبي، ورسالة الإدغام الكبير المنسوبة إلى أبي عمرو بن العلاء[٢]، وكان الأستاذ يعتزم أن يشارك بها في تكريم شيخه أديب

---

(١) عندما لقيته في ندوة تاج العروس التي أقيمت في الكويت احتفاءً باكتمال طبع التاج في أربعين مجلداً في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت ٩ ـ ١٠ فبراير ٢٠٠٢).

(٢) كان من سوالف الأقضية أن الشيخ كلفني والأخ الدكتور يحيى مير علم بجلب مصورة لهذه المخطوطة من

العربية الكبير محمود محمد شاكر، رحمه الله. ومن هذه البابة أيضاً مراجعته تحقيق كتاب "الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري "وهو تحقيق كان قد نهض به الأستاذ الدكتور أمجد طرابلسي - رحمه الله - ثم رغب إلى الأستاذ أن يراجعه، فأعمل الأستاذ فيه فكره وعلمه وقلمه، وامتدت المراجعة نحواً من خمسة عشر عاماً شهدتها عاماً عاماً، والشيخ يعيد التحقيق من جديد، يبدي ويعيد في مسائل، ويتوقف عند مسائل، ويرجئ النظر في مسائل على عادته في إتقان العمل وتجويده وتحكيكه وتثقيفه، وطلب وجه الكمال فيه، وأنّى يُدرك الكمال وهو لله وحده سبحانه.

وتحسن الإشارة هنا إلى أن شيخنا النفاخ راجع الكثير مما أخرجه المجمع من كتب التراث المحققة، أذكر من ذلك على سبيل التمثيل كتاب شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري بتحقيق الدكتور السيد محمد يوسف، وكان الأستاذ يُشركني والأخ الدكتور يحيى مير علم بمعارضته بأصوله، ومن ذلك أيضاً كتاب الأزهية في حروف المعاني للهروي بتحقيق الأستاذ عبد المعين الملوحي، وكتاب شرح أرجوزة أبي نواس لابن جني بتحقيق العلامة الأستاذ محمد بهجة الأثري، وكتابا الإتباع والإبدال لأبي الطيب اللغوي بتحقيق الأستاذ عز الدين التنوخي، ورسالة أسباب حدوث الحروف لابن سينا بتحقيقي مع الدكتور يحيى مير علم.

من ذلك كله يتبدّى أنَّ ما أنجزه الرجل كثير كثير، ولكنه موزّع في بطون الكتب، وحواشي التحقيق، وعقول الطلبة، إذ لم يكن - رحمه الله - يردُّ طالب علم، أو سائل حاجة، أو ملتمس عون في أي شأنٍ من شؤون العلم، وما أكثر ما كان يُقصَد، وما أعظم ما كان يرفِد:

يسقط الطير حيث ينتثر الحبـ ... ـبُ وتغشى منازلُ الكرماءِ

"ومن قصد البحر استقلَّ السواقيا ".

مكتبة شهيد علي في تركيا فجلبناها في رحلتنا إلى إصطنبول عام ١٩٨١م وجلبنا له أيضاً مصورة عن تعليقة أبي علي الفارسي على كتاب سيبويه وكان يعتزم تحقيقها مع الدكتور شاكر الفحام أمتع الله به.

◆ صفحة مطوية

ويقودني حديث ما أنجزه من أعمال إلى نشر صفحة مطوية من تاريخه العلمي، تلك هي مرحلة عمله في مركز الدراسات والبحوث العلمية، حيث خطط لمشروع علمي رصين، وأسس بنيانه على قواعد متينة، ثم تخيَّرني مع الأخ الدكتور يحيى مير علم للعمل معه، ذلك المشروع هو إحصاء جذور العربية في خمسة من أمّات المعجمات هي تهذيب الأزهري ومحكم ابن سيده وجمهرة ابن دريد ولسان ابن منظور وقاموس الفيروزآبادي، وقد بدأ الأستاذ المشروع، ثم أتممنا العمل بإشرافه، وكان لتوجيهاته وملاحظاته أثر كبير في استدراك ما فات غيرنا ممن قام بأعمال إحصائية شبيهة.

وشرع معنا أيضاً بعمل آخر يتصل بعلم التعمية واستخراج المعمى (الشيفرة وكسر التشفير) إذ استقدم من صديقه الأستاذ الدكتور فؤاد سزكين مجموعاً مهمًّا في هذا العلم، وقام بنسخه بخطه، وأشرف على تحقيقنا رسالة أسباب حدوث الحروف لابن سينا، ورسالة اللثغة للكندي، وكتب توصيفاً دقيقاً لمخارج الحروف وصفاتها من منظور تراثي.

وبهذا يكون نشاط النفاخ قد توزع على أماكن أربعة: جامعة دمشق، ومجمع اللغة العربية، ومركز الدراسات والبحوث العلمية، وبيته.

وما من شكٍّ في أن هذا الأخير - أعني البيت - لم يكن يقل أهمية عن الأماكن الأخرى، بل هو يجمع بينها، وينظم ما انفرط من حلقاتها. قلت له مرة، وقد بلغني أنه وَجَدَ عليَّ إثر تكليفي بتدريس مادة العروض في جامعة دمشق بعد أن نُحِّيَ عنها: "لأن أكونَ تلميذاً صغيراً في بيتك أحبُّ إليَّ من أن أكون أستاذاً كبيراً في الجامعة "فقد كان بيته بحق جامعة لطلاب العلم، ومجمعاً لرواد المعرفة، ومركزاً للعطاء والإبداع.. إنه بيتٌ دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ.

سأشكرُ ما أوليتَ من حسنِ نعمةٍ ... ومثلي بشكر المنعمين خليقُ

ولا أودُّ أن أدع القلم قبل أن أتمنّى على ابن شيخنا - عبد الله أحمد راتب النفاخ - وطلابه ومحبيه أمنيتين:

الأولى: أن يسارعوا إلى تراث الشيخ فينشروه، سواء ما كان منه أعمالاً منجزة، تحقيقاً وتأليفاً، أو ما كان هوامش علمية انطوت عليها أسفار مكتبته، ففي هذا نشر للعلم، ووفاءٌ لأصحابه، ونفع للناس عميم.

والثانية: أن يبادروا إلى تكريم الشيخ فيسهموا في نشر كتاب يحمل اسمه، وينشر فضله، ويدرس آثاره، ويعلي ذكره، ففي هذا إحياء لذكراه، ووفاء بحقه، وردٌّ لبعض جميله على أهل هذا اللسان العربي، وأرجو أن تتحول هذه الأماني إلى حقائق ملموسة، وألا تكون مجرد أمان نعيش بها زمناً رغداً، بعد أن صار الشيخ النفاخ ـ أحسن الله إليه ـ "ميراثاً نتوارثه، وأدباً نتدارسه، وحناناً نأوي إليه "كما قال أديب العربية الكبير محمود شاكر في شيخه الرافعي، عليهما رحمة الله.

◆ من شعر النفاخ

ولعل خير ما أختم به هذه الكلمة أبيات كان الشيخ النفاخ ينشدها في بعض مجالسه الخاصة، وهي من نظمه، وفيها دلالة على مبلغ فصاحته، وجزالة عباراته، وأصالة انتمائه، وصدق عاطفته، وقد كتبتها من فِلْقِ فيهِ:

جحَّافُ يا ابنَ الأكرميـ ... ـنَ من الغطارفةِ الأماجِدْ
لا زالَ ذكرُكَ عالياً ... ينثو المكارمَ والمحامِدْ
لمّا تطاولَ دوبَلٌ ... واختالَ تِيهاً شِبهَ ماردْ
أرسلتَها في مسمع الـ ... أيامِ صَيحاتٍ رَواعِدْ
وشَدَخْتَ أنفَ الشركِ مُصْـ ... ـطَلِماً لكلِّ عَمٍ مُعانِدْ
أكرِمْ بها من فَتكَةٍ ... تمَّتْ بها فتكاتُ خالِدْ[1]

(١) انظر خبر وقعة الجحاف والبشر في ديوان الأخطل عند قصيدته التي مطلعها:

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعةً ... إلى الله منها المشتكى والمعوّل

ومن طريف ما يروى أنه بلغ من فتك الحجاف أن قيل فيه: إنه لا تقبل له توبة، ثم إنه رُئي في آخر عمره يطوف حول البيت قائلاً: اللهم اغفر لي وما أُراك تفعل! فعجب من كلامه رجل إلى جانبه وقال: يا هذا

وأما أنتِ يا أبا عبد الله فسلام عليك في الأولين الذين عشتَ معهم بقلبك وفكرك، وسلام عليك في الآخِرين الذي عشت معهم بعطائك وعلمك، وسلام عليك في الملأ الأعلى يوم الدين.

أسأل الله أن يجزيك عن العربية وأهلها خير ما جزى عالماً عن قومه ولغته، وشيخاً عن طلابه وتلامذته، ومجاهداً عن دينه وأمته، وأن يجعل ما قدمت للغة القرآن ذخراً لك وزلفى عند ربك ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

كيف تقول هذا الكلام لأرحم الراحمين؟! والله لو كنت الجحافَ لغفر لك، فقال: أنا هو، فقال الرجل: أنت الجحاف؟ والله لا يغفر لك أبداً.



ذات القوافي

قصيدة لابن الدريهم

ذات القوافي

قصيدة لابن الدريهم (٧٦٢هـ) *

◆ الملخّص

يتناول هذا المقال مخطوطاً نادراً يشتمل على موضوع طريف، وهو قصيدة تقع في ثلاثين بيتاً، لكل بيت ثلاثون قافية ـ في مدح النبي محمد ﷺ ـ مما يسميه أهل البديع التخيير.

وهو يمهّد بعرض نبذة عن فن التخيير، ثم يترجم لصاحب القصيدة ابن الدريهم مشيراً إلى طرف من مصنفاته، ويصف بعد ذلك المخطوط متخيِّراً نماذج منه، ثم يسرد نص القصيدة بتمامها مع أول قافية لها وهي الهمزة، ويختار بيتاً ليعرضه مع جميع قوافيه مشفوعة بشرح غريبها وفق وروده في المخطوط.

◆ تمهيد

عَرَفَ شعرنا العربي فنوناً من القول، تنوَّعت بتنوّع أغراضه وأوزانه وبحوره وقوافيه، فمن طريف ذلك أبيات تنسب إلى أبي نواس لا قافية لها يقول فيها:

ولقد قلتُ للمليحة قولي ... من بعيدٍ لمن يحبُّك......

(صوت قبلة مرتين)

فأشارت بمعصمٍ ثم قالت ... من بعيدٍ خلافَ قوليَ......

(صوت لا مرتين)

فتنفستُ ساعةً ثم إني ... قلتُ للبغل عند ذلك......

(صوت زجر البغل مرتين)[1]

---

* نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٧ ، الجزء ٢ المحرم ١٤٢٣هـ ـ نيسان ٢٠٠٢م.

وعلى العكس من ذلك نقرأ شعراً له قوافٍ متعدِّدة بدل القافية الواحدة، يمكن لكل منها أن تصلح قافية للبيت. وهذا ما يسمى فن التخيير. وهو واحد من الفنون البديعية والصناعات اللفظية التي أولع بها المتأخرون وصارت مقصودة لذاتها، فتبعتها اللغة بعد أن كانت متبوعة. وقد عرض له ابن حِجّة الحَمَوي في بديعيته التي شرحها في كتابه المشهور خزانة الأدب حيث يقول:

(التخيير هو أن يأتي الشاعر ببيت يسوغ فيه أن يُقفّى بقوافٍ شتّى فيتخيّر منها قافية يرجحها على سائرها، يستدل بتخيّرها على حسن اختياره كقول الشاعر:

إن الغريبَ الطويلَ الذيل ممتهنٌ   فكيفَ حالُ غريبٍ مالَهُ قوتُ

فإنه يسوغ أن يقال: "ماله مالُ "، ماله سببُ "ماله أحدُ "، "ماله قوت ". فإذا تأملت "ماله قوتُ"وجدتها أبلغ من الجميع، وأدلّ على القافية، وأمس بذكر الحاجة، وأبين للضرورة، وأشجى للقلوب، وأدعى للاستعطاف. فلذلك رجحت على ما ذكرناه)[٢]. ثم ساق ابن حجة الحموي عدة أبيات على هذه الشاكلة نسبها إلى ديك الجن جاء فيها:

قــولي لطيفــكِ ينــثني   عــن مضــجعي عنــد المنــامْ

"عند الرقود "، "عند الهجوعْ "، "عند الهجودْ "، "عند الوسنْ ".

فعســى أنــام فتنْطَفِــي   نــارٌ تــأجج في العظــامْ

"في الفؤاد "، "في الضلوعْ "، "في الكبود "، "في البدَنْ ".

جســدٌ تُقلّبــه الأكفْــ   ـفُ على فراشٍ مـن سـقامْ

"من قتادْ "، "من دموعْ "، "من وقودْ "، "من حزَنْ ".

---

(١) العمدة ١/٣١٠، وانظر تاريخ آداب العرب ٣/٣٧٤ ـ ٣٧٦ حيث سمى الرافعي هذا النوع من الصناعات اللفظية (القوافي الحسية) وأورد لها عدداً من الأمثلة.

(٢) خزانة الأدب ٩٦.

أمّـا أنـا فكمـا علمْـ ـتِ فهـل لوصـلك مـن دوامْ

"من معاذْ"، "من رجوعْ"، "من وجودْ"، "من ثَمَنْ".

فهذه القوافي المثبتة يقابل كل بيت بما يليق منها، والأولى أولى وأرجح)[١].

هذا ومن بديع ما قرأْتُهُ أبياتٌ لأبي البقاء الرُّنْدي بثلاث قوافٍ يقول فيها:

دعـني وإن قيـلَ الجنـونُ فنـونُ فالصـبُّ مثلـي بـالهوى مفتـونُ

"مقلوبُ"، "مفؤودُ".

بـأبي الـذي أشـكو هـواهُ وصـدَّهُ والصـدُّ صـعبٌ والهـوى تهـوينُ

"تعذيبُ"، "تنكيدُ".

كَتَـبَ الجمـالَ بلحظِـهِ في خـدِّهِ والخـطُّ في حُسـنِ الخـدود يـزينُ

"عجيبُ"، "يزيدُ".

وقد عقد الرندي في الوافي باباً عنوانه التبديل وهو يقتضي تبديل الترتيب أو تبديل القافية، وقد يكون التبديل في الرَّويّ فحسب[٢].

ولا شكٌّ أن مقدرة ابن الدّريهم فاقت كل تصوّر حينما نظم قصيدته هذه ذات الثلاثين قافية، فأربى على كل ما قيل في هذا المجال، لأن أقصى ما وصل إليه الناظمون في هذا النوع لا يعدو سبع قوافٍ كما يقول الرافعي وهو يعلق على ذلك بقوله: "وإنما يحسن هذا متى اتفق استخراجه في شعر لا ما قُصد إليه، فإن القصد هنا محتملُ التكلّف، وهو يُخْرِج الشعر إلى الصنعة فيسقطِ بها عن درجته قليلاً أو كثيراً..."[٣].

---

(١) خزانة الأدب ٩٧، وانظر تاريخ آداب العرب ٣/٣٧٣.

(٢) أبو البقاء الرندي ٩٧.

(٣) تاريخ آداب العرب ٣/٣٧٣.

ترجمة ابن الدريهم[1]

عليُّ بنُ محمدِ بنِ عبدِ العزيز، تاجُ الدينِ، المعروفُ بابنِ الدُّرَيْهِم. وُلِدَ في شعبانَ سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م بالموصل، ونشأ فيها يتيماً ذا ثروةٍ، درسَ على كثيرٍ من عُلماءِ عصرِه، وتَنَقَّل تاجراً بينَ دمشقَ والقاهرةِ غيرَ ما مرَّةٍ، ورُتِّبَ مدرِّساً في الجامعِ الأمويِّ بدمشقَ، ثم دخلَ مصرَ سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م فبعثَه السلطانُ الملكُ الناصر رسولاً إلى ملكِ الحبشة، فتوجَّه غيرَ منشرحٍ، فوصل إلى قُوصَ، وماتَ بها في صفرَ سنةَ ٧٦٢هـ/١٣٦١م. كانت له مشاركةٌ في علومٍ عدَّةٍ كالفقهِ والحديثِ والأصولِ والقراءاتِ والتفسيرِ والحسابِ، وذلك إضافةً لِما عُرِفَ به من براعةٍ في الأحاجي والألغازِ وحلِّ المُتَرْجَمِ (أي: استخراج المُعَمّى، أو: كسر الشِّفرة) والأوفاقِ والحروفِ وخواصِّها. وخلَّفَ في هذا مصنَّفاتٍ كثيرةً تشهدُ بعُلُوِّ كَعْبه فيها وتمكُّنِه منها.

◆ مصنفاته

أفادَ ابنُ الدُّريهم من حياته التي لم تتجاوز الخمسينَ سنةً في التأليفِ أيَّما فائدةٍ، فجاءت مصنَّفاتُه كثيرةً متنوِّعةً تنوُّعَ ثقافتِه الموسوعيةِ، وذلك بالإضافة إلى تقدُّمِه في العلومِ الخفيَّةِ كالمُتَرْجَمِ والأحاجي والألغازِ والحروفِ والأوفاق وغيرها. وقد وجدنا الصفديَّ أكثرَ مترجميه استقصاءً لمؤلّفاته، إذ عَدَّ له نحواً من ثمانين مُؤَلَّفاً، جُلُّها لم تذكُرْه مصادرُ ترجمتِه الأخرى التي مضت الإحالةُ عليها، ويزيدُ من قيمةِ ترجمةِ الصَّفديِّ أنَّه نصَّ في بدئها على أنَّه نقلها من خطِّه.

---

(١) مصادر ترجمته: أعيان العصر وأعوان النصر ورقة ٩٤/ب - ٩٥/ب (ط. دار الفكر ٣/٥٢١ - ٥٢٨)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٣/١٠٦ - ١٠٨، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/٤٤٧، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ص ١٠٣، ١٣٩، ١٨٢، ٢٠٩، ٢١٤، ٢٤٥، ٣٩٤، ٤١٠، ٤٨٠، ٤٨٥، ٤٨٦، ٩٧٢، ٩٨٧، ٩٧٧، ١٩٩٠، ١١٩٤، ١٥١٤، ١٧٧٠، ١٩٥١، ١٩٦٩. هدية العارفين ٧٢٣، الأعلام ٥/٦، معجم المؤلفين ٤/٢١٠، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الذيل) ٢/٢١٣.
وانظر كتاب (التعمية واستخراج المعمى عند العرب ١/١٠٠ - ١٠٤).

وسنوردُ من كتبه ـ فيما يأتي ـ ما نرجِّحُ أنَّ له صلةً بالعلوم الغريبةِ التي افتَنَّ بها واشتهر:

١ ـ اقتناع الحُذَّاق في أنواع الأوفاق.

٢ ـ إيضاح المُبْهَم في حلّ المُتَرْجَم.

٣ ـ إيقاظ المصيب في الشطرنج والمناصيب.

٤ ـ بسط الفوائد في شرح حساب القواعد.

٥ ـ بوادر الحلوم في نوادر العلوم.

٦ ـ تصاريف الدهر في تعاريف الزّجر.

٧ ـ تنائي المناظر في المرائي والمناظر.

٨ ـ سبر الصرف في سرّ الحرف.

٩ ـ سلَّم الحراسة في علم الفراسة.

١٠ ـ شرح الأسْعَرْدِيَة في الحساب.

١١ ـ غاية الإعجاز في الأحاجي والألغاز.

١٢ ـ غاية المَغْنَم في الاسم الأعظم.

١٣ ـ قصيدة في حلِّ رموز الأقلام المكتوبة على البرابي.

١٤ ـ كنز الدّرر في حروف أوائل السور.

١٥ ـ مختصر المُبْهَم في حلِّ المُتَرْجَم.

١٦ ـ مفتاح الكنوز في إيضاح المومز.

١٧ ـ المناسبات العددية في الأسماء المحمَّديّة.

١٨ ـ مناسبة الحساب في أسماء الأنبياء المذكورين في الكتاب.

١٩ ـ نظم لقواعد فَنِّ المُتَرْجَم وضوابطه.

قصيدة ابن الدريهم (ذات القوافي)

موضوع القصيدة مدح النبي ﷺ، وعدّتها ثلاثون بيتاً نظمت على البحر الطويل، وقد بلغ فن التخيير أو (التبديل كما يسميه الرندي) فيها غاية لم يُسبق إليها ولم يُلحق فيما أحسب، ذلك أن ابن الدريهم اصطنع لكلٍّ بيت منها ثلاثين قافية أتى فيها على حروف المعجم جميعها (٢٩ حرفاً) وأضاف حرف (لام ألف)، فلك أن تقول إنها قصيدة همزية، ولك أن تقول إنها بائية، وتائية، وثائية، وجيمية، ... إلى أن تستوفي حروف العربية.

يقول في مقدمتها: "إنني صنعت هذه القصيدة ثلاثين بيتاً تُقرأ بأي حرف من حروف المعجم الثلاثين، وما أظنُّ أحداً سبقني إلى مثلها والله أعلم"[(١)]، ثم يقول: "وجعلت في قوافيها همزة وألفاً ولام ألف لتكمل ثلاثين "[(١)].

فتلك إذن تسعمئة قافية لكلٍّ منها رويٌّ مختلف، وضعت بإحكام يتلاءم مع الوزن والمعنى على رأس ثلاثين بيتاً من الشعر في مدح سيد البشر محمد ﷺ.

ولا ريب أن الشاعر قد ركب مَرْكباً وعراً، وعانى ما عاناه في سبيل صنعته هذه ؛ إذ تعدَّى ما تحمَّلَه غيرُه - من لزوم ما لا يلزم - إلى تكلّف ما لم يخطر على بال أحد من الشعراء من قبل ولا من بعد. ولا غرو فهو صاحب صنعة دقيقة وفنّ أصيل قلَّ المشاركون فيه، وهو علم التعمية واستخراج المعمّى[(٢)]، بالإضافة إلى ما عرف عنه من الحذق والمهارة في كل ما يتصل بالعلوم الخفية وحل الرموز والطِّلَسْمات وقد صنف فيا مصنفات[(٣)]، ومع ذلك لم تخلِ قوافيه من بعض الركاكة، وهو يصرح بذلك إذ يقول معتذراً: "فليمهد الناظر العذر فيما إذا اتفقت

---

(١) الورقة الأولى من المخطوط.

(٢) انظر رسالته: (مفتاح الكنوز في إيضاح الرموز) في كتاب: (علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب ١/ ٣٠٩ـ ٣٦٥).

(٣) انظر ما تقدم من ترجمته.

لفظة ركيكة في بعض القوافي، فإن تركيب ثلاثين لفظة متباينة على معنًى واحدٍ عسير جدًّا، وكذلك إن جاء تتمة البيت كلمتان موضع الكلمة "[١].

وقد أدّاه ذلك إلى تخّير الغريب من الألفاظ لا حبًّا في الغريب بل طلباً لإقامة الوزن ومطابقة المعنى. ولأجل ذلك تصدى لشرح اللغة سواء كانت في نص القصيدة أم في قوافيها المختلفة معتمداً على جامع القزاز وصحاح الجوهري ومحيط ابن عباد وغيرهم كما صرح بذلك في مقدمته.

◆ وصف المخطوط ونماذج مختارة منه

المخطوط نسخة فريدة تقع ضمن مجموع محفوظ في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق يحمل رقم (٣٣٤٢)[٢] وتشغل فيه سبع ورقات (من ١ ـ ٧) في كل منها سبعة وثلاثون سطراً، وقياسها: ١٤. ٥ × ٣٦. ٥ سم.

ناسخها رمضان بن موسى العطيفي الحنفي عام ١٠٧٩هـ في ختام جمادى الأولى. خطها معتاد، دقيق، كتبت بعض القوافي والألفاظ المشروحة بالأحمر.

وعلى الورقة الأولى منها تملّك باسم ناسخها "رمضان بن موسى العطيفي وآخر باسم محمد عاصم بن عبد المعطي الفلاقنسي "ووقف باسم "الوزير المعظم الحاج محمد باشا والي الشام "سنة ١١٩٤ هـ.

وفيما يلي صورة الورقة الأولى من المخطوط بوجهيها، ويبدو في أعلى الوجه الأول الوقف وتحته مقدمة المؤلف، وفي الوجه الثاني نص القصيدة مع جزء من قوافيها:

---

(١) الورقة الأولى من المخطوط.

(٢) كنت قد صورته بالرقم نفسه من المكتبة الظاهرية بدمشق عام ١٩٨٠ قبل نقل مقتنياتها من المخطوطات إلى مكتبة الأسد الوطنية بدمشق.

الوجه الأول ويبدو فيه الوقف ومقدمة المؤلف

الوجه الثاني ويبدو فيه نصّ القصيدة بتمامها مع جزء من قوافيها

أورد هنا نص القصيدة بتمامها مقتصراً على أول قافية فيها، وهي الهمزة:

١ـ إذا لم أزرْ قبرَ النبيِّ محمدٍ	وأسعى على رأسي فإنّي مُرجَّأُ
٢ـ نبيٌّ له فضلٌ على كلِّ مرسلٍ	وآياتُهُ في الكونِ تُتلى وتُنْشَأُ
٣ـ رَقى في السماوات العلى فتشرَّفت	به ودنا من قاب قوسين يُنْبَأُ
٤ـ بدا نورُهُ كالصبحِ ثم علا بهِ	فأشرقَتِ الأرجاءُ والحقُّ يملأ
٥ـ ومن أُفُقِ التوفيق قد لاحَ نجمُهُ	سعيداً ونجمُ الشرك لا شكَّ يخبأ
٦ـ هداهُ بدينٍ كالمحجَّة واضحٍ	فما شانَهُ إلا حسودٌ مُشنَّأُ
٧ـ محبّتُهُ في قلبِ كلِّ موحِّدٍ	وفاز معاداً من بِهِ يتفيَّأُ
٨ـ لَهُ هيبةٌ تَنْكي فؤادَ عدوِّهِ	وقبلَ يراهُ فهْو بالرعبِ يُنسأُ
٩ـ لهُ معجزُ القرآن باقٍ فذكرُهُ	مدى الدهرِ تذكارٌ لمن يتقرَّأُ
١٠ـ كلامٌ بديعٌ في الأساليبِ نظمُهُ	فألفاظُهُ حُسناً من الدُّرِّ أضوأُ
١١ـ قديمُ معانٍ مُحْدَثٌ بنزولِهِ	فقارئُهُ في جنّةِ الخلدِ ينصأُ
١٢ـ إذا ذُكِرَ الرُّسْلُ الكرامُ فأحمدٌ	أتى آخراً لكنْ له الفضلُ مبدأ
١٣ـ بشيرٌ نذيرٌ صادقٌ متصدِّقٌ	شفاعتُهُ تُرجى لمنْ يتلجَّأُ
١٤ـ خلائقُهُ مَرْضيةٌ مثلُ خَلْقِهِ	فلا هوَ صخَّابٌ ولا يتجشّأُ
١٥ـ مُحيّاهُ يُحْيي مَن رآه ببشْرِهِ	ومنطقُهُ في العُرْب أعلى وأفشأُ
١٦ـ مواهبُهُ بالعزمِ لم يَخْشَ أزمةً	بكفٍّ كغيثٍ بل من الغيث أندأُ
١٧ـ إذا أمَّهُ راجٍ يُؤمِّلُ رِفْدَهُ	فما ينثني إلا بما هو أجزأُ
١٨ـ جميعُ صفاتِ الحسنِ قد جُمعتْ لَهُ	فما طيِّبٌ إلا ومعناه أربأُ
١٩ـ وماذا يقول المادحونَ ووصفُهُ	بالانجيل والتوراة والذكر يُقرأُ
٢٠ـ وعِتْرَتُهُ سبْلُ النجاةِ فكلُّهمْ	بإرشادِهِ للخلقِ يهدي ويكلأُ

٢١ــ وأصحابُهُ من كلِّ أروعَ باسلٍ ... ومن كلِّ كرّارٍ من الليثِ أجرأُ
٢٢ــ إذا صالَ في يومِ الوغى بعدوِّهِ ... بحربتِهِ في حبَّةِ القلبِ يدرأُ
٢٣ــ أولئكَ خيرُ الناسِ والسَّادة الأُلى ... جنابُهُمُ رَحْبٌ لمنْ يتبوَّأُ
٢٤ــ جنابٌ تعلَّقْنا بأسبابِ حبِّه ... وليسَ لنا عن بابِهِ الدهرَ ملجأُ
٢٥ـ وما ينقضي عامٌ وأُحْجبُ أن أرى ... مَعَاهِدَهُ إلا وقلبي مُصدَّأُ
٢٦ــ أُقضّي نهاري أنَّةً بعدَ أنَّةٍ ... غراماً ووجْدي في الدُّجى ليسَ يهدأُ
٢٧ــ عليهِ سلامُ اللهِ والآلِ بعدَهُ ... وأصحابِهِ ما سارَ ركبٌ وهيَّؤوا
٢٨ــ إليكَ رسولَ اللهِ مدحَ مقصِّرٍ ... حوى من قوافي الشعرِ ما ليسَ يُوطأُ
٢٩ــ نظمْتُ على جيدِ الزمانِ قلائداً ... من الدرِّ لا تبلى ولا تتهتَّأُ
٣٠ــ فيا ربِّ كن لابنِ الدريهمِ راحماً ... إذا عُرِضَتْ أوزارُهُ يومَ يُنْشأُ

بيت من القصيدة مع قوافيه وشرح غريبه:

ولكي يطلع القارئ على نموذج من عمل ابن الدريهم نظماً وتقفيةً وشرحاً تخيّرت البيت الأول من القصيدة بتمامه، أي: مع قوافيه الثلاثين ثم أتبعتُه بشرح اللغة التي جاءت فيه. وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف جعل لغة كل قافية على حدة، فبدأ بشرح لغة الهمزة، وانتهى بالياء، مرتباً ذلك وفق الترتيب الألفبائي. فما جمعته هنا للبيت الواحد جاء في المخطوط منثوراً على جميع القوافي، وسأرقم كل قافية برقم ليسهل ربطها بالشرح فيما بعد:

إذا لم أزُرْ قبرَ النَّبيِّ محمَّدٍ ... وأسعَى على رأسِي فَإنِّي....

١ ـ مُرَجَّأُ	٢ ـ مُعَنَّاهُ	٣ ـ أُعَتَّبُ	٤ ـ مُعَنَّتُ	٥ ـ أَحْنَثُ
٦ ـ مُحْرَجُ	٧ ـ مُتْرَحُ	٨ ـ مُوَبَّخُ	٩ ـ مُفَنَّدُ	١٠ ـ مُطرمَذُ
١١ـ مُقَصِّرُ	١٢ـ مُعْوِزُ	١٣ـ مُبْلِسُ	١٤ ـ مُشَوَّشُ	١٥ ـ مُنَغَّصُ

١٦ ـ مُغْمِضُ	١٧ ـ مُفْرِطُ	١٨ ـ مُغَيَّظُ	١٩ ـ مُضَيَّعُ	٢٠ ـ مُوتَغُ
٢١ ـ مُسَوِّفُ	٢٢ ـ أَحْمَقُ	٢٣ ـ أُعْفَكُ	٢٤ ـ مُغْفِلُ	٢٥ ـ مُذَمَّمُ
٢٦ ـ أَرْعَنُ	٢٧ ـ ذُو جَوًى	٢٨ ـ مُتَيَّمُ	٢٩ ـ مُبْتَلَى	٣٠ ـ مَزْوِيٌّ

شرح لغة البيت وفق ورودها في المخطوط (في حرف حرف من حروف القصيدة):

١ ـ **مُرَجَّأُ**: مؤخَّر، وفي بعض النسخ "مرزَّأُ" "والرُّزْء المصيبة، وفي بعضها "أخطَأُ" أي: آثمُ، خَطِئَ يخطأُ خَطَأً، وأما أخطأ فهو ضد الصواب، وإنما يقال فيه أُخْطِئُ.

٤ ـ **مُعَنَّتُ**: العَنَتُ: الإثم، والعنت أيضاً: الوقوع في أمر شاق، وهو المقصود هنا. عَنَتَ، وأَعْنَتَهُ غيرُه، وجاءني فلان مُتعنِّتاً: إذا جاء يطلب زَلّتك.

٥ ـ **أحنثُ**: أعصي، والحنث الإثم والذنب.

٧ـ **مُتْرَحُ**: حزين.

٨ ـ **التوبيخ**: التأنيب.

٩ ـ **مفنَّد**: ضعيف الرأي مستهتر، وبفتح النون: مَلُوم.

١٠ ـ **المُطَرْمَذ**: الذي له كلام، وليس له فعل.

١٢ ـ **مُعْوِزُ**: مفتقر.

١٣ ـ **مُبْلِس**: عاصٍ ومحيَّر، حزين ومنكسر مغموم.

١٤ ـ **مشوَّش**: التشويش: التخليط.

١٥ ـ **منغَّصُ**: منكّد ومكدّر.

١٦ ـ **مُغْمِض**: متساهل، متهاون.

١٨ ـ **مُغَيَّظ**: مُغْضَب، اغتاظ وتغيّظ بمعنًى.

٢٠ ـ **مُوتَغ**: هالك، وأثيم، أوتغه الله: أهلكه. وفي نسخة "مزعزع "أي: لئيم.

٢١ ـ **مسوّف**: التسويف المَطْلُ.

٢٢ ـ **الحُمْقُ والحُمُق**: قلة العقل، فهو أَحْمَقُ وحَمِق.

٢٣ ـ **أعْفَك**: أحمق، ومثله أنْوَك. وفي نسخة "مُزَكّك" أي: مغيظ غضبان.

٢٥ ـ **مُذمَّم**: مذموم جدًّا[١].

٢٦ ـ **أرعن**: أحمق، ورِخوٌ أيضاً، ومضطرب أيضاً.

٢٧ ـ **الجَوَى**: الحُرْقة، وشِدة الوجد من عشقٍ أو حُزن.

٢٨ ـ **مُتَيَّه**: محيَّر، ومتوّه مثله، وفي نسخة "أروه "أي: أحمق.

٢٩ ـ **مبتلى**: من البلية والبَلوة وبالكسر أيضاً، والبليّة والبَلوى والبَلاء واحد والجمع البلايا.

٣٠ ـ **مَزْوِيّ**: ممنوع مقبوض عنه مطرود.

◆ الخاتمة

أماطَ هذا المقالُ اللثام عن مخطوط نادر غميس من مخطوطات تراثنا العربي الإسلامي، تظهر فيه براعة صاحبه اللغوية، إذ نظم قصيدة في ثلاثين بيتاً حشد لها تسعمئة قافية من فصيح الكلام العربي، فجاءت على نحو عجيب لم يُسبق إليه، وهي وإن بدا عليها التكلّف والتمحّل والصنعة تذكّر بغنى لغتنا، وثراء مفرداتها، وكثرة المترادفات فيها[٢].

❖ ❖ ❖

---

(١) في الأصل: جد.

(٢) وقد أنجزت بفضل الله سبحانه تحقيق قصيدة ابن الدريهم هذه، ونشرت في حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة الكويت، الرسالة ٢١١، الحولية الرابعة والعشرون ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ثبت المراجع

❖ أبو البقاء الرندي، محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، دمشق بيروت ١٩٧٦.

❖ أعيان العصر وأعوان النصر، خليل بن أيبك الصفدي، مخطوطة مصورة في الشركة المتحدة للنشر بدمشق.

❖ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، الشوكاني، مصر ١٣٤٨هـ.

❖ تاريخ آداب العرب (الجزء الثالث)، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

❖ تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار وزملائه، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، ١٩٥٩م.

❖ خزانة الأدب وغاية الأرب، لأبي بكر بن حجة الحَمَوي (٨٣٧هـ) طبعة حجرية محفوظة في مجمع اللغة العربية بدمشق.

❖ علم التعمية واستخراج المُعَمَّى عند العرب (الجزء الأول)، محمد مراياتي، د. محمد حسان الطيان، د. يحيى مير علم. (من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق).

❖ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.

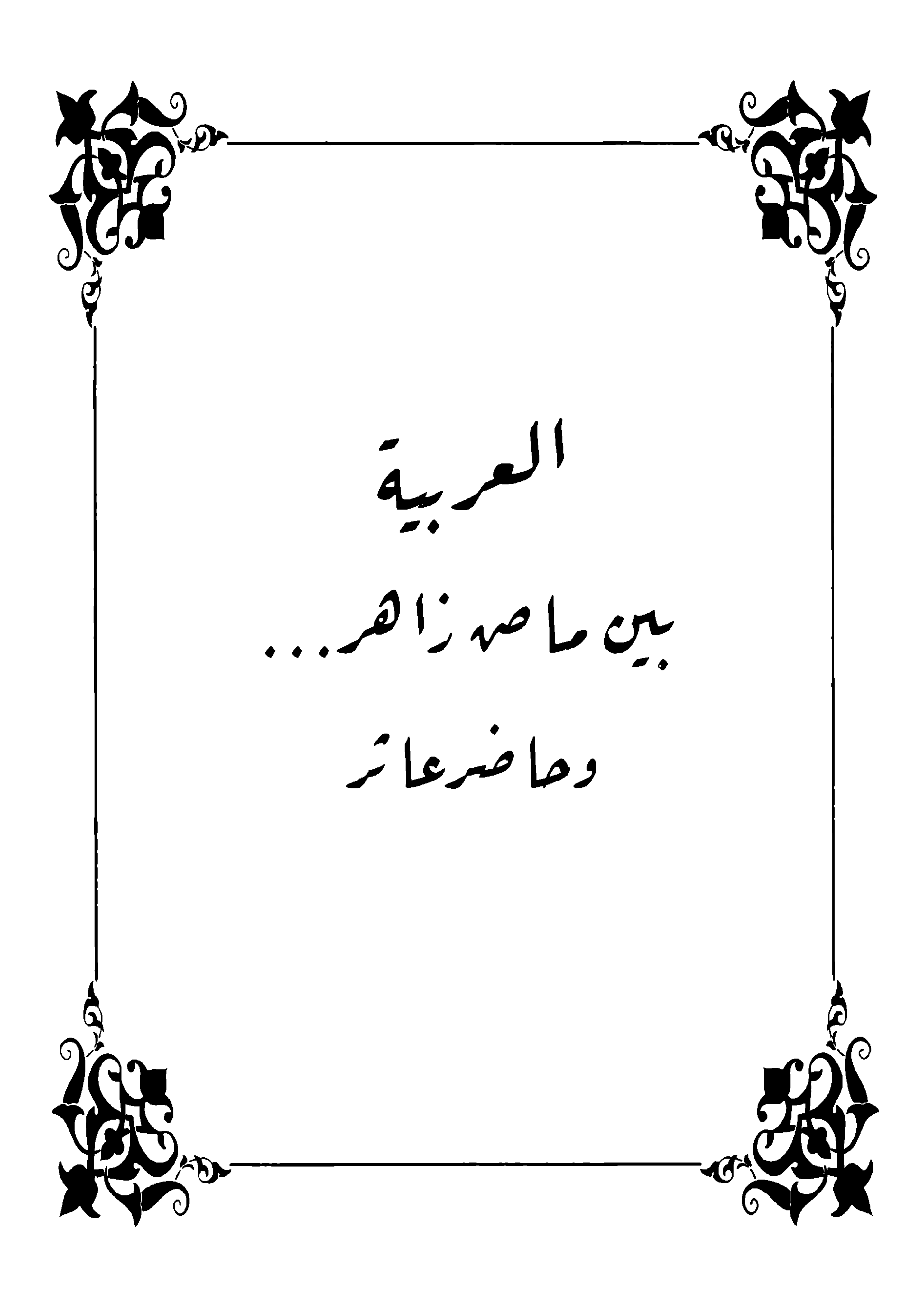
❖ قصيدة ابن الدريهم (القصيدة وشرحها)، مخطوط في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق.

❖ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

❖ معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي.

❖ هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖



العربية
بين ماضٍ زاهر...
وحاضر عاثر

العربية بين ماض زاهر.. وحاضر عاثر*

◆ مكانة العربية قديماً

غَبَرَ على الناس زمانٌ كانت العربية فيه تحتلُّ المكانةَ الأولى بين العلوم عند الكثرة الكاثرة منهم، فقد كان طالب العلم يبدأ رحلته العلمية بمعرفة علوم العربية المختلفة ـ من نحو وصرف وبلاغة وعروض ـ معرفةً بصيرة يتمكّن فيها من ناصية اللغة، ويجتنب اللحن والخطأ في ظاهر القول وما يسطره القلم، بل إن تلك المعرفة كثيراً ما كانت تخوّله التصنيف في بعض علوم العربية برغم تخصصه المختلف، أو شهرته في غيرها من العلوم كعلوم الطبِّ والفلسفة والقرآن والحديث[1]... وغيرها.

◆ دواعي هذه المكانة

وقد عزَّز هذه المكانة للعربية اهتمام أولي الأمر بها وإعلاؤهم لشأنها بدءاً من الخلفاء في مجالسهم ومحافلهم، وانتهاءً بالعاملين في مجالات الدولة المختلفة من وزراء وحجّاب وأمراء وكُتَّاب..

وليس أدل على هذه المكانة من تسمية رسول الله ﷺ اللحنَ في القول ضلالاً، وذلك عندما لحن أحدهم في حضرته فقال: "أرشدوا أخاكم فقد ضلّ"[2] وماذا بعد الضلال إلا الخسران المبين؟!.

ولعل في كلمة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عامله أبي موسى الأشعري ما يُؤْذِنُ بهذه المكانة وذلك الاهتمام، فقد كتب إليه: "خذ الناس بالعربية فإنها تَزيد في العقل وتُثبتُ المُروءة"[3] وكتب أيضاً في الآفاق ألا يُقرئ القرآن إلا صاحب عربية.

---

* نشر هذا المقال في مجلة الكويت العدد ٢٢٢ عام ٢٠٠٢.

(١) من أمثلة ذلك ـ والأمثلة كثيرة لا تكاد تحصى ـ تأليف الكندي ـ فيلسوف العرب ـ رسالة في اللثغة، وتأليف ابن سينا ـ الشيخ الرئيس الطبيب ـ رسالة أسباب حدوث الحروف.

(٢) من تاريخ النحو للأستاذ سعيد الأفغاني، الكويت مكتبة الفلاح (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) ص ٨.

(٣) تاج العروس للزبيدي، الكويت المجلس الوطني للثقافة والآداب (مرؤ).

بل إن ولادة علم النحو كانت بإيعاز من الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، فإليه ينسب هذا العلم الجليل وهو الذي أمر أبا الأسود الدؤلي أن ينحوَ نحوَه.

وتمرُّ الأيام وتتعاقب السنون ومكانة العربية أبداً في نماء وصعود. فعبد الملك بن مروان أشهر خلفاء بني أمية يخشى اللحن ويتجنَّبه، وفي ذلك يقول: "شيبني ارتقاء المنابر واتقاء اللحن" والحجاج يتوخّى ألا يُسمع منه لحن في كلام أبداً فهو أفصح الناس في زمانه، وعندما يبلغه أن ابن يَعْمَر وقع على لحن له في كتاب الله عزّ وجلّ يعالج الأمر بطريقته الحجاجيّة! فينفيه من بغداد ويلحقه بخراسان قائلاً: "لا جَرَم، لا تَسمَعُ لي لحناً أبداً"[١].

وهكذا بات التمكن في اللغة وامتلاك ناصية البيان وفصاحة اللسان قيمةً مقدسة، ومكرمةً متوارثة، وفضيلةً يتداعى إليها الناس، فينشِّئ الوالد ابنه عليها، وتدعو القبيلة أبناءها إليها، بل تفخر بمن اشتهر بها أو عُرف بالتمكن منها، ويتغنّى الشعراء بمن حازها، وينحُون باللائمة على من افتقدها، ويعدُّون ذلك عيباً فيه، وفي ذلك يقول قائلهم:

كفى بالمرءِ عيباً أن تراهُ ... لَهُ وجهٌ وليسَ لهُ لسانُ
وما حُسْنُ الرجالِ لهمْ بزَيْنٍ ... إذا لم يُسعِدِ الحُسْنَ البيانُ[٢]

بل وصل الأمر بهم إلى حدِّ الاستعاذة من فقدها:

أعذني ربِّ من حَصَرٍ وعِيٍّ ... ومن نفسٍ أُعالجُها علاجا[٣]

وفاقد الفصاحة والبيان يفقد أهم مقومات الحياة عند العرب وهي المروءة، يقول يونس بن حبيب: "ليس لعَيِيٍّ مُروءة، ولا منقوص البيان بهاء، ولو بلغ يافوخُهُ أعنان السماء"[٤].

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام، تحقيق محمود شاكر ١/ ١٣.

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة، بيروت دار الكتاب العربي ٢/ ١٦٩.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة مكتبة الخانجي ١/ ٣.

(٤) عيون الأخبار ٢/ ١٧٥.

◆ العربية اليوم

ثم أتى على الناس زمان تَنكَّروا فيه للعربية بعد طول تعهّد وعناية، وهجروها بعد طول وصالٍ ورعاية، وزهدوا فيها وعزفوا عنها بعد طول تقدير وتقديس، بل وصل الأمر ببعضهم إلى حدود المقت والقِلى، والبغض والمحاربة بعد طولِ الكَلَفِ والحب، والعشق والهيام!!.

وإن تعجب فعجبٌ أن يمتد أثر ذلك إلى بعض طلبة العلم الشرعي، فتراهم مع حرصهم المحمود على علوم الكتاب والسنّة والفقه والسيرة أبعدَ الناس عن علوم العربية، وكأن بينها وبينهم أمداً بعيداً أو ثأراً قديماً، أو حجاباً مستوراً، فهم لا يأبهون لها ولا يعيرونها أدنى اهتمام. فأين هؤلاء من لغة القرآن؟! وأين هم من أفصح من نطق بالضاد ﷺ؟! وأين هم من علماء السلف الذين كان الواحد منهم حجّةً في اللغة قبل أن يكون حجّة في الحديث أو التفسير أو الفقه أو القراءات؟!

ولا غرْو فتعلم العربية عندهم ـ أعني علماء السلف ـ فرض كفاية لا يتم لأحدٍ علمه إلا به، وهو من علوم الآلة التي كان طالب العلم يأخذ نفسه بها قبل أن يشرع في تعلم أي علم سواها، وما أكثر ما حثَّ علماؤنا عليها، من ذلك ما نصّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاواه حيث قال: "ومعلوم أن تعلم العربية وتعليم العربية فرض على الكفاية، وكان السلف يؤدبون أولادهم على اجتناب اللحن. فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسنة المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة والاقتداء بالعرب في خطابها"(١).

وبعد فليس عدلاً أن أحبِّبَ اللغة إلى أهلها وأصحابها! أيحبِّبُ أحدٌ ولداً إلى والده؟! أو فلذة كبد إلى صاحبها؟! بل قل أيحبِّبُ واحدنا اللسان إلى المتكلم وبه قوامه، وعليه يبنى أمره، وفيه سرّ مقدرته، وإليه يعود الفضل في نجاحه، وعليه المعوّل في فلاحه؟!.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٣٢/٢٥٢. (مكتبة المعارف ـ الرباط المغرب).

لا، كلّ هذا لا يكون، ولكنها دعوة إلى إعادة الاهتمام بهذا اللسان، إنها دعوة إلى المصالحة مع اللغة، بعد أن أصابها من الإهمال وقلة الاكتراث ما ينبغي أن يتوقف عنده كل غيور، بل كل عاقل، لقد أصابها من جحود أهلها وانصرافهم عنها وافتئاتهم عليها ما جعل أستاذنا الدكتور شكري فيصل رحمه الله يقول: "لعله لم يحمل قوم على لغة كان لها فضل وجودهم الحضاري ومكانتهم الإنسانية على نحو ما حمل ناس منّا على لغتهم.. اتهموها بالصعوبة وحمّلوها من ذلك ما هو حقّ في أقلّ الأحايين وما هو باطل في أكثر الأحايين. ورموها بالخروج على المنطق وأنها لا تنقاد قواعدها إليه. وقذفوا خطّها وحروفها بل دعوا إلى تبديلها، وبذلوا الكثير من القول والعمل. وأخرجوها من نطاق الطبيعة التي تنتظم اللغات كلها حين زعموا أنك في اللغات الأخرى تقرأ لتفهم بينما نحن في العربية نفهم لنقرأ. وقالوا في نحوها وصرفها ما لم يقله مالك في الخمر!.

وتحدثوا عن عجزها عن متابعة التقدم الحضاري وكأنها لم تكن اللغة التي وسعت حقباً من الدهر العلوم والمعارف كلها... وكأنها لم تكن اللغة التي أنشأت حضارةً وأنبتت ثقافة وكتبت آلاف الكتب في كل ضروب الصنائع والفنون والعلوم".

◆ حصاد الهشيم

ولا ريب أن هذا الجحود وذلك الإهمال سيؤدي باللغة إلى الضعف والوهن وسيؤدي بأهلها إلى التخلف عن ركب الحضارة الإنسانية والهوان. ونحن اليوم نجني ثمرات هذا الضعف، إذ تدرس العلوم في معظم جامعاتنا العربية - إلا ما رحم ربي - بغير العربية، الأمر الذي يجعل بين العرب وبين علوم العصر وحضارته حجاباً حاجزاً وسدًّا منيعاً لا يكاد يتسرَّب من خلاله إلا اليسير اليسير، ومن قنع بهذا اليسير فإن قصارى أمره أن يقتات على فتات الآخرين، ولن تقوم له قائمة في أي مجال من مجالات العلوم، فاللغة روح المجتمع، ووعاء ثقافته وعلومه، وأداته الأولى للتعبير عن فكره وحضارته، ولم يسجل التاريخ قط أن أمة حققت التنمية والتقدم الحضاري بلغة غيرها من الأمم، ولنا في التجربة العربية الإسلامية القديمة واليابانية الحديثة خير دليل على ذلك.

فالعرب المسلمون ما بنوا حضارتهم إلا بعد أن نقلوا ما خلفته الحضارات البائدة من علوم إلى العربية، ففهموا تلك العلوم بفكرهم وتمثلوها بلغتهم ووعوها بواعيتهم ليؤسسوا عليها صرح خير حضارة أخرجت للناس. واليابانيون اليوم كذلك فعلوا فهم يتلقّون علومهم باليابانية وما يكاد كتاب علمي يخرج في الغرب إلا ويترجم إلى اليابانية قبل أن يبلغ انتشاره في لغته مداه.

والحق أن أمر إهمال اللغة وضعفها لا يتوقف عند انحلالها وتخلفها وإنما يتعدّى ذلك إلى ضعْف أهلها وتخلفهم، ومن ثم اضمحلال أمرهم وهوانهم، ورحم الله أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي إذ يقول: "ما ذلَّت لغة شعب إلا ذلَّ، ولا انحطَّت إلا كان أمره إلى ذهاب وإدبار...".

◆ صرخة في واد

ولعل خير ما أختتم به القول هنا تلك الصرخة المدوية التي نادى بها شاعر النيل حافظ إبراهيم على لسان العربية يستصرخ أهلها ويستغيث بهم:

رجعتُ لنفسي فاتَّهمتُ حصاتي ... وناديتُ قومي فاحتَسبتُ حياتي

رموني بعقمٍ في الشبابِ وليتَني ... عقمتُ فلم أجزعْ لقولِ عُداتي

وَلدتُ ولمَّا لم أجدْ لعرائسي ... رجالاً وأكفاءً وأَدْتُ بناتي

أيهجرني قومي عفا اللهُ عنهمُ ... إلى لغةٍ لم تَتَّصلْ برُواةِ

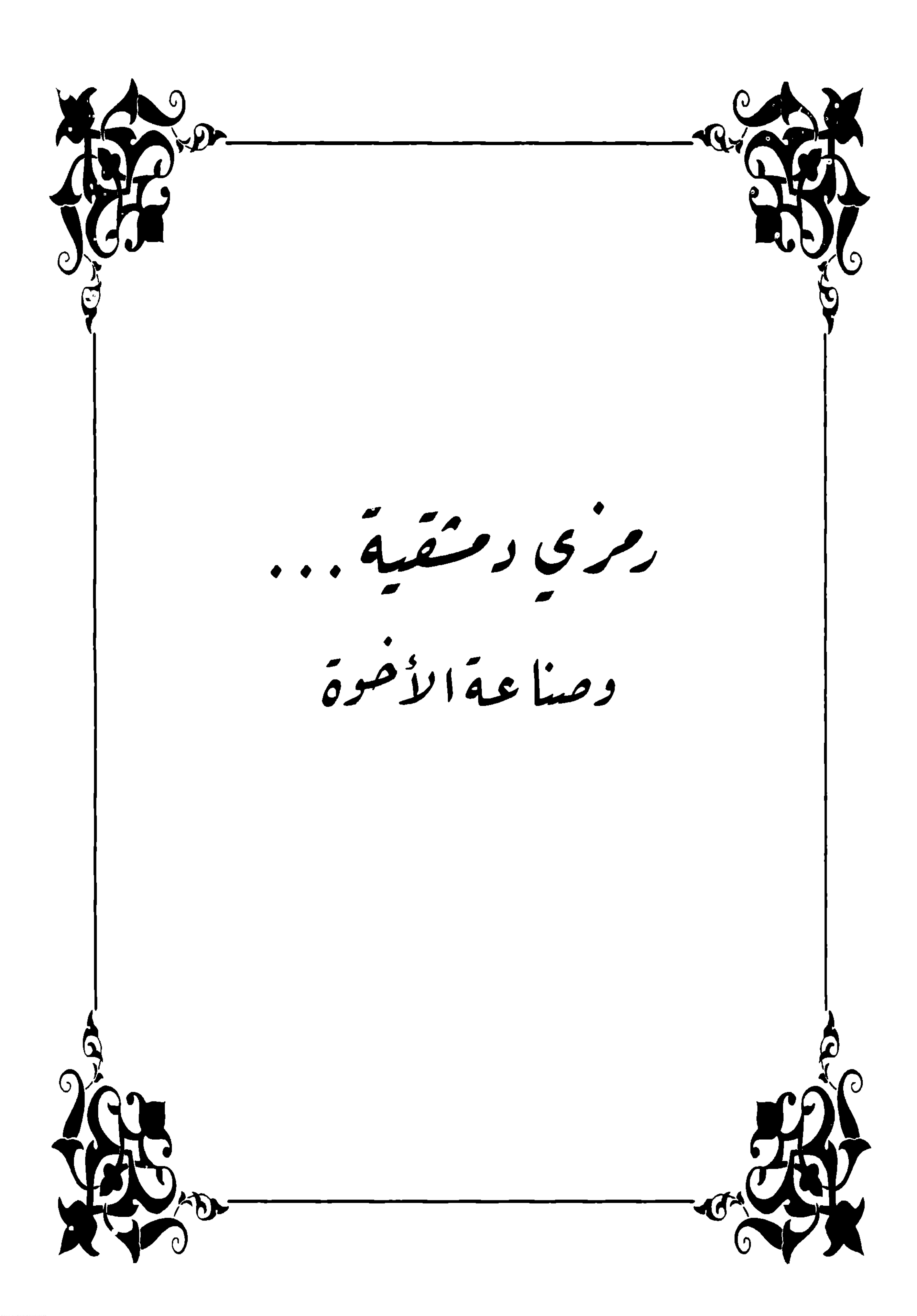
وسِعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً ... وما ضِقْتُ عن آيٍ بهِ وعِظاتِ

فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ ... وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعاتِ

أنا البحرُ في أحشائِهِ الدُّرُّ كامنٌ ... فهل سألوا الغوَّاص عن صدفاتي

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسِني ... وفيكُمْ وإنْ عزَّ الدواءُ أُساتي

فلا تكِلوني للزَّمانِ فإنَّني ... أخافُ عليكم أن تَحينَ وفاتي



رمزي دمشقية...
وصناعة الأخوة

رمزي دمشقية... وصناعة الأخوَّة ❖

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزِعتُ فيه بآمالي إلى الكذب

حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقُهُ أملاً شرِقتُ بالدمع حتى كاد يشرقُ بي

حين هتف بي هاتف الفجيعة يخبر بوفاة الشيخ رمزي خطر لي كل رمزي عرفته في دنيا الناس إلا رمزي دمشقية. وحين أكّد محدثي أنه رمزي دمشقية قلت في نفسي لعله من تشابه الأسماء وتوافق الألقاب. ولكن الهواتف تكررت... والأخبار تسارعت... فسرى بي النبأ سريان السمِّ في الجسد، وانهارت الآمال... واسودّت العوالم، وأحيط بي من كل جانب، وفاضت دمعةٌ حرّى من عينٍ حزينة أسيفة. فأسلمت أمري لله وحده وقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. إنها والله لمصيبة! وأيُّ مصيبة أكبر من مصيبة الموت! وأيُّ مصاب أوجع من مصابنا بك يا رمز الوفاء والنبل!.

فيا يومَ الثلاثا كم كئيبٍ رماهُ الحزنُ فيكَ وكم عميدِ!

فكم سخّنتَ فينا من عيونٍ وكم أعبرتَ فينا من خدودِ!

رحمة الله عليه... رحمة الله عليه...

أرأيت إلى الأخ يبعث الرضى والسرور في نفس أخيه...!

أرأيت إلى الصديق يفتنُّ في كسب ودِّ صديقه...!

أرأيت إلى الحبيب لا يكاد يرى الدنيا إلا بعيني حبيبه...!

❖ نشرت في كتاب (ريحانة بيروت الشيخ رمزي دمشقية في نفوس إخوانه وعارفيه) دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

ذلك هو الأخ الصديق الحبيب أبو محمد مبعث السرور.. ومنهل الودّ.. وصانع الأخوّة.. ومعين الحب الصادق..

أرأيت إلى المُفَنِّ المبدع، يأتيك كلما لقيته ببدعٍ جديد ثم لا يكون هذا الذي أبدعه إلا لكسب ودِّك وإرضاء ذوقك وإمتاع نفسك !!.

أرأيت إلى الناشر المؤمن ينشر الكتب النافعة ويبث الكلمة الطيبة باذلاً كل نفيس مبدعاً كل إبداع آتياً بكل جديد !.

أرأيت إلى الرجل يجمع بين الهندسة والشريعة.. بين العلم والأدب.. بين الذوق والإتقان.. بين الدين والدنيا.. بين الجمال والجلال.. !

إنه الناشر المُفَنِّ المهندس الأستاذ في كلية الشريعة الشيخ رمزي دمشقية برّد الله مضجعه وأعلى منزلته ورحمه.

رحمة الله عليك... رحمة الله عليك...

كلما ردَّدتْ النظر في مكتبتي تبدَّت لي آيات إبداعك..

أُقلِّبُ الطرف فيها.. لا ينقضي عجبي منها.. بدءاً من أغلفة الكتب وما فيها من جمال.. ومروراً بمضمون الكتب وما فيها من جلال.. وانتهاءً بالغلاف الأخير لكل منها وما فيه من لمسات فن وإتقان.

وكلما قلَّبت النظر فيما أهديتني من صور تبدّت لي آيات ودّك ووفائك.. ومحبتك وولائك.. فأيَّ محبٍّ كنت وأي إنسان ؟!

لقد كنت حريصاً على تصوير كل منزل تنزل فيه وكل محل تحلّ فيه مع أحبابك وخلانك، ثم كنت الأحرص على أن يحصل كل من ضمَّه ذلك المنزل أو المحل على نسخة من تلك الصور تصله في أجمل حلة وفي أسرع وقت. فما أبرَّكَ بأصدقائك ! وما أحلى مودتك ووفاءك.

حقًّا لقد افتقدنا بفقدك أخا الودّ والوفاء، ورجل الجِدِّ والإتقان، وأستاذ الشريعة والحياة، وعنوانَ الحبِّ والنقاء.

ياليت أعضاء جسمي كنَّ ألسنةً   فصار يُثني عليه كلُّ أعضائي

رحمة الله عليه... رحمة الله عليه...

إذا أنت عرفت أبا محمد فلن تملك إلا أن تحبَّه..

لأنه يفجر في نفسك كل طاقات الحبِّ والجمال، ويغرس في قلبك كل معاني الأمل والرجاء، وينزع من صدرك كل أسباب الكره والتشاؤم. إنه رجل متفائل، لا يرى فيك إلا حُسناً، ولا يقف عندك إلا على جميل. وما يزال يتغنّى بما يراه عندك بعينه الراضية حتى تخالَ نفسك أهلاً لما يصفك به من معاني التقدير والإجلال، وإسباغ ما تتحلى به نفسه من صفات الكمال، والجمال والجلال. إنه يكثِّر القليل.. ويقرِّب البعيد.. ويُدني القاصي.. ويجمع الشمل.. ويُعين على نوائب الدهر.

إن أنسَ لا أنسَ أول لقاء جمعني به، كان ذلك قبل نحوٍ من أربعة عشر عاماً في كويتنا الحبيبة حيث دعيت إلى مؤتمر للُّغويات الحسابية[1] وما إن فرغت من إلقاء بحثي حتى فوجئت بأخ حبيب يسبغ عليّ من كريم خلقه.. ولطيف وصنه.. وعذب لسانه.. ما ملك علي نفسي وجعله أقربَ إليَّ من أُنْسي.. إنه الشيخ رمزي دمشقية صاحب دار البشائر الإسلامية كما قدمه إليَّ الأخ الحبيب الأستاذ بسام الجابي يومئذٍ.

ثم ترادفت اللقاءات وتنامت المعرفة.. وكنت كلما ازددت معرفة به تبدّت لي جوانب إنسانيته ونبله.. وتجلت لي مجالات إبداعه وفنه، وتكشفت لي ضروب اختصاصاته ومشاركاته..

عرفته بادي الرأي ناشراً ينشر أحسن الكتب، ويتخير لما ينشر أصالة المضمون، ليجمع إليها روعة الشكل، فيأتي بالعَجَب العُجاب ! ثم ما لبث أن علمت أنه مهندس درس الهندسة المعمارية

---

(١) انظر الكلام عليه تحت عنوان: "المؤتمر الثاني حول اللغويات الحسابية العربية" في هذا الكتاب.

في الجامعة الأمريكية وتخرج بها فكان الأول على دفعته، وبزّ أترابه وأصحابه في علمه واختصاصه. ثم دُهلت بعد ذلك حين علمت أنه يُدرِّس في كلية الشريعة بعد أن تخرَّج بأساتيذها الكبار أمثال الدكتور أحمد الحجي الكردي والشيخ العلامة حسن دمشقية.

وازداد إعجابي به وعجبي منه لما وقفت على ما حقّق من رسائل مفيدة، وما شارك فيه من أعمال مجيدة، لعل أبرزها لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام الذي كان من روّاده وأركانه.

وكان من خلال ذلك كله حريصاً على العلم.. نهماً للمعرفة.. لا يفتأ يسأل من حوله.. يهتدي بآراء جُلاَّسه.. لا يستثني منهم أحداً.. بدءاً من أعلام العلم.. من أمثال شيخنا العلامة محمد كريم راجح شيخ قراء الشآم.. وأستاذنا الدكتور مازن المبارك شيخ العربية المعروف.. والقاضي الشيخ محمد أحمد كنعان القاضي الشرعي الأول في لبنان.

وانتهاءً بدراويش العلم من أمثال كاتب هذه السطور.

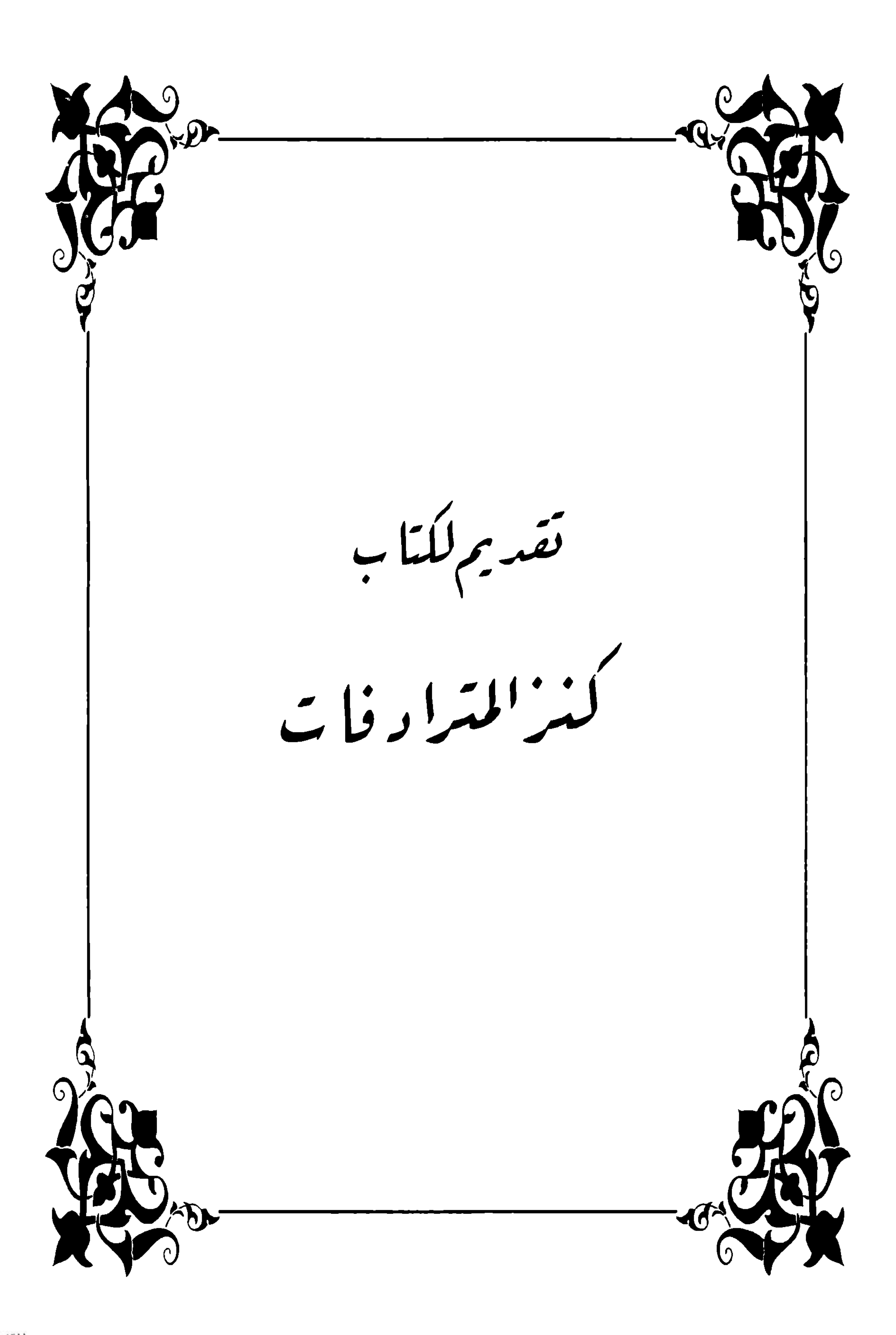
لقد كان يذكرني في خَلّته هذه بدَغْفَلِ بنِ حنظلةَ النسَّابة حين قيل له: أنّى لك هذا العلم؟ قال: "لسانٌ سَؤول.. وقلبٌ عَقول".

رحمة الله عليه... رحمة الله عليه...

كان مثال المسلم الملتزم.. مرضياً لربّه.. بَرًّا بأمّه.. راعياً لأهله.. حفيًّا بأصحابه.. لا يألو جهداً في بناء نفسه.. وإغناء معارفه.. ونفع الناس من حوله. لكأني به المثال الحي لقول رسولنا ﷺ: "أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحبّ الأعمال إلى الله عز وجلّ سرور تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً. ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجته أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهراً...".

وكذا كان أبو محمد.. بل أحسبه كان كذلك، ولا أزكّي على الله أحداً.. رحمه الله وأجزل مثوبته.

الكويت ٨ محرم ١٤٢٤هـ



تقديم لكتاب

كنز المترادفات

تقديم لكتاب كنز المترادفات*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان.. والصلاة والسلام الأتمان الأكرمان على سيد ولد عدنان، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان..

وبعد: فيوم شاء المولى سبحانه - وله الحمد والمنّة - لهذه اللغة الشريفة أن تكون لغة كتابه الكريم.. تُتلى بها الآيات.. وتُزكّى بها الأنفس.. ويُعلَّم بها الأميون الكتاب والحكمة.. كان ذلك في الوقت نفسه إيذاناً بفتح باب من العناية بالعربية لم يُغلق، ولن يُغلق.. بل سيبقى ما بقي في الكون قرآنٌ يُتلى.. ولغةٌ يُنطق بها.. وإسلام يُتَّبَع... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وقد تبدّت هذه العناية بالتوفّر على دراسة العربية والبحث في علومها: صوتاً ودلالة.. مبنى ومعنى.. لفظاً وتركيباً.. صرفاً ونحواً.. فصاحةً وبلاغةً.. إلى غير ذلك من فنون العلم وضروب المعرفة التي نشأت في رحاب القرآن الكريم حفظاً له.. ورواية لقراءاته.. ودرايةً بمعانيه.. وتمرُّساً بمبانيه.. وفهماً لدلالاته.. وتذوُّقاً لبلاغته.. ووقوفاً على أسراره وخباياه.. ومن هنا أن قال علماء اللغة: "لولا القرآن ما كانت عربية".

ولعل صناعة المعجمات واحدة من فنون العلم التي آتت أكلها طيّباً جنيًّا في فترة مبكرة من تاريخ تدوين علوم العربية، إذ تعود أولياتها إلى بدايات القرن الثاني للهجرة، حين بدأ الرواة يجمعون اللغة ليدوّنوها ويفسّروها دون ترتيب معين، ثم ما عتّموا أن ابتدعوا طرائق في التدوين والترتيب أخذت أشكالاً مختلفة؛ فتارةً ترتّب المادّة على معنى من المعاني كالخيل والشاء للأصمعي، والمطر واللبأ واللبن لأبي زيد، وتارة أخرى ترتّب على حرف من الحروف

---

* كتبت هذا التقديم للكتاب الذي اختاره الأخ الصديق الأستاذ ذياب عبد الكريم أبو سارة رئيس تحرير مجلة الفرقان، من نجعة الرائد وسماه "كنز المترادفات"المختارات الفرائد من نجعة الرائد، بتاريخ ٢٠٠٤/١/٧.

كالهمز لأبي زيد، وطوراً ترتب على اختلاف المعاني لاختلاف حركة في المباني كمثلثات قطرب، ثم ظهرت المعجمات الشاملة بدءاً من معجم العين ذي الترتيب الصوتي ومروراً بمعجم الجمهرة ذي الترتيب الهجائي مع مراعاة الأوائل، وانتهاءً بمعجم اللسان ذي الترتيب الهجائي مع مراعاة الأواخر، وتخلل ذلك ظهور معجمات أبنية كديوان الأدب للفارابي وشمس العلوم للحميري، وظهور معجمات المعاني كالمخصص لابن سيده، على أنَّ أطرف أنواع المعجمات تلك التي عنيت بتتبع الظواهر اللغوية كالترادف والتضاد والاشتراك والإتباع والإبدال، وإن تعجب فعجب أن كلاً منها له معجمات متخصصة لم يذكر فيها سواه، كالأضداد لابن الأنباري والإتباع لأبي الطيب اللغوي، وكذا الإبدال له، والألفاظ الكتابية للهمذاني.

ولا ريب أن الترادف من أكثر الظواهر اللغوية دلالة على غنى اللغة وثرائها، واتساع أساليبها في التعبير.

ولئن كان لهذه الظاهرة صدًى في كثير من اللغات، إنها في العربية أعمق غوراً، وأكثر انتشاراً، ذلك أن العربية لغة ولود، تستطيع أصولها - الثلاثية والرباعية - المحدودة أن تنجب ألفاظاً ومشتقات لا تكادُ تُحَدُّ، وهذه حقيقة وقفت عليها بنفسي، ولمستها لمساً بيدي، بعد أن كنت أقرأ عنها وأسمع بها.

وذلك بعد أن اضطلعت مع فريق عمل حاسوبي لغوي رياضي في مركز الدراسات والبحوث العلمية بدمشق بإنجاز النظام الصرفي للعربية بالحاسوب؛ ذلك النظام الذي يمكّن المستثمر من الحصول على ملايين المشتقات والتصريفات اعتماداً على معجم لا يتجاوز عشرة الآلاف من جذور اللغة العربية.

والدارس المتتبع لهذه الملايين سيقف فيها على كل الظواهر اللغوية والعلاقات الدلالية المختلفة كالترادف والاشتراك والتضاد.

ودع عنك ما ذهب إليه بعض المتقدمين من إنكار الترادف، فما ألف من رسائل وكتب ومعجمات في الترادف أكثر من أن نحصيه في هذه العجالة وحسب القارئ أن يُجيل النظر في هذا الكتاب الذي نقدّم له ليعلم علماً لا يداخله شك أن الترادف في العربية حقيقة لا مراء فيها.

وقد نعمت بصحبة هذا الكتاب أياماً استرقت ساعاتها من زحمة العمل، وثقل الأعباء، وترادف التكاليف في الجامعة العربية المفتوحة، فرأيتني كمسافر في بيداء قاحلة اشتدّ فيها تعبه، وازداد فيها عطشه فأوى إلى واحة وارفة الظلال، فاستراح بعد طول عناء ونصب، وارتوى بعد طول ظمأ وصدى.

ولا غرو فكنز المترادفات هذا يقدم لك أطايب اللغة على طبق من ذهب، تتخيّر منها ما شئت.. فأنت معه في نُعمى يلذّ فيها العيش، وفي متعة لغوية يطيب فيها التبتّل والتدبّر، وفي جنّة دانية القطوف يعذب فيها التنقّل والتخيّر. فما شئت من جميل التعابير، وبديع الألفاظ والتراكيب، وفصيح القول واللسان، وطليّ اللغة والبيان.

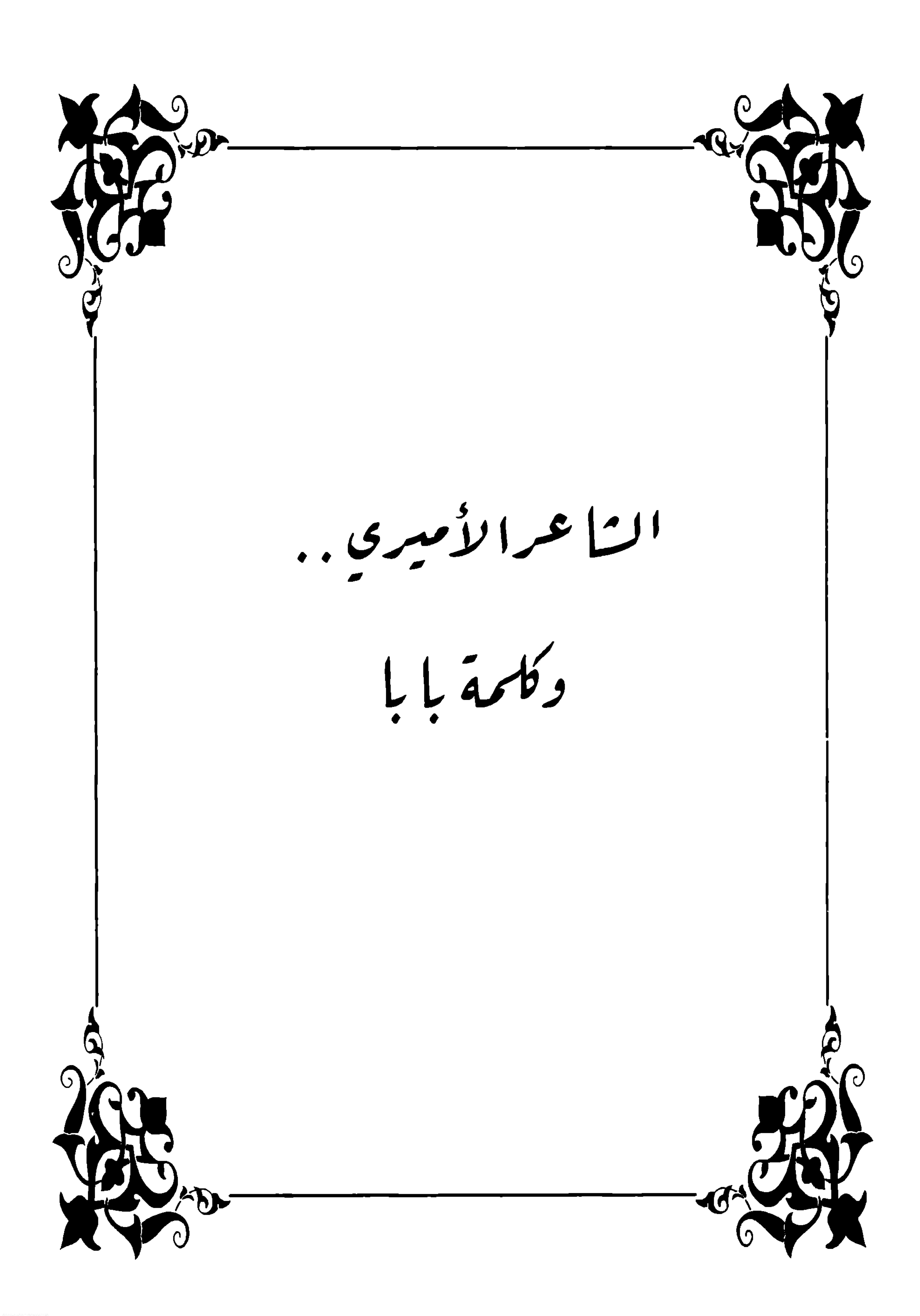
إنه كنز حقيقي لمن أراد أن يتزوّد أو أراد أن يتضلّع من معين اللغة العذب الرقراق.

وقد اختاره جامعهُ الأستاذ ذياب عبد الكريم أبو سارة ـ وهو صحفي تقرأ في محيّاه مخايل الذكاء والفطنة، وتستشرف في عمله معاني الجدّ والاجتهاد ـ من كتاب العلاّمة اليازجي (نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد) في محاولة منه لتقريب بعيده، وجمع متفرّقه، وتسهيل حَزْنِهِ، وتيسير صعبه. وقد رمى في محاولته هذه ـ فيما رمى ـ إلى تهذيب نجعة الرائد بنفي ما اشتمل عليه من غريب اللفظ، وحوشي التعبير.. وقد وُفّق في ذلك إلى حدٍّ ليس باليسير، ومع أني قد أخالفه في بعض ما اختار، وفي بعض ما ترك، إلا أني أرى في عمله بالجملة تجويداً وإتقاناً يبشّران بمستقبل واعد، كيف لا وقد جعل من هذا العمل بدايةً لسلسلة تحمل عنوان "سلسلة كنوز العربية" يصبو لأن يخرج فيها من روائع هذه اللغة وعجائبها وأسرارها ما يقرّ العين، ويُثلجُ الصّدر، ويُبهج النفس.. وأوّل الغيث قطرٌ ثم ينهمر.

إن الهلال إذا رأيتَ نموّه ... أيقنتَ أن سيكون بدراً كاملا

أسأل الله أن يسدد خطاه، وينفع به، وأن يهدينا وإياه إلى الطيب من القول، والصالح من العمل، وأن يستقيم بنا على الصراط الحميد.

الكويت في ١٤ من ذي القعدة ١٤٢٤هـ



الشاعر الأميري..

وكلمة بابا

الشاعر الأميري... وكلمة (بابا)*

للشاعر الأميري ـ عمر بهاء الدين (١٩١٦ ـ ١٩٩٢م) ـ ولعٌ خاص بكلمة "بابا"ولا غروَ فهو شاعر الإنسانية المؤمنة، بل هو شاعر الأبوة الحانية في أدبنا العربي الحديث، فقد استبدَّت به هذه العاطفة، أعني عاطفة الأبوة، فأعطاها مالم يعطه شاعر آخر فيما نعلم، حتى لقد خصَّها بديوان أطلق عليه اسم "أب"نفَحَهُ بكل ما حباهُ المولى سبحانه من حنوٍّ الأبوة، ورحمة الأبوة، وعطف الأبوة، وشفقة الأبوة، ومسؤولية الأبوة، وأمانة الأبوة، وتربية الأبوة، وجمال الأبوة، وجلال الأبوة...إلى غير ذلك مما تختصُّ به الأبوة، وما أكثرَ ما تشتمل عليه كلمة الأبوة من معان ! وما أروع ما تشتمل عليه كلمة الأبوة من عواطف ! ولله در شوقي إذ قال مشبها رسول الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم بالأب والأم:

وإذا رحمتَ فأنتَ أمٌّ أو أبٌ — هذان في الدنيا هما الرحَماءُ

ولما كان الأمر كذلك عند شاعرنا الأميري كثرت في معجمه اللفظي الكلمات المعبرة عن الأبوة، من مثل قوله:

وأنا أب في أضلعي مِزَعٌ — تسعٌ من الأطفال تهتف بي

هل في حنان الناس منزلةٌ — أسنى وأرفع من حنان أبِ

وقوله:

يا فتيةً آذوا أباً — أفنى ببرٍّ بنيه عمرَهْ

وأبوكم ما بينكم — ضيفٌ وفيمن مات عبرَهْ

---

* نشر شطر من هذا المقال تحت عنوان "بابا من بقايا الفصاح على ألسنة الأطفال"في مجلة نهج الإسلام العدد ٣٧ عام ١٩٨٩. ثم توسعت فيه لينشر تحت عنوانه هذا في مجلة الكويت العدد ٢٥١ عام ٢٠٠٤.

بل لقد تعدى ذلك إلى تلك الكلمة الدائرة على لسان كل طفل حين ينادي أباه، أو حين يحكي عن أبيه، أو حين يدعوه أبوه. إنها كلمة "بابا" التي تصلح عنوانا لرائعته ودرة ديوانه (قصيدة أب) التي يقول فيها مصوراً فراق بنيه بعد أن ملؤوا عليه دنياه لعباً.. وشغباً.. وحباً.. وطرباً:

أيـن الضجيج العذبُ والشغبُ؟ أيـن التدارسُ شابهُ اللعبُ؟
أيـن الطفولـةُ في توقُّدِها؟ أيـن الدُّمى في الأرضِ والكُتُبُ؟
أيـن التشاكُسُ دونَما غَرَضٍ؟ أيـن التشاكي ما لـهُ سَبَبُ؟
أيـن التباكي والتضاحُكُ، في وَقْتٍ معاً، والحُزنُ والطَرَبُ؟
أيـن التسابُقُ في مُجاورَتي شَغَفاً، إذا أكلوا وإنْ شربوا؟
يَتَزاحمونَ على مُجالسَتي والقُربِ مِنِّي حيثُما انقلَبوا
يتوَجَّهونَ بسَوقِ فِطْرتِهم نَحْوي إذا رَهبوا وإن رَغبوا
فنشيدُهُم "بابا" إذا فَرحوا ووعيدُهُم "بابا" إذا غَضِبوا
وهتافُهُم "بابا" إذا ابتَعدُوا ونَجِيُّهُم "بابا" إذا اقتَرَبُوا

◆◆◆

بالأمس كانوا مِلءَ منزِلِنا واليومَ - ويح اليوم - قدْ ذهبُوا
وكأنَّما الصمتُ الذي هَبَطتْ أثقالُه في الدارِ إذ غَرَبُوا
إغفاءةُ المَحْمُومِ هَدْأَتُها فيها يَشيعُ الهَمُّ والتَّعَبُ
ذهَبُوا، أجَلْ ذهبوا، ومَسْكَنُهم في القَلبِ، ما شطُّوا وما قَرُبوا
إنِّي أراهم أينما التفتتْ نفسي وقد سكنوا، وقد وثبوا
وأحِسُّ في خَلَدي تلاعُبَهُمْ في الدَّار، ليس ينالهمْ نَصَب
وبَريقَ أعيُنِهم، إذا ظَفِروا ودُموعَ حُرقتِهم إذا غُلِبوا
في كلِّ رُكنٍ مِنهُمُ أثَرٌ وبكلِّ زاويةٍ لَهُم صَخَبُ

في النافِـذات، زجاجَهـا حَطمـوا   في الحـائِط المَـدْهونِ، قـد ثقَبُـوا
في البـابِ، قـد كسـروا مَزَاجَـهُ،   وعليـه قـد رَسَـمُوا وقـد كتَبُـوا
في الصحنِ فيـه بعـضُ مـا أكلُـوا   في عُلبـةِ الحلـوى الـتي نَهبُـوا
في الشَـطرِ مِـن تُفاحـة قضـموا   في فَضـلة المَـاءِ الـتي سَـكَبُوا
إنـي أراهُـمْ حَيثُمـا اتجَهَـتْ   عـيني كأسـرَاب القَطَـا سَـرَبوا
بـالأمْسِ في "قرنايـلٍ" نَزَلُـوا   واليـوم قـد ضَـمَّتْهمُ "حَلَـبُ"

◆◆◆

دمْعـي الـذي كتَّمْتُـهُ جَلَـداً   لّمـا تبـاكَوا عنـدما ركِبـوا
حتَّـى إذا سـارُوا وقـد نَزَعُـوا   مِـن أضـلُعي قلبـاً بِهِـمْ يَجِـبُ
ألفَيـتُني كالطِّفْـلِ عاطِفَـةً   فـإذا بِـه كالغيـثِ ينسكِبُ
قـد يَعجَـبُ العُـذَّال مِـن رجُـلٍ   يَبْكـي، ولـو لم أبـكِ فالعَجَـبُ
هَيهَـاتَ مـا كـلُّ البُكـا خَـوَرٌ   إنِّـي وَبِـي عَـزْمُ الرجـالِ، أبُ

ولا يكاد قارئ للشعر، أو مستمع له، أو مستمتع به، أو متذوق لمعانيه، أو مفتون بمبانيه، ينكر على شاعرنا استعماله لهذه الكلمة، وتكراره لها، على نحو ما قرأتَ..وسمعتَ.. وتذوقتَ.. وفُتِنتَ! كيف لا وقد طار ذكر هذه القصيدة في الآفاق، ونالت من الشهرة والذيوع والانتشار ما جعل صاحبها نفسه يعجب من ذلك، حتى سماها (القصيدة المحظوظة)! بل لقد أعجب بها عملاق الأدب والنقد عباس محمود العقاد، على قلة ما يعجبه من شعر المعاصرين، وعدَّها من عيون الشعر الإنساني، وقال عنها في ندوة من ندوات منزله في مصر الجديدة في رمضان ١٣٨١هـ: "لو كان للأدب العالمي ديوان من جزء واحد لكانت هذه القصيدة في طليعته..!".وترجمت إلى اللغة الفرنسية وقورنت بقصائد فيكتور هوغو في الأطفال، وعرضت في برامج تلفازية خاصة، ونشرت في الكثير من المجلات والكتب المدرسية. وكانت هذه القصيدة الدافع لإخراج الشاعر الأميري ديوان "أب".

ومع ذلك فقد أنكر قوم على شاعرنا استعماله كلمة "بابا"في هذه القصيدة، وذهبوا في ذلك كل مذهب.

إذ كيف يجوز لفصيح مثله أن يستعمل كلمة عامية؟؟

بل كيف يجوز لبليغ مثله أن يرطَنَ بكلمة أعجمية؟؟

بل كيف يجوز لشاعر كبير مثله أن يناغي بكلمة طفولية؟؟

وكان من سوالف الأقضية أني حضرت حفلا بهيجاً.. ضمَّ ثلَّةً من العلماء والأعيان والأفاضل، وتقاطَرَ فيه الخطباء يتحفوننا بأفانينَ من القول والوعظ والإرشاد، وكان منهم خطيب فاضل أديب[1] استهلَّ كلمته ـ وما أحسن ما استهلها ـ بقصيدة الأميري هذه، وما إن وصل الخطيب إلى كلمة بابا في القصيدة حتى همس لي صاحبي بالجَنْبِ في أذني يسأل مستنكراً: أليست كلمة بابا أعجمية؟ فأشرت إليه أن لا، وتابعت الاستماع مستمتعاً بالقصيدة والخطبة، ثم بدا لي أن أنبِّه على أصالة هذه الكلمة في العربية فقمت شِبْهَ خطيب، وعلّقت على الأستاذ الأديب، مبيناً أن كلمة بابا عربية الأصل كريمة النِّجار والمَحْتِد مستدلاً بما جاء في المعاجم العربية من أنه: (بأبأ الصبيُّ إذا قال بابا). وكثر الهمس والتعليق، وتعدّى صاحبي بالجَنب إلى أصيحابٍ جُنُبٍ، بل إلى أساتذة أجلاء، ما كانوا ليوافقوني على ما ذهبت إليه بعد أن أتى عليهم حين من الدهر يسمعون هذه الكلمة تتردد على ألسنة أعجمية أو ترطَن بها ألسنة عامية لا عهد لها بالفصحى وأهلها.

وأدركت لتوّي أن ما سقته من حديث المعاجم في تلك العجالة لم يُجْدِ عندهم نفعاً، ولم يجدْ لديهم مقنعاً، في أصل كلمة غَبَر على الناس زمان يعتقدون فيه أنها أعجمية تسرّبت إلينا من اللغة الفرنسية (Papa) أو من غيرها، بل لقد نادى بعض الخواصّ بإلغاء تعليمها لأطفالنا في مراحل تعليمهم الأولى لما تحمله من أوضار العجمة !

---

(١) هو خطيب الأدباء وأديب الخطباء بدمشق الشام الأستاذ الحُفَظَة هشام عبد الرزاق الحمصي حفظه الله وأمتع به، وأشهد أني لم أرَ أحفظ منه للشعر.

وإن تعجَبْ فعجَبٌ أمرُ مَن يُنكرُ وجود هذه الكلمة في المعاجم العربية، ثم حين يتبدّى له على وجه اليقين أنها موجودة يُعجزه استخراجُها، لأنه لا يعلم من أي باب تخرج أو تحت أيّ أصلٍ تندرج !. مع أن الأمر في غاية السهولة واليسر، ولو أنه فتح الجزء الأول من معجم اللسان لقرأ في صفحاته الأولى (مادة بأبأ) الكلامَ التالي:

(... وبأبأتُهُ أيضاً، وبأبأتُ بِهِ قلت له: بابا. وقالوا: بأبأ الصبيَّ أبوه إذا قال له: بابا. وبأبأه الصبيُّ إذا قال له بابا. وقال الفرّاء: بأبأتُ بالصبيِّ بِئْباءً إذا قلت له: بأَبي. قال ابن جني: سألت أبا عليّ فقلتُ له: بأبأتُ الصبيَّ بأبأةً إذا قلت له بابا، فما مثالُ البأبأةِ عندك الآن ؟...) [لسان العرب (بأبأ)].

وتكاد معاجمنا العربية القديمة والحديثة تجمع على هذا الذي نقله صاحب اللسان، فقد أورد المادة بهذا المعنى كلٌّ من الفيروزآبادي في قاموسه والزبيدي في تاجه، كما جاءت في معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا والمعجم الوسيط [انظر مادة (بأبأ) في القاموس المحيط، وتاج العروس، ومتن اللغة، والمعجم الوسيط].

ولو ذهب الباحث ينقِّرُ في كتب اللغة وعلومها لظفر بكثرةٍ كاثرة من النصوص تثبت هذه اللفظة بمعناها الذي تعارف عليه الناس اليوم، فقد جاء في نوادر اللغة لأبي زيد الأنصاري (١١٩ ـ ٢١٥ هـ وهو المعنيُّ بقول سيبويه في الكتاب: حدثني الثقة):

(قال العنبريّون بأبأ الصبيُّ أباه، وبأبأه أبوه: إذا قال له: يا بابا، ومأمأ الصبيُّ أمه فهو يُمأمئُها ويبأبئُ أباه بأباةً ومأماةً. ويقال: دأدأتُ الصبيَّ دأدأةً إذا سكتُّه تسكيتاً). [نوادر اللغة لأبي زيد الأنصاري ص ٢٥٤].

وجاء في رسالة الاشتقاق لابن السرّاج (٣١٦ هـ):

(ومنه أن تجيءَ اللفظة يُرادُ بها الحكاية، فهذا الضرب لا يجوز أن يكون مشتقًّا، وذلك نحو: بأبأ الصبيَّ إذا قال له: يا بابا، وكذلك غاقِ وما أشبهه) [رسالة الاشتقاق لابن السراج ص ٣١].

وفي كتاب الأفعال للسرقسطي (توفي بعد المئة الرابعة للهجرة):

(بأبأ : قال أبو عثمان : قال أبو زيد : بأبأ الصبيُّ أباه وبأبأه أبوه : إذا قال له : بابا)
[كتاب الأفعال المسرقسطي : ٤/١٣٣].

ولا أخفي على القارئ الكريم أن هذه النقول والنصوص، على كثرتها وتنوّعِها وقطعيةِ دلالاتها، لم تكن لتشفي غلّة الباحث الصدي، فقد أنكر عليَّ بعض الفضلاء كلَّ ما سقته من هذه النقول، وطالبوني بنصٍّ عربي قديم وردت فيه لفظة بابا على نحو صريح لا لبسَ فيه ولا مظنة تحريف أو تصحيف، وأغراني البحث فرحت أنقّبُ وأنقّرُ في المعاجم الأمات وموسوعات النحو والصرف واللغة.

ولكن هيهات ! لقد كنت كمن يعمل في غير مَعْمَل، أو ينفخُ في غير فحم، فما في هذه الكتب، على سَعتها وبسط الكلام فيها، شاهدٌ واحد على ما أنا بسبيله.

وربَّ رميةٍ من غير رام، فقد عثرت على ضالّتي خلال مطالعة عرضت لي في كتاب عبقرية اللغة العربية للدكتور عمر فروخ، وكانت أبياتاً رقيقة للشاعر العربي الغَزِل العباس بن الأحنف (١٩٢هـ) جاء فيها :

وكانــتْ جــارةً للحُــو رِ في الفــردوس أحقابــا
فأمسَــتْ وهْــيَ في الــدنيا ومــا نــألفُ أترابــا
لهــا لُعَــبٌ مصــفَّفَةٌ تُلقــبُهُنَّ ألقابــا
تنــادي كلّمــا رِيعــت مِــن الغِــرّةِ يــا بابــا

[جاءت في الأصل : (من العزة) انظر عبقرية اللغة العربية ص ٢١٩. والتصحيح من ديوان العباس بن الأحنف طبعة دار الكتب المصرية شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي حيث وردت القصيدة ص ١٦ ـ ١٨].

وما كان أشدَّ فرحي بأبيات ابن الأحنف هذه، لقد تأبَّطتها وانطلقت إلى شيخ العربية في بلاد الشام الأستاذ سعيد الأفغاني رحمه الله، ولما التأم المجلس سألته عن كلمة بابا وأصالتها في العربية، فبادر الأستاذ يوسف الصيداوي ـ وكان من رواد المجلس عليه رحمة الله ـ إلى إثبات

عربيتها وتوثيقها محتجاً بذكر الجاحظ لها في البيان والتبيين، غير أن الأستاذ الأفغاني عقب بأن الجاحظ ليس بحجة، عند ذلك أنشدته أبيات ابن الأحنف هذه، ونسبتها إلى صاحبها العباس بن الأحنف، فقال الأستاذ سعيد الأفغاني: أما هذا فنعم!

ومع كل هذا الذي قدمت فلستُ أزعم أن هذه اللفظة جذر عربيّ خِصب أو مادة عربية قابلة للاشتقاق و التوليد، وإنما هي اسم من أسماء الأصوات يُروى على سبيل الحكاية. وأسماء الأصوات، كما هو معلوم، جانب من جوانب اللغة تشترك فيه مع غيرها من اللغات، بل لقد عده بعض اللسانيين - في علم اللسانيات الحديث والقديم - أصل اللغة الإنسانية، منه استمدت ألفاظها، وعن محاكاة الأصوات الطبيعية كدويِّ الريح وخرير المياه نشأت كلماتها. وهي إحدى النظريات المشهورة في نشأة اللغات، وبها أخذ ابن جني في بعض أقواله [انظر الخصائص ١/ ٤٦ - ٤٧] واللغوي الألماني هردر كما جاء في المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي للدكتور رمضان عبد التواب ص ١١٢. كما أخذ بها من المتأخرين آدم سميث (متن اللغة /١٨).

دع ذا وتدبَّر معي بنية لفظة بابا تجدها تعتمد على حرف الباء، وهو حرف شفوي سهل النطق طيّع المخرج، ولذا سارع الطفل إلى ترديده والمَذْلِ به، فكان أول الحروف تردداً بين شفتيه وكذا حرف الميم، وقد علَّل علماء الصوت ذلك بأن الطفل يرى حركة الشفتين حين يسمع هذه الأصوات من أمه أو أبيه، في حين ذهب الدكتور إبراهيم أنيس إلى أن عضلات النطق بهذه الأصوات هي نفس العضلات التي يستخدمها في الرضاعة [الأصوات اللغوية ٢١٦ - ٢١٧ وانظر كتاب الألسنية ولغة الطفل العربي لجورج كلاس ص٨٠. وفقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد ص١٣١] يستوي في ذلك الطفل العربي مع الأعجمي، والتركي مع البربري، فلا غرو بعد ذلك إن وجدت هذه اللفظة في كثير من اللغات العالمية، ولا ضير على العربية إن اشتركت في استعمال لفظ ما مع غيرها من اللغات.

جاء في تكملة المعاجم العربية لدوزي: (وبابا بالبربرية والتركية: الأب (ابن بطوطة ٢/ ٤١٦) وكذلك هي في لغة الفولة أو الفولان أو فلان (هجسون) وكذلك في العربية (شيرب لغة العرب ٣٢، ومحيط المحيط). [معجم دوزي ١/ ٢٢٥ - ٢٢٦].

على أن ما يدور في فلك بحثنا هذا هو التأكيد على أن أسلافنا العرب الفصحاء الذين عنهم أخذت اللغة حاكَوا أطفالهم فيما تردد بين شفاههم كما تؤكد معظم النقول السابقة، وما الغرابة في ذلك ؟ ألم يحاكوا ما هو أقلُّ من الطفل منزلةً وفصاحةً، وهي الأنعام والسوائم على اختلاف أنواعها ؟ بلى فقد حاكَوا صوتَ الغراب فقالوا: غاقِ، ودعَوا الحمارَ للشرب فقالوا: سَأْ. ومن أمثلتهم: (قفِ الحمار على الردهة ولا تقل له سَأْ) [جمهرة اللغة ٢٩٣/٣. والرواية في مجمع الأمثال ٩٤/٢ (قرِّبِ الحمار من الردهة...) يضرب للرجل يعلم ما يصنع]، وزجروا البغل فقالوا: عَدَسْ، وعليه شاهد النحاة المشهور:

عَـدَسْ، مـا لعبَّـادٍ عليـكِ إمـارةٌ أمنـــتِ وهـــذا تحملـــينَ طليـــقُ

[انظر في أسماء الأصوات: شرح المفصل ١٥/٤ وشرح الكافية ٧٩/٢ وجامع الدروس العربية ١٩٢/١ والنحو الوافي].

بل لقد تعدَّوا ذلك إلى تسميةِ صاحب الصوت باسم صوته المنسوب إليه، فسمَّوا الغرابَ غاقِ، والبغلَ عَدَسْ، وعلى ذلك قول الشاعر:

إذا حملـتُ بـدني علـى عَـدَسْ
علـى الـذي بـين الحمـار والفـرسْ
فـلا أبـالي مـن غـزا ومـن جلـسْ

[جامع الدروس العربية ١٦٣/١، وشرح المفصل ٧٩/٤]. وزادوا فألحقوا أسماء الأصوات بأشرف الكلمات، أي: بالأسماء ليكون أدل على دخولها في ظاهر أقسام الكلمات فصرفوها تصريفَ الأسماء [انظر شرح الكافية ٨١/٢].

ولعل خير ما أختم به الكلام طائفة من الأبيات لشعراء قدامى ومحدثين، كان لكلمة "بابا" في شعرهم نصيب.

أما أولهم فهو ابن الوردي (٦٩١ ـ ٧٤٩ هـ) عمر بن مظفر، صاحب اللامية المشهورة، حيث يقول:

أيـــا دادا حكـــت صِـــدغاكَ واوا ... فمـــا أحلـــى ثنايـــاكَ الـــعذابا

لقـــد صـــدتْكَ أمُّـــكَ عـــن رضـــانا ... فيـــا مامـــا دعـــي للصـــلح بابـــا

وأما ثانيهم فهو أحمد تقي الدين (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥ م) الشاعر القاضي، حيث يقول:

هـــو طفـــل فـــوق السـرير صـغيرٌ ... ذابـــل الطـــرف يســـحر الآنامـــا

وعليـــه مـــن الجمـــال غشـــاءٌ ... نســـجته بنـــات موســـى اليتـــامى

إنمـــا يقظـــة الغـــرام غشـــته ... فرمـــت قلبـــه صـــريعا غرامـــا

تهـــموه بالحـــب وهـــو يتـــيمٌ ... أعجمـــيٌّ يقـــول بابـــا ومامـــا

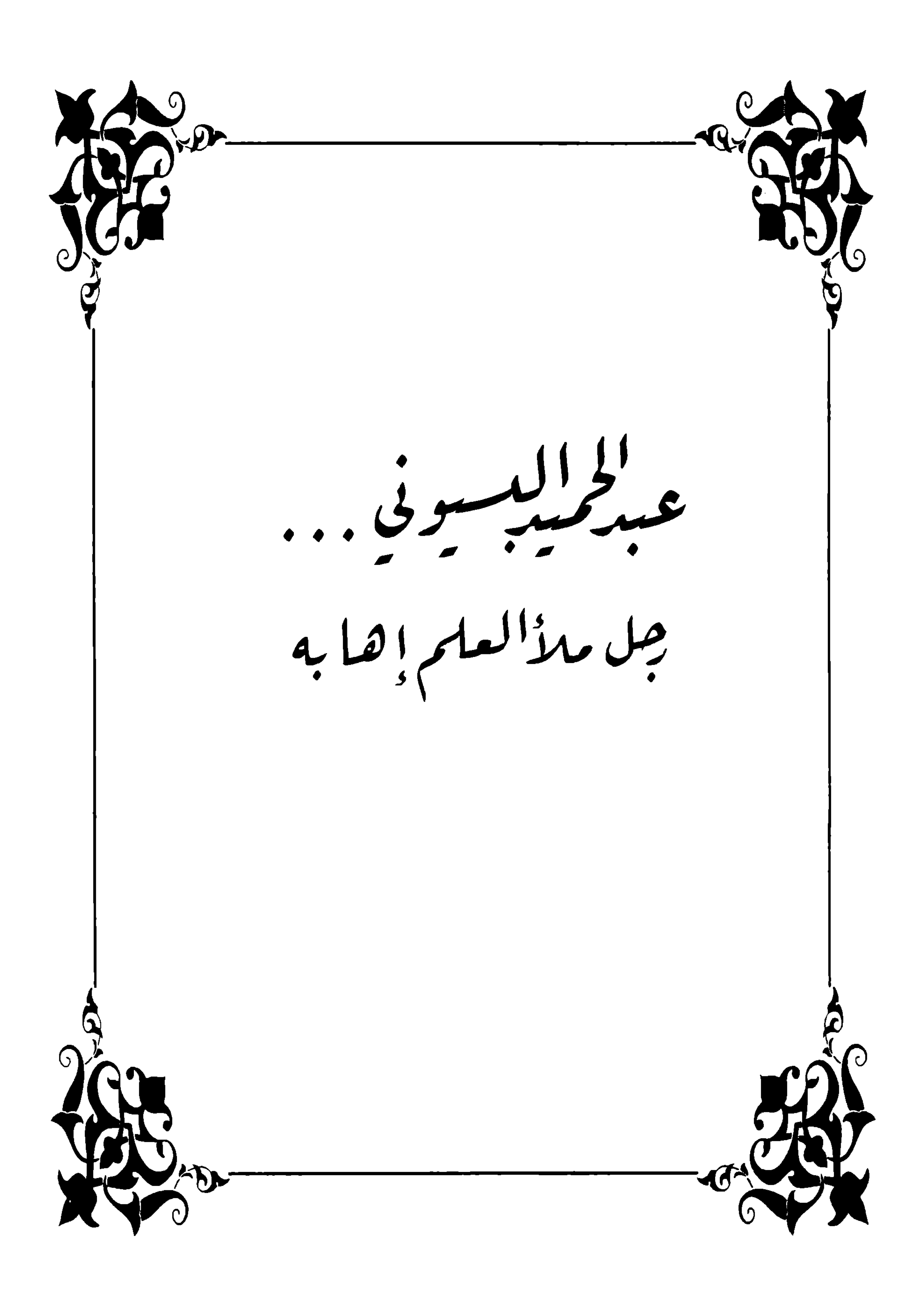
وأما آخرهم فهو أميرهم، أحمد شوقي، حيث يقول:

هنـــاك ألقـــت بالصـــغير للـــورى ... وانـــدفعت تبكـــي بكـــاءً مفـــترى

تقـــول بابـــا أنـــا دحّـــا وهـــو كـــخّ ... معنـــاه بابـــا لـــيَ وحـــدي مـــا طـــبخْ

فقـــل لمـــن يجهـــل خطـــب الآنيـــهْ ... قـــد فطـــر الطفـــل علـــى الأنانيـــهْ





عبدالحميد البسيوني...

رجل ملأ العلم إهابه

عبد الحميد البسيوني.. رجلٌ ملأ العلمُ إهابَه❖

يا دهر بِعْ رُتَبَ المعالي بعده بيعَ السماح ربحتَ أم لم تربح

قدّم وأخّر من تشاء فإنه قد مات من قد كنت منه تستحي

رحم الله شيخنا البسيوني فقد كان جديراً بالتقديم، وكان الدهر يستحي منه، فلا يقدم عليه إنساناً مهما علت رتبته، وكثرت شهاداته، وعلا في أندية العلم صياحه !.

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ دد والمجد والمكارم مِثْلا

ولم يكن الشيخ - أعلى الله في الجنان مقامه - صاحب شهادات، وأستاذ جامعات، ومحاضر مؤتمرات.. لكنه كان رجلاً ملأ العلمُ إهابَه، وأنار الحق كتابَه.. فهو يقرأ على بصيرة.. وهو يفهم على نور.. وهو يجزل العطاء بسخاء وكرم وجود.

صحب العلم وأهله مذ كان غضَّ العود طريّه، فنهل منه، ورضع لبانه كما يرضع الوليد لبن أمه، فلما استدَّ ساعدُه واستحصد أمرُه، كان العلم معه على مثل أمره، سداداً واستحصاداً.

سنّى له الله معايشة الأكابر.. فتقلب في نُعمى رياضهم.. ونهل من معين علمهم.. وتدرج في معارف فهمهم.. ما بالك برجل كان صاحب العقاد ؟! و جليس محمود شاكر ؟! و أنيس السيد صقر؟! وخدين النفاخ ؟! وصفيّ الطناحي ؟! وغيرهم من أوعية العلم وعدوله.. وأساطينه وأركانه.. إنه بهم تخرج.. وبسنى عقولهم أورى وأزنَد..

استمعْ إلى صفيّه الطناحي يقول عنه في بحث له عن دار العلوم ومكانتها في بعث التراث العربي وإحيائه: "وأعرف أناساً ذوي أقدار الآن، عملوا زماناً في مهنة التصحيح، أذكر منهم

❖ نشر أصل هذا المقال في جريدة الوطن الكويتية بتاريخ ٢/٤/٢٠٠٤. ثم توسعت فيه لينشر في مجلة البيان الصادرة عن رابطة الأدباء بالكويت، العدد ٤١٤ ديسمبر ٢٠٠٤.

ابناً عظيماً من أبناء الدار، هو جامع العلوم والفضائل، المقرئ المحدث الحافظ الأديب الشاعر، الذكي القلب واللسان، عبد الحميد البسيوني، المتخرج من الدار عام ١٩٦١م، جاء من قريته "الباجور" من أعمال المنوفية، يبحث عن المعرفة، ويلتمس طرق العلم، بنفس مشوقة، وحس دقيق، وعين ناقدة، فصحب من الأشياخ عباس محمود العقاد، والسيد أحمد صقر، وشيخنا محمود محمد شاكر، رحمهم الله أجمعين، كما صحب من قراء القرآن الكريم الشيخين محمد صديق المنشاوي وعلي حزين، رحمهما الله". (في اللغة والأدب ٢/٨٣٧).

لقد كان هامةً في العلم تطأطأت لها الهامات.. وكان رأساً في الفهم انحنت له الرؤوس.. وكان نبعاً ثراً من ينابيع المعرفة أثرى من حوله.. وزفد من قصده.. "ومن قصد البحر استقلَّ السواقيا".

وقد قصدناه فرفدَنا.. ووردناه فأوردَنا.. واستقيناه فروّانا، وبتنا نرقب يوم السبت على أحر من الجمر.. نسَّمَّع قراءة الشيخ.. ونتلذَّذ بإلقائه.. ونهيم في حسن بيانه.. ونحلق في أرجاء فكره.. ونجني أطايب أدبه وبصره.. فكان مما قرأنا عليه: شرح معلقة لبيد، ومقالات محمود شاكر "نمط صعب ونمط مخيف"، وعينية أبي ذؤيب الهذلي في رثاء أولاده. دع عنك ما كان يتحفنا به من قراءة روائع القصائد القديمة. فأكرم به من معلم ! وأنعم به من قارئ !.. وأعظم به من عالم !!.

همُ القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا ... أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

إن أنسَ لا أنسَ مجلساً ضَمَّنا بصحبته في ديوانية الشيخ علي الصباح العامرة، فقرأ علينا قصيدة الشريف الرضي:

ما أسرع الأيام في طيّنا ... تمضي علينا ثم تمضي بنا

في كل يوم أمل قد نأى ... مرامه عن أجل قد دنا

أنذرنا الدهر وما نرعوي ... كأنما الدهر سوانا عنى

تعاشيا، والموت في جدّهِ ... ما أوضح الأمر وما أبينا !

حتى بلغَ آخرها. أنشدها بصوته المعبر.. وأشهد أني لم أسمع منشداً للشعر يحاكي إنشاده.. كنت أتسمَّع من إنشاده أنين الموت، وفجيعة المصيبة، وشَجَن الفراق، فرأيتُني أقضي ليلتي تلك ميتاً، إي وربي رأيت فيما يرى النائم أني قد فارقتُ.. واستقبلني ركب السابقين، على كره مني لتلك المفارقة وذلك الاستقبال !! ووجدتني أفيق من غمراتي فزعاً جزعاً ولساني يردد:

كيف دفاع المرء أحداثها ... فرداً وأقرانُ الليالي ثُنى ؟

وكانت صلاة في جنح الليل.. وكانت مناجاة طالما حنَّت روحي إليها.

وتتابعت اللقاءات مع أستاذنا البسيوني، وكانت تضم نخبة من أهل العربية والأدب، أذكر منهم د.يوسف الحشاش، ود.محمد الدالي، ود.يحيى مير علم، ود. عدنان غزال، ود.هزاع سعد، ود.طاهر الحمصي، ود. فؤاد نعناع، والأساتذة وائل الرومي، ومحمد الزمامي، وأسامة العمري، وعبدالرحمن الحقان، ورائد الشلاحي، وعصام شقير، وغيرهم. يحفهم بالرعاية والتكريم رب المجلس الشيخ علي ناصر الصباح جزاه الله عن العربية وأهلها خير الجزاء. "إن الكلام يزين رب المجلس".

وكان آخر ما قرأ علينا عينية أبي ذؤيب الهذلي المشهورة:

أمِنَ المَنون ورَيبِها تتوجَّعُ ... والدهرُ ليس بمُعتِبٍ من يجزعُ

أودى بَنيَّ وأعقبوني حسرةً ... عند الرقاد وعبرة لا تقلعُ

ولقد حرَصت بأن أدافعَ عنهمُ ... فإذا المنيةُ أقبلت لا تُدفعُ

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفعُ

قرأها بشرح ابن الأنباري، وكان معجباً بها، مفتوناً بصورها، مذهولاً بفلسفتها، بل كان يعدُّها أبدعَ ما قيل من شعرٍ في فلسفة الموت، وتصوير لوعة المفجوع به. حتى إذا أتى على آخرها فجَأنا بالقول: إن هذه القصيدة آخر ما أقرأ عليكم، ولن أقرأ بعدها شيئاً، بل سأكتفي بالاستماع إليكم، ففيكم علماء أجلاء، يستفاد من علمهم، ويُنصت إليهم، وكان يخصُّ أخانا

الدالي بالإجلال والتقدير ـ وهو أهل لذاك ـ وكثيراً ما طلب إليه مراجعة قضايا في اللغة والنحو والتحقيق. ولم يدر بخَلَدِنا آنئذٍ أن كلام الشيخ هذا قرارٌ لا رجعةَ فيه، ولقد حاول بعض روّاد المجلس أن يثنيه عن عزمه، ولكنه أصر!.

وهكذا كان.. ففي الأسبوع التالي قرأ أخونا الدالي مبحثاً له كان كتبه يردُّ على من خطّأ المعري في قوله:

تعبٌ كلها الحياة فما أعـ ... جب إلا من راغب في ازديادِ

وحضر الشيخ البسيوني، ولما انتهى المجلس التفت إليّ قائلاً: وأنت ما موضوعك عن القرآن، زودني بالآيات التي تريد تناولها كي أناقشك فيما سوف تقول، فقلت: لقد قذفت في قلبي الرعب يا سيدي! فأردف قائلاً: لا بأس عليك، ولكن إياك أن تقرأ بحثك في الأسبوعين القادمين، فأنا على سفر، وسأعود إن شاء المولى لأستمع إليك وأناقشك.

وطويت نفسي يومئذٍ على تهيب جميل!

فما أصعب أن تلقي بحثاً يناقشك فيه رجل كالبسيوني بعلمه وقامته!

وما أجمل أن تلقي بحثاً يحثّك عليه ويشرِّفُكَ بحضوره رجل كالبسيوني بفضله ونبله!

ورحت أهيئ نفسي، وأعد العُدَّةَ ليوم اللقاء، ولكن هيهات..! لم يكن ثمة يوم ولا لقاء، بل كان يومٌ.. ولا لقاء! وكان مجلس.. بلا إشراق! مجلس خيم عليه الحزن..وغشيته الكآبة..وحُفَّ بلوعة الفراق..فقد نعى الناعي أبا تميم.. وانهدَّ من جبال العلم جبل.. وثلمت في الإسلام ثلمة..!

بان الخليط برامتين فودّعوا ... أوكلما جدّوا لبينٍ تجزعُ

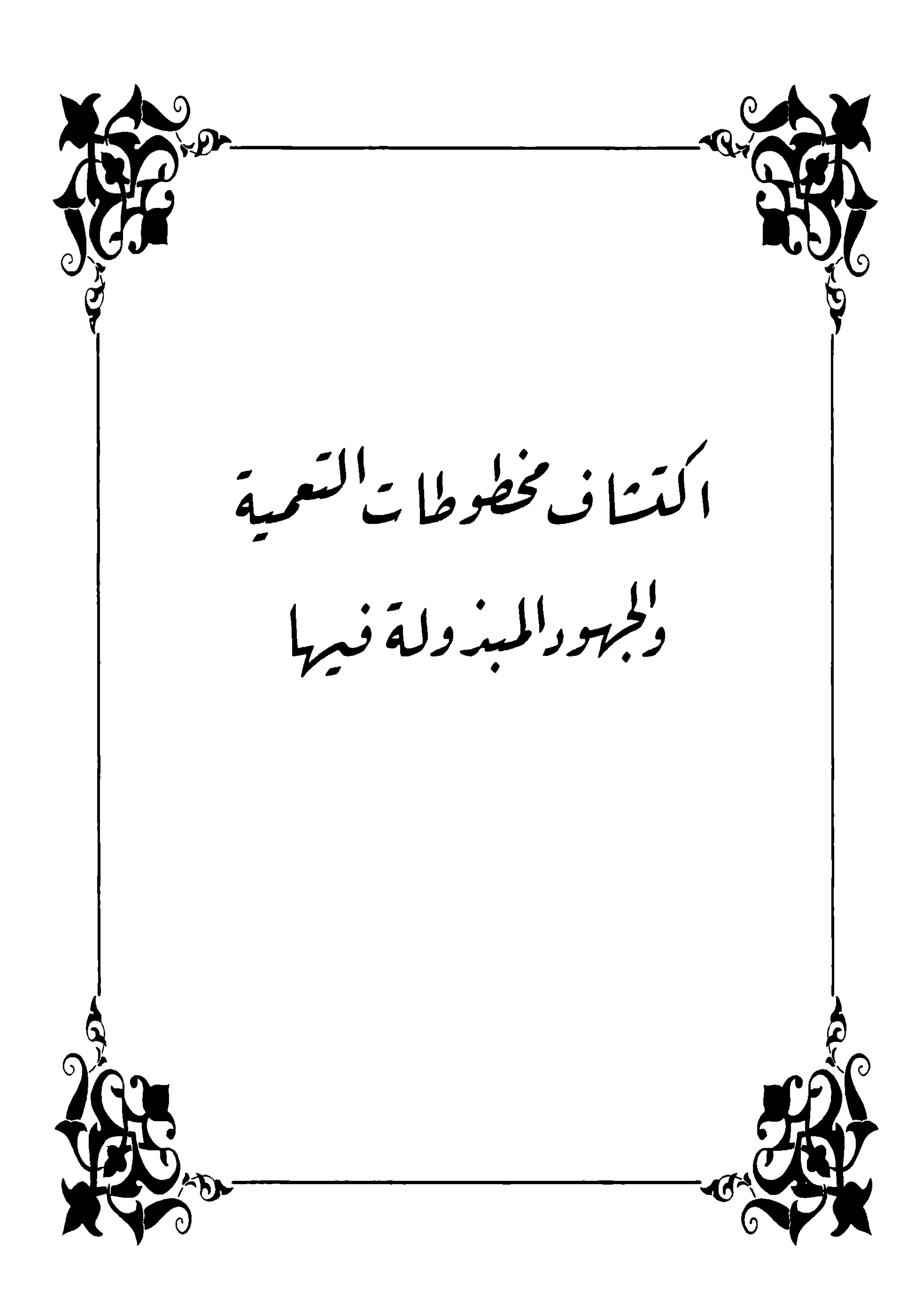
كيف العزاءُ ولم أجد مذ بِنتمُ ... قلباً يقرُّ ولا شراباً ينقَعُ

ثم لما عدنا إلى الرشد تبين لنا أن الشيخ كان يودعنا، فقد تحقق حدسه حين ودعنا غِبَّ انتهائه من قراءة المرثية، ثم راح يحثُّ الخطا نحو أرض الكنانة ليودع الأهل والأحباب هناك، حيث كان على موعد مع الأجل المحتوم، مع قضاء الله الذي لا رادّ له.

فرحم الله روحك أيها الشيخ الجليل.. وغفر لك.. وأتمَّ نعمته عليك بصحبة النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً يوم الدين.. والحمد لله رب العالمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.





الكشاف مخطوطات التعمية
والجهود المبذولة فيها

اكتشاف مخطوطات التعمية والجهود المبذولة فيها*

◆ ملخص البحث

يرمي هذا البحث إلى جلاء أمر الكشف عن مخطوطات علم التعمية ورحلة التنقير عنها في مكتبات العالم، وهو يتألف من تمهيد، وقسمين.

يعرف التمهيد علم التعمية، ويشير إلى مكانته وأثره.

ويحكي القسم الأول قصة الكشف عن مخطوطات التعمية ومبلغ ما اجتمع لدينا منها.

ويتناول القسم الثاني أهم هذه المخطوطات بالوصف وإيراد نماذج مصورة منها.

◆ تمهيد

التعمية أو الشفرة: تحويل نصٍّ واضح إلى آخر غير مفهوم باستعمال طريقة محددة يستطيع من يعرفها أن يفهم النص.

واستخراج التعمية أو كسر الشفرة: تحويل النص المعمى إلى نص واضح دون معرفة مسبقة لطريقة التعمية المستعملة فيه.

ويحظى هذا العلم اليوم بمكانة مرموقة بين العلوم، إذ تنوعت تطبيقاته العملية لتشمل مجالات متعددة نذكر منها: المجالات الدبلوماسية والعسكرية، والأمنية، والتجارية، والاقتصادية، والإعلامية، والمصرفية والمعلوماتية.

---

* ألقي هذا البحث في الحفل التكريمي الذي أقامه مركز الملك فيصل ومدينة الملك عبد العزيز في الرياض بمناسبة صدور الجزء الأول من الترجمة الإنكليزية لكتب "علم التعمية استخراج المعمى عند العرب" التي اضطلعت بتأليفها وتحقيقها مع الزميلين الكريمين د. محمد مراياتي و د. يحيى مير علم.

ثم نشر في مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة (مج ٤٧ ج٢ رمضان ١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٣م) بعنوان "مخطوطات التعمية في تراثنا".

وقد توافر لهذا العلم من أسباب الرعاية والتطوير الشيء الكثير لدى معظم الدول المتقدمة، إلا أنه غاب عن أذهان الكثيرين ممن يعملون به أن أصله عربي، وأن العرب هم آباؤه وواضعو أسسه ومطوروه، ولكنه خبا لديهم حتى لم يعد شيئاً مذكوراً.

يقول كبير مؤرخي هذا العلم دافيد كهن في كتابه Kahn on Codes ص٤١ :

(إن شفرة قيصر بقيت حية حتى آخر أيام الروم؛ لأن أول مستخرجي التعمية ـ الذين يكسرون الشفرة ـ لم يظهروا إلا بعد عدة قرون لاحقة. العرب كانوا أول من اكتشف مبادئ استخراج المعمى، ولكن معلوماتهم تقلصت مع أفول حضارتهم).

أولاً: الكشف عن أقدم مخطوطات التعمية في العالم

كانت مهمة عسيرة.. بل مغامرة مثيرة.. تلك التي بدأها معنا د. محمد مراياتي، حين أوقفني والأخ الدكتور يحيى مير علم على نص لكبير مؤرخي التعمية دافيد كهن في ص٩٣ من كتابه **THE CODEBREAKERS** يقول فيه: (ولد علم التعمية بشقّيه بين العرب فقد كانوا أول من اكتشف طرق استخراج المعمّى وكتبها ودوّنها).

ولدى تتبع تلك المقولة تبين لنا أنه اعتمد فيها على ما جاء في كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي(٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) الذي عقد باباً سماه "**باب إخفاء ما في الكتب من السرّ**.. "أكثر النقل فيه عن رسالة تدعى "**مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز** "لعالم يدعى ابن الدريهم.

ويعبر البرفسور دافيد كهن عن أسفه الشديد لأن رسالة ابن الدريهم هذه تعد من الكتب الهامة المفقودة **LOST BOOKS OF CRYPTOLOGY** وتلمس في كتابه مقدار الرغبة الملحة والحماس الشديد لإثبات ما عده فتحاً تاريخياً، حين تقرأ في ملحقاته ما أثبته من رسائل وردت إليه تنعى عليه كشفه هذا، وتنكر وجود ابن الدريهم أصلاً، وتزعم أنه ضرب من الخيال أو الوهم، ولا وجود له في حقيقة الأمر.

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينــاتٍ أصــحابها أدعيــاءُ

يا له من تحدٍّ ما أجمله!!... ويا لها من مهمة ما أعسرها!!...

يقول دافيد كهن في كتابه THE CODEBREAKERS ص٢٨٤: (طور المسلمون معرفة نظرية في استخراج المعمى، تنم عن ممارستهم لاعتراض المراسلات واستخراج تعميتها، وذلك على الرغم من تشكيك بعض الباحثين في ذلك. وبما أن التراث الإسلامي المخطوط لا يزال غير مكتشف في معظمه، فقد يحصّل الباحث فيه اكتشافات جديرة بالتقدير).

رحلة البحث عن المخطوطات

١ ـ في دمشق (عام ١٩٧٩):

من هنا بدأت رحلتنا في البحث والتنقير عن ذلك المخطوط الضائع، وعن صاحبه المجهول، بل عن كل ما له مِساس بعلم التعمية واستخراج المعمى. بدأناها في الظاهرية التي كانت آنذاك (عام ١٩٧٩) أعظم مكتبة في دمشق، وكانت تضم في جنباتها نحواً من اثني عشر ألف مخطوط استعرضنا جذاذاتها واحدة واحدة بحثاً عن ضالتنا دون أن نحلى بطائل أو نظفر بدليل يدل على المخطوط الضائع، على أننا وجدنا آثاراً تدل على صاحبه أعني ابن الدريهم. فقد عثرنا على رسالتين مخطوطتين له، أما الأولى فهي **"منهج الصواب في قبح استكتاب أهل الكتاب"** وأما الثانية فهي قصيدة في ثلاثين قافية في مدح محمد صلى الله عليه وسلم، نحا فيها ابن الدريهم نحواً عجيباً إذ جعل لكل بيت فيها ثلاثين قافية تستغرق حروف العربية وتزيد عليها حرف اللام الف، فلك أن تقول إن القصيدة همزية أو بائية أو تائية أو.... إلى أن تستنفد حروف العربية. ولما كانت القصيدة في ثلاثين بيتاً فقد بلغ عدد قوافيها تسعمئة قافية. (وقد فرغت مؤخرًا من تحقيقها ونشرت في حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت).

لقد كان لعثورنا على رسالتي ابن الدريهم هاتين أثر كبير في شحذ همتنا لمتابعة البحث، فابن الدريهم إذن عالم عربي مسلم كان له وجودٌ، وقد خلف آثاراً ضمت الظاهرية اثنين منها فيكف بباقي المكتبات ؟!.. ثم إن ترجمة الرجل في (الدرر الكامنة) تؤذن بوجود عشرات المؤلفات له في فنون شتى منها فن التعمية.

على أن بحثنا في الظاهرية لم يخل من فوائد أخرى، إذ جمعنا كل ما تضمه المكتبة من رسائل التعمية البديعية، وهي تعمية تعتمد على إخفاء المعاني بالتورية ومجالها الشعر، وقد عني بها الفُرْسُ وتلقفها عنهم العرب بأَخَرَة (فيما يسمى بعصور الانحطاط).

أما **مفتاح الكنوز** فلم يزل ضائعاً...

٢ ـ في اصطنبول (عام ١٩٨١):

لابد إذن من الترحل في البحث عن مفتاح الكنوز، ولعل مكتبات تركية بما تضم من كنوز تراثنا العربي الإسلامي خير ما يمكن أن يتطلع إليه الباحث إذ تضم بين جنباتها أكثر من مئة ألف مخطوط، ولكن.. كيف السبيل إليها؟ وهل يستطيع أي باحث أن يصور ما يشاء منها؟!.

طرحنا هذا السؤال على شيخنا الأستاذ أحمد راتب النفاخ علامة الشام طيب الله ثراه، فأرسل به إلى صديقه الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد أول مدير لمعهد المخطوطات ليعود الجواب مخيباً للآمال، فتصوير المخطوطات من مكتبات تركية من الصعوبة بمكان، وهو من المحظورات التي يحاسب عليها القانون التركي بحزم لا هوادة فيه لكن ذلك لم يكن ليفتّ في عضدنا فما نذرنا أنفسنا له أكبر من أن يحبسه حابس أو تعترضه عقبة. ومن ثم فقد رحنا نبحث عن كل ما من شأنه أن يذلل لنا الطريق ويضمن لنا التصوير.

زوّدنا د. مراياتي بخطابين حبرهما المدير العام لمركز الدراسات والبحوث العلمية بدمشق موجهين إلى كل من السفير السوري في تركية ومدير المكتبة السليمانية باصطبول.

وزودنا أحد العاملين في تصوير المخطوطات برسالة موجهة من الأستاذ الدكتور سهيل زكار إلى طالب موفد من جامعة دمشق يحضر الدكتوراه في كلية الآداب بجامعة اصطنبول. حملناها إليه مع اثني عشر ميكروفلم لو رآها شرطة الحدود للبثنا في السجن بضعة شهور، ولكن الله سلّم!.

وحملنا إلى ذلك كله أصنافاً من الهدايا والتحف نقدمها بين يدي المهمة التي ارتحلنا في سبيلها عسانا نحظى ببغيتنا، ولكن هيهات!!.

وهكذا انتقل البحث من دمشق إلى اصطنبول، ومن الظاهرية إلى السليمانية حيث ترقد الكثرة الكاثرة من المخطوطات العربية الإسلامية رهينة المحبسين: الغربة، وخزائن الكتب. وبدأنا البحث ثمة عن ضالتنا في جذاذات الفهارس التي كتبت بالحروف اللاتينية فازدادت غربتها وانطمست معالمها، وضُرِب بينها وبين المطالع العربي بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ولكن العذاب يعذب حين تلوح من ورائه بارقة الأمل بالعثور على المفقود.. والكشف عن المخطوط الضائع.

وكان لنا ما أردنا، لقد وجدنا المخطوط الضائع، عثرنا على مفتاح الكنوز فما كان أشد فرحتنا وما كان أعظم سعادتنا.

أرأيت إلى الأعرابي يُضل بعيره في الصحراء... ثم يجده بعد طول يأسٍ واغتمام.. ؟.. أرأيت إلى الأم تفقد فلذة كبدها في متاهة... ثم تلقاه بعد طول بعد وغياب.. ؟.. أرأيت إلى الباحث الجاد يمضي مع بحثه خطوة خطوة.. يجمع مصادره.. ويجري تجاربه.. ويستقري كل أدواته.. ثم يؤتي بحثه أكله بعد طول عنت واستعصاء.. ؟.. كذلك كانت فرحتنا يوم لقينا مخطوطنا الضائع **"مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز"** لابن الدريهم الموصلي. وقد كتب اسمه في جذاذة الفهارس هكذا:

(Miftah Al Kunuz Fi Idah Al Marmuz) Ibn Al-durayhim Al Mowsili).

لم نكد نصدق أعيننا حين قرأنا هذه التهجئة، ومن ثم هرعنا إلى أمين المكتبة نأخذ طلب استعارة ونكتب مارُقِن على الجذاذة حرفاً حرفاً نخشى أن نخطىء في حرف أو في رقم فيفلت الضائع منا.. وبتنا على أحر من الجمر دقائق حسبناها ساعات، أقبل علينا بعدها رجل يحمل الكنز المرتقب إنه هو **"مفتاح الكنوز "** وإن مؤلفه ذلكم المجهول المُغَيَّب علي بن الدريهم الموصلي. لم ننتظر إذناً بالتصوير أو نلتمس إلى ذلك سبيلاً وإنما عكفنا عليه ناسخين حتى أتينا عليه جميعاً من الجلدة إلى الجلدة ثم عارضنا ما نسخنا، حتى إذا ما تم لنا كل ذلك التفتنا نبتغي التصوير ونسعى إليه سعينا ملتمسين كل سبيل يمكن أن يوصلنا إليه.

سلمنا ما بأيدينا من رسائل محفوفة بالهدايا والتحف إلى مدير المكتبة وإلى القنصلية في اصطنبول فلم يُجْدِ ذلك شيئاً، وسعينا عند أساتذة أجلاء تعرفنا إليهم هناك فلم تغن معرفتهم فتيلاً.

وصادف أن لقينا الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد في السليمانية، ولم نكن نعرفه، وإنما دلنا عليه اسمه وقد كتب على محفظة تكاد تحيلها السنون إلى مخطوطة لكثرة ما عانت من صحبة المخطوطات، اقتربنا منه على وجل وسألناه التعارف والمصاحبة فبذلهما لنا، ورأيتنا نكتنفه متوسلين أن يمد لنا يد العون في تصوير المخطوط فما زادنا غير يأس وقنوط، بل راح يقرّعنا لأننا لم نستمع إلى نصحه حين أرسل إليه شيخنا النفاخ يسأله عن تصوير المخطوطات في مكتبات تركية. وأكد لنا أن تصوير صفحة واحدة من مخطوطات السليمانية أمر محال.

لم نتوقف في أثناء ذلك عن البحث في فهارس المكتبة وهي كثيرة تبلغ بضعة وتسعين فهرساً ـ استعرضناها واحداً واحداً، فحظينا بعدة رسائل في التعمية كان أهمها على الإطلاق "**رسالة الكندي في استخراج المعمى** "تلك الرسالة التي جعلتنا نعيد تاريخ علم التعمية خمسة قرون إلى الوراء، لأن صاحبها يعقوب بن إسحاق الكندي فيلسوف العرب المشهور توفي في القرن الثالث للهجرة (٢٦٠هـ). وكان مما عثرنا عليه مجموع يشتمل على ثماني رسائل في التعمية، والحق أن شيخنا النفاخ ـ عليه رحمات المولى سبحانه ـ كان قد حصل على مصورة عنه من صديقه المؤرخ العلامة التركي المعروف د. فؤاد سزكين. ولكن فيه ورقة ناقصة استدركناها من الأصل الذي وجدناه في المكتبة السليمانية آنذاك.

وقد صنعنا برسالة الكندي صنيعنا بسابقتها إذ نسخناها وعارضناها، وكذلك الورقة الناقصة من المجموع.

على أن أملنا لم ينقطع في إمكانية الوصول إلى تصوير كل تلك المخطوطات مع مخطوطات أخرى كنا نسعى إليها على رأسها رسالة "**أسباب حدوث الحروف** "لابن سينا.

وطرقنا آخر الأبواب إنه ذلكم الطالب الموفد الذي حملنا إليه رسالة د. زكار والأفلام الاثني عشر، وقد أجابنا إلى طَلِبَتِنا، ولكنه أغلى الثمن لأن كل من يساعده على إنجاز مهمة التصوير يحتاج إلى تلقيم وكذلك كان، فلم نبخل عليه بأي ثمن طلبه، دفعنا ذلك من حرِّ أموالنا، على ضيق ذات اليد، تغشانا سعادة غامرة بما حصّلنا، ويحدونا أمل وطيد بأن يخلف كل ذلك عند الله أولاً ثم عند أولي الأمر ثانياً.

ولابد لنا هنا من كلمة شكر نزجيها لذلك الطالب الموفد الذي أعاننا على إنجاز مهمتنا على خير وجه وقد أصبح فيما بعد وكيلاً لكلية الآداب بجامعة دمشق، إنه الصديق الدكتور محمود عامر، فله منا كل الشكر والتقدير.

وهكذا عدنا من رحلتنا وقد امتلأت جعبتنا بأكثر مما كنا نؤمل، إن حصيلة ما اجتمع لدينا من رسائل التعمية بلغ إحدى عشرة رسالة، دع عنك ما جمعناه من رسائل التعمية البديعية، وهي الرسائل التي عنيت بفن التعمية بوصفه فناً بديعاً يعتمد على تزيين الشعر والإلغاز فيه.

عكفنا بعد ذلك على مخطوطات التعمية دارسين ومحققين وشارحين وموازنين لنخرج فيها سفرين كبيرين، اشتمل الأول على ثلاثة من أهم رسائلها مع دراسة تحليلية لكل منها ودراسة موسعة لتاريخ علم التعمية عند العرب، ونشر بعنوان "**علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب ـ الجزء الأول ـ دراسة وتحقيق لرسائل الكندي وابن عدلان وابن الدريهم** "ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٧ مصدراً بمقدمة ضافية لرئيس المجمع أستاذنا الدكتور شاكر الفحام. واشتمل الثاني على ثماني مخطوطات ونشره المجمع أيضاً عام ١٩٩٧ بعنوان "**علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب (التشفير وكسر الشفرة** "**ـ الجزء الثاني** ـ دراسة وتحقيق لثماني رسائل مخطوطة، مصدراً بمقدمة ضافية لأستاذنا الفحام رئيس المجمع.

تلكم كانت محطتنا الثانية في رحلة البحث والكشف عن مخطوطات التعمية، أما المحطة الثالثة فكان لها شأن آخر، وهذا أوان الحديث عنها.

٣ ـ في باريس(عام ١٩٨٦):

اتجهت أنظارنا بعد ذلك للحصول على مخطوط في غاية من الأهمية في مجال التعمية إنه: "**شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام**" لابن وحشية النبطي، ذلك المؤلف الذي كشف اللثام عن رموز الهيروغليفية قبل عشرة قرون من كشف شامبليون لها. وقد أشارت المراجع إلى أنه طبع في لندن عام ١٨٠٦ بعناية جوزيف هامّر مما جعلنا نتطلع نحو المتحف البريطاني للحصول على نسخة من تلك المطبوعة، ولكن هيهات!! إذ لم يعر القائمون على المتحف أي اهتمام لخطاباتنا المتكررة برغم أن بعضها حمل إليهم باليد مع لجان متخصصة مما أقنعنا بمقولة أطلقها بعض المهتمين بشؤون المخطوطات والكتب النادرة، مفادها أن هذا الكتاب يقع ضمن ما يحظر تداوله إعارةً أو تصويراً أو اطّلاعاً في المتحف البريطاني.

لم يبق أمامنا ـ والحالة هذه ـ إلا اللجوء إلى الأصل الذي طبع عنه ذلك الكتاب وهو مخطوط تحتفظ به المكتبة الوطنية بباريس، وسنحت الفرصة بسفري إلى فرنسا عام ١٩٨٦ حيث قصدت المكتبة الوطنية بباريس، وتمكنت من استعارة المخطوط (شوق المستهام) ومعاينته، وكم كان عجبي كبيراً وفرحتي عظيمة حين عرفت أنه يشتمل على واحد وثمانين قلماً (أي لغة قديمة) كان الحكماء يستعملونها في تعمية كتاباتهم من بينها قلم هرمس الذي يؤلف أساس لغة الفراعنة وهي اللغة الهيروغليفية القديمة، وبادرت من فوري إلى نسخ المخطوط خشية ألا أحظى بتصوير نسخة منه، وكم كان النسخ شاقاً وعسيراً لأن المخطوط يشتمل على صور وأشكال يصعب أن ترسم إلا بيدٍ حَذاق صَناع، وأين مني تلك اليد ؟! ومع ذلك فإنني أتممت نسخ المخطوط، وكتبت صفحة في وصفه، ثم تقدمت بطلب رسمي مشفوع بتزكية من أستاذ في جامعة السوربون هو الدكتور جورج بواس لتصويره، ووُعدت خيراً.. إلا أنني عدت إلى دمشق بخفي حنين، ولم يطل صبري كثيراً فما هي إلا ثمانية أشهر حتى جاءني خطاب من المكتبة الوطنية بباريس يخطرني بوجوب دفع مئتي فرنك فرنسي قيمة المصورة التي أفرج عنها أخيراً، وجاءتني تحمل نجاحاً آخر في رحلة بحثنا المضنية، وكانت فرحة غامرة.

٤ ـ في اصطنبول ثانية (١٩٩١):

لم يكن **"شوق المستهام"** على أهميته وشهرته ـ هو الوحيد في بابه، فقد دلنا التتبع والاستقصاء على أن ثمة مخطوطات أخرى تنحو نحوه ولا تقل أهمية عنه. أهمها مخطوط لذي النون المصري يدعي "حل الرموز وبرء الأسقام في أصول اللغات والأقلام "يشتمل على مئتي قلم (أي: لغة قديمة)، وآخر للجلدكي يشتمل على سبعين قلماً، وثالث لمجهول. وكل ذلك في مكتبات تركية، ومن ثم كانت رحلتي الثانية إلى تركية عام ١٩٩١ حيث حصلت على مصورات لهذه المخطوطات جميعاً بعد لأي، إلا أني على كل حال لم ألاق ما لاقيت والأخ الدكتور يحيى في رحلتنا الأولى، وإنما جنيت كثيراً مما كنا زرعناه في تلك الرحلة، وتضافرت إلى ذلك أفضال عدد من الأصدقاء الكرام لا بد أن يُذْكَروا هنا ويُشْكَروا وهم الأستاذ لطفي الخطيب ود. عبد الرحمن الفرفور (المهتمان بشؤون المخطوطات) والأستاذ رأفت غوغول (خبير التجليد العالمي) ود. أحمد صبحي فرات (الأستاذ بكلية الآداب ـ جامعة اصطنبول) جزاهم الله عنا خير الجزاء.

٥ ـ مخطوطات لم نرتحل إليها:

وفدت إلينا خلال رحلتنا الطويلة هذه مخطوطات لم نرتحل إليها، وإنما ساعدنا في الحصول عليها أساتذة أجلاء وأصدقاء نبلاء بذلوا جهداً حميداً في سبيل ذلك، فلهم منا كل الشكر والتقدير. منها:

أ ـ **مجموع يضم تسع رسائل في التعمية**، من المكتبة السليمانية، أتحفنا به أستاذنا النفاخ كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

ب ـ **قصيدة ابن الدريهم في حل رموز المكاتبات وفهم أقلام المتقدمين**، من مكتبة دار الكتب المصرية، تكرم بإرسالها إلى د. مراياتي صديقه الدكتور فتحي صالح المشرف على مشروعات نظم معلومات الثقافة في المركز الإقليمي لتكنولوجيا المعلومات بالقاهرة.

ج ـ نسخة من مخطوط **"شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام "**لابن وحشية النبطي، من مكتبة خاصة، قدمها لنا الأستاذ الفاضل محمد عدنان جوهرجي، بعد أن ألقى محاضرة عنها في المركز الثقافي بدمشق.

د ـ نسخة أخرى من مخطوط **"شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام "**لابن وحشية النبطي، تكرم بتصويرها الأخ الصديق المهندس محمد الزمامي من المكتبة الوطنية في فيينا.

هـ ـ كشف المغمى عن أصول المعمى، لمحمد مرتضى الزبيدي، وهي رسالة صغيرة تحتفظ بها المكتبة اليهودية الوطنية بالقدس، وقد تكرم بتصويرها فضيلة الأخ الشيخ نظام اليعقوبي من مقتنيات مكتبته الخاصة بالبحرين.

و ـ ورقات من مجموع التعمية تكرم بإرسالها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الهدلق (محقق رسالة ابن طباطبا في استخراج المعمى) بعد أن صورها الأستاذ الدكتور عبد العزيز المانع شكر الله لهما.

هذه جملة المخطوطات التي اجتمعت لدينا حتى الآن في علم التعمية واستخراج المعمى، وهي على غناها وكثرتها وتنوعها غيض من فيض وقُلٌّ من كُثر، فما في المكتبة العربية أعظم من أن يحيط به جهد، أو يحصيه محص، وفي جعبتنا عناوين كثيرة لما نصل إليها، ومن ورائها عناوين كثيرة لما تصل إلينا، بل لما يبلغنا علمها، وما زال البحث عنها جارياً...

وسأعمد فيما يأتي إلى وصف أهم ما جمعناه من مخطوطات التعمية، وهي التي ألفت نواة السفرين اللذين أشرت إليهما، ثم أشفع كل وصف بنموذج مصور.

ثانياً: وصف المخطوطات

١ ـ رسالة الكندي في استخراج المُعَمَّى

نسخة ضمن مجموع كبير، كُتب بخطٍّ صغير متداخل، ويتألف من (٢٣٢) ورقة، يقعُ في قسمين: يشتمل الأول منهما على رسائل ثابتِ بنِ قُرَّة في الرياضيات وغيرها، ابتدأ بجدولٍ كُتِب فوقه "جدول فيه فهرست ما وجدنا من كتب ورسائل ثابت بن قُرّة في الرياضيات". كما رُسم في أعلى الورقة عبارتان مهمّتان نصُّ الأولى منهما: "هذا الكتابُ كان لأبي عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا، وصُنِّف من رسائلَ كثيرةٍ، والله أعلم".

أما القسم الثاني من المجموع فيشتمل على رسائل مختلفة للكندي ابتدأت بفهرس كُتب فوقه: "الجزء الأول من كُتب ورسائل يعقوب بن إسحاق الكندي، وفيه ستون مصنفاً". ورسالته في استخراج المعمى واحدة من رسائل هذا القسم، وهي تشغلُ من المجموع ما بين (٥٩ ـ ٦٤) (ترقيم قديم) أو (٢١١ ـ ٢١٦) (ترقيم حديث). وتقع في (١٢) صفحة، يتضمن كلٌّ منها (٣٢) سطراً، وفي كلّ سطرٍ ما يقربُ من (١٧) كلمةً. وفي الرسالة قسمٌ مكرر استغرق آخر ورقة من الأصل، وهي الورقة (٢١٦). والمجموع محفوظ في خزائن مكتبة آيا صوفيا ضمن المكتبة السليمانية برقم (٤٨٣٢).

وفيما يلي نموذج مصور من رسالة الكندي:

مصوّرة الصفحة الأولى من رسالة الكندي.

٢ ـ رسالة ابن عدلان المؤلّف للملك الأشرف

رسالة ابن عدلان واحدة من رسائل عديدة يشتمل عليها مجموع كبير يقع في (١٩١) ورقة ذي حجم متوسط، يشتمل على موضوعات مختلفة، بينها رسائل في التعمية تشغل منه ما بين الورقة (٤٨) والورقة (١٣٣) تمثل ما لدينا منه، أما رسالة ابن عدلان فتقع ما بين ٨٩/أ و١٠٧/ب.

وخطُّ مجموع التعمية هذا نَسْخي واضح بالجملة، وإن كان لا يخلو من غموض أحياناً وإهمال للحروف المعجمة أحياناً أخرى، وهو خِلْوٌ من ذكر اسم الناسخ أو تاريخ النسخ إلا أن رسم حروفه يؤذن بتقدمه، وقد قدّر الدكتور فؤاد سزكين أنه يعود إلى القرن السادس الهجري.

وهو متفاوت في حجم الخط ونوعه وعدد الأسطر، إذ يراوح أغلبُ ما في صفحاته من أسطر ما بين (١٤) و (١٥) سطراً، وربّما نقص بعضها عن ذلك، ونسخة المجموع من خزائن مكتبة فاتح المحفوظة في المكتبة السليمانية برقم (٥٣٠٠). وفيما يلي أسماء ما تضمّنه المجموع من رسائل حسبما وردت فيه، وإلى جانب كل منها رقم الصفحة التي تبدأ بها الرسالة:

- رسالة أبي الحسن بن طباطبا في استخراج المعمى ٤٨/أ
- زُبَد فصول ابن دنينير في حلّ التراجم ٥٤/أ
- مقاصد الفصول المترجمة عن حلّ الترجمة ٥٥/أ
- من كتاب الجرهمي ٨٠/أ
- من كتاب البيان والتبيين لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان ابن وهب الكاتب ٨٢/أ
- من رسالة أبي الحسن محمد بن الحسن الجرهمي ٨٣/أ
- من كتاب العين ٨٧/أ
- المؤلّف للملك الأشرف في حلّ التراجم ٨٩/أ

ـ المقالة الأولى في جمل القول على حلّ التراجم المسهلة المستحسنة إلى الخروج

٠٩/أ

ـ المقالة الثانية في استنباط التراجم العويصة الغامضة المشددة وفي كيفية وضعها

١٥/أ

ـ رسالة في استخراج المعمى من الشعر مجردة من كتاب أدب الشعراء

١١٩/ب

وفيما يلي نموذج مصور من رسالة ابن عدلان:

مصورة الصفحة ما قبل الأخيرة من رسالة ابن عدلان.

مصورة الصفحة الأخيرة من رسالة ابن عدلان.

٣ ـ رسالة ابن الدريهم

مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز

نسخة مصورة عن أصل يقع ضمن مجموع ذي قطع صغير، يشتمل على رسائل مختلفة في بعض العلوم الخفية كالزايرجة والجَفْر والأوفاق والرّمل والطلاسم وغيرها، وهو مكتوب بخط نسخيّ جميل، تحتفظ به مكتبة أسعد أفندي المودعة في خزائن المكتبة السليمانية في اصطنبول برقم (٣٥٥٨). وقد حوت الورقة الأولى منه فهرساً بخط الناسخ تضمنَ أسماء الرسائل، كُتب اسمُ كلٍّ منها في سطرين، وأُثبتَ تحته رقمُ الورقة التي تبدأ بها الرسالة١٢١.

وقد جاءت رسالةُ ابن الدريهم في هذا المجموع تامة شغلت منه ما بين ٤٧/ب و٥٩/أ وفي ختمها صرّح ناسخها باسمه وبتاريخ نسخها، قال: "أنهاه كتابةً الفقير صدقي مصطفى بن صالح في نهار الجمعة الغرّاء عاشر شهر رمضان المبارك من شهور سنة تسعٍ وأربعينَ ومئةٍ بعد الألف من هجرة مَنْ [له] العزُّ والشرفُ صلّى الله عليه وعلى آله أجمعين. م ".

وفيما يلي نموذج مصور منها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ابتدأ بخلق القلم، وصرّفه في اللوح فرقم، وقسم الألسنة
واللغات المختلفات بين الأمم، العالم فلا يخفى عليه سر كتم، نحمده
على ما كشف لنا من مكنون علمه وتوفيقنا خير من النعم، ونشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من إليها التجأ وبها اعتصم، ونشهد
أن محمدا عبده ورسوله إلى العرب والعجم، ونجيه المقرب حتى سمع صريف
تصريف الأقلام بما حكم وختم، جعله أولا في الفضائل وبه لما
ختم، فهدانا لأوضح اللقم، وبين لنا مشكلات الحكم، صلى الله عليه وعلى
آله وأصحابه الذين كل منهم في الهداية علم، صلاة دائمة ما نثر كلام
ونظم وبعد فإني كنت صنفت كتابا في وضع التراجم وحلها سميته
إيضاح المبهم في حل المترجم، ثم اختصرته ومرت عليه برهة
من الدهر ولم يكن الآن عندي نسخة وسألني من يجب امتثال
ولا سبيل إلى رده، فنظمت هذا القدر الكافي مما علق ذهني من قواعد
هذا الفن وضوابطه وجعلت هذه الحاشية عليه موضحة لنظمه
مؤذنة إن شاء الله تعالى بفهمه، وسميته مفتاح الكنوز في إيضاح
المرموز والله تعالى أسأل الإعانة والتوفيق وهو حسبنا ونعم
الوكيل ... أن حل المترجم وإيضاح المعمى من أجل الفوائد التي
لا يستغنى عنه في أوقات تدعو الضرورة إليها وينتفع به في ...

مصوّرة الصفحة الأولى من رسالة ابن الدُّريهم .

٤ ـ مخطوط "المقالتين"

يقع مخطوط المقالتين ضمن "مجموع التعمية" المذكور آنفاً ـ في وصف رسالة ابن عدلان ـ وهما تشغلان من المجموع إحدى عشرة ورقة (١٠٨/ب -١١٨/ب) تقع الأولى في الأوراق (١٠٨/ب -١١٥/ب) وتقع الثانية في الأوراق (١١٥/ب -١١٨/ب) وفيما يلي نماذج مصورة من هاتين المقالتين:

صورة الورقة الأولى من المقالة الأولى

٢٣٦

الى تجربة أما القول في المغالطات بها فإن أمكن أن يستدعيك
ملك او وزير ويرغب اليك في استنباط ترجمة وراغب اصحابه
وكانوا يتعاطون تعمية بأسرار الدولة ورجوا باستخراجها الذكر
وحسن المكافأة عاجلًا ما جلًا ومن [illegible] حاجتهم او
ما يشاكلها فتأمل [illegible] بين [illegible]
بينهما [illegible] من المقصود وبلغ [illegible] في الرأي إن شاء الله

المقالة الثانية

في اسقاط التراجم العويصة التامة المسندة وتركيبه
وشرحها حتى لا تحمل وذكر ما يكون عليه مبنى الفطنة وما لا
يكون جملة الا ايضاحًا ما المشرح وذكر ما يصعب استخراجه
حتى لا يصعب ومقدار ما [illegible] وذكر ما لا يخرج لاحد
اصلا [illegible] من الوضعين [illegible] الارتباط [illegible]
[illegible] استخراج التراجم السهلة واستنباط استخراج

١١٧

التعمية قبيل الى المواضع المفردة والزوايا المكشوفة ما عنه
[illegible] التكرار [illegible]
[illegible] ان المتصل [illegible] ولا [illegible]
من [illegible] اكثر [illegible] فتطلبه لان
[illegible] ان [illegible] وقع من [illegible] وتطلب [illegible]
[illegible] في الاوقات [illegible]
ترجيها الكافي عليها التجارب الكثيرة والفكر [illegible]
الاول [illegible] زمان ثم [illegible] تحصيلها
[illegible] او لا [illegible]
الذي [illegible] ولكن ذلك على [illegible]
[illegible] الاشكال [illegible] عليه او
[illegible] الاول [illegible]
[illegible] من [illegible]
[illegible] ما [illegible] الا [illegible]

صورة الورقة الأولى من المقالة الثانية ويبدو فيها نهاية المقالة الأولى

٥ ـ مخطوط ابن وهب

تقع رسالة ابن وهب ضمن مجموع التعمية نفسه الذي تقدم ذكره، وهي صغيرة لا تتجاوز ثلاث صفحات؛ إذ تشغل من المجموع صفحتي الورقة (٨٢) ووجه الورقة (٨٣) وفيما يلي نموذج مصور منها:

صورة الورقة الأولى من رسالة ابن وهب الكاتب

٦ ـ مخطوط ابن دنينير

يشغل كتاب ابن دنينير أكبر حجم في مجموع رسائل التعمية ؛ إذ يقع ضمن الورقات ٥٤/أ -٨٠/أ، وقد حملت الورقة الأولى منه عنوان "زبد فصول ابن دنينير في حل التراجم" وجاء تحتها أبيات مختلفة عن القوافي وما إليها، أما الورقة الثانية فقد حملت عنوان "مقاصد الفصول المترجمة عن حل الترجمة". وفيما يلي نموذج مصور منه :

زبد فصول ابن دنينير في حل التراجم

صورة الورقة الأولى من كتاب ابن دنينير

٧ ـ وصف مخطوط ابن طباطبا

مخطوط ابن طباطبا هو الأول ترتيباً بين رسائل مجموع التعمية، ويحتل منه نحواً من خمس ورقات، إذ يشغل الأوراق ٤٨/أ -٥٣/أ. وقد جاء عنوان الرسالة واسم مؤلفها على الوجه الأول من المخطوط ونصه: "رسالة أبي الحسن بن طباطبا العلوي في استخراج المعمى "وكتب تحته "بسم الله الرحمن الرحيم ". وفيما يلي نموذج مصور منه:

صورة الورقة الأولى من رسالة ابن طباطبا

٨ ـ وصف مخطوط استخراج المعمّى من الشعر

هذا المخطوط هو آخر رسائل المجموع ترتيباً، وهو يحتل منه نحواً من خمس عشرة ورقة؛ إذ يشغل الورقات ١١٩/ب -١٣٣/أ وهو لا يحمل عنواناً مستقلاً، وإنما يبدأ بالبسملة، ويتبعها بمقدمة يليها عنوان في وسط الصفحة نصه: "معنى قولهم فلان يستخرج المعمى من الشعر "ويتابع بعد ذلك الكلام. وفيما يلي نموذج مصور منه:

صورة الورقة الأولى من مخطوط استخراج المعمى من الشعر

٩ ـ وصف مخطوطي الجرهمي

يقع مخطوطا الجرهمي في مجموع التعمية المذكور، ولكنهما لم يأتيا متتابعين وإنما فصلتْ بينهما رسالة ابن وهب الكاتب.

أما المخطوط الأول فحمل عنوان: "من كتاب الجرهمي "وشغل ثلاث صفحات (٨٠/ب ـ ٨١/ب).

وأما المخطوط الثاني فحمل عنوان: "من رسالة أبي الحسن محمد بن الحسن الجرهمي "وشغل نحواً من أربع ورقات (٨٣/أ ـ ٨٦/ب) وفيما يلي نماذج مصورة من كلا المخطوطين:

صورة الورقة الأولى من مخطوط الجرهمي الأول

١٦٢

١٦٣

صورة الورقة الأولى من مخطوط الجرهمي الثاني

الخاتمة

لا بد لي في ختام هذا البحث من كلمة أقول فيها: إننا معشر العرب قد نمنا حتى عن مفاخرنا، وطال سباتنا حتى لقد نسينا أننا قدّمنا للإنسانية حضارة شامخة أفادت منها الكثير ومازالت تفيد، بل لقد بتنا نشك في كثير مما قدمنا ونقدم الريبة والظن في كثير مما ينسب إلينا، ولا غرو فما آل أمرنا إليه لا يشي بشيء مما كنا عليه.

ولكن الله جلت حكمته يريد أن يحقّ الحقّ، فيقيض لهذه الأمة كل حين من يوقظها من سباتها، ويعيدها إلى رشدها ويبعث أعلامها من مراقدهم

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

ولعل المؤرخ الأستاذ دافيد كهن واحد من هؤلاء النَّصَفَة الذين بعثوا مجد هذه الأمة في هذا العلم (علم التعمية واستخراج المعمى) فأسدوا إليها يداً بيضاء لا يمكن أن تنسى. لذا كان حقاً على أمتنا أن تشكر هذه اليد وأن ترفع الصوت بالثناء على صاحبها والعرفان لعظيم جهده وكبير فضله. فاسمحوا لي أيها الأخوة المحتفلون باسم فريق العمل الذي أنجز هذا العمل، وباسمكم جميعاً، بل باسم هذه الأمة أن أحييه أجمل تحية وأشكره جزيل الشكر.

ولعل من تمام أياديه علينا تلك الرسالة التي أتحفنا بها لدى اطلاعه على الجزء الأول من عملنا عام ١٩٨٩. وسأثبت صورة عنها فيما يلي مشفوعة بترجمتها:

DAVID KAHN • 120 Wooleys Lane • Great Neck • New York 11023 • U.S.A. • (516) 487-7181



7 March 1989

Dr. A. M. Mansour
Scientific Studies and Research Center
P.O. Box 4470
Damascus, Syria

ملحق
صورة عن رسالة البروفسور دافيد كهن كبير مؤرخي التعمية

Dear Dr. Mansour,

Thank you so much indeed for your very great kindness in sending me a copy of Dr. Mrayati's book, ORIGINS OF ARAB CRYPTOGRAPHY AND CRYPTANALYSIS. I would be glad if you would tell him for me that from the English abstract, this appears to be a major contribution to the history of cryptology, and one for which not only I but all historians of the subject, and all those interested in it, will be extremely grateful. We shall always be in his debt for it* -- and in the debt, as well, ~~sa~~ of the Scientific Studies and Research Center. I look forward with the greatest anticipation to the English edition.

If it is not too late, perhaps they may wish to inform the printer that my name has the H and the A transposed in the Abstract: it is Kahn, not Khan. But you got it right!

Again my thanks. And may I say that if you or any of the author-editors come to New York, I would be honored to meet them.

Very truly yours,
David Kahn

* because it is a major contribution, as I said.

الجمهورية العربية السورية
مركز الدراسات والبحوث العلمية
مديرية التوثيق والإعلام العلمي

الرقم .....

ترجمة رسالة البروفسور دافيد كهن

عزيزنا الدكتور منصور :

أشكر لكم جزيل الشكر تفضلكم بإرسال نسخة لي من كتاب الدكتور مرايات « أصول علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب » . هلا تكرمتم نيابة عني بإعلامه أنني أرى من المستخلص الإنجليزي أن الكتاب إسهام عظيم في تاريخ علم التعمية ، ومدعاة كبرى لامتناني الشخصي وتقدير سائر المهتمين بهذا المبحث والمؤرخين له . وسنكون مدينين دوماً بالشكر له* ولمركز الدراسات والبحوث العلمية كذلك . وأتطلع بفارغ الصبر إلى تلقي الطبعة الإنجليزية الكاملة من هذا العمل .

لعل الوقت لم يفت بعد للفت النظر لاستدراك خطأ ورد في رسم اسمي حيث لاحظت أن حرفي H و A منه مرسومان " بطريقة القلب " ، حيث وقع كل منهما موقع الصواب للآخر في المستخلص : فاسمي هو Kahn وليس Khan .

أشكركم ثانية . وإذا ما أتيحت لكم أو لأي من المؤلفين المحققين فرصة للحضور إلى نيويورك فاسمحوا لي أن أتشرف بلقائكم .

المخلص

ديفيد كهن

* لأن العمل إسهام كبير كما قلت .

٧/ ٢/ ١٩٨٩



العربية...

لغة العلم

العربية لغة العلم

يحلو لبعض المثقفين في عصر العولمة أن يجردوا العربية من أي فضيلة أو مكرمة، وأن يلصقوا بها كل نقيصة أو مذمة، غافلين أو متغافلين عما تتمتع به العربية من مزايا وخصائص، وناسين أو متناسين أنها كانت لغة العلم والحضارة، لا يكاد فن من فنونه يكتب إلا بها، ولا يتعلم إلا بواسطتها، ولا ينشر إلا تحت لوائها.

ويقيني أن أمثال هؤلاء إنما أُتي إما من انبهار بما حققته الإنجليزية من تقدم وانتشار وقدرة على التعبير عن العلوم والفنون والشؤون الحضارية. وإما من إحباط بما تردَّتْ إليه العربية بل أصحابها من تأخر وانحسار وعجز عن التعبير عن متطلبات الحضارة الحديثة في العلم والفن وما إليهما.

وبادئَ بَدْءٍ أقول لهؤلاء وأمثالهم:

فيا قائلاً هذا بدون تحقّقٍ ... كأنك لا تدري ولا أنت تعلم

فإن كنتَ لاتدري فتلك مصيبة ... وإن كنتَ تدري فالمصيبةأعظمُ

إي و ربي إنها لمصيبة حقاً ألا يعلم هؤلاء أن العربية من اللغات القلائل الثابتة الأصول المتينة البنيان الممتدة العمر، يفهمُ الآخِرُ فيها ما كتب الأوَّلُ، وتمخر نصوصها عبر العصور والقرون، ويتواصل أبناؤها عبر الزمان والمكان، فما كتبه امرؤ القيس، والنابغة، وعنترة في أقدم عصورها، حاضر ماثل اليوم يتغنى به الشعراء والكتاب، بل يتعلمه التلاميذ والطلاب، ويسير في الناس مسير الأمثال. على حين لا يفهم الإنجليزي اليوم ما كتبه شكسبير وأمثاله قبل بضع مئات من السنين! فأين من أين؟ بل أين من لا أين؟؟!.

وإنها لمصيبة حقاً أن يتعامى هؤلاء عن أن هذه العربية حملت لواء العلم زهاء عشرة قرون بعد أن جبيت إليها ثمار العلوم والفنون من كل لغات الدنيا في حركة للترجمة والتعريب لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، حتى لقد بلغت مكافأة ترجمة الكتاب وزنه ذهباً، ووزن الكتاب ما هو آنذاك! ثم ماذا؟! لقد وعت العربية تلك العلوم، وتمثلت تلك الفنون، وقدمت للبشرية جمعاء خير حضارة أخرجت للناس بلسان عربي مبين.

يقول د. حسين نصار: "إن أكبر تحدٍّ واجهته العربية كان عندما أخرجها الإسلام من جاهلية غنية كل الغنى في الإبداع الأدبي فقيرة كل الفقر إلى حد الإملاق في الإنتاج العلمي، ثم ألقى بها في القرنين الثاني والثالث الهجريين في بحر زاخر من الحضارات والعلوم والفلسفات والفنون وكل صنوف المعرفة التي ابتكرتها الأمم المتاخمة للجزيرة العربية كالفرس والروم والسريان والمصريين، والأمم البعيدة عنها كالهنود والصينيين والأتراك والبربروشعوب أسبانية. ولكن العربية صمدت لهذا التحدي بفضل ما بثه الإسلام في العرب من رغبة في المعرفة وسعي في طلبها وطموح وعزم وتخطيط وتنفيذ وتعاون مع غير العرب من أبناء الشعوب العارفة باللغات الأجنبية واللغة العربية فلم يمض إلا وقت غير طويل حتى نقلت العربية كل ما وجدت عند هذه الأمم إليها، فاستطاع أبناؤها بعدُ أن يتمثلوها فهماً، ولم يمض كبير وقت، حتى شاركوا في الإنتاج والابتكار. فصار ما كتبه هؤلاء المفكرون والعلماء منذ القرن الثالث نبراساً استضاءت به شعوب العالم القديم. لايستطيع أن ينكر ذلك إلا منكر لعقله، منكر لشمس النهار الصحو، منكر لتاريخ الإنسان وتطوره الحضاري."(١).

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وهكذا انعتقت العربية من إسارها، و انطلق المارد من القمقم، لتشهد هذه اللغة حركة من الترجمة ما شهدتها لغة، فقد انطلق أهلوها يجوبون البلاد، و يتخيرون منها ما ألّفه الأوائل في علومهم المختلفة بشتى لغات المعمورة الفارسية و الهندية و اليونانية والرومانية والنبطية... و غيرها لتنقل إلى العربية، فإذا بالعربية تستوعب كل علوم الأوائل على اختلاف لغاتهم، حتى لقد وسم ذلك العصر بسمة هذه الحركة من الترجمة فسمي عصر الترجمة الذهبي، وأقيمت للترجمة مؤسسات وبيوتات اشتهر منها بيت الحكمة، و تجاوزت معرفتهم باللغات حدود اللغات السائدة إلى اللغات البائدة، التي لم يبق منها إلا حروفها و باتت

---

(١) من كلمته التي ألقاها بمناسبة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية.مجلة تراثيات، العدد الخامس ذو الحجة ١٤٢٥ - يناير ٢٠٠٥.

أبجديتها تستعمل في تعمية بعض العلوم المضنون بها على غير أهلها ، ومن هنا أن نشأ علم التعمية و استخراج المعمى (الشفرة و كسر الشفرة) الذي أخرجنا فيه سفرين اثنين في هذا المجمع المبارك ، ومن هنا أيضاً أن ألفت كتب مفردة كشفت اللثام عن أبجديات اللغات القديمة وأقلام الأقوام المندثرة ككتاب شوق المستها م في معرفة رموز الأقلام لابن وحشية النبطي انذي نعمل على إخراجه ليكون الجزء الثالث من موسوعة علم التعمية و استخرج المعمى عند العرب. إن شاء المولى سبحانه.

و إن تعجب فعجب أن يزعم هؤلاء المبهورون أن حضارتنا العلمية إنما قامت على أكتاف غير العرب. وأن علماءنا المسلمين كانوا غالباً من الفرس والروم والموالي الذين دخلوا في دين الله أفواجاً وهم ينتمون إلى أصول مختلفة وألسنة شتى ! بل إن سيبويه شيخ النحو والنحاة كان فارسياً !.

وأقول: وما يَضيرهم ذلك ؟ بل ما يَضيرنا أو يَضير العربية ؟ ألم يصنف هؤلاء جمعياً كتبهم بالعربية ؟! أولم يفكروا بالعربية ؟! أولم يشعروا ويتحسسوا بالعربية ؟!أولم يبكوا ويضحكوا بالعربية؟! أولم تظلهم جميعاً راية العربية وهي لغة قرآنهم ومنبع إلهامهم ومصدر قوتهم ؟! أخبرني بربك عن واحد من هؤلاء الأعلام بدءاً من سيبويه والبخاري ومروراً بالبيروني والفارابي وانتهاء بالزمخشري والخفاجي ألف بغير العربية ! أو أبدع بغير العربية !أو قامت له قائمة بغير العربية !أو دان لغير العربية.

بل استمع معي إلى سيد من سادتهم وعلم من أعلامهم وهو الإمام الزمخشري يقول في مستهل كتابه المفصل : "أحمد الله على أن جعلني من علماء العربية ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبيَّة ، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز... ولعل الذين يغضّون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ، لكن في عربه ، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج و زيغاً عن سواء المنهج"ثم يقول موضحاً أهمية العربية ودورها في كتابة كل العلوم : "والذي يُقضى منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم ، وفرط

جورهم واعتسافهم، وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بيّن لا يدفع، ومكشوف لا يتقنع. ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنياً على علم الإعراب، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه، والأخفش، والكسائي، والفراء، وغيرهم من النحويين، البصريين والكوفيين، والاستظهار في مآخذ النصوص بأقاويلهم، والتشبث بأهداب تفسيرهم وتأويلهم. وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم، وتدريسهم ومناظرتهم. وبه تقطُر في القراطيس أقلامُهم، وبه تسطُر الصكوكَ والسجلات حكامُهم.".

ثم يفحم هؤلاء الكارهين للعربية المدعين أنهم يستطيعون الاستغناء عنها بقوله: "فهم ملتبسون بالعربية أيةً سلكوا، غير منفكين منها أينما وجهوا، كَلٌّ عليها حيثما سيَّروا، ثم إنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها ويدفعون خَصْلَها، ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها، وينهون عن تعلّمها وتعليمها، و يمزقون أديمها، ويمضغون لحمها، فهم في ذلك على المثل السائر: (الشعير يُؤدَمُ ويُذمُّ).".[1].

والمصيبة الأعظم بل العظمى أن يتعامى هؤلاء، وهم أبناء ديننا وجلدتنا، عن أن الله جلت حكمته شرف العربية بأن جعل كلامه المنزل على نبيه المرسل صلى الله عليه وآله وسلم بها فقال جل شأنه: (بلسان عربي مبين) [الشعراء١٩٥] وقال عز وعلا: (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)[يوسف٢]

ثم تحدى الخلائق من إنس ومن جن بأن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال سبحانه: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً).[الإسراء٨٨]

فإذا كان الله سبحانه قد اصطفى هذه اللغة من بين سائر اللغات، وتخير هذا اللسان من بين سائر الألسنة، فكيف غاب عن هؤلاء أن في هذا اللسان سراً ؟ وأن في هذه اللغة مزيّة.

---

(١) المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري ص ٣٠.

وإن كان فهمهم قاصراً عن إدراك ذلك السر وهذه المزيّة أفلا يكلون ذلك إلى خالقهم الذي جعل اختلاف اللغات آية من آياته: ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالِمين ﴾ [الروم ٢٢]. و إذا كانوا عاجزين عن استبانة أوجه الجمال في العربية، وأسرار البلاغة في هذا اللسان، ودلائل الإعجاز في هذا البيان! أفلا ردوا ذلك إلى العالمين به، المدركين لأبعاده، المبصرين ما يشتمل عليه من خصائص وما ينطوي عليه من مزايا ؟!!

﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [النساء٨٣]

وإذا قعد بهم إدراكهم عن كل ذلك ،وارتد إليهم طرفهم مكابرة وعناداً، فليس لي إلا أن أقول لهم: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾؟ [محمد٢٤]

والأنكى من ذلك كله أن يجرد هؤلاء المتعالمون العرب من كل مكرمة، و أن ينظروا إلى ما صارت إليه الأمة من هوان وتشتت وتقهقر فيزعموا أن هذا شأنها أبداً، وأنها لم تعرف العزَّ في يوم من الأيام، وأنها لولا الإسلام لم تكن شيئاً مذكوراً، ناسين أو متناسين أن العرب هم ظئر الإسلام ولبّه، وأن الإسلام ما قرن بأمة من الأمم كاقترانه بأمة العرب، وغافلين أو متغافلين عن أن محبة العرب من محبة هذا الدين، والعناية بلغتهم من العناية بشعائر هذا الدين، ولله در الإمام الثعالبي النيسابوري حين قدم لكتابه الرائع فقه اللغة وسر العربية بقوله: "أما بعد حمد الله على آلائه، والصلاة والسلام على محمد وآله، فإن مَنْ أَحَبَّ اللهَ أَحَبَّ رسولَهُ المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن أحب النبي العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها. ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة "[1].

---

(١) فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ص ٥.

وثمة حقيقة لغوية يؤيدها الواقع ويؤكدها التاريخ، وهي ارتباط اللغة - أي لغة - بحضارة أصحابها. فاللغة والحضارة يتناسبان طرداً وهذا يعني أن اللغة ظاهرة اجتماعية تعيش مع الإنسان جنباً إلى جنب تضعف بضعفه، وتنمو وتزدهر بنموه وازدهاره.

وبهذا المعنى جاء قولهم "لسانك أنت "وعبّر عن ذلك شاعرنا العربي القديم بقوله:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

والمعنى العميق لهذا الكلام أن لسان الفتى هو كل الفتى لأن اللسان لا ينزع من فراغ، وإنما يستمد مادته من العقل المعبر عنه في البيت بالفؤاد. فاللغة لا تعيش وحدها بحال، بل لا بد لها من مجتمع، ولا حياة لمجتمع بدون لغة بينها وبين أصحابها رباط قوي دائم وتفاعل مستمر. وبقدر ما يكون هذا التفاعل كيفاً وكماً وقوة وضعفاً يكون حال القبيلين معاً[١].

ومن تأمل في تاريخ العربية وقف على حقيقة ذلك، إذا لم تكن هذه اللغة في غابر أيامها تصلح إلا للشعر و الأدب، وكانت مزويّة في بداوتها وجزيرتها، فلما جاء الإسلام، وقامت حضارته، أصبحت العربية لغة العلم والمعرفة، وخرجت من حدودها الضيقة لتعمّ الدنيا بأسرها، وأصبح العلم لا ينال إلا بها، وغدت المعرفة لا تحصل إلا بإتقانها، بل غدا تعلمها في نظر الشرع واجباً من واجبات المسلم لأن ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب، وتعلم القرآن وحفظه وفهمه، وفهم كثير من أبواب هذا الدين مرهون بإتقان هذه اللغة، فلا مندوحة إذن عن إتقانها. و هذا عمر الفاروق رضي الله عنه يكتب إلى أبي موسى الأشعري: "تعلموا العربية فإنها من دينكم. و أعربوا القرآن فإنه عربي"[٢].

وقد يقول قائل: ما لنا وللتاريخ؟! دعونا من التغني بالماضي الغابر وتعالوا معنا إلى الواقع الحاضر، نحن في عصر التطور فأين العربية من التطور؟ ونحن في عصر الحاسوب فأين العربية من الحاسوب؟

---

(١) القول القوام فيما يثار حول اللغة العربية من كلام للدكتور كمال بشر. الأهرام ٦/١٢/٢٠٠٥.

(٢) إعراب القراءات لابن خالويه ١/٢٧.

و الجواب عن هذا ذو شعبتين:

الأولى تلك التجربة الناجحة التي خاضتها و ما تزال تخوضها الجامعات السورية بتعريب التعليم فيها على اختلاف الاختصاصات إذ يعلم الطب و الهندسة و الفيزياء و الكيمياء.. وغيرها من العلوم و الفنون بالعربية، و يتلقى الطلبة علومهم بلغتهم الأم فلا ينشغلون عن تحصيل العلم بفك رموز اللغة، و يوفرون مشقة فهم اللغة ليبذلوها في فهم المادة العلمية وإدراكها إدراكاً حقيقياً يؤهلهم للإبداع فيها و التجديد و الابتكار في حقولها المختلفة. و قد كتب الكثير عن هذه التجربة العظيمة و حفلت مجلة المجمع ببحوث قيمة تناولت بعضاً من جوانبها أذكر منها مقالات الأستاذ الدكتور عبد الله واثق شهيد أمين المجمع في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، و مقالات الأستاذ الدكتور محمد هيثم الخياط عضو المجمع الذي جمعها في كتابه الماتع: "في سبيل العربية". و ختمها بمقولة رائعة لأديب العربية الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات يقول فيها: "هذا العلم الذي يسخّر السماوات و الأرض لهذا الإنسان الضعيف، ويذلّل القطعان الملايين للراعي الفرد، سيبقى غريباً عنا ما لم ننقله إلى مِلْكنا بالتعريب، و نعممه في شعبنا بالنشر، ولا يمكن أن يصلنا به أو يدنينا منه كثرة المدارس ولا وفرة الطلاب، فإن من المحال أن ننقل الأمة كلها إلى العلم عن طريق المدرسة، و لكن من الممكن أن ننقل العلم كله إلى الأمة عن طريق الترجمة "(١).

والثانية تجربة متواضعة و لكنها غنية ثرية خضتها بنفسي على امتداد عشرين عاماً في مركز الدراسات و البحوث العلمية بدمشق حيث سنى الله لي أن أنخرط في فريق عمل متكامل ضم أناساً من اختصاصاتٍ شتى في العربية والرياضيات و الحاسوب والإلكترونيات. كان من أولى مهامه معالجة اللغة العربية بالحاسوب، وقد آتى العمل أكله على خير وجه بحمد الله إذ أنجزنا عدة مشاريع علميةفي هذا المجال، أهمها: النظام الصرفي العربي بالحاسوب، و نظام تحويل الكلام المكتوب إلى مقروء، وقواعد تعليم العربية بالحاسوب ، وهي ترمي إلى أهداف عظيمة

(١) في سبيل العربية، د. محمد هيثم الخياط ص١٨٤

وغايات بعيدة، على رأسها الترجمة الآلية من العربية وإليها، واكتشاف الأخطاء اللغوية في النصوص وتصحيحها، وتعرف الكلام وتركيبه، والقراءة الآلية للنصوص المكتوبة، والكتابة الآلية للنصوص المنطوقة، والتحاور مع الآلة باللغة الطبيعية، والفهرسة الآليةللنصوص، وضغط النصوص واسترجاعها، وشكل النصوص غير المشكولة أو المشكولة جزئياً... وغير ذلك[٢].

ولابد لي هنا أن أشير إلى ظاهرتين في العربية تبدّتا لي واضحتين جليّتين من خلال عملي هذا، وأنا أزعم أنهما ميزتان للعربية لا تكادان توجدان في لغة من لغات العالم.

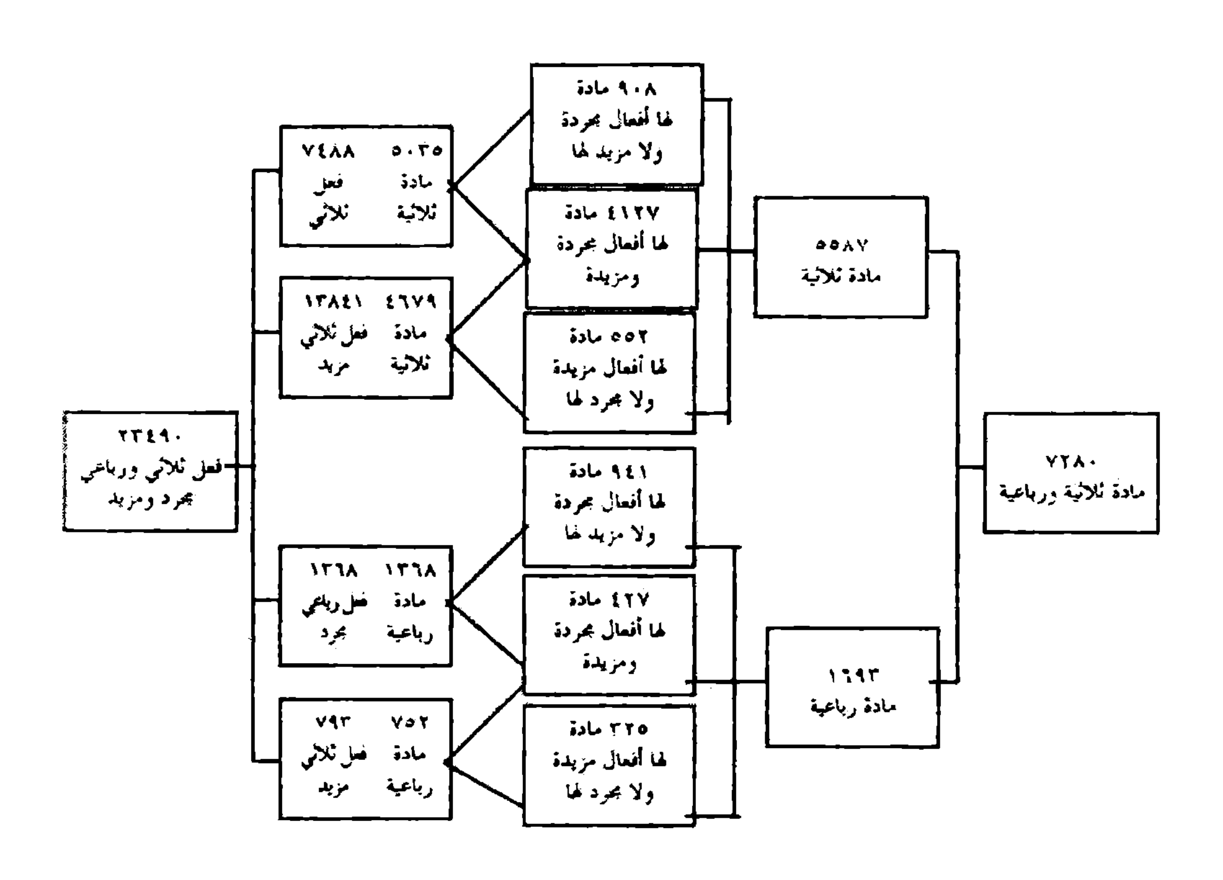
أما الميزة الأولى فهي الاشتقاق القياسي في العربية، وأعني بالاشتقاق القياسي قابلية العربية لتوليد عشرات الآلاف من المشتقات القياسية اعتماداً على عدد محدود من الجذور، وقد بلوت ذلك بنفسي إذ اعتمد النظام الصرفي الحاسوبي الذي شاركت فيه على نحو سبعة آلاف جذر عربي أدخِلت إلى الحاسوب ووَضع المبرمجون القواعد الثابتة التي تشتق بها المشتقات وتتصرف بها الأفعال وتتولد بها الكلمات، فإذا بالحاسوب يولد آلاف الكلمات بل مئات الآلاف اعتماداً على هذا العدد المحدود من الجذور، ويتم التوليد آلياً فما هو إلاّ أن يدخل المستثمر الجذر الذي يريد توليده حتى يتولى الحاسوب أمر التوليد والاشتقاق والتصريف ويحصل المرء على مبتغاه، فأيّ قياسية هذه وأي مزيّة ؟!.

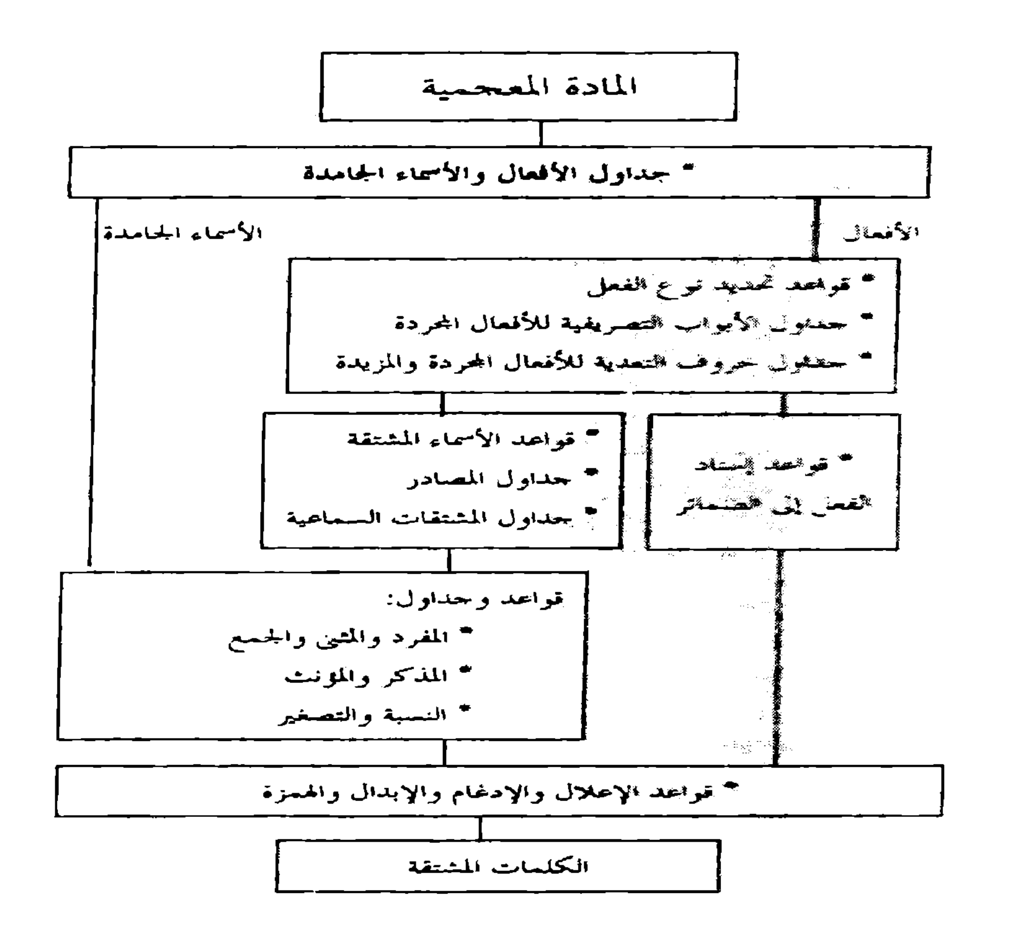
ولكي أوضح ذلك سأكتفي بعرض جدولين مقبوسين من بحثنا "أسلوب معالجة اللغة العربية في المعلوماتية (الكلمة ـ الجملة)" يمثل الأول جذور المعجم الحاسوبي المعتمد في نظامنا الصرفي الاشتقاقي وما يتفرع عنها من مواد ثلاثية ورباعية وما يتولد عن كل منهما من أفعال مجردة ومزيدة.

ويمثل الثاني مراحل اشتقاق الكلمة العربية انطلاقاً من مادتها المعجية أو جذرها :

---

(٢) بسطت الكلام على هذا في فصل كامل كتبته بمشاركة الأستاذ مروان البواب بعنوان "أسلوب معالجة اللغة العربية في المعلوماتية (الكلمة - الجملة) "نشر في كتاب : "استخدام اللغة العربية في المعلوماتية"من منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس ١٩٩٦م.


٢٣٤٩٠ فعل ثلاثي ورباعي مجرد ومزيد
٥٠٣٥ مادة ثلاثية
٧٤٨٨ فعل ثلاثي
٤٦٧٩ مادة ثلاثية
١٣٨٤١ فعل ثلاثي مزيد
١٣٦٨ مادة رباعية
١٣٦٨ فعل رباعي مجرد
٧٥٢ مادة رباعية
٧٩٣ فعل ثلاثي مزيد
٩٠٨ مادة لها أفعال مجردة ولا مزيد لها
٤١٢٧ مادة لها أفعال مجردة ومزيدة
٥٥٢ مادة لها أفعال مزيدة ولا مجرد لها
٩٤١ مادة لها أفعال مجردة ولا مزيد لها
٤٢٧ مادة لها أفعال مجردة ومزيدة
٣٢٥ مادة لها أفعال مزيدة ولا مجرد لها
٥٥٨٧ مادة ثلاثية
١٦٩٣ مادة رباعية
٧٢٨٠ مادة ثلاثية ورباعية


المادة المعجمية
* جداول الأفعال والأسماء الجامدة
الأسماء الجامدة
الأفعال
* قواعد تحديد نوع الفعل
* جداول الأبواب التصريفية للأفعال المجردة
* جداول حروف التعدية للأفعال المجردة والمزيدة
* قواعد الأسماء المشتقة
* جداول المصادر
* جداول المشتقات السماعية
* قواعد إسناد الفعل إلى الضمائر
قواعد وجداول:
* المفرد والمثنى والجمع
* المذكر والمؤنث
* النسبة والتصغير
* قواعد الإعلال والإدغام والإبدال والهمزة
الكلمات المشتقة

وأما الميزة الأخرى فهي موافقة المنطوق للمكتوب في العربية، وبعبارة أخرى فالعربية تكتب كما تلفظ وتلفظ كما تكتب وفق قواعد صوتية معروفة لا يستثنى من ذلك سوى ألفاظ محدودة يخالف فيها اللفظ الكتابة مثل (لكن، وأولئك، وعمرو، وهذا....) ولذلك لم نحتج في نظام تحويل الكلام المكتوب إلى منطوق إلاّ إلى قائمة واحدة شذت فيها الألفاظ من قواعد النطق العربية، وأما قوام النظام فكان تلك القواعد الصوتية لنطق ألفاظ العربية من مثل (اللام القمرية واللام الشمسية، والتفخيم، والألف الفارقة..... إلخ) على حين احتاج الأمر في نظام مماثل للغة الإنجليزية إلى مئات القوائم التي تخالف فيها الكتابة عن النطق، ويخالف فيها النطق عن الكتابة، وكأن الأصل في النطق الشذوذ. آية ذلك أنك تحتاج إلى معرفة تهجئة الكلمة في كثير من كلمات الإنجليزية، فإما أن تتلقاها من أستاذ خبير، وإما أن تعود إلى المعجم الذي يرسم لك رموز التهجئة قبل أن يشرع ببيان معنى الكلمة، على حين لا يحتاج الأمر في العربية إلا إلى كتابة الكلمة مضبوطة بالشكل.

ليست اللغة إذن قاصرة، ولكننا نحن المقصرون، وليست اللغة ضعيفة، ولكننا نحن الضعاف، وليست اللغة إذن ميتة، ولكننا نحن النيام، فمتى.. متى نستفيق ؟!.

المراجع

❖ استخدام اللغة العربية في المعلوماتية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس ١٩٩٦م.

❖ إعراب القراءات السبع وعللها، ابن خالويه (٣٧٠ هـ)، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤١٣هـ -١٩٩٢ م.

❖ ديوان حافظ إبراهيم.

❖ شوق المستها م في معرفة رموز الأقلام لابن وحشية النبطي، مخطوط قيد التحقيق

❖ العربية والعلوم الحديثة، د. حسين نصار، مقال في مجلة تراثيات، العدد الخامس ذو الحجة ١٤٢٥ـ يناير٢٠٠٥

❖ علم التعمية و استخراج المعمى عند العرب (الشفرة و كسر الشفرة)، د.محمد مراياتي، د.محمد حسان الطيان، د.يحيى ميرعلم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الأول ١٩٨٧ـ الجزء الثاني ١٩٩٧.

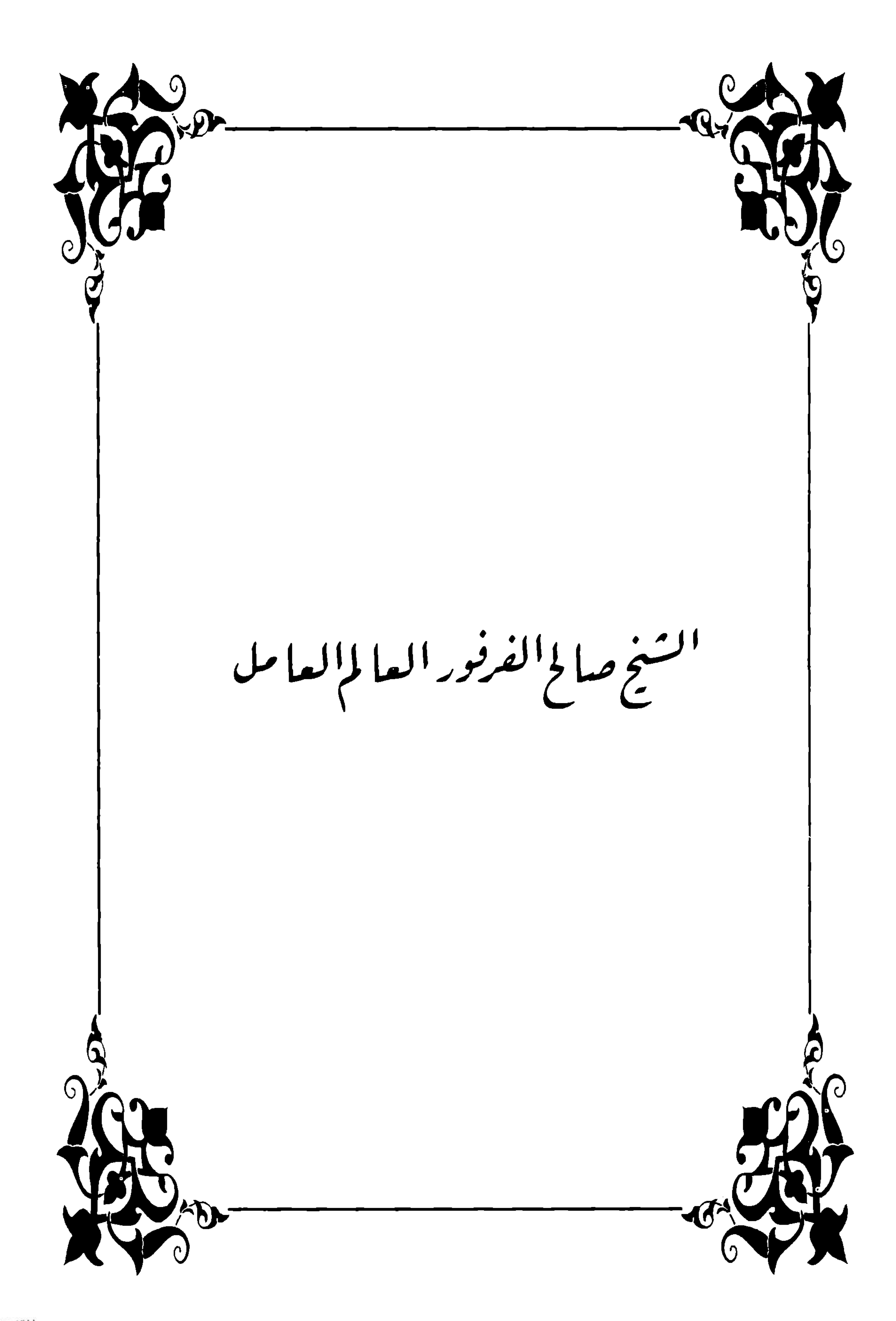
❖ فقه اللغة وسر العربية، للثعالبي، تحقيق د.فائز محمد ود. إميل يعقوب ، دار الكتاب العربي ط٢ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

❖ في سبيل العربية، د. محمد هيثم الخياط ، دار الوفاء - المنصورة، مصر، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م

❖ القول القوام فيما يثار حول اللغة العربية من كلام، مقال للدكتور كمال بشر.الأهرام ٢٠٠٥/١٢/٦.

❖ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.

❖ المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري.



الشيخ صالح الفرفور العالم العامل

الشيخ صالح الفرفور ... العالم العامل❖

إذا أردت أن تنظر إلى العِلم يكسوه إهابٌ من عَمَل، و إلى القول يتحول إلى جدٍّ وفعل، و إلى الحرف يغدو قصيدة من شعر، و إلى البيان يحول سحراً على اللسان، فانظر إلى شيخنا العلامة محمد صالح الفرفور رحمه الله وأعلى في الجنان مقامه.

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مَذِق الحديث يقولُ ما لا يفعلُ

ذلك الشيخ الجليل الذي بنى للعلم دولة، و أسس للخلق والتربية أمّة، و نفث في الأمة روح الدعوة، و ربّى أجيالاً من طلاب العلم أصبحوا منارات يهتدي بها، و علامات يعّول عليها، وجَذَوات يقبس منها

فكان بحق مثلاً حياً لكل من عاهد فوفى، وعمل فعمل، وجاهد فصدق.

ولعله والله حسيبه من النخبة الخيّرة التي وصفها جل وعلا بقوله في محكم كتابه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر و مابدّلوا تبديلاً﴾.

عاش ما عاش للعلم، وطلب العلم، ونشر العلم، و بناء صروح العلم، حتى استبدَّ العلم بكل اهتماماته، و غلب على جميع أمره، فما تكاد تراه إلا في مجلس علم حتى لو كان في بيته وبين ذويه و أهليه .

تفجّر العلم من عليا شمائله كما يسُحُّ بوسط الروض سلسالُ

ما أعلم رجلاً من رجالات الأمة فيما أدركت من زمن أخذ أهله بالعلم أخذاً حازماً لايلين كما أخذ الشيخ صالح أهله و بيته، بل حتى بناته، لم يغادر منهم أحداً إلا صنعَه على عينه عالماً متضلعاً من علوم الشرع و الأدب و العربية، وخطيباً مصقعاً لا تخبو له كلمة، ولا تلين له قناة، ومربياً داعيةً لا تأخذه في الله لومة لائم، بدءاً بأكبرهم أستاذنا وشيخنا الشيخ الدكتور محمد عبد اللطيف الفرفور ثم شيخنا الشيخ الدكتور حسام الفرفور، ومروراً بالشيخ

❖ نشرت في موقع معهد الفتح الإسلامي، وموقع رسالتي للداعية الشيخ محمد خير الطرشان.

الدكتور ولي الدين الفرفور والدكتور عبد الرحمن والدكتور نصر والدكتور عبد الله، وانتهاءً بأخينا الشيخ شهاب الدين الفرفور، دع عنك البنات الداعيات فاطمة ولطفية.

لقد كان حقاً من خير الناس لأهله، مؤتسياً برسول الله ﷺ حيث يقول: ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)).

وإذا لم تكن الخيرية بالعلم الذي رفع المولى سبحانه أصحابه فبم تكون ؟! ومن أولى الناس بالانتفاع بالعالم ؟! أليسوا أهله وذويه:

ومن ذا الذي ترجو الأباعد نفعَهُ ۞ إذا هو لم تصلُحْ عليه الأقاربُ

نشَّأهم جميعاً على حب العلم، وطلب انعلم، ومصاحبة أهل العلم. فترى الواحد منهم لا هم له إلا العلم، فهو كلِفٌ به، بل نهمٌ له، مغرمٌ فيه، لا يتغنى إلا به، ولا يتفاخر إلا بتحصيله، ولا يزهو إلا بمقدار ما اجتمع له منه.

وقد أخذوا عن والدهم خَلَّة لم تخطئ واحداً منهم، ألا وهي الثقة المطلقة بالله سبحانه ثم بما حصّلوا من علم، فهم لا يرون لأحد سبقاً عليهم في أي شأن من شؤون الحياة، لأن ماعندهم أغلى وأثمن، وأعلى و أبقى، و أعزُّ وأسمى. إنه العلم الذي قال في حقه الحسن البصري: ((لا إله إلا الله، كادت العلماء أن تكون أرباباً، كل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل يؤول)) [العقد الفريد ١/٢٩١]

وكأني بهم المثل الحي لقول المصطفى ﷺ: ((من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقّر ما عظمه الله)) [رواه النووي في آداب حملة القرآن]

أما ما صنعه الشيخ بتلامذته وبمن حوله فأمر عجب، حول فيه الرمم إلى قمم، والجبناء إلى شجعان، والجهال إلى علماء، فتخرج به أفذاذ العلماء والخطباء والدعاة والمربين، وصاروا من بعده ملء العين والبصر والسمع والأذن، وعلى رأسهم شيخنا ريحانة الشام العلامة المقرئ عبد الرزاق الحلبي أمتع الله به، والشيخ رمزي البزم رحمه الله، والشيخ العلامة النظّار أديب الكلاس حفظه الله، والشيخ إبراهيم اليعقوبي رحمه الله، ومحدث الشام

الشيخ عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله، والشيخ العلامة المحدث المحقق شعيب الأرناؤوط حفظه الله، والشيخ أحمد رمضان حفظه الله، والشيخ عبد الفتاح البزم حفظه الله. ناهيك عن أولاده الذين سبق ذكرهم.

على أن همة الشيخ لم تتوقف عند طلابه المقربين و أحبابه المنتجبين الذين كان يخصهم بأكثر من عشرة دروس في اليوم الواحد، ولا ينقطع درسه في عطلة ولا في عيد، بل إن من طريف ما أثر عنه أنه لم يتغيب عن درسه حتى في فجر عرسه!

وقد حدثني شيخنا الشيخ شعيب ـ وكان من خُلّص أصحابه لزمه نحواً من خمسة عشر عاماً وأخذ عنه من العلوم والآداب والفنون مالا يحصيه إلا المتخصصون فيها ـ أن الشيخ صالحاً كان إلى كل خصاله الحميدة وعلومه المستفيضة يمتاز بمزيتين رفيعتين هما الكرم والشجاعة، فقد كان سخياً على تلامذته وطلابه يتعهدهم بعطاياه مع ما يتخولهم به من موعظة وما يقرئهم من علوم، وكان شجاعاً جريئاً لا تأخذه في الله لومة لائم.

ولم يقتصر نفعه وفضله على هؤلاء المقربين، وإنما امتدَّ ليشمل طلبة العلم من كل أصقاع الدنيا، وذلك حين أسس معهدَ الفتح الإسلامي الذي أصبح مهوى الأفئدة وملاذ طلاب العلم يجدون فيه كل ما يحتاجون إليه من علم وسكن وطعام وتربية، وقد عم نفعه وشاع أمره حتى جاوز عددُ جنسيات الدارسين فيه المئةَ، يدرسون فيه جميع العلوم الشرعية من قرآن وتجويد وتفسير وحديث ومصطلح وأصول وتوحيد وفرائض وغيرها، كما يدرسون فيه العلوم العربية بأنواعها كالنحو والصرف والبلاغة والأدب والعروض والخطابة، بل إن مايدرسونه من بعض علوم العربية يفوق مايدرسه المتخصصون في أقسام اللغة العربية، وقد بلوت ذلك بنفسي؛ إذ درَّست بعض علوم العربية في جامعة دمشق وفي معهد الفتح وقسم التخصص فيه، فوجدت البون شاسعاً في المادة العلمية المقررة، وفي تلقّي الطلبة لها، ومقدرتهم على فهمها، وحسن استجابتهم لكثير مما يُطرح عليهم فيها. ويكفي أن أذكر أن ثمة كتابين جليلين في علوم العربية يدَّرسان في معهد الفتح، لا يعرفهما كثير من خريجي أقسام اللغة العربية في جامعاتنا، بَلْهَ أن يدرسوهما، وهما دلائل الإعجاز للجرجاني والاقتراح في أصول النحو للسيوطي.

وشيخنا الشيخ صالح ـ برَّد الله مضجعه ـ حجة في علوم شتّى وبدعٌ في فنون مختلفة، أتقن فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان حتى صار مرجعاً فيه، وحَذِق أصول الفقه حتى لكأنه شاطبي عصره، وولج باب التفسير بعد أن استتبَّت له علوم القرآن المختلفة فكان مدرسة تخرَّج بها الكثيرون ونهل منها العلماء والمتذوقون، حدثني غير واحد من تلامذته وأنجاله أنه كان يضع النص القرآني على السبورة ثم يلتفت إلى طلاب الحلقة يناقشهم فيه، فلا يدع فناً من فنون العربية واللغة والنحو والبلاغة والبيان والإعجاز والفقه والأصول إلا خاض فيه، حتى يدع النص وقد أوسعه دراسة وفهماً وتحليلاً وعلماً.

بل إنه تجاوز علوم الشرع واللغة إلى علوم الفلسفة والمنطق والفلك والحساب وغيرها... وله في الفلك وعلم الاصطرلاب جولات وجولات. بل إن له في علم التعمية ـ الشفرة ـ مشاركة لا يعلمها كثير من الناس، وعندما كنا نهيئ لإخراج الجزء الأول من كتابنا (علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب ـ الشفرة وكسرها) راعني أن شيخنا يعلم الكثير عن هذا العلم ـ أعني التعمية ـ وتضم مكتبته العامرة رسائل مهمة فيه وعدني بالاطلاع على بعضها، وحالت حوائل المرض والبعد دون ذلك.

والشيخ إلى هذا وذاك أديب قد امتلك ناصية البيان، وخطيب مصقع ذرب اللسان، دانت له المنابر والمحافل في كل زمان ومكان، وشاعر مفلِق مطبوع يرقى شعره إلى مصاف الشعراء الفحول، ولا غرو فحبّ العربية عنده من الدين، وتعلمها وتعليمها لا يقل في نظره أهمية عن تعليم أي فن من فنون الشرع الحنيف إن لم تكن هي الأهم والأولى، لأنه كان يؤمن أنها الوسيلة التي لابد منها لتعلم علوم الشرع المختلفة، ومن فقدها فلا خير فيه ولا علم عنده ولا نفع يرتجى منه.

من أجل هذا ما أعطاها الشيخ رحمه الله وكده، ومنحها ذوب نفسه، فكان حفياً بها، محباً لها، كلفاً بدروسها، مفتنّاً في تعليمها على اختلاف فنونها. وله في ذلك مأثورات لا يتسع المجال لسردها في هذه العجالة.

وقد بلغ من حبِّه للغة، وشغفه بأصولها وفقهها، أن نسخ مخطوط سر صناعة الإعراب لابن جني في الخمسينيات من القرن الماضي، أي: قبل أن يفكر أحد في تحقيق هذا السفر العظيم، وكان يعتزم تحقيقه مع شيخنا الأستاذ أحمد راتب النفاخ رحمه الله لكن صارفاً صرفه كما حدثني أستاذنا النفاخ رحمه الله وغفر له.

ومن آيات عنايته بهذا الفن من اللغة ـ أعني فقهها وأصول نحوها ـ أنه توفر على تدريسه في معهد الفتح الإسلامي لطلاب السنوات الأخيرة طول عمره، لم يدع أحداً يشركه في ذلك حتى وافته المنية، وكانت له عناية خاصة بالكتاب الذي قرره لهذه المادة وهو الاقتراح في أصول النحو للسيوطي حتى إنه وضع شرحاً له سماه" الإفصاح شرح كتاب الاقتراح" مازلت أتطلع إلى إخراجه وأحثّ أبناءه على ذلك، ولا سيما أني تشرفت بتدريس هذا الكتاب في المعهد نفسه لمدة تزيد على عشر سنوات (١٩٨٧ ـ ١٩٩٩).

وإن أنسَ لا أنسَ مجلساً أدبياً أسبوعياً خصني الشيخ به مع ابنه الحبيب الشيخ الدكتور حسام الدين، قرأنا فيه على الشيخ فصولاً من كتاب الكامل للمبرّد وكتاب العمدة لابن رشيق القيرواني في بيته العامر بحي مسجد الأقصاب بدمشق الشام، فكنا نختلس من يد الدهر ساعات عشنا بها زمناً رغداً ما جاد الزمان بمثلها، نجتني من أدب الشيخ، وتقطف من جناه، ونحلّق في سماه، ونرتع في رياضه، ونحظى بدرره وبدائعه.

من ذلك مثلاً ـ والأمثلة كثيرة لا تحصى ـ أنه صحّح لنا بيت المتنبي المشهور:

وقيّـدْتُ نفسـي في ذراكَ محبّـةً ... ومَنْ وجدَ الإحسانَ قيداً تقيّدا

فقال ذَراك بالفتح لا بالضم خلافاً للشائع على ألسنة الكثيرين، لأن الذَرا هو الكَنَف. ولئن صدق هذا البيت في أحد ممن نعرف ليصدقَنَّ في شيخنا رحمه الله؛ فقد قيّدَنا بإحسانه، وأسرنا بمحبته، وأفنانا بجليل علمه وأدبه.

وكان حفيّاً بنا، يرعانا ويتفقّدنا، ويتخوّلنا بالموعظة في مسجد السادات، ويخصّنا بجلسات في غرفة الأذان، وبزيارات لبيت والدي رحمه الله وأحسن إليه. أذكر أنه زارنا في العيد

مرة وبصحبته ابنه الشيخ حسام، ولما قدّمت له الضيافة لاحظ أني زدت له في صحنه من أقراص المعمول عن القدر المعتاد، فما كان منه إلا أن زاد قرصاً آخر وهو يقول: زد يابا زد هذا لا يكفي، فضحكنا جميعاً.

وكنت مرة في زيارته عام ١٩٧٨ مع بعض الصحب والإخوة فأشار إليَّ قائلاً: تعال يا حجّي فاعترض أحد الصحب موضحاً بأنني لم أحجّ بعد، فابتدره الشيخ قائلاً إن من أساليب العربية في المجاز أن تطلق على الشيء اسم ما سيؤول إليه، كقوله تعالى: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ مع أنّه يعصر العنب الذي سيؤول إلى الخمر، وإن الشيخ دعاني بالحجي تفاؤلاً بأني سأحج إن شاء الله تعالى، فوالذي نفسي بيده لقد حججت في ذلك العام نفسه، وأنا أبعد ما أكون عن الاستعداد للحج أو التفكير به، فسبحان من ألهم شيخنا الصواب، وأجرى على لسانه حسن الجواب.

ولما علم أني مسافر إلى تركيا عام ١٩٨١ شرفني بتكليفي بشراء كتاب (حاشية شيخي زاده على تفسير البيضاوي) مع أن مكتبته عامرة بمختلف التفاسير، ولكنه طلب العلم الذي امتدّ من المهد إلى اللحد، وفرحت بهذا التكليف، وكان شراء الحاشية من أولى المهام التي أنجزتها في اصطنبول، وعدت بالمجلدات الأربعة، ليردّ لي الشيخ كل قرش دفعته ثمناً للحاشية، ولم تجدِ محاولاتي في صرفه عن ذلك.

وكان آخر مانعمت به من صحبة الشيخ ـ أجزل الله عطاءه ـ مجلس الأربعاء الذي كان ينعقد في بيته بعد العشاء، ويؤمّه نخبة من أهل العلم، يقدُمهم شيخان جليلان يكتنفان شيخنا الجليل، هما الشيخ عبد الرحمن الشاغوري رحمه الله وأسبغ عليه رضوانه، والعلامة الشيخ أديب الكلاس عافاه الله وأمتع به، ويُستهلُّ المجلس بآيات كريمات من كتاب الله عزوجل يرتلها ابن شيخنا الأصغر الشيخ شهاب الفرفور، ثم يبدأ الدرس وهو يشتمل على كتابين نفيسين الأول شرح الحكم العطائية، والثاني نوادر الأصول للحكيم الترمذي، يقرأ الشيخ أديب ويعلّق شيخنا الجليل، ويشارك الشيخ الشاغوري بنشر بعض الفوائد والحكم وإنشاد بعض الأشعار

والآثار، حتى إذا ما انتهى الدرس تشنفت الأسماع ببعض الأناشيد التي كان لي شرف المشاركة فيها مع شيخنا الشيخ حسام وأخينا الشيخ شهاب، ولابد بعد ذلك كله من القِرى، وأيُّ قرى أطيب من قِرى شيخنا، إنه قِرى ابن جعفر الذي قال في حقه الشمّاخ:

إنـك يـا ابـن جعفـرٍ خير فتـىً ... وخيرهـم لطـارقٍ إذا أتـى

وربَّ نِضـوٍ طـرق الحـيَّ سُـرى ... صـادف زاداً وحـديثاً مـا اشتهى

إن الحديث جانب من القِرى

ولعل خير ما أختم به هذه الكلمة أبيات نظمها شيخنا الشيخ شعيب في وداع شيخه الشيخ صالح عندما ذهب إلى الحج في أواخر الخمسينيات، وهي تحكي لسان حالنا جميعاً عندما فارقَنا الشيخ ملتحقاً بالرفيق الأعلى (عام ١٩٨٦) يقول فيها:

يـا راحلـين إلى ربـا عرفـاتِ ... مستمطرين سحائب الرحماتِ

مهـلاً فجلّـقُ أصبحت مبهوتـةً ... مـذ بنـتمُ يـا خيرة السـاداتِ

والمسجد المحزون بات لفقـدكم ... قيـدَ الجـوانح واكـفَ العـبراتِ

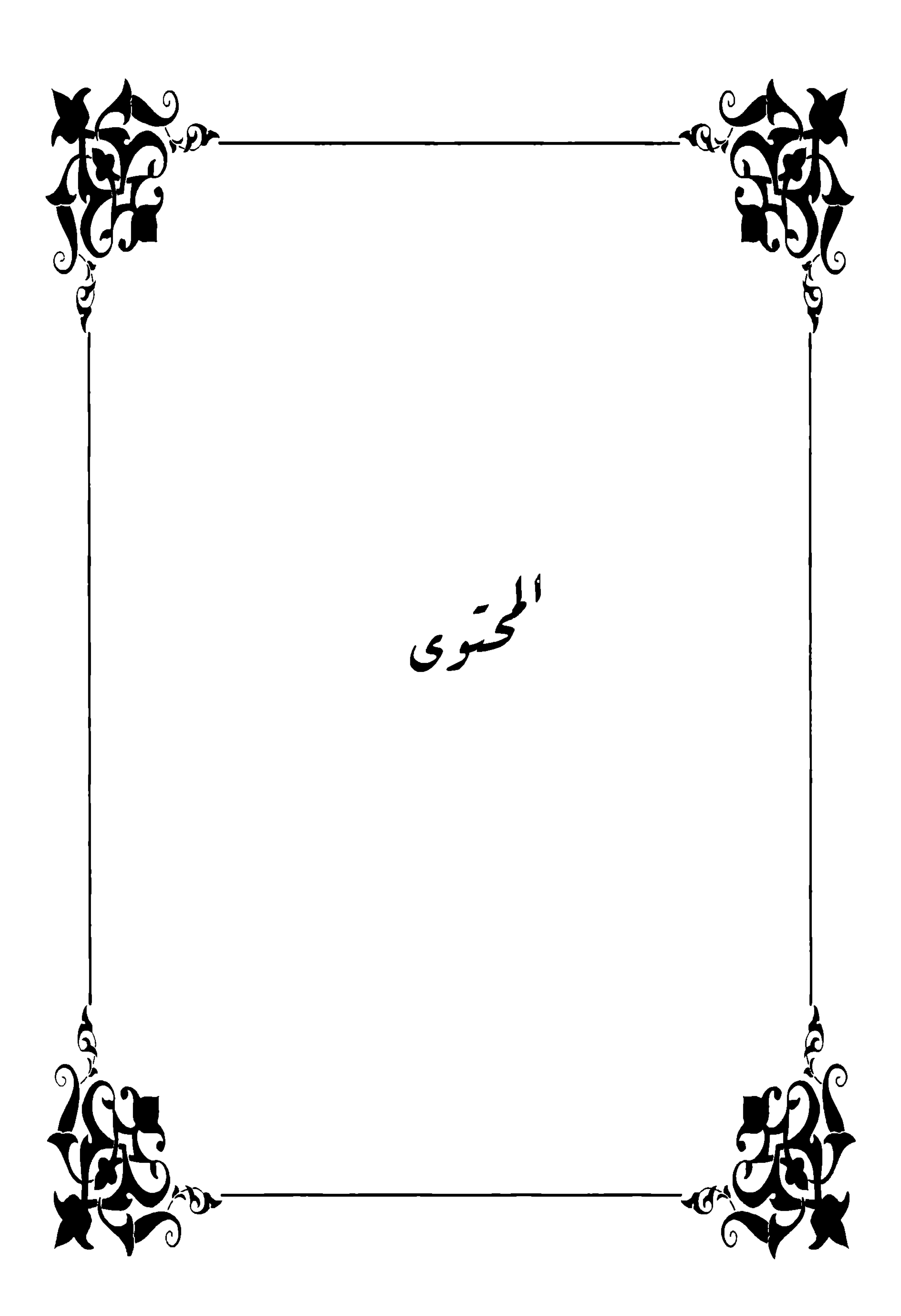
وأصابَ قلبي لوعـةٌ إذ قيل لـي ... أزفَ الرحيـل لمـوطن الرحمـاتِ

مـا كنت قبل اليـوم أعلـم أنـه ... شـطُّ الحبائـب أفـدح النكبـاتِ

مهـلاً نـودع سـيداً ذا منصـب ... كانـت محافلنـا بـه نَضِـراتِ

رحمك الله ياشيخنا الجليل، وأسبغ عليك رضوانه، وأعلى في الجنان مقامك، وجزاك عنا خير ما جزى عالماً عن تلامذته، ومصلحاً عن أمته، وراعياً عن صحبته. إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

الكويت ٢٠٠٦/٧/١ د. محمد حسان الطيان



المحتوى

المحتوى

العنوان	الصحيفة
الإهداء	٤
توطئة	٥
رسالة يعقوب الكندي في اللثغة (النص المحقق)	١١
منهجية تحقيق المخطوطات	٢٥
المؤتمر الثاني حول اللغويات الحسابية العربية	٣٧
تعريب العلوم التطبيقية خطوة لتوطين العلوم	٤٥
ندوة التراث العلمي العربي في العلوم الأساسية	٧٧
الدر النثير في شرح التيسير للمالقي (٧٠٥هـ)	٨٧
دفاع عن كتاب التيسير للداني	١٠٩
علم الأصوات عند العرب	١٢٥
مقاصد الفصول المترجِمة عن حلِّ الترجَمة	١٥١
رسالة يعقوب الكندي في اللثغة (بحث)	١٦٧
الشيخ شعيب الأرنؤوط عقلٌ حرّ.. وعطاءٌ مستمرّ	١٨٣
القراءات القرآنية وعلاقتها بالأصوات واللهجات	١٨٩
إحياء العروض	٢٢٧
تعلّم قواعد اللغة العربية بالحاسوب	٢٣٩
محمود شاكر.. آخر العمالقة	٢٤٥
فلنحمل راية التعريب	٢٦١
عبد الواحد المالَقي... شارح التيسير	٢٦٧
كلمة تكريم الأستاذ الدكتور شاكر الفحام	٢٩٣

العنوان	الصحيفة
ما بني من الأفعال على حرف واحد	٣٠١
وقفة عروضية مع كاظمة.. وأخواتها	٣١٣
مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي	٣١٩
النفّاخ في ذكراه العاشرة	٣٣٣
ذات القوافي قصيدة لابن الدريهم (٧٦٢هـ)	٣٤٧
العربية بين ماض زاهر.. وحاضر عاثر	٣٦٣
رمزي دمشقية... وصناعة الأخُوَّة	٣٦٩
تقديم لكتاب كنز المترادفات	٣٧٥
الشاعر الأميري... وكلمة (بابا)	٣٧٩
عبد الحميد البسيوني.. رجلٌ ملأ العلمُ إهابَه	٣٨٩
اكتشاف مخطوطات التعمية والجهود المبذولة فيها	٣٩٥
العربية لغة العلم	٤٢٣
الشيخ صالح الفرفور...العالم العامل	٤٣٥
المحتوى	٤٤٣



الدكتور محمد حسّان الطيّان

- دكتوراه في علوم اللغة العربيّة بمرتبة شرف - جامعة دمشق ١٩٩٤.
- سوري من مواليد دمشق ١٩٥٥ متزوّج وله أربعة أولاد.
- عضو مراسل بمجمّع اللغة العربيّة بدمشق.
- أستاذ مساعد في الجامعة العربيّة المفتوحة بالكويت ورئيس مقرّرات اللغة العربيّة فيها.
عمل في مركز الدّراسات والبحوث العلميّة أكثر من عشرين عامًا
- درّس العربيّة وعلومها في: جامعة دمشق، وجامعة الأزهر (فرع معهد الفتح الإسلامي بدمشق)، وجامعة الكويت، والجامعة العربيّة المفتوحة، وجامعة الخليج، والمعهد العالي للعلوم التّطبيقيّة والتّكنولوجيا، ومعهد الفتح الإسلامي
- شارك وحاضر في مؤتمرات عربيّة وعالميّة.
- نشر الكثير من المقالات في مجلّات دوريّة ومحكمة.
- شارك في إنجاز عدّة مشاريع علميّة في مجال اللغة العربيّة والحاسوب.
- صدر له (منفردًا أو بالمشاركة) نحو من خمسة عشر كتابًا منها:

-علم التّعمية واستخراج المعمّى عند العرب (دراسة وتحقيق) جزءان
- كيف تغدو فصيحًا عفّ اللسان
- الدرّ النّثير والعذب النّمير في شرح كتاب التيسير للمالقي (دراسة وتحقيق) ٣ أجزاء



للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق _ سورية _ ص.ب: ٨٢٣٥
هاتف: ٤٦٣٧١٢٣١ _ ٤٦١٤٠٨٦ _ ٤٦٣٧١٢٣٢ ١١ ٩٦٣+
فاكس: ٤٦٣٧١٢٣٠ ١١ ٩٦٣+
WWW.thakafawaturath.com